قصة بلا نهاية

تأليف: ميشائيل إنده

ترجمة: د. باهر الجوهرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

قصة بلا نهاية

قصة بلا نهاية

تأليف
ميشائيل إنده

ترجمة وتقديم
دكتور باهر محمد الجوهري



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية : فتحى احمد

الإخراج الفنى : عفاف توفيق

من يأتى إلى « فانتازين » يحصل من « الامبراطورة الطفولية » على ميدالية هى علامة النفوذ بلا حدود : « افعل ما تريد » هذا هو المكتوب عليها ولكن باستيان فسر معناها فى بادىء الأمر على أنها تعنى : « افعل ما يروق لك » ولذلك ازداد توغله على الدوام فى دوامة لا كابح لها من الخيال الذى يؤدى إلى النسيان ، وإلى أن اتضح له أن هذا الشعار يمكن أن يعنى : إفعل ما يدفعك إليه ما بداخلك ، افعل إرادتك الحقيقية . وبدون صديقه أتريو لما وجد الطريق إلى خارج تلك البلاد التى لا حدود لها .

« هناك أناس لا يستطيعون أبداً المجىء إلى فانتازين ، وهناك أناس يستطيعون ، ولكنهم يمكثون هناك إلى الأبد . ثم هناك البعض الذين يذهبون إلى فانتازين ثم يعودون ثانية . مثلك ياباستيان ، وهؤلاء يصلحون كلا العالمين . »

ميشائيل إنْدِه
حياته وأعماله

ولـد فى ١٢ نوفمبـر ١٩٢٩ بمدينـة جارمش بـارتنكـرشن (جنـوب ألمـانيـا الغربية) ، إبنا للفنان الرسام إدجار إنده ، الذى كان (١٩٠١ ـ ١٩٦٥) أحد أوائل الرسامين السيرياليين الألمان . وفى عـام ١٩٣١ انتقلت الأسرة إلى ميـونخ بازنج ، وفى عام ١٩٣٥ إلى ميونخ ـ شفابنج . ونشأ ميشائيل إنده فى وسطٍ من الفنانين الرسامين والنحاتين والأدباء وبين أبنائهم . وفى عام ١٩٣٦ التحق بالمدرسة الابتدائية ، وفى نفس العام أوقعت الغرفة الثقافية التابعة للرايخ الحظر على ممارسة أبيه لعمله الفنى ، ولكنه واصل عمله فى السّر دون أن يقيم معارض لأعمالـه . وتسعى الأم لتعلم مهنة الرياضة العلاجية والتدليك لكى تكسب قوت أسرتها التى كانت تمر بوقت عصيب . وفى عام ١٩٤١ أُستدعى والده للجيش ، وفى عام ١٩٤٣ أخليت مدارس مدينة ميونخ من الطلبة بسبب تزايد الغارات الجوية ، وأرسـل التلاميذ إلى مدارس أخرى بالأقاليم ، وهكذا عاد ميشائيل إنده إلى جارمش مرة أخرى . وفى عام ١٩٤٤ احترق مرسم الوالد فى ميونخ وبه حوالى ٥٠٠ لوحة ، ونُقلت الأم إلى أحد المساكن بأطراف المدينة . وفى السنة الأخيرة للحرب العالمية الثانية أُستدعى التلاميذ ذوى الأربعة عشر والخمسة عشـر من العمر إلى الجيش لمواجهة الدبابات الأمريكية . وفى اليوم الأول سقط ثلاثة من زملاء ميشائيل إنده فى الحرب .

وفى نهاية الحرب بقليل يعود الوالد من الأسر الأمريكى الى شفابنج مرة أخرى ويشترك مع فنان آخر فى فتح مرسم له ـ وفى عام ١٩٤٦ يعُاد فتح المدرسة الثانوية ولكن ميشائيل إنده لا يبقى بها إلا عاما واحـدا ، لحصولـه على عـون مادى من المعارف لاستكمال العامين الباقيين من دراسته فى مدينة شتوتجارت .

وقد بدأ ميشائيل إنده فى الكتابة منذ عام ١٩٤٣ ، وكانت فى أغلبها أشعارا وقصصا قصيرة وكانت رغبته أن يصبح كاتبا مسرحيا . وفى ذلك الوقت لم تكن لديه الامكانية المادية للدراسة بالجامعة . وفى عام ١٩٤٨ قام بـأداء اختبار للقبـول فى إحدى مدارس التمثيل بميونج واجتاز الإختبار وأنهى الدراسة عام ١٩٥٠ ، وبدأ التمثيل على مسرح اقليم شليزفيج ــ هو لشتاين بمدينة ريند زبورج ، ولكن أمنيته فى أن يصبح كاتبا مسرحيا دعته إلى العودة إلى ميونخ مرة أخرى ومعه مسـرحية كوميدية من تأليفه ولكن لم يقبلها منه أحد للأسف .

وفى ليلة رأس السنة من عام ١٩٥١ يتعرف ميشائيل إنده على من تزوجها فيما بعد وهى الممثلة انجبورج هوفمان ، وعن طريقها يقوم بعلاقات مع عديد من الفرق الصغيرة وكتب لها اسكتشات وأغان فردية ، وقام بالإخراج عدة مرات بالمسرح الشعبى لمدينة ميونخ (فولكستياتر) .

وابتداء من عام ١٩٥٤ عمل ناقدا للأفلام لدى اذاعة بافاريا ، ولكن أجره لم يكن كافيا لدفع إيجار مسكنه ومسكن والدته بعد أن انفصلت عن والده ، وازدادت الأحوال المادية سوءاً ومر بأزمة أدبية بسبب موقفه من كتابات بريشت عن نظريات الفن والمسرح . وقرر ميشائيل إنده أن يتوقف عن الكتابه ، فقد كان يريد أن يكتب شيئا مختلفا تماما عما يمليه جمود الأديب المسرحى الكبير . وطلب منه أحد معارفه ، وكان رساما ، أن يكتب له نصا لرسوماته لتصدر فى كتاب ، فنشأ عن ذلك مخطوط سميك : « جيم كنوبف ولوكاس سائق القاطرة » وكان ذلك عام ١٩٥٨ . وعلى مدى عامين ونصف كان يتلقى دائما ردا من دور النشر بالاعتذار عن قبولها للنشر بدعوى أنها لا تتوافق مع برامج الكتب التى تصدرها . وأخيرا وصل المخطوط إلى يد لوته فايتبريشت ، وكانت آنذاك تعمل مديرة لدار نشر تينمان ، وقبلت القصة وكان شرطها الوحيد هو اختصار المخطوط الكبير إلى أن يصبح مجلدين إثنين فقط . وصدر الجزء الأول عام ١٩٦٠ وحاز عام ١٩٦١ ــ عند صدور الجزء الثانى ــ على جائزة كتب الشباب الالمانية ، وقامت الإذاعة والتليفزيون باعداده فى مسلسلات . وتزايد الإقبال على الكتاب وترُجم الى عديد من اللغات .

ولهذا النجاح الأدبى والمادى ترك ميشائيل إنده عمله بالاذاعة وكرّس نفسه للكتابة للمسرح . وفى عام ١٩٦٧ أقيم أول عرض لمسرحيته التراجى ـ كوميدية « مفسدى اللعبة » فى مدينة فرانكفورت ، وكان الإخراج فاشلا ، وفشل العرض فشلا ذريعا ، ولذلك لم يجرؤ أى مسرح آخر على عرض المسرحية .

وفى عام ١٩٧٣ صدرت روايته الأسطورية « مومو » التى حصلت عام ١٩٧٤ على جائزة كتب الشباب الألمانية أيضا . وعمت شهرة الكتاب وترجم إلى عشرين لغة أجنبية . وفى عام ١٩٧٥ تعاون مع المؤلف الموسيقى مارك لوتار فى إعدادها إلى أوبرا « مومو ولصوص الزمن » ، وعرضت الأوبرا لأول مرة عام ١٩٧٨ فى كوبورج . وصدر له عام ١٩٧٦ « أسطورة المشعوذ » تمثيلية سحرية لمسرح العرائس والأقنعة .

وفى عام ١٩٧٧ سافر إلى اليابان وتأثر تأثراً بالغا بمسرح « كابوكى واللامسرح » . وفى نفس العام بدأ فى كتابه « قصة بلا نهاية » التى استغرقت عامين وصدرت فى خريف ١٩٧٩ .

وقد صدرت الأعمال التالية لميشائيل إنده : « ترانكيلا ترامبلتروى السلحفاء المثابرة ، وقراقوز الهلاهيل » ، و« ليروم لاروم فيلى فاروم » ، « وآكل الأحلام الصغير » . وتحت التأليف كتاب : « يور أو المرآة فى المرآة » ، سلسلة من القصص السيريالية .

(دكتور باهر محمد الجوهرى ـ بوخوم ، المانيا الغربية ، خريف عام ١٩٨٣)

المترجم

الدكتور باهر محمد الجوهرى أستاذ الأدب الألمانى المساعد بكلية الألسن جامعة عين شمس . أتم دراسته الجامعية بالقاهرة ، والدراسات العليا فى ميونخ والدكتوراة فى الأدب المانى من جامعة فينا . وهو حاليا منتدب كملحق ثقافى لسفارة جمهورية مصر العربية فى المانيا الاتحادية .

عمل محاضرا وأستاذا زائراً فى جامعات زالسبورج وفينا بالنمسا . وجامعات بون والرور بمدينة بوخوم بالمانيا الغربية ، كما عمل بالترجمة الفورية بالمؤتمرات الدولية داخل مصر وخارجها .

من مؤلفاته باللغة الألمانية :

- يوسف فون همر بورجشتال ، شاعر وناقل أمين لحضارة وأدب الشرق إلى الغرب ، شتو تجارت ١٩٧٩
- مراحل تطور الفن القصصى لدى بربارا فريشموت ، القاهرة ١٩٨٢
- فضل همر بورجشتال فى استقبال دنيا الاسلام فى الغرب ، القاهرة ١٩٨٢
- ميراث الأساطير الشرقية من « الف ليلة وليلة » فى الأدب الألمانى،جوتنجن ١٩٨٥ .

ومن ترجماته العربية من اللغة الألمانية :

- الجدة الأولى ، للأديب النمساوى فرانس جريلبارتسر ، الكويت ١٩٨٢
- سابفو ، للأديب النمساوى فرانس جريلبارتسر أيضا ، الكويت ١٩٨٣ .

مقدمة

ما أحوجنا اليوم إلى دنيا الخيال لكى نصلح بها عالم الواقع . فما أكثر مادية الحياة التى تغمرنا فتلهينا وتنسينا ما بنا من جوهر الروح وشفافية النفس . وكلما توغلنا فى معترك الحياة سعيا وراء رزق يلوح لنا من بعيد أو قريب ، فيغرينا بمزيد من السعى والجرى والدأب الحثيث ، كلما تعرضنا للاندفاع والانجراف وراء تيار المادة ، فنطلب المزيد والمزيد ، رغم ما يمكن أن يكون لدينا بما يكفينا ، فنقتحم الصعاب ونُقبل على الصراع ، ومع زيادة المغريات يعلو صوت النفس الأمّارة بالسّوء الى أن يصل إلى الصراخ المدوى ، فترى الجميل قبيحا ، والخير شرا ، والصديق عدوا ، فتحاول أن تزيل من الطريق كل ما بدا معيقا لها ، وإن كان مخلصا نصوحا .

وما التأمل والتدبر إلا سياحة بالفكر فى دنيا الخيال ، نعود منها وقد انتعشت النفس مما شاهدته فى تلك الدنيا ، ورأته من تصور أجمل لعالم الواقع ، فيزداد الأمل أو ينشأ من جديد ، وتنبعث فى النفس قوة تواجه الواقع بأمل الخيال ، فتتحول بالسعى مشاريع التأمل إلى واقع أجمل وأصلح .

وما المصلحون والمفكرون بل والمخترعون إلا بشرا لديهم القدرة الأكبر على التخيل والتصور ، فمن أجل تطوير وتغيير واقع الحياة استطاعوا أن يعلوا بأفكارهم الى قمم أسمى ليتمكنوا من رؤية أوضح وأشمل للعالم المادى الملموس ، دون أن يضلوا فى التفاصيل والصغائر ، وبعدها لابد أن يعودوا إلى عالم الواقع لكى يطبقوا ما شاهدوه فى تصورهم وما تعلموه من تأملهم ، وإلا أصبح سموّهم

تساميا ، وعلوهم تعاليا وتكبرا على ما هم وعالمهم عليه ، وإلا تحولت السياحة الوقتية هياما أزليا لا طائل منه ، وتصورهم خيالا بلا جذور ولا أصول صالحة بأرض الواقع . بل ويمكن أن يتحول هذا الخيال إلى سلاح ينقلب نصله إلى حامله فيسعى إلى دماره ، وهو ما زال غارقا فى خياله الذى أصبح وهما ، يصوّر له أمورا منها ما يصيبه بالغرور وطعناته النفاذة إلى قلب حامله متوهما أنه يصيب به الغير ؛ ومنها ما يصيبه بالتسلط والتحكم بلا سبب ولا وازع حقيقى ، فيفقد الصديق المخلص ، الذى يسعى لإطلاقه واعادته إلى صواب الحقيقة ، فلا يجد إلا الشك والتعالى ؛ وإذا ما وصل المرء إلى هذه الدرجة من تحكم الوهم والخيال منه ، هيهات له هيهات أن يرجع ، فالطريق الذى قطعه يكون بعيدا ورجوعه يستلزم قوة أشد ، هى قوة الرؤية الحقيقية واعتراف بالواقع والسير معه لا عليه .

هذه الأفكار تطرأ على الذهن عند قراءة « قصة بلا نهاية » أو « قصة لا تنتهى » التى كتبها الأديب الألمانى المعاصر ميشائيل إنْده . والأديب لا يقُحم على القارىء هذه الأفكار بتصريح الواعظ أو بتعاليم المعلم ، ولكن تارة بالرمز الخفى ، وتارة بالتلميح الخفيف ، بل وأحيانا بكلمة عابرة فى حوار ، تدفع للتأمل والتدبر ، ومحاولة قراءة ما بين السطور .

وقد وضع الأديب أحداث الرواية فى قالب أسطورى يتيح له وضع الرموز التى توضح رغم رمزيتها معالم الحياة ومواقفها . وأحداث الرواية تدور بين عالمين ، عالم الواقع ، ودنيا الخيال ، وأثناء سردها تضع مرآة أمام النفس البشرية ، فتظهرها فى ضعفها وخنوعها ، وفى جاهها وسلطانها ونفوذها ، وما يعتريها من مشاعر وما يصدر عنها من سلوك تجاه الصديق وغير الصديق ، وما يحدث بداخلها من تغيير يصل إلى القمة والسفح ، القمة فى الغرور ، والسفح فى الخنوع .

والرواية ترمز إلى طريق الحياة بأفراحه وأتراحه ؛ بإستقامته والتوائه ، بمشاقه وبهجاته ، إنها مرآة رمزية خيالية وواقعية فى نفس الوقت ، تنعكس فيها حياة البشر فى سرد مشوّق يصل فى حبكته ودرجة تشويقه إلى ما تحدثه الرواية البوليسية من تأثير .

قصة بلا نهاية

تأليف

ميشائيل إنده

ترجمة وتقديم

الدكتور باهر محمد الجوهري

هذه الكتابة كانت على الباب الزجاجى لدكان صغير ، ولكنها بالطبع لم تكن تبدو هكذا إلا عندما كان يُنظر إلى الشارع من خلال اللوح الزجاجى من داخل الغرفة المعتمة .

وفى الخارج كان صباح يوم بارد مغيم من أيام نوفمبر ، وكان المطر ينهمر مدرارا ، والقطرات تجرى من أعلى الزجاج إلى أسفله مارة بالأحرف المزخرفة . وكل ما كان يمكن رؤيته من خلال اللوح الزجاجى ، كان سورا قد لطخته الأمطار على الجانب الآخر من الشارع .

وفجأة فُتح الباب بشدة لدرجة أن عنقودا صغيرا من الأجراس النحاسية الصفراء الصغيرة والذى كان متدليا فوقه ، أخذ يرن رنينا مضطربا ، ولم يتمكن من العودة إلى الهدوء لفترة طويلة .

وكان سبب هذا الضجيج صبى صغير سمين ربما بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر . وكان شعره البنى الغامق يتدلى مبللا على وجهه ، وقد تخلل المطر معطفه فجعله لينا يقطر منه الماء ، وكان يحمل حقيبة مدرسية مثبتة على كتفه بسير جلدى . وكان شاحب الوجه قليلا ومتقطع الأنفاس ، ولكنه على العكس تماماً من العجلة التى كان ما زال عليها منذ برهة ، فقد وقف حينئذ كالمتسمر بالباب المفتوح .

وامتدت أمامه غرفة طويلة ضيقة ، تضيع معالمها فى الناحية الخلفية فى الضوء المعتم . وعلى الجدران كانت أرفف تصل إلى أسفل السقف وقد تكدست بكتب بجميع الأشكال والأحجام . وعلى الأرض تجمعت كومة من الكتب الضخمة ، وعلى بعض المناضد تكومت جبال من الكتب الصغيرة المجلدة والتى كانت جوانبها تلمع بلون ذهبى . وخلف سور من الكتب يبلغ طوله طول أحد الرجال ، والذى كان يرتفع عند الطرف المقابل من الغرفة ، كان يُرى ضوء مصباح . وفى شعاع الضوء هذا كانت تتصاعد بين الحين والآخر حلقات من الدخان يتزايد حجمها ، ثم تتلاشى عاليا فى الظلام ، وكانت تبدو مثل الإشارات التى يرسل بها الهنود الأنباء من جبل إلى جبل . وعلى ما يبدو كان يجلس هناك شخص ما ، وفعلا سمع الصبى حينئذ من وراء حائط الكتب صوتا فظا نوعا يقول :

« فلتتعجب بالداخل أو بالخارج ، ولكن اقفل الباب . فهناك تيار هواء . » فأطاع الصبى وأغلق الباب بصوت خافت ، ثم اقترب من حائط الكتب ونظر بحذر حول الركن . وهناك كان يجلس رجل ثقيل الوزن مربّع الجسم على مقعد عالٍ ذى مسندين للرأس يصلا إلى الأذنين مصنوع من جلدٍ قد لمع من الاستهلاك . وكان يرتدى بدلة مكرمشة سوداء ، تبدو متهالكة ومتربة بشكل ما ، وبطنه ملمومة بصديرى منقوش بالزهور . وكان للرجل صلعة ، فقط فوق كل أذن من أذنيه شوشة من الشعر الأبيض تقف إلى أعلى . وكان وجهه أحمر اللون ويذكّر بوجه كلب شرس أفطس من سلالة (البولدوج) . وفوق أنفه الغليظ كهيئة البطاطا كانت تقبع نظارة ذهبية صغيرة . وخلاف ذلك فقد كان الرجل يدخن غليونا منحنيا يتدلى من زاوية فمه ، وهذا ما سبب امتطاط الفم كله بميل . وعلى ركبتيه كان يمسك بكتاب ، وعلى ما يبدو أنه كان يقرأ فيه فى تلك اللحظة ، لأنه عند غلقه ترك السبابة السمينة ليده اليسرى بين الصفحات ـ كعلامة للقراءة ، تقريباً .

وبعدئذ خلع نظارته بيده اليمنى ، وتفحص الصبى الصغير السمين الواقف أمامه والذى تقطر منه الماء ، بينما هو يضيّق من عينيه ، وذلك ما أزاد أكثر من انطباع الشراسة لديه ، ثم تمتم قائلا فقط : «يا لطيف يا رب» . ثم فتح كتابه ثانيةً واستمر فى القراءة

ولم يعرف الصبى بحق ما ينبغى عليه فعله . ولذلك ظل واقفا ببساطة ناظرا إلى الرجل بعينين مشدوهتين . وأخيرا صفق الرجل الكتاب مغلقا له مرة أخرى ــ مثلما سبق ، وأصبعه بين صفحاته ــ وقال متبرما : «اسمع يا بنى ، أنا لا أستطيع أن أطيق الأطفال . صحيح أن موضة هذه الأيام الافتعال الهائل المصطنع معكم ــ ولكننى لا أفعل ذلك . فأنا قلبا وقالبا لست صديقا للأطفال . فالأطفال بالنسبة لى ليسوا سوى حلوق بلهاء تصرخ ، ومخلوقات ثقلاء مزعجة ، تحطم كل شىء ، وتلوث الكتب تماما بالمربى وتمزق الصفحات ولا يعبأون بالمرة عما إذا كان من الجائز أن للكبار همومهم ومشاغلهم أيضا . اننى أقول لك ذلك لكى تعرف الآن أين أنت . وفوق ذلك فليس عندى كتبا للأطفال . ولن أبيع لك كتبا أخرى

وهكذا أتعشم أن نكون قد فهمنا بعضنا الآخر» .

كل هذا قاله دون أن يأخذ الغليون من فمه . ثم فتح الكتاب ثانية وواصل قراءته . فهز الصبى رأسه بصمت ، واتجه للانصراف ، ولكن بدا له بشكل ما أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الكلام دون اعتراض ، ولذلك التفت مرة أخرى وقال بصوت خافت : «ولكن الجميع ليسوا هكذا» .

فرفع الرجل بصره وخلع نظارته مرة أخرى . «أمازلت موجودا هنا ؟ ماذا يجب أن يفعل الإنسان بحق لكى يتخلص من شخص مثلك ، أتستطيع أن تبيح لى بذلك ؟ أى أمر فى منتهى الأهمية كنت تريد أن تقوله منذ برهة ؟» .

فأجاب الصبى بصوت أكثر انخفاضا : «لا شىء هام ، كنت أريد أن أقول فقط ــ ليس كل الأطفال هكذا ، كما تقول» .

ورفع الرجل حاجبيه عاليا متصنعا الدهشة قائلا : «هكذا . اذن ربما تكون أنت نفسك الاستثناء العظيم ، أليس كذلك ؟» .

ولم يعرف الصبى السمين بم يجيب . وهز أكتافه قليلا فقط واتجه مرة أخرى للانصراف .

وسمع من خلفه الصوت المتبرم يقول : «والسلوك الحسن ، السلوك الحسن

ليس عندك منه ما يساوى خمسه فنكات[1] ؟ ، وإلا كنت قدمت نفسك على الأقل فى بادىء الأمر » .

فقال الصبى : «اسمى باستيان ، باستيان بلتازار بوكس» .

فدمدم الرجل قائلا : «اسم غريب نوعا ، بحروف الباء الثلاثة هذه . لا بأس . ليس لك يد فى ذلك ، فأنت لم تمنحه لنفسك . أنا اسمى كارل كونراد كوريآندر» .

فقال الصبى جاداً : « هذه ثلاثة أحرف ك »

فدمدم اعجوز قائلا : « هِمْ ، صحيح ! »

ونفخ بعض سحيبات من الدخان قائلا : « لا بأس ، فالأمر أيضاً لا يهم بالمرة كيف تُدعى ، لأننا لن نلتقى مرة أخرى . والآن أود أن أعرف شيئا واحدا فقط ، ألا وهو لأى سبب اقتحمتَ دكانى منذ قليل بمثل هذا التسرع . لقد أعطى هذا انطباعا تاما كما لو كنت هاربا . أليس كذلك ؟» .

فهز باستيان رأسه بالإيجاب ووجهه المستدير أحدث تأثيرا مفاجئا بشحوبة أكثر قليلا عن ذى قبل وعينين أكثر اتساعا .

فقال السيد كورياندر مُرجّحاً : «من المحتمل أن تكون قد سرقت خزينة أحد الدكاكين أو قتلت امرأة عجوز ، أو ما يفعله أمثالكم فى هذه الأيام . هل الشرطة من ورائك . يابُنى ؟» فهز باستيان رأسه بالنفى .

فقال السيد كورياندر : «انطق ، ممن كنت تهرب ؟» .

— «من الآخرين» .

— «من أى آخرين ؟» .

— «من أطفال فصلى» .

— «لماذا ؟» .

— «انهم . . انهم لا يتركوننى أبدا فى سلام» .

(١) فنك أو بفنك : عملة المانية صغيرة تعادل المليم تقريبا ، والمارك الألمانى مائة بفنك .

ــ «ماذا يفعلون اذن ؟» .

ــ «إنهم يترقبونى أمام المدرسة» .

ــ «ثم ماذا ؟» .

ــ «ثم يصرخون بأشياء بصوت عال . ويصطدمون بى من جميع الاتجاهات ويضحكون علىّ» .

ــ «وأنت ترضى بذلك بهذه البساطة ؟» .

وتفقد السيد كورياندر الصبى فترة بعدم رضى ، ثم سأل : «لماذا لا تعطيهم ببساطة ضربة على أنوفهم ؟» .

فنظر باستيان إليه بدهشة وقال : «لا ــ لا أحب ذلك . وخلاف ذلك ــ أنا لا أستطيع الملاكمة جيدا» .

فقال السيد كورياندر راغبا فى المعرفة : «وماذا عن المصارعة ؟ ، والجرى والسباحة وكرة القدم ، وألعاب القوى ؟ أفلا تتقن شيئا منها على الإطلاق ؟» .

وهز الصبى رأسه بالنفى .

فقال السيد كورياندر : «بمعنى آخر ، أنت شخص ضعيف ، أليس كذلك ؟» .

فهز باستيان أكتافه .

فقال السيد كورياندر : «ولكنك تستطيع أن تتكلم على الأقل ، لماذا لا ترد عليهم عندما يتهكمون عليك ؟» .

ــ «لقد فعلت هذا مرة . .» .

ــ «ثم ماذا ؟» .

ــ «فألقوا بى فى صندوق الزبالة وربطوا غطاءه ، وظللت أصيح ساعتين إلى أن سمعنى شخص ما» .

فدمدم السيد كورياندر قائلا : «هِمْ ، والآن لم تعد تجرؤ» .

فهز باستيان رأسه بالايجاب .

فقال السيد كورياندر مدركا : «إذن ، أنت خوّاف ، فوق ذلك» .

فأطرق باستيان رأسه .

ــ «ربما تكون طموحا بحق ، أليس كذلك ؟ أحسن الفصل بدرجات كلها جيد جدا ، حبيب المدرسين كلهم ، أليس كذلك ؟» .

فقال باستيان وما زال خافضا بصره إلى أسفل : «لا ، لقد رسبت فى السنة الدراسية الماضية» .

فصاح السيد كورياندر : «يا إله السماء ! اذن أنت فاشل على طول الخط» .

باستيان لم يقل شيئا . فقط وقف ببساطة هناك ، وأذرعه متدلية إلى أسفل ومعطفه يقطر ماء . وأراد السيد كورياندر أن يعرف المزيد فقال : «بم يصرخون ، عندما يتهكمون عليك ؟» .

ــ «آخ ــ بكل شىء ممكن» .

ــ «مثلا ؟» .

ــ «فامبو ! فامبو ! قاعد على البوتشامبو ! البوتشامبو ينكسر ، فيقول فامبو : لقد كان هذا لوزنى الثقيل» .

فقال السيد كورياندر : «ليس مضحكا للغاية ، وماذا أيضا ؟» .

فتردد باستيان قبل أن يقول معددا :

«مخرف ، عبيط ، فشار ، محتال . . . .» .

ــ «مخرف ؟ لماذا ؟» .

ــ «أنا أتكلم أحيانا مع نفسى» .

ــ «ماذا تتكلم على سبيل المثال ؟» .

ــ «اختلق لنفسى حكايات ، وأخترع أسماء وكلمات ، ليس لها وجود بعد ، وهكذا» .

ــ «وهذا تحكيه أنت لنفسك ؟ لماذا ؟» .

ــ «لست أدرى ، فليس هناك شخص يهمه مثل هذا الشىء» .

فصمت السيد كورياندر برهة مفكرا .

ــ «وما رأى والديك فى هذا ؟» .

ولم يجب باستيان على الفور ، ولم يقل متمتما إلا بعد برهة من الزمن : «أبى لا يقول شيئا . إنه لا يقول أبدا شيئا . فكل شىء بالنسبة له سيان» .

ـ « ووالدتك ؟ »
ـ « هى ـ لم تعد موجودة »
ـ « هل والداك مطلقان ؟ »
فقال باستيان : « لا ، إنها ميتة . . »

وفى هذه اللحظة رن جرس التليفون ، فرفع السيد كورياندر نفسه بشىء من العناء من مقعده ذى المساند وجرّ أقدامه بصوت مسموع إلى غرفته الصغيرة الواقعة خلف الدكان ورفع السماعة ، وسمع باستيان بغير وضوح كيف يذكر السيد كورياندر اسمه ثم انغلق باب الغرفة الصغيرة ، وحينئذ لم يكن ممكنا سماع أى شىء سوى همهمة مكتومة .

ووقف باستيان هناك لا يعرف بحق كيف حدث له هذا ، ولماذا قص كل ذلك واعترف به . فقد كان يكره أن يكون مضطربا على هذا النحو . وفجأة وقع فى فكره كوقع حرارة الغليان ، إنه سيذهب إلى المدرسة متأخرا كثيرا ، أجل ، أكيد ، كان عليه أن يسرع كان عليه أن يجرى ـ ولكنه ظل واقفا كما كان ولم يستطع أن يتخذ القرار . شىء ما كان يمسك به ، لم يدر ما هو .

وكان الصوت المكتوم ما زال يصل إلى مسامعه من الغرفة الصغيرة . لقد كانت محادثة تليفونية طويلة . لقد أدرك باستيان أنه كان طيلة الوقت يحملق فى الكتاب الذى كان السيد كورياندر ممسكا به من قبل بين يديه ، والموجود حاليا على المقعد الجلدى إنه ببساطة لم يستطع أن يصرف عينيه عنه . فقد شعر كما لو كان يخرج منه نوع من القوة المغناطيسية التى تجذبه بشكل لا يقاوم .

واقترب من المقعد ، ومد يده ببطء ، ولمس الكتاب ـ وفى نفس اللحظة أحدث شىء بداخله صوتا هكذا « كليك ! » كما لوكان فخ قد انغلق . وانتاب باستيان شعور غامض أنه بهذا التلامس قد بدأ شىء لا يمكن مقاومته وأنه من الآن سيتخذ مساره .

ورفع الكتاب عاليا وتطلع إليه من جميع الجوانب . الغلاف كان من الحرير بلون النحاس وكان يلمع كلما أداره هنا وهناك . وعند تصفحه السريع له رأى أن الكتابة كانت مطبوعة بلونين مختلفين . وبدا أنه لم تكن هناك صور ، ولكن كانت هناك حروف بداية كبيرة ورائعة الجمال . ولكنه عندما تطلع إلى الغلاف مرة أخرى بدقة أكبر ، اكتشف عليه ثعبانين ، واحد فاتح وواحد داكن اللون كل منهما يعض الآخر فى ذنبه ، ويكونان بذلك شكلا بيضاويا . وفى هذا الشكل البيضاوى كان عنوان مكتوب بحروف ملتوية بشكل غريب :

قِصَّةٌ بلا نِهايَة

إنه لأمر غامض ما يتعلق بالعواطف والأهواء الإنسانية ، وبالنسبة للأطفال فالأمر لا يختلف عنه لدى الكبار فهؤلاء الذين تنتابهم لا يستطيعون تفسيرها ، وهؤلاء الذين لم يعايشوا شيئا منها ، لا يستطيعون فهمها وإدراكها . فهناك أناس يخاطرون بحياتهم لكى يقهروا قمة من قمم الجبال . لا أحد ، ولا حتى هم أنفسهم ، يستطيع أن يشرح السبب . وآخرون يدمرون أنفسهم من أجل أن يغزوا قلب شخص معين لا يريد أن يعرف عنهم شيئا وهناك آخرون أيضا يحكمون على أنفسهم بالهلاك لأنهم لا يستطيعون مقاومة لذات المذاق ــ أو لذات قنينة الخمر . بعضهم يبذلون أموالهم وممتلكاتهم لكى يكسبوا فى لعبة الحظ والقمار ، أو يضحون بكل شيء لفكرة راسخة لن تستطيع أبدا أن تصبح حقيقة واقعة . والبعض يعتقدون أنهم لن يستطيعوا أن يكونوا سعداء إلا فى مكان آخر عما هم فيه ، فيرتحلون طيلة حياتهم خلال العالم . والبعض لا يجدون راحة قبل أن يصبحوا من ذوى السلطان ــ باختصار هناك كثير من العواطف والأهواء المختلفة مثل وجود أناس مختلفين .

وبالنسبة لباستيان بلتازار بوكس فقد كانت الكتب .

من لم يجلس أبدا فى أوقات العصر بطولها بأذنين متوهجتين وشعر أشعث إلى كتاب وراح يقرأ ويقرأ ونسى الدنيا من حوله ، ولم يعد يلاحظ أنه جوعان أو بردان ــ ومن لم يقرأ فى السر على ضوء أحد مصابيح الجيب تحت اللحاف ، لأن الأب أو

الأم أو أى شخص آخر يحمل همه قد أطفأ النور عليه بغرض يقصد الخير ، وهو أنه يجب على الإنسان أن ينام الآن لأنه ينبغى أن ينهض فى الصباح الباكر من الفراش — .

ومن لم يسكب أبدا دموعا مُرَّةً فى السر أو العلن لأن قصة رائعة قد انتهت واضطر الإنسان أن يفترق عن الشخصيات التى عايش بالمشاركة معها كثيرا من المغامرات التى أحبها وأعجب بها ، والتى خاف من أجلها وعقد الآمال لها ، والذين بدون عشرتهم بدت الحياة للإنسان خاوية وبلا معنى — .

من لم يعرف شيئا من كل ذلك من خبرته الشخصية ، حينئذ ، ربما لن يستطيع أن يفهم ما فعله باستيان وقتذاك .

فقد حملق فى عنوان الكتاب وشعر بالسخونة والبرودة على التوالى . هذا ، بالضبط هذا ما كان يحلم به كثيرا ، وما تمناه لنفسه ، منذ أن انتابته رغبته هذه : قصة لم تنته أبدا . كتاب كل الكتب .

وكان عليه أن يمتلك ذلك الكتاب مهما كلفه الأمر .

مهما تكلف ؟ لقد كان ذلك القول سهلا ! حتى وإن استطاع أن يقدم أكثر من الثلاثة ماركات والخمسة عشر فنكا وهو مصروف جيبه الذى كان يحمله معه — فإن السيد كورياندر غير اللطيف هذا كان قد أبان بشكل أكثر من الوضوح فقط ، أنه لن يبيع له كتابا واحدا . وهو لن يقدمه هدية له على الاطلاق . فالأمر كان مقطوع الرجاء .

وبالرغم من ذلك فقد كان باستيان يعرف أنه لن يستطيع الانصراف بدون الكتاب . واتضح له الآن أنه لم يأت إلى هناك على الاطلاق إلا من أجل هذا الكتاب ، لقد نادى عليه بطريقة سرية ، لأنه كان يريد الذهاب إليه ، ولأنه فى الحقيقة كان يخصه منذ الأزل .

وتصنت باستيان على الهمهمة التى كانت ما زالت مسموعة مثل ذى قبل .

وقبل أن يدرك من أمره شيئا ، أدخل الكتاب فجأة وبسرعة تامة أسفل معطفه وضغط عليه هناك بكلتا ذراعيه على جسمه . وبدون أن يحدث صوتا رجع بظهره

تجاه باب الدكان بينما ظل ناظرا بخوف إلى الباب الآخر المؤدى إلى الغرفة الصغيرة . وبحذر ضغط على السّقاطة ، وكان يريد أن يمنع الأجراس النحاسية الصفراء الصغيرة أن تحدث ضجيجا ، ولذلك فتح الباب الزجاجى فقط باتساع يمكنه بالكاد أن يندلف من خلاله . وأغلق الباب بهدوء وحرص من الخارج .

وعند ذلك فقط بدأ يجرى .

الكراريس والكتب المدرسية وعلبة الأقلام فى حقيبته كانت تتقافز وتقرقع على إيقاع خطواته . وانتابته وخزات فى جنبه ، ولكنه استمر يجرى . وجرى المطر فوق وجهه ، وفى الخلف إلى داخل ياقته . واقتحم البلل والرطوبة من خلال معطفه ، ولكن باستيان لم يشعر بها . فقد كان يشعر بالحرارة ، ولكن ليس فقط من الجرى .

ضميره الذى لم يتبرم من قبل فى دكان الكتب صحا الآن فجأة . وجميع الأسباب التى كانت مقنعة جدا ، بدت له فجأة غير معقولة تماما ، فقد ذابت كتماثيل الثلج فى أنفاس تنين يقذف النيران .

لقد سرق . كان لصا !

إن ما فعله كان أفظع حتى من سرقة عادية .

من المؤكد أن هذا الكتاب كان فريدا من نوعه ولا يمكن تعويضه ، ومن المؤكد أنه كان أعظم كنز لدى السيد كوزياندر . فسلب العازفِ آلة كمانه الفريدة من نوعها أو الملك تاجه ، كان شيئا مختلفا عن أخذ نقود من إحدى الخزائن .

وبينما كان يجرى على هذا النحو ، كان يضغط الكتاب تحت معطفه على جسمه . لم يكن يريد أن يفقده مهما كان سيكلفه هذا من ثمن غالٍ . فقد كان هو كل شىء ما زال يمتلكه فى هذه الدنيا .

لأنه بالطبع لم يكن بعد يستطيع الذهاب إلى المنزل .

وحاول أن يتخيل أباه كيف كان يجلس فى الحجرة الكبيرة عندما يكون المعمل مُعدًّا ويشتغل . ومن حوله عشرات من قوالب الجبس لأطقم أسنان بشرية ، لأن الوالد كان عاملا فنيا فى صناعة الأسنان ولم يفكر باستيان أبداً من قبل عما إذا كان

الأب يؤدى هذا العمل حقا بسرور . لقد خطر له ذلك حينئذ لأول مرة ، ولكنه بعدئذ لن يستطيع أبدا أن يسأله عن هذا .

فإذا ذهب الآن إلى المنزل ، فسوف يأتى الأب فى معطفه الأبيض من المعمل ، وربما فى يده طقم أسنان من الجبس وسوف يسأله « هل رجعت ؟ » ــ فيقول باستيان :

«نعم» . ــ «ألا توجد مدرسة اليوم ؟» ــ ورأى الوجه الهادىء الحزين لابيه أمامه ، وعلم أنه من المستحيل أن يستطيع الكذب عليه . ولكن الحقيقة لن يستطيع أن يقولها له بالفعل . لا ، فالشىء الوحيد الذى أمكنه فعله كان أن يستمر فى السير ، إلى أى مكان ، بعيدا جدا . فالأب لا ينبغى أبدا أن يعرف أن ابنه أصبح لصا . وربما أنه لن يلاحظ حتى أن باستيان لم يعد هناك . وهذه الفكرة كان لها فضلا عن ذلك وقعا مواسيا له .

وكان باستيان قد توقف عن الجرى . ومشى الآن ببطء وشاهد مبنى المدرسة فى نهاية الشارع . وسار فى طريقه المعتاد إلى المدرسة ، دون أن يلاحظ ذلك . وبدا له الشارع خالٍ من الناس تماما ، بالرغم من أن أناساً كانوا يسيرون هنا وهناك . ولكن بالنسبة لشخص يأت متأخرا كثيرا ، يبدو العالم من حول المدرسة دائما كما لو خلى من الحياة . وكان باستيان يشعر مع كل خطوة كيف يزداد الخوف بداخله . لقد كان يخاف من المدرسة على شتى الأحوال ، من مكان هزائمه اليومية ، كان يخاف من المدرسين الذين كانوا يؤنبونه برفق ، أو يصبون عليه غضبهم ، كان يخاف من الأطفال الآخرين الذين كانوا يسخرون منه ، ولا يتركون فرصة ليبرهنوا له كم هو خامل وغير قادر على الدفاع عن نفسه . لقد كانت المدرسة تبدو له دائما كعقوبة طويلة بالسجن إلى مدى غير محدود ، والتى سوف تستمر إلى أن يكبر ، والتى يجب عليه أن يقضيها بصمت تام واستسلام .

ولكنه عندما سار بعدئذ من خلال الدهاليز التى تحدث رجعا للصدى ، حيث كانت تتصاعد روائح شمع الأرضيات والمعاطف المبللة ، وعندما سد أذنيه السكون المتحفز فى المبنى فجأة كسدادات من الشاش ، وعندما وقف أخيرا أمام باب فصله الذى كان مدهونا بنفس لون السبانخ القديمة كالجدران من حوله ، اتضح له أنه لم

يعد يخسر شيئا هنا أيضا ابتداء من الآن فقد كان عليه أن يذهب بعيدا . ثم استطاع أن ينصرف أيضا على الفور .

ولكن إلى أين ؟

وكان باستيان قد قرأ فى كتبه حكايات عن أولاد التحقوا بعمل فوق احدى السفن وسافروا خارجين إلى العالم الفسيح لكى يجربوا حظهم . بعضهم أصبحوا قراصنة أو أبطالا ، وآخرون عادوا بعد سنوات كثيرة رجالا أغنياء إلى أوطانهم دون أن يفطن أحد إلى من كانوا .

ولكن مثل هذا الشىء لم يكن باستيان يجرؤ عليه . لم يكن يستطيع أن يتخيل أيضا أنهم سيقبلونه بوجه عام كصبى عامل على السفينة . وفوق ذلك فلم تكن لديه أقل فكرة عن كيفية وصوله إلى ميناء توجد به سفن صالحة لمثل هذه الأعمال الجريئة .

إلى أين إذن ؟

وفجأة خطر بذهنه المكان الصحيح ، المكان الوحيد ، حيث ــ مؤقتا على الأقل ــ لن يبحث الإنسان عنه ويعثر عليه

المخزن كان كبيرا ومظلما . وكانت تنبعث منه رائحة التراب وكريات محاربة العُثّة ولم يكن يُسمع أى صوت ، سوى الضربات الخافتة للمطر فوق الألواح النحاسية للسطح الضخم . دعامات خشبية ضخمة قد كساها القِدم بلون أسود كانت تبرز على مسافات متساوية من أرضية الألواح ، ثم تلتقى ثانية إلى أعلى بدعامات أخرى لهيكل السقف ، ثم تختفى فى مكان ما فى الظلام . وهنا وهناك كانت تتدلى أنسجة العنكبوت ، كبيرة مثل الحصائر المعلقة ، وكانت تتحرك بهدوء كالأشباح إلى هنا وهناك فى تيار الهواء . ومن عل ، حيث كانت توجد كُوّة فى السقف انساب شعاع ضوء مغبش إلى أسفل .

والشىء الوحيد الحى فى هذا المكان المحيط به والذى كان الزمان فيه يبدو قد توقف ساكنا ، كان فأرا صغيرا ، يقفز فوق أرضية الألواح ويترك من ورائه آثار أقدام

منمنمة صغيرة فى التراب . وهناك حيث كان يجر ذيله الصغير سار خط رفيع بين آثار الأقدام . وفجأة وقف على قدميه وتصنت . ثم اختفى ـ هوب ! ـ فى ثقب بين الألواح .

وسُمع صوت مفتاح داخل قُفل كبير . وانفتح باب المخزن ببطء ومحدثا قرقعة ، وللحظة من الزمن سقط شريط طويل من الضوء خلال الغرفة . ودلف باستيان إلى الداخل ، ثم انغلق الباب مقرقعا مرة أخرى وانقفل . وأدخل مفتاحا كبيرا فى القفل من الداخل وأداره . ثم شد مزلاجا فضلا عن ذلك وزفر تنهيدة الارتياح . وكان وقتئذ فعلا لا يمكن العثور عليه . فلن يبحث عنه أحد هنا . فلم يكن يأت إلى هناك أحد إلا نادرا جدا ـ لقد كان يعرف ذلك بشبه تأكيد ـ ، وحتى إذا أرادت الصدفة أن اليوم بالذات أو غدا تحتم على شخص ما أن يفعل شيئا هنا ، فإن ذلك الشخص المعنى سوف يجد الباب مغلقا . ولم يعد المفتاح موجودا هناك . وفى حالة تمكنهم من فتح الباب بطريقة ما ، فسيبقى لباستيان دائما وقت كاف للاختباء بين الأمتعة المهملة .

وتعودت عيناه شيئا فشيئا على النور المعتم . لقد كان يعرف هذا المكان . فمنذ نصف عام كلفه مُدبّر شئون المبنى أن يساعده فى نقل سلة غسيل كبيرة مملوءة بأوراق مكاتبات واستمارات قديمة كان ينبغى حملها إلى المخزن . وقد شاهد وقتذاك أيضا ، أين يُحفظ مفتاح المخزن : فى صوان حائط صغير معلق إلى جوار أعلى بسطة للسلم : ومنذ ذلك الوقت لم يعد يفكر فى هذا مطلقا . ولكنه الآن تذكر ذلك مرة أخرى .

ويبدأ باستيان يشعر بالبرد ، لأن معطفه كان قد تخلله البلل ، وكان البرد شديدا هناك بأعلى . وكان عليه أولا أن يبحث عن موضع يستطيع أن يجعله مريحا له بعض الشىء . ففى النهاية سوف يضطر للبقاء هنا وقتا طويلا . كم من الوقت ـ انه لم يفكر بعد مبدئيا فى ذلك الأمر ، ولا أيضا فى أنه عن قريب جدا سيشعر بالجوع والعطش .

ومشى قليلا دائرا فى المكان . مختلف أنواع الكراكيب كانت موجودة وموضوعة بلا نظام ، أرفف مليئة بالدوسيهات والدفاتر التى لم يُعَدْ فى حاجة إليها منذ وقت طويل ، دكك مدرسية مرصوصة فوق بعضها ذات مناضد متسخة بالحبر ، حامل

علقت عليه دستة من الخرائط المتقادمة ، عدة سبورات سقط عنها اللون الأسود ، أفران حديدية صدئة ، أدوات رياضية لم تعد صالحة للاستعمال ، مثل حصان جمباز تهالكت كسوته الجلدية لدرجة أن حشيته قد تدلت خارجه ، كور طبية مفرقعة ، رصة من دواسات الجمباز القديمة المبقعة ، وفوق ذلك بعض الحيوانات المحنطة التى نهشتها العثة ، من بينها بومة كبيرة ، نسر جبلى ، ثعلب ، مختلف أنواع أنابيب الاختبار والأوعية الزجاجية ذات الشروخ ، ماكينة لتوصيل الكهرباء ، هيكل عظمى بشرى معلق على نوع من شماعات الملابس ، وكثير من الصناديق والعلب المليئة بدفاتر قديمة وكتب مدرسية . واستقر رأى باستيان أخيرا على أن يخصص رصّة دواسات الجمباز القديمة لتكون مقرا لإقامته . فلو تمدد الإنسان عليها ، لأ حس تقريبا كأنه على أريكة . وجرها إلى أسفل طاقة السقف حيث كان أكثر الأماكن نورا . وبالقرب منها كانت بعض الأغطية العسكرية الرمادية مرصوصة فوق بعضها ، ولكنها متربة جدا وممزقة ، ولكنها صالحة للاستعمال تماما . فأتى بها باستيان لنفسه . وخلع معطفه المبلل وعلقه إلى جوار الهيكل العظمى على شماعة الملابس ، فتأرجح الرجل العظمى قليلا إلى هنا وهناك ، ولكن باستيان لم يخف منه . ربما لأنه كان معتادا على أشياء مشابهة فى المنزل . وخلع كذلك حذاءه الطويل ذا الرقبة الذى تخللته الأمطار فأصبح لينا . واستقر بجواربه جالسا القرفصاء على دواسات الجمباز ، وجذب الأغطية الرمادية فوق كتفيه كأحد الهنود الحمر . وإلى جواره كانت حقيبته ــ والكتاب ذو اللون النحاسى .

وفكر فى أن الآخرين تحت فى الفصل لديهم فى ذلك الوقت بعينه حصة اللغة الألمانية ربما كان عليهم أن يكتبوا إنشاء فى أى موضوع من الموضوعات المملة غاية الملل .

ونظر باستيان إلى الكتاب .

وقال لنفسه : «أود أن أعرف ماذا يحدث فعلا فى كتاب طالما هو مقفول . بالطبع ليس بداخله سوى حروف مطبوعة على ورق ، ولكن بالرغم من ذلك ــ شىء ما لابد أن يكون جاريا ، لأننى عندما أفتحه فهناك فجأة قصة كاملة . هناك اشخاص لا أعرفهم بعد ، وهناك جميع المغامرات الممكنة والأعمال والحروب

ـ وأحيانا تحدث عواصف بحرية ، أو أن الإنسان يأتى إلى بلاد ومدن غريبة . كل هذا موجود بشكل ما داخل الكتاب . لابد أن يقرأها الإنسان لكى يعايشها ، هذا أمر واضح . ولكنها موجودة بداخله من قبل . أود أن أعرف ، كيف ؟» .

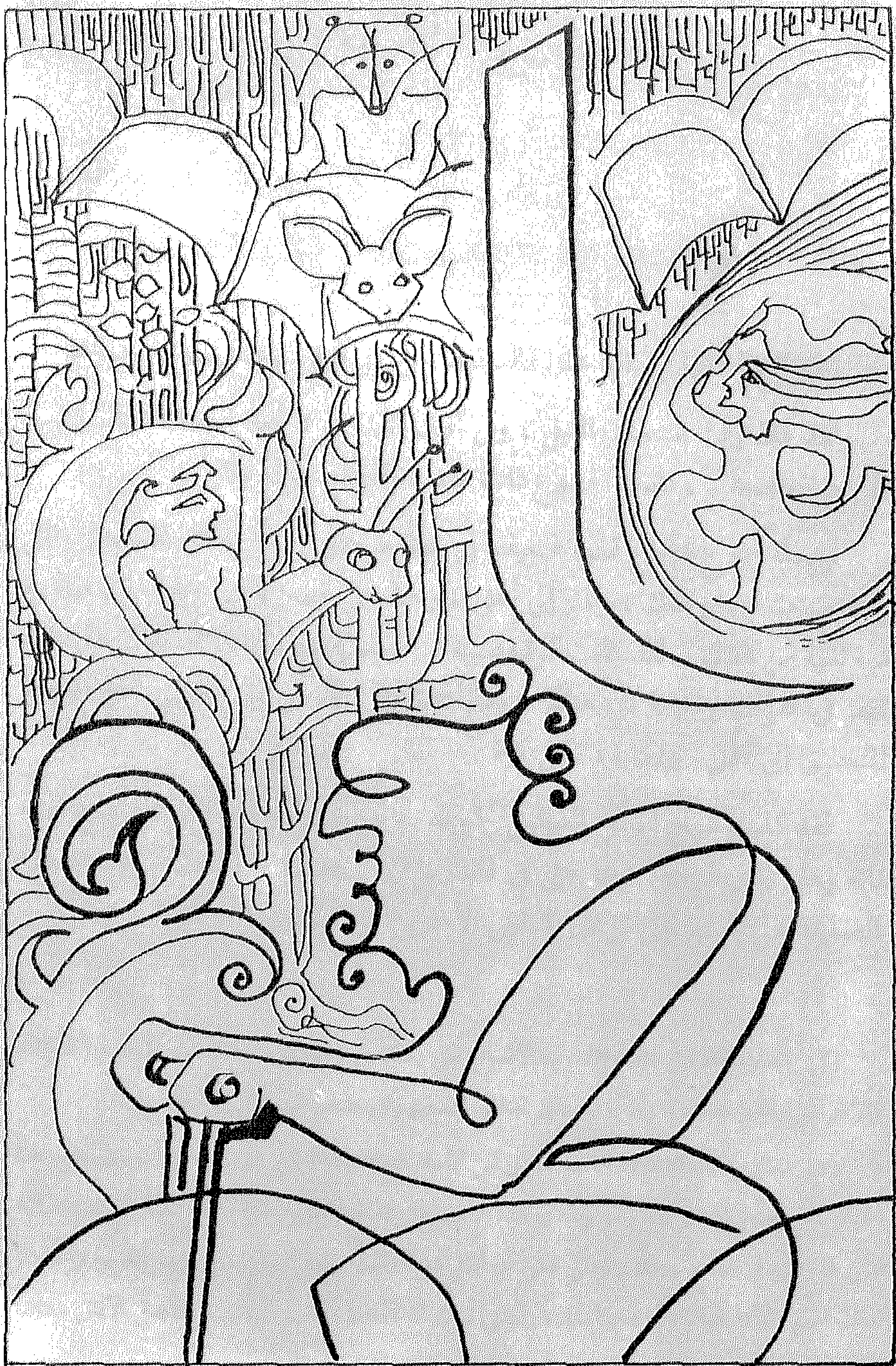
وفجأة انتابه إحساس يكاد يكون مهيبا .

فاعتدل فى جلسته ، وأمسك الكتاب ، وفتح أول صفحة وبدأ يقرأ

قصّة بلا نهاية

١

فانتازين في محنة





الحيوانات كلها فى غابة هاوليڤالد قبعت فى كهوفها ، وعشوشها وجحورها .

لقد كان وقت منتصف الليل ، وفى أفنان الأشجار العتيقة العملاقة كانت تهب الرياح العاصفة . وكانت الجذوع ذات سمك الأبراج تقرقع وتئن .

وفجأة أسرع شعاع ضوء ضعيف فى خطوط متعرجة من خلال الأشجار وظل واقفا مرتعشا هنا وهناك ، وطار إلى أعلى ، وحط على غصن وأسرع بعد ذلك مباشرة مرة ثانية من هناك . لقد كانت كرة مضيئة فى حجم إحدى كرات الاطفال ، وكانت تقفز فى قفزات واسعة الى هناك ، وكانت تلمس الأرض بين الحين والحين وتعود للتحليق إلى أعلى . ولكنها لم تكن كرة .

لقد كانت شبح الضوء الضليل(٢) وقد تاه عن طريقه . لقد كان اذن شبح ضوء تائه وهذا نادر الوجود نوعا حتى فى فانتازين(٣) . فعادة ما تكون أشباح الضوء الضليلة هى بعينها التى تؤدى بالناس الآخرين إلى التوهان .

(٢) الضوء الضليل Irrlicht أحد الأشباح التى يعتقد فى وجودها عامة الشعب الألمانى فى الغابات والأحراش والمستنقعات ، ويُقال أنه يظهر للناس ليضللهم ويبعدهم عن الطريق الصحيح .

(٣) فانتازين Phantasien اسم مشتق من كلمة Phantasie وهى كلمة أصلها يونانى ومعناها الخيال ، وواضح أن المؤلف يرمز بإطلاق هذا الاسم على مملكة فانتازين بأنها مدينة الخيال أو بلاد خيالية ليس لها وجود فى الواقع ، وقد راودتنى فكرة أن أنقل هذا الاسم باللغة العربية مع رمزيته العربية واخترت لذلك اسم «مملكة خياليا» أو «خيالستان» ولكننى آثرت أن احتفظ بالاسم الموجود فى الأصل الألمانى مكتفيا بهذه الإشارة (المترجم) .

وفى داخل شعاع الضوء المستدير كان يرُى شخص صغير فى غاية الحركة ، كان يقفز ويجرى بكل قواه . ولم يكن ذكرا أو أنثى . لأن مثل هذه الفروق غير موجودة لدى أشباح الضوء الضليلة . وكان يحمل فى يده اليمنى راية بيضاء ضئيلة كانت ترفرف من ورائه . فقد كان إذن عبارة عن رسول أو مندوب .

ولم تكن هناك خطورة أن يصطدم بجذع شجرة أثناء قفزاته الهائمة الواسعة فى الظلام ، فأشباح الضوء الضليلة ماهرة وخفيفة الحركة بشكل لا يصدق تماما ، وتستطيع أن تغير اتجاهها وهى فى وسط القفز . ولهذا جاء الطريق المتعرج الذى اتخذه ولكنه بوجه عام كان يتحرك دائما فى اتجاه محدد .

حتى لحظة مجيئه الى بروز صخرى وتراجُعه بفزع . فجلس لاهثا ككلب صغير فى ثقب أحد الأشجار وفكر برهة قبل أن يجرؤ على النهوض مرة أخرى وينظر بحذر حول زاوية الصخرة .

وكان أمامه مكان خال من الأشجار بالغابة وهناك كانت تجلس على ضوء نيران مخيم ثلاثة أجسام غاية الاختلاف فى نوعها وحجمها ، عملاق بدا كما لو كان كل شىء فيه من الحجر الرمادى ، كان يرقد ممددا على بطنه وكان طوله يكاد يبلغ عشرة أقدام . وقد اتكأ بنصفه الأعلى على كوعيه ناظرا إلى النيران . وفى وجهه الحجرى المتآكل الذى كان يقف صغيرا بشكل غريب فوق الكتفين العظيمين ، برزت أسنانه كصف من الأزاميل الحديدية . واتضح لشبح الضوء الضليل أنه ينتمى الى فصيلة قاضمى الصخور ، وهذه كائنات كانت تعيش بعيدا بشكل لا يمكن تخيله عن غابة هاوليڤالد فى إحدى سلاسل الجبال ، ـــ ولكنهم لا يعيشون فقط فى سلسلة الجبال هذه ، وبل كانوا يعيشون أيضا منها ، لأنهم كانوا يلتهمونها شيئا فشيئا . فكانوا يتغذون على الصخور . ولحسن الحظ كانوا قنوعين جدا ، فكانت تكفيهم قضمة واحدة من الطعام المغذى جدا بالنسبة لهم طيلة أسابيع وشهور . وكذلك لم يكن هناك كثير من قاضمى الصخور ، وخلاف ذلك فقد كانت سلاسل الجبال كبيرة جدا . ولكن نظرا لأن هذه الكائنات كانت تعيش هناك لفترة طويلة جدا ـــ فهم أصبحوا أكبر عمرا بكثير من غالبية المخلوقات الأخرى فى فانتازين ـــ ، فقد اتخذت سلاسل الجبال بمرور الزمن شكلا غاية فى الغرابة . لقد كانت تشبه قطعة جبن

ضخمة من نوع امنتال مليئة بالثقوب والكهوف . ولذلك كانت تسمى ــ ربما أيضا ــ جبل الطرقات .

ولكن قاضمى الصخور لم يكونوا يتغذون فقط على الصخور ، ولكنهم كانوا يصنعون منها كل ما يحتاجون إليه : قطع الأثاث ، قبعات ، أحذية ، عُدد ، وحتى الساعات المزودة بطائر الوقوق الصّياح أيضا . ولذلك فلم يكن بعد هذا أمر يدعو للعجب أن قاضم الصخور هذا كان لديه هنا نوع من الدراجات تقف من خلفه ، وهى مكونة بالتمام والكمال من المادة المذكورة ولها عجلتان تبدوان كرحى طاحونة هائلة ، وهى ككلٍ كانت أميل إلى الشبه بوابور زلط ذى دوّاستين .

والشخص الثانى الذى كان يجلس على يمين النار ، فكان شبح صغير من أشباح الليل . وقد كان على أقصى تقدير ضعف حجم شبح الضوء الضليل ، وكان يشبه يرقة داكنة السواد مغطاة بجلد مُشْعر ، وقد تهيأت للجلوس . وكان يستعين فى كلامه بحركات شديدة بيديه الصغيرتين المنمنمتين بلونهما الوردى ، وهناك حيث كان يرجح أن يكون وجهه تحت الشعر الأسود المجعد ، كانت تتوهج عينان كبيرتان مستديرتان كالأقمار .

وأشباح الليل مختلفة الأشكال والأحجام كانت موجودة فى كل أنحاء فانتازين . ولذلك لم يكن ممكنا فى بادىء الأمر تخمين اذا كان هذا قد جاء من قريب أو بعيد . ويبدو مؤكدا أنه على سفر أيضا ، لأن حيوان الركوب المعتاد استعماله لدى أشباح الليل ، وهو خفاش كبير ، كان متدليا ورأسه إلى أسفل ، وملفوفا فى جناحيه مثل المظلة المغلقة ، من خلفه على أحد الأغصان .

والشخص الثالث على الجانب الأيسر من النار لم يكتشفه الضوء الضليل إلاّ بعد برهة من الزمن ، لأنه كان صغيرا لدرجة أنه لم يكن ممكنا تبينه من هذا البعد إلاّ بصعوبة وكان ينتمى إلى سلالة المخلوقات الدقيقة ، وكان آدميا صغيرا ذا أعضاء متناهية فى الدقة مرتديا بدلة صغيرة مختلفة الألوان وعلى رأسه قبعة اسطوانية حمراء .

وكانت معلومات الضوء الضليل عن المخلوقات الدقيقة تعادل لا شىء . فقد سمع مرة فقط أقاويل بأن هؤلاء القوم يبنون مدنا كاملة فوق أغصان الاشجار حيث

تتصل المنازل الصغيرة ببعضها بواسطة أدراج وسلالم من الحبال والزلاقات . ولكن هؤلاء الناس كانوا يسكنون فى جزء آخر تماما من مملكة فانتازين التى ليس لها حدود ، أبعد بكثير ، بكثير جدا من هنا عن قاضمى الصخور . وكان مما يزيد الدهشة أن حيوان الركوب الذى كان لدى المخلوق الدقيق الموجود هناك ، كان بالذات قوقعة . وكانت تجلس خلفه . وكان على ظهرها الوردى يلمع سرج فضى صغير ، وحتى اللجام والسيور التى كانت مثبتة بقرون استشعارها ، كانت تلمع كخيوط الفضة .

لقد تعجب الضوء الضليل من أن يجلس بالذات هؤلاء الثلاثة كائنات المختلفة الانواع هنا فى وئام . حيث إنه لم يكن معتادا أبدا فى فانتازين أن تعيش جميع الفصائل فى سلام ووئام مع بعضها . فغالبا ما كانت هناك صراعات وحروب ، وكانت أيضا لمئات السنين مشاجرات بين فصائل معينة ، ولم تكن هناك الى جانب ذلك مخلوقات شريفة وخيرة فقط ، ولكن أيضا متوحشة وشريرة وقاطعة للطرق . والضوء الضليل نفسه كان ينتمى بلا ريب لعائلة يمكن أن تلام على أشياء تتعلق بالصدق والثقة .

فقط بعد أن راقب المشهد لفترة من الزمن على ضوء النيران ، لاحظ الضوء الضليل أن كلاً من الثلاث شخصيات هناك كان لديه اما راية بيضاء صغيرة أو يحمل وشاحا أبيض يميل على صدره . اذن لقد كانوا هم أيضا رسلا أو مندوبين ، وهذا بالطبع قد فسر كونهم يتصرفون بسلام هكذا .

هل سيكونوا فى النهاية كذلك فى طريقهم لنفس الشأن مثل الضوء الضليل ؟

ولم يكن فى الاستطاعة من البعد فهم ما يتكلمون بسبب الرياح الهادرة التى كانت تعصف فى فنن الأشجار . ولكن لأنهم كانوا يحترمون بعضهم البعض كرسل ، فربما سيعترفون أيضا بالضوء الضليل بالمثل ولن يفعلوا به شيئا . وعلى كل فقد كان لابد أن يسأل أى شخص عن الطريق وربما لن تتاح تقريبا فرصة أفضل فى وسط الغابة وفى وسط الليل . لقد تشجع إذن وخرج من مخبئه ، ولوح بالراية البيضاء وظل واقفا مرتعشا فى الهواء .

وكان قاضم الصخور الذى كان يرقد بوجهه ناحيته ، هو أول من لاحظه .

فقال بصوت متحشرج : « توجد هنا حركة هائلة الكثرة اليوم . فهناك شخص آخر قادم . »

فهمس شبح الليل بينما تفتحت عيناه القمريتان متوهجة : « هوُهُو ، إنه شبح ضوء ضليل . تشرفنا ، تشرفنا ! »

ونهض المخلوق الدقيق وسار بضع خطوات ناحية الشخص القادم وزقزق بصوته قائلا : « إذا كنت أرى بشكل سليم فأنت أيضا هنا بصفتك رسول ؟ »

فقال الضوء الضليل : « أجل »

فخلع المخلوق الدقيق قبعته الأسطوانية الحمراء وانحنى انحناءة صغيرة وشقشق قائلا : « أوه ، اقترب إذن ، تفضل . نحن أيضا رسل . اتخذ لك مكانا فى دائرتنا » .

وأشار وهو يدعوه بقبعته الصغيرة إلى المكان الشاغر عند النيران .

واقترب الضوء الضليل على استحياء وقال : « شكرا جزيلا : أنا ممنون . تسمحوا لى أن أقدم نفسى : أنا اسمى بلوب . »

فرد المخلوق الدقيق : « سعداء جدا . أنا اسمى أوكوك . »

وانحنى شبح الليل وهو جالس قائلا : « اسمى ثوشفوسول . »

وقال قاضم الصخور بصوت متحشرج : « تشرفنا . وأنا بيورنراخ تسارك . »

ونظر الثلاثة كلهم إلى الضوء الضليل الذى انحنى من الاحراج . فأشباح الضوء الضليلة تشعر بالحرج البالغ اذا ما تطلع المرء إليهم بشكل ظاهر تماما .

وقال المخلوق الدقيق متسائلا : « ألا تريد أن تجلس ، يا بلوب العزيز ؟ »

فأجاب الضوء الضليل : « فى الحقيقة أننى فى عجلة شديدة ، وأردت أن أسألكم فقط ، إذا كنتم من الجائز تقدرون أن تقولوا لى ، فى أى اتجاه من هنا آتى الى برج العاج . »

فأصدر شبح الليل صوته قائلا : « هُو هُو . هل النية الى الامبراطورة الطفولية ؟ »

فقال الضوء الضليل : « تماما جدا ، فعلىّ أن أبلغها رسالة هامة . »

فقرقع قاضم الصخور قائلا : « أية رسالة ؟»

فقدم الضوء الضليل رجلا على أخرى وقال : « إذا ما كان من ذلك بد ، فانها رسالة سرية . »

فرد شبح الليل ڤوشڤوسول : « نحن الثلاثة لدينا نفس الهدف مثلك ــ هُو هُو . زميل بين الزملاء . »

وقال المخلوق الدقيق أوكوك : « من المحتمل أننا لدينا نفس الرسالة كذلك . »

وجرش بيورنراخ تسارك بصوته قائلا : « إجلس وتكلم . »

فحط الضوء الضليل على المكان الشاغر .

وبدأ بعد تفكير قليل قائلا : « إن وطنى بعيد نوعا عن هنا ــ لا أدرى اذا كان واحدا من الحاضرين يعرفه . إنه يسمى مودر ــ مور[٤] . »

فشهق شبح الليل متحمسا وقال : « هووووو . منطقة رائعة الجمال . »

فابتسم الضوء الضليل ابتسامة بسيطة وقال : « أجل ، أليس كذلك ؟»

وقرقع بيور نراخ تسارك قائلا : « هل هذا هو كل شىء ؟ لماذا أنت على سفر ، يا بلوب ؟ »

فواصل الضوء الضليل حديثة متلعثما : « عندنا فى مودر مور ــ حدث شىء ــ شىء غامض ــ يعنى ، إنه ما زال يحدث بالفعل ــ انه من الصعب وصفه ــ لقد بدأ الأمر بما يلى بأن ــ باختصار ، توجد فى شرق بلادنا بحيرة ــ أو بالأحرى كانت توجد ــ وكان اسمها برود لبروه[٥] . وقد بدأ الأمر بأن بحيرة برود لبروه لم يعد لها وجود فى أحد الأيام ــ ببساطة اختفت ، أتفهمون ؟ » .

فقال أوكوك مستفسرا : « أتريد أن تقول ، أنها جفت ؟»

(٤) اسم مشتق من كلمتين : Moder بمعنى عفونة أو تحلُّل ، وكلمة Moor أى مستنقع .

(٥) اسم مشتق من كلمتين : Brodel بمعنى بخار ساخن ، والفعل منه يعنى يفور من الغليان ، والكلمة الثانية Brühe بمعنى حساء أو سائل عكر .

فرد الضوء الضليل : « لا ، وإلا لكانت هناك بعدئذ بحيرة جافة ، ولكن ليس هذا هو الحال . فهناك حيث كانت البحيرة ، لا يوجد الآن أى شىء على الاطلاق ــ ببساطة لا شىء مطلقا ، أتفهمون ؟»

فقال قاضم الصخور بصوت كالشخير : « أهناك ثقب ؟»

فزاد الانطباع المتحير الصادر عن الضوء الضليل وهو يقول : « لا ، ولا ثقب أيضا ، فالثقب شىء ما ولكن هناك لا شىء .»

وتبادل الثلاثة رسل الآخرين النظرات .

وتساءل شبح الليل : « كيف يبدو إذن هذا ال ــ هُو هُو ــ هذا اللا شىء ؟»

فقال الضوء الضليل مؤكدا ، وهو غير سعيد « هذا هو بعينه ما يصعب وصفه .

ففى الحقيقة لا يبدو شىء على الإطلاق . إنه ــ إنه مثل ــ آخ ، لا توجد كلمة لذلك !»

فتدخل المخلوق الدقيق قائلا : « إنه كما لو كان الإنسان أعمى عندما ينظر الى المكان ، أليس كذلك ؟»

وحملق فيه الضوء الضليل فاغراً فاه . وصاح قائلا : « هذا هو التعبير الصحيح ولكن من أين ــ أقصد لماذا ــ أما تعرفون أنتم هذا أيضا ــ؟»

وتدخل قاضم الصخور مقرقعا : « لحظة . قل ، هل اقتصر الامر على هذا المكان وحده ؟»

فقال الضوء الضليل شارحاً : « نعم فى بادىء الأمر أى أن المكان يتزايد حجمه باستمرار شيئاً فشيئاً . وبشكل ما ازداد التناقص المستمر من المنطقة . الضفدعة الأولى أومف ، والتى كانت تعيش مع قومها فى بحيرة برود لبروه ، اختفت كذلك بعدئذ فجأة تماما . وبدأ سكان آخرون فى الهرب . ولكن الأمر بدأ أيضا فى أماكن أخرى من مودر ــ مور شيئا فشيئا : وأحيانا كان فى البداية صغيرا جدا فقط ، عدم ، فى حجم بيضة دجاجة المستنقعات . ولكن هذه المواضع اتسعت فاذا وطأ أحد فيه بقدمه خطأً لاختفت القدم أيضا ــ أو اليد ــ أو أى شىء آخر يقع فيه عفوا . وهو بالمناسبة لا يؤلم ــ فقط تنقص قطعة من الشخص المعنى فجأة بعد ذلك . وفوق

هذا فقد ترك بعضهم أنفسهم يسقطون فيه عمدا ، عندما اقتربوا بشدة من العدم . فهو يحدث قوة جاذبية لا تقاوم ، والتى تزداد قوتها كلما كبر الموضع . لا أحد منا استطاع أن يفسر لنفسه ماذا يحتمل أن يكون هذا الشىء الفظيع ، ومن أين أتى ، وماذا يمكن أن يُفعل ضده . ونظرا لانه لم يختف من تلقاء نفسه مرة ثانية ، بل ازداد انتشارا باستمرار ، تقرر أخيرا إرسال رسول إلى الامبراطورة الطفولية لنسألها النصح والعون . وهذا الرسول هو أنا . »

ونظر الثلاثة الآخرون أمامهم فى صمت .

وبعد برهة سُمع الصوت الشاكى لشبح الليل قائلا : « هُو هُو . نفس الشىء بالضبط هناك من حيث أجىء . وأنا على الطريق أيضا لنفس الهدف ــ هُو هُو . »

واتجه المخلوق الدقيق بوجهه ناحية الضوء الضليل ، وزقزق قائلا : « كل واحد منا يجىء من بلد آخر من بلاد فانتازين . وقد تقابلنا هنا بمحض الصدفة . ولكن كل واحد يجلب نفس الرسالة للامبراطورة الطفولية . »

وأنّ صوت قاضم الصخور قائلا . « وهذا يعنى أن كل فانتازين فى خطر . »

ونظر الضوء الضليل من شخص الى آخر وهو فزع فزع الموت . فصاح وهو يقفز عاليا :

« ولكن غير مسموح لنا إذن أن نضيع لحظة واحدة أكثر من ذلك ! »

فقال المخلوق الدقيق مفسرا : « لقد كنا نريد الرحيل على كل حال . إننا لم نتوقف إلاّ بسبب الظلام الدامس هنا فى غابة ها وليڤالد . ولكن الآن حيث إنك معنا ، يا بلوب ، فيمكنك أن تنير لنا » .

فصاح الضوء الضليل : « مستحيل . لا أستطيع أن انتظر واحداً يركب قوقعة ، آسف » .

فقال المخلوق الدقيق وقد جرحت كرامته بعض الشىء : « ولكنها قوقعة ــ سباق . »

وهمس شبح الليل قائلا : « وفوق ذلك ــ هُو هُو ــ وإلا لن نذكر لك ببساطة الاتجاه الصحيح . »

فدمدم قاضم الصخور قائلا : « مع من تتكلمون . بالمناسبة ؟ »

وفى الواقع لم يكن الضوء الضليل قد سمع بعد الكلمات الأخيرة للرسل الآخرين ، ولكنه كان قد قفز بالفعل بعيداً من خلال الغابة فى قفزات طويلة .

فأعرب أوكوك المخلوق الدقيق عن رأيه قائلا وهو يزحلق قبعته الأسطوانية الحمراء الى قفاه : « لا بأس ، وعلى كل حال فان شبح ضوء ضليل لم يكن ربما هو الشيء الصحيح تماما كمنارة للطريق . »

وفى هذه الأثناء امتطى صهوة قوقعته ــ المخصصة للسباق .

وأبان شبح الليل صائحا ب «هُوهُو» خافتة مناديا على خفاشة : « وبالمناسبة فأنا كنت أفضل أيضا ، أن يسافر كل فرد منا معتمدا على نفسه . وأساسا سوف يطير المرء . »

وهوب ، كان قد ابتعد .

وأطفأ قاضم الصخور نار المخيم بأن هوى عليها عدة مرات بيده المفلطحة .

وسمع وهو يقرقع فى الظلام قائلا : « هذا أفضل لى ، فلن أحتاج إلى الانتباه إذا كنت أبطط أى شيء ضئيل . »

ثم سُمع وهو يسير ببساطة بطرقعة وقعقعة على دراجته الصخرية الهائلة فى الاحراش .

وكان بين الحين والآخر يصطدم بصوت مكتوم بشجرة عملاقة ، ويسُمع وهو يدمدم ويجرش بأسنانه . وابتعد الضجيج ببطء فى الظلام .

وظل أوكوك المخلوق الدقيق وحيدا ، وأمسك اللجام المصنوع من خيوط الفضة الدقيقة وقال : « حسنا ، سنرى من سيصل أولا . هيا ، يا عجوزتى ، هيا ! »

ثم لم يُعَد يسمع شيء سوى الرياح العاصفة التى كانت تصفر فى أفنان غابة هاوليڤالد .

ودقت ساعة البرج القريبة التاسعة .

ولم ترجع أفكار باستيان إلى الواقع إلاّ بضجر . وقد كان سعيداً أن « قصة بلا نهاية » ليس لها علاقة بالواقع .

ولم يكن يحب الكتب التى تُحكى له فيها بطريقة كئيبة ومهمومة الأحداث المملة تماماً من الحياة الرتيبة جداً لأى أناس عاديين جداً . فلديه من ذلك الكفاية فى الواقع ، ولأى هدف كان عليه أن يقرأ عنهم أيضاً ؟ وخلاف ذلك فكان يكره أن يلاحظ أنه يُقاد إلى شىء ما . وفى هذا النوع من الكتب يكون الهدف دائماً أن يُقاد المرء إلى شىء ما بشكل واضح قَلّ أو كَثُر .

وكان الميل الخاص لدى باستيان للكتب المشوقة أو المرحة أو التى يستطيع الإنسان أن يحلم معها ، كتب تعايش شخصيات خيالية فيها مغامرات رائعة ، ومن حيث يستطيع الإنسان أن يتوسع فى خياله لكل ما يمكن . لأن ذلك كان فى استطاعته ـ ولعل هذا كان الشىء الوحيد الذى كان يقدر عليه فعلاً : وهو أن يتخيل شيئاً ، بوضوح لدرجة أنه يكاد يراه ويسمعه . وعندما كان يحكى لنفسه قصصه ، فإنه أحياناً ينسى كل شىء من حوله ولا يستيقظ إلاّ فى النهاية كاستيقاظه من حلم . وهذا الكتاب هنا كان بالضبط من نوع قصصه الخاصة ! فأثناء القراءة لم يكن فقط يسمع قرقعة الجذوع السميكة وهدير الرياح فى أفنان الأشجار ، ولكن أيضاً الأصوات المختلفة الأنواع للأربعة رسل الغرباء ، بل إنه تصور أنه يشم رائحة الطحالب وأرض الغابة . وإلى أسفل فى الفصل بدأت حينذاك حصة الطبيعة التى تتكون أساساً من تعديد أنواع نبت الزهور وكئوس حبوب اللقاح . وكان باستيان سعيدا أنه كان يجلس هناك بأعلى فى مخبئه ، ويستطيع القراءة . لقد كان بالضبط هو الكتاب الصحيح بالنسبة له ، هكذا كان رأيه ، الصحيح بالضبط تماماً .

وبعد ذلك بأسبوع وصل ڤوشڤوسول ، شبح الليل الصغير لهدفه كأول واحد . أو بمعنى أصح ، لقد كان مقتنعاً أنه سيكون الأول لأنه كان يركب عبر الأجواء .

لقد كانت ساعة غروب الشمس ، وبدت سحابات سماء المساء كالذهب السائل ، عندما شاهد أن خفاشه يحوم فعلاً فوق حديقة التيه . هكذا كان اسم سهل واسع يصل مداه من الأفق إلى الأفق ، والتى لم تكن سوى حديقة زهور واحدة كبيرة مليئة بعطور تحير الألباب وألوان خيالية . ومن بين الأحراش وأسوار الشجيرات والمروج والأحواض ذات أندر وأغرب الزهور كانت تمتد طرقات واسعة

وممرات ضيقة فى تنسيق فنى وكثير التفرعات لدرجة أن الرقعة الخضراء كلها كانت تكوّن حديقة تيه ذات اتساع لا يمكن تخيّله . وبالطبع كانت حديقة التيه هذه قد أنشئت فقط من أجل اللعب واللهو ، وليس مثلاً لتعريض أحد تعريضاً جاداً للخطر ، ولا لصد المهاجمين . فهى لن تصلح لذلك الغرض ، وكذلك فإن الامبراطورة الطفولية لم تكن حتى فى حاجة لمثل هذه الحماية ، فلا يوجد أحد فى كل المملكة الفانتازية التى ليس لها حدود الذى يضطرها لحماية نفسها منه . ولقد كان لذلك سبباً سنعرفه عما قريب .

وبينما كان شبح الليل يحوم على خفاشه بلا صوت تماماً فوق حديقة تيه الزهور هذه ، أمكنه مشاهدة مختلف أنواع الحيوانات النادرة أيضاً . فعلى أرض فضاء بين زهور الليْلك وأشجار الأبنوس كانت تلعب مجموعة من حيوانات وحيد القرن الصغيرة فى شمس الأصيل ، ولقد شعر مرة فجأة كما لو كان قد لمح طائر الفونيكس[٦] أو العنقاء الشهير فى عشه أسفل زهرة ناقوس عملاقة زرقاء اللون ولكنه لم يكن متأكداً تماماً ، ولم يُرد أيضاً أن يرجع ويعاود الرؤ ية لكيلا يضيع وقتاً ، فلقد ظهر أمامه بعدئذ وفى وسط حديقة التيه برج العاج متلألئا فى لون أبيض خلاب ، وهو قلب فانتازين ومقر الامبراطورة الطفولية .

أن كلمة « برج » ربما يمكن أن تثير لدى شخص لم ير هذا المكان مطلقاً ، تصوراً خاطئاً ، مثل تصور برج كنيسة أو برج حصن من الحصون . لقد كان برج العاج فى حجم مدينة كاملة ، وكان يبدو من بعيد كمخروط جبل عال مدبب ، ملفوف على نفسه مثل بيت القوقعة ، وأقصى نقطة فيه كانت فى السحاب . فقط عند الاقتراب منه يستطيع الإنسان أن يتبين أن قمع السكر العملاق هذا يتركب من أبراج لا تحصى ، وأبراج صغيرة ، وقباب وأسطح ، ومشربيات وشرفات وأقواس بوابات وسلالم وتعاريج درابزين ، والتى كانت متداخلة فى بعضها وفوق بعضها الآخر . وكل هذا كان مصنوعا من أكثر العاج الفانتازى بياضاً ، وكل جزء على حدة كان

(٦) فونكس Phonix طائر أسطورى يُقال أنه يحرق نفسه ثم يصعد من الرماد شابا مرة أخرى ، ولذلك يُعتبر رمز للخلود .

محفوراً بشكل ثمين لدرجة أنه من المحتمل الاعتقاد بأنه شبكات أكثر أنواع الدانتيل دقة .

وكان يعيش فى كل هذه المبانى حاشية البلاط المحيط بالامبراطورة الطفولية ، الوصفاء والخادمات ، السيدات الحكيمات والمنجمون ، السحرة والمهرجون ، سعاة البريد والطهاة ، ولاعبو الاكروبات ، الراقصات على الحبال والقصاصون ، الرسل ، البستانيون ، الحراس ، الخياطون ، الحذاءون ورجال الكيمياء . وفى أعلى تماماً ، وعلى أعلى قمة من البرج الهائل كانت تسكن الامبراطورة الطفولية فى كشك كان يتخذ شكل برعمة زهرة مانوليا بيضاء . وفى بعض الليالى عندما يهل البدر ببهاء خاص فى السماء ذات النجوم ، تتفتح الأوراق العاجية باتساع مكّونةً زهرة رائعة وفى وسطها تجلس الإمبراطورة الطفولية .

وهبط شبح الليل الصغير بخفاشه على احدى الشرفات السفلية ، هناك حيث كانت حظائر الركائب . لابد وأن أحداً ما كان قد أبلغ عن وصوله على ما يبدو حيث استقبله خمسة من حراس حيوانات الامبراطورية . والذين ساعدوه فى الترجل من السرج ، وانحنوا أمامه وقدموا له بعد ذلك صامتين مشروب التحية الرسمى . ورشف ڤوشڤوسول قليلاً فقط من الكأس العاجى ، لكى يعطى للرسميات كفايتها ، ثم أعاده . وشرب كل حارس من الحراس أيضاً جرعة ، ثم انحنوا مرة أخرى ، وذهبوا بالخفاش إلى الحظائر كل ذلك تم فى صمت .

وعندما وصل الخفاش إلى المكان المخصص له ، لم يمس شراباً أو طعاماً ، ولكنه لف نفسه على الفور وتدلى برأسه إلى أسفل على خطاف وراح فى سبات عميق من الارهاق لقد كان كثيراً بعض الشىء ، ما كلفه به شبح الليل الصغير . وتركه الحراس فى سلام وانصرفوا على أطراف أصابعهم .

وبالمناسبة ، فقد كانت توجد بالحظيرة هذه ركائب أخرى كثيرة : فيل وردى وفيل أزرق اللون ، طائر عنقاء عملاق كان نصف جسمه الأمامى يشبه النسر ، والنصف الخلفى يشبه الأسد ، وحصان أبيض ذو أجنحة كان اسمه مشهوراً فيما مضى خارج فانتازين أيضاً ، ولكنه نُسى الآن ، بعض الكلاب الطائرة ، وبعض الخفافيش الأخرى أيضاً ، وحتى حشرات أبو المقص والفراشات المخصصة للفرسان

صغيرى الحجم جداً . وفى بيوت الحظائر الأخرى كانت هناك ركائب أخرى لا تطير ولكنها تجرى أو تزحف أو تقفز أو تسبح . وكل منهم له حراس مخصصون لرعايته وصيانته .

وكان لابد اعتبار أنه أمر عادى إذا ما سمع المرء هناك حقاً هرجاً ومرجاً من الأصوات : زئير ، صراخ ، صفير ، زقزقة ، نقيق ، ونقنقة . ولكن ساد صمت تام .

وكان شبح الليل الصغير مازال واقفاً فى المكان الذى تركه فيه الحارس . وشعر فجأة بالانكسار واليأس ، دون أن يعرف بحق لأى سبب . وكان أيضاً منهك القوى من الرحلة الطويلة جداً . وحتى حقيقة أنه أول الواصلين ، لم تدخل السرور على نفسه .

وفجأة سمع صوتاً صغيراً يزقزق قائلاً : « هالو ، أليس هذا هو الصديق ڤوشڤوسول ؟ كم هو جميل أنك أيضاً أخيراً هنا . »

ونظر شبح الليل حوله ، وتوهجت عيناه القمريتان عجباً ، لأن المخلوق الدقيق أوكوك كان يقف هناك على درابزين وهو متكىء بلا مبالاة على أصيص زهور عاجى ويلوّح بقبعته الاسطوانية الحمراء .

وأطلق شبح الليل صيحة « هُوهُو » وهو فى أشد الدهشة ، وبعد برهة صاح مرة أخرى « هُوهُو » فلم يخطر بباله قط شىء آخر أكثر مغزى .

وقال المخلوق الدقيق شارحاً : « إن الاثنين الآخرين لم يصلا بعد حتى الآن . وأنا هنا منذ صباح أمس . »

فسأل شبح الليل : « كيف ــ هُوهُو ــ حدث هذا ؟ »

فقال المخلوق الدقيق ، بابتسامة توحى بعض الشىء بشعوره بالتفوق : « لقد سبق أن قلت لك ، أن لدىّ قوقعة ــ سباق » .

وحك شبح الليل شعر رأسه الكث الأسود بيده الصغيرة الوردية . وقال بصوت شاك : « يجب أن أذهب فوراً إلى الامبراطورة الطفولية . »

ونظر إليه المخلوق الدقيق متأملاً وقال : « هِمْ ! حسنٌ ، لقد سجلت اسمى أمس » .

وتساءل شبح الليل قائلاً : سجلت اسمك ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يذهب إليها على الفور ؟ » .

فزقزق المخلوق الدقيق قائلاً : « أخشى أن تكون الإجابة بلا ، لابد أن ينتظر الإنسان وقتاً طويلاً . فهناك ــ ماذا أقول ــ زحمة هائلة من الرسل هنا . »

فقال شبح الليل مولولاً : « هُوهُو ! لماذا ؟ »

وشقشق المخلوق الدقيق قائلاً : « من الأفضل أن ترى الأمر بنفسك . تعال يا عزيزى ڤوشڤوسول ، تعال . »

ومشيا كلاهما معاً . وكان الشارع الرئيسى الذى يسير فى شكل حلزونى يزداد ضيقاً حول برج العاج متجهاً إلى أعلى ، يمتلىء بكمية مكدسة من أغرب الأشكال . جن عمالقة تزين العمائم رؤوسهم ، أشباح ضئيلة ، عفاريت ذات ثلاثة رؤوس ، أقزام ملتحون ، جنيات مضيئة ، عفاريت لهم أرجل كباش ، حاملات الدروع ولهن فروة ذهبية الشعر ، أشباح جليد يلمعون ، وكائنات أخرى لا تحصى كانت تسير متحركة إلى أعلى وأسفل الطريق ، أو تقف فى جماعات مع بعضها ويتحدثون بصوت خافت أو يجلسون القرفصاء على الأرض صامتين كذلك ويحملقون أمامهم فى كَدَر .

وعندما رآهم ڤوشڤوسول ، ظل واقفاً .

وقال : « هُوهُو ! ماذا يجرى هنا ؟ ماذا يفعل كل هؤلاء هنا ؟ »

فأبان أوكوك بصوت خافت : « كل هؤلاء رسل ، رسل من جميع أنحاء فانتازين . والجميع معهم نفس الرسالة مثلنا . لقد تحدثت مع كثير منهم . ويبدو أن نفس الخطر قد أندلع فى كل مكان » .

وصدرت تنهيدة طويلة شاكية مسموعة من شبح الليل .

وقال متسائلاً : « وهل يُعرف ما هو ومن أى مكان يأتى ؟ »

ــ « أخشى أن تكون الإجابة بلا . لا أحد يمكنه تفسير ذلك . »

ــ « ولا الإمبراطورة الطفولية نفسها ؟ »

فقال المخلوق الدقيق بصوت خافت : « الإمبراطورة الطفولية مريضة جداً جداً . ربما هذا هو سبب الشقاء الغامض التى ابتلى فانتازين . ولكن حتى الآن لم يعرف واحد من الأطباء العديدين المتجمعين فى دائرة القصر هناك إلى أعلى عند كشك زهرة المانوليا ، أى مرض هى مصابة به ، وماذا يمكن أن يُفعل ضده . لا أحد يعرف دواءً لذلك » .

فقال شبح الليل بصوت مكتوم : « أن هذه ــ هُوهُو ! ــ لكارثة . »

فرد المخلوق الدقيق : « أجل ، إنها كذلك »

وتحت هذه الظروف تغاضى فُوشفُوسول مبدئياً أن يسجل نفسه لدى الامبراطورة الطفولية .

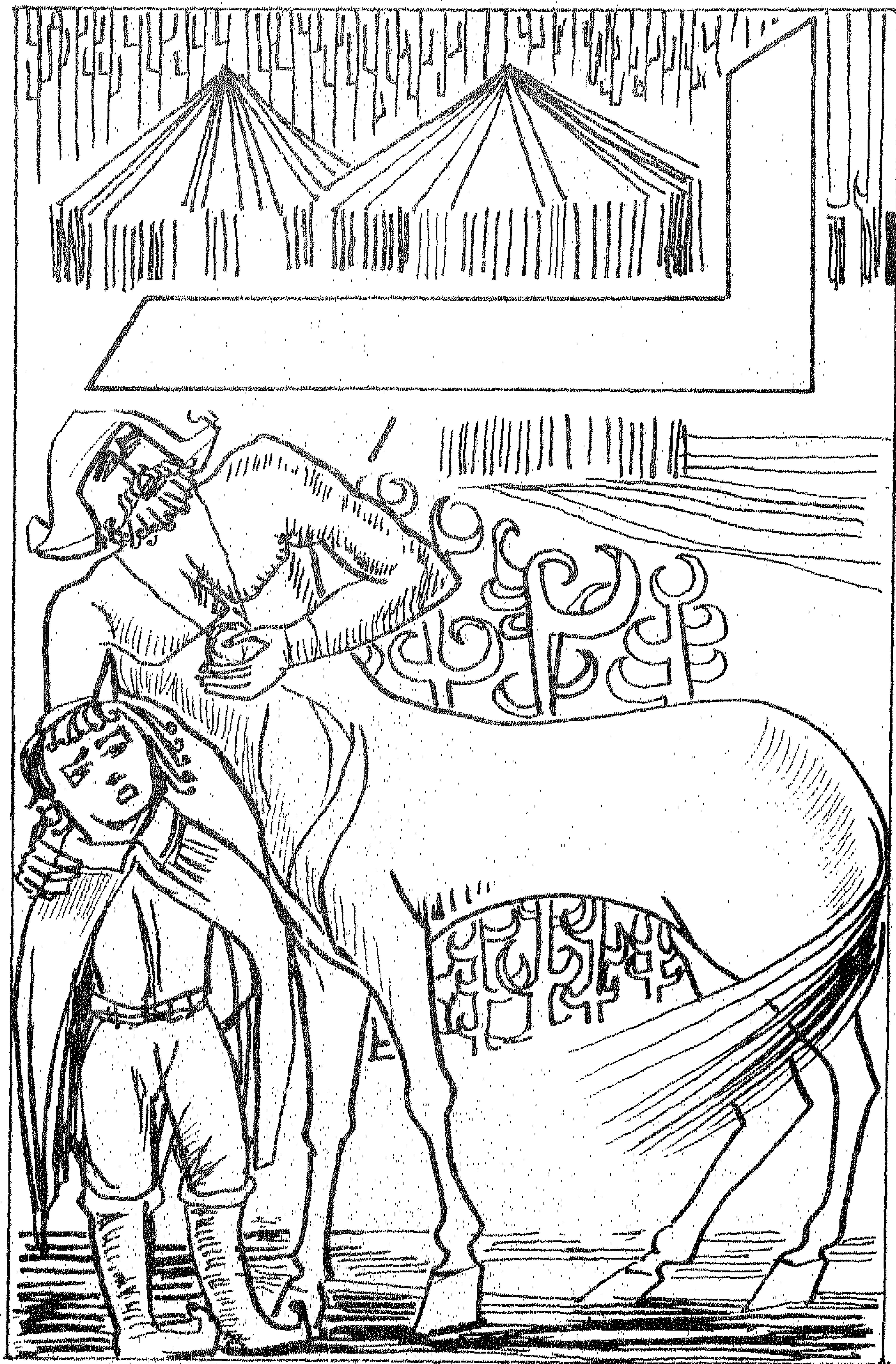
وبعد ذلك بيومين وصل أيضاً الضوء الضليل بلوب الذى كان بالطبع قد مشى فى الاتجاه الخاطىء وبهذا سار طريقاً لافاً هائلاً .

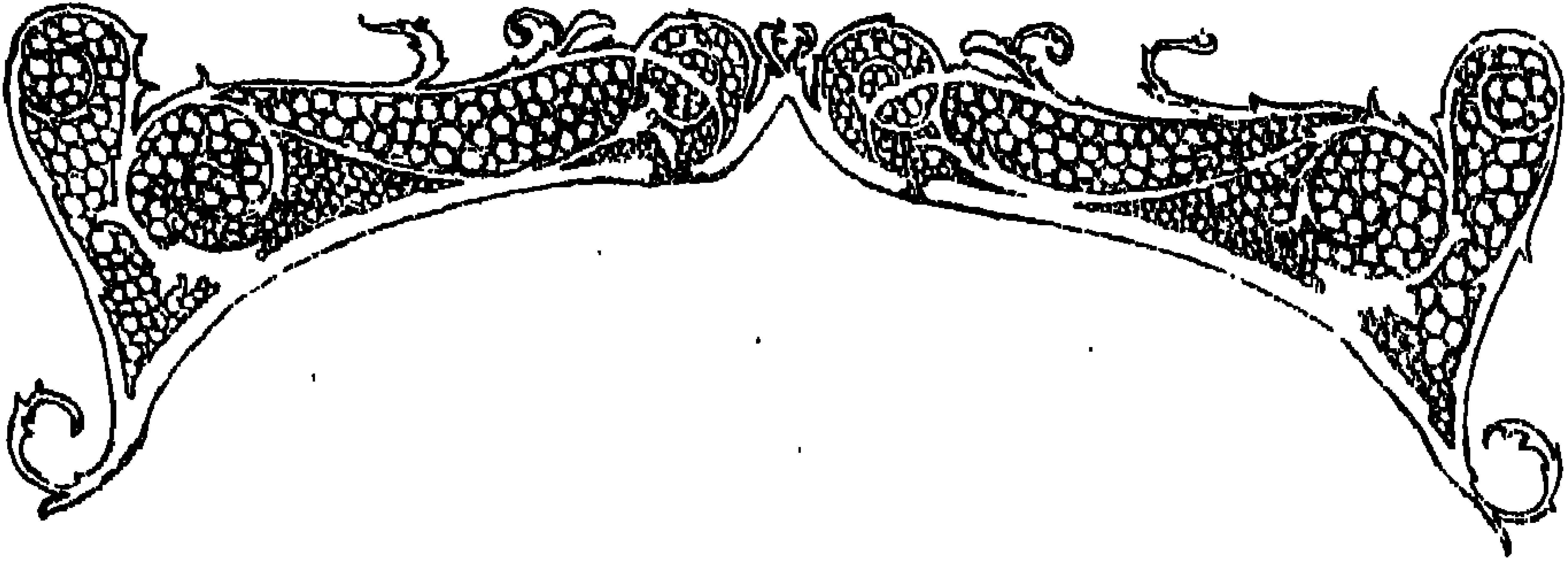
وأخيراً ــ وبعد ثلاثة أيام أخرى بعد ذلك ــ وصل أيضاً قاضم الصخور بيورنراخ تسارك وقد جاء وهو يدب الأرض بقدميه ، لأنه كان قد التهم فى نوبة جوع شديدة مفاجئة دراجته الصخرية ــ والتى كانت تقريباً هى مؤونته فى رحلته .

وفى أثناء فترة الانتظار الطويلة نشأت صداقة حميمة بين الرسل الأربعة غير المتماثلين ، وبقوا كذلك معاً فيما بعد .

ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

٢
استدعاء أتريو





بشكل معتاد كانت تُعقد المشاورات التى تتعلق برفاهية وأتراح فانتازين كلها فى قاعة العرش الكبرى من برج العاج ، والتى تقع داخل الدائرة الفعلية للقصر على بعد عدة طوابق فقط أسفل كشك زهرة المانوليا .

وكانت هذه الغرفة الواسعة المستديرة حينئذ تمتلىء ببلبلة من الأصوات المكتومة . فقد كان أفضل أطباء المملكة الفانتازية كلها الـ ٤٩٩ مجتمعين هناك وكانوا يتحدثون بهمس أو همهمة مع بعضهم فى مجموعات صغيرة أو كبيرة . كل واحد منهم قد زار الإمبراطورة الطفولية ــ بعضهم منذ بعض الوقت ، وآخرون منذ فترة قصيرة فقط ــ ، وكل واحد حاول أن يساعدها بفنه . ولكن لم يوفق واحد منهم ، ولم يعرف واحد منهم مرضها وسببه ، ولم يعرف واحد منهم كيف يستطيع شفاءها . الطبيب الـ ٥٠٠ ، وهو أشهر جميع أطباء فانتازين ، والتى تقول عنه الحكايات إنه لا يوجد عشب ولا وسيلة سحر وسر من أسرار الطبيعة غير معروف لديه ، قد كان حينئذ لدى المريضة منذ ساعتين فعلاً ، والجميع فى انتظار نتيجة فحصه بشوق .

والآن لا يصح بالطبع أن نتخيل مثل هذا الاجتماع كمؤتمر أطباء من البشر . صحيح أنه كانت توجد فى فانتازين كثير من الكائنات التى تشبه البشر فى قليل أو كثير من ناحية شكلها الخارجى ، ولكن كان هناك على الأقل فى مثل كثرتهم ما يشبه حيوانات أو مخلوقات ذات صفات تامة الاختلاف على الاطلاق . ومثلما كانت مجموعة الرسل مختلفة الأشكال والتى كانت تسرع بالخارج ، فقد كانت الجماعة فى القاعة هناك متعددة الأنواع كذلك . فقد كان هناك أطباء أقزام ذوى لحى بيضاء وحدبات على ظهورهم ، وكانت هناك طبيبات جنيات فى ملابس زرقاء فضية لامعة

ونجوم متلألئة فى شعورهن . وكان هناك رجال من جن المياه ذوى بطون بدينة وجلود معينة على السباحة فى أيديهم وأرجلهم (وقد وُضعت لهم خصيصا أحواض استحمام للجلوس) ، ولكن كانت هناك أيضا ثعابين بيضاء كانت متكورة على بعضها على المنضدة الطويلة فى وسط القاعة ، وكانت هناك جنيات نحل ، وحتى سحرة ومصاصو الدماء وأشباح لا تعتبر عامة خيِّرة ومفيدة للصحة بوجه خاص .

ولكى يدرك الإنسان حضور المذكورين مؤخرا ، يجب أن يعرف بالضرورة شيئا : لقد كانت الإمبراطورة الطفولية ــ كما يصرح بذلك لقبها ــ تعتبر حاكمة على البلاد التى لا تحصى عددا للملكة الفانتازية التى لا حدود لها ، ولكنها فى الحقيقة كانت أكثر بكثير من حاكمة ، أو بمعنى أفضل ، لقد كانت شيئا مختلفا تماما .

فلم تكن تحكم ، وهى لم تستعمل القوة مطلقاً أو لم تستعمل سلطتها ، ولم تكن تصدر الأوامر ، ولم تحكم على أحد ولم تتدخل أبدا ، ولم تضطر أبدا أن تدافع عن نفسها ضد أى مهاجم ، لأنه لن يخطر ببال أحد أن يثور عليها أو يفعل بها شيئا . فقد كان الجميع أمامها سواء .

فقط قد كانت موجودة ، ولكنها كانت موجودة بشكل خاص : فقد كانت هى محور كل الحياة فى فانتازين .

وكل مخلوق سواء كان خيِّرا أو شريرا ، جميلاً أو قبيحاً ، مرحاً أو جاداً ، أبلها أو حكيماً ، فالجميع ، الجميع لم يكونوا موجودين إلا عن طريق وجودها . بدونها لم يكن ممكناً أن ينشأ أى شىء ، مثل إمكانية نشأة جسد إنسانى لم يعد له قلب .

ولم يكن أحد يستطيع أن يدرك تماماً سرها ، ولكن الجميع كانوا يعرفون أن الأمر هكذا . وهكذا فقد كانت جميع مخلوقات هذه المملكة يحترمونها على قدر المساواة ، والجميع كان يشعر بنفس القدر بالخوف على حياتها . لأن موتها سيكون فى نفس الوقت نهاية الجميع ، زوال مملكة فانتازين الهائلة .

وسرحت أفكار باستيان .

فاستعاد فى ذاكرته مشهد طرقة المستشفى الطويلة أمامه ، وحيث أُجريت لأمه

عملية جراحية فيها . فقد جلس مع والده ساعات طوال أمام قاعة العمليات ينتظر وكانت الممرضات والأطباء يجرون هنا وهناك . وعندما كان الوالد يسأل كيف حال الأم ، لم يكن يتلقى سوى إجابات متهربة . وقد بدا أن أحدا لا يعرف بشكل صحيح ماذا بها . وأخيرا جاء رجل أصلع مرتديا معطفا أبيض يبدو عليه التعب والحزن . وقال لهم إن جميع المجهودات قد ذهبت سُدى . وإنه آسف لذلك . وشد على أيديهما وتمتم قائلا : « تعازىَّ القلبية » .

وبعد ذلك أصبح كل شىء مختلفاً بين باستيان ووالده . ليس من الظاهر ، فقد كان لدى باستيان كل شىء يمكن أن يتمناه . كان يمتلك دراجة ذات ثلاث سرعات ، قطار سكة حديد كهربائى ، كثير من أقراص الفيتامينات ، ثلاثة وخمسين كتابا ، حيوان اليربوع الأليف ، حوض ماء أسماك المياه الدافئة ، جهاز تصوير صغير ، ستة مديات جيب عملية ، وكل ما يمكن من الأشياء الأخرى . ولكن فى الحقيقة كان كل ذلك بالنسبة له غير ذات أهمية .

وتذكر باستيان أن الوالد كان فيما مضى يحب أن يخرج معه . بل كان أحيانا يحكى له قصصاً أو يقرأها عليه . ولكن هذا انتهى منذ ذلك الوقت . فلم يعد يستطيع أن يتحدث مع والده . لقد كان حوله فيما يشبه الجدار الذى لا يمكن لأحد اختراقه . فلم يكن يسب أبدا ولا يمدح أبدا . وحتى عندما رسب باستيان فى المدرسة ، لم يقل أبوه شيئا . فهو لم يشاهده إلاّ على هذه الحالة الشاردة والمهمومة ، وكان باستيان يشعر أنه غير موجود هناك . وهذا الشعور كان ينتابه غالباً تجاه والده . وعندما كانا يجلسان فى المساء أمام جهاز التليفزيون ، يلاحظ باستيان أن الوالد لا يشاهد مطلقاً ، ولكنه بعيد بعيد بأفكاره ، حيث لا يمكنه إدراكه . أو أحيانا ، عندما يكون لديهما كتاب واحد ، كان باستيان يرى أن الوالد لا يقرأ على الإطلاق ، لأنه كان ينظر بالساعات إلى نفس الصفحة دون أن يقلبها .

لقد كان باستيان يدرك فعلا أن أبيه حزيناً . وهو نفسه بكى فى ذلك الوقت ليال كثيرة ، بكى بكثرة لدرجة أحيانا كان يضطر إلى الاستفراغ من النحيب ــ ولكن ذلك زال شيئاً فشيئاً ثم إنه كان مازال موجوداً . لماذا لا يتحدث الوالد معه أبداً ؛ ليس عن الوالدة ، وليس عن أشياء هامة ، ولكن فقط عن أهم الضروريات ؟ .

وقال شبح طويل نحيل من أشباح النيران وكانت له لحية من ألسنة اللهب الحمراء : « لو يعرف الإنسان فقط فى أى شىء يكمن مرضها . فهى ليست لديها حمى ، ولا شىء متورم ، ولا طفح جلدى ولا التهاب . فهى ببساطة كما لو كانت فى احتضار ـ ولا يُعرف السبب » .

وعندما كان يتكلم ، كانت تتصاعد بعد كل جملة سحابات دخان صغيرة من فمه مكونة أشكالاً ، وكانت هذه المرة على شكل علامة استفهام .

وأجاب غراب عجوز منتوف الريش ، والذى كان يبدو كثمرة بطاطس كبيرة ، قد شبك أحدهم فيها بضعة ريشات سوداء بطريقة عشوائية ، قائلا بصوت ناعق (وقد كان أخصائياً فى أمراض البرد) : « إنها لا تسعل وليس عندها زكام ، ليس بمرض على الإطلاق بالمعنى الطبى » .

وزحزح النظارة الكبيرة من فوق منقاره ونظر إلى الواقفين حوله متحدياً .

وزام جعران بصوته قائلا (وهو خنفس يسمى أيضا « لفاف الحبوب »[٧]) : « وعلى كل حال هناك شىء يبدو احتماله ، فتوجد بين مرضها والأشياء المرعبة التى ينبئونا بها الرسل من جميع أنحاء فانتازين علاقة غامضة » .

فاعترض ذكر من أسماك أم الحبر ساخراً : « يا سلام عليك ، إنك ترى دائماً وفى كل مكان علاقات غامضة » . فصرصر الجعران بصوته غاضباً وقال : « وأنت لا ترى مطلقاً أبعد من حافة محبرتك » .

فصاح شبح غائر الوجنتين حينئذ شاكياً وهو بداخل معطف أبيض طويل : « أيها السادة الزملاء . إننا لا نريد أن نُقحم أنفسنا فى منازعات شخصية غير موضوعية . وقبل كل شىء أخفضوا من أصواتكم » .

ومثل هذه الأحاديث وما يشابهها كانت فى كل مكان من قاعة العرش الكبرى . وربما يمكن أن يبدو عجيباً أن كائنات مختلفة أنواعها على هذا النحو كانت تستطيع أن

(٧) سُمى هكذا على ما يبدو لأنه يحرك أرجله التى يعلق بها التراب حركة دائرية وتتكون بذلك كريّات من التراب والطين ، والمؤلف يرمز هنا أيضاً بشكل ساخر إلى الحبوب التى توصف للمرضى .

تتفاهم مع بعضها بوجه عام . ولكن فى فانتازين كانت جميع الكائنات تقريباً تتقن لغتين على الأقل : أولاً لغتهم الخاصة التى يتحدثونها فقط مع أمثالهم ولا يفهمها أى شخص غريب ، وثانياً لغة عامة تسمى اللغة الفانتازية الفصحى أو أيضاً اللغة العظمى ، وكان كل فرد يتقنها وإن كان البعض يستعملها بشكل غريب .

وفجأة ساد صمت فى القاعة ، واتجهت عيون الجميع ناحية الباب الكبير ذى المصراعين الذى فُتح . ودخل كايرون ، عالم الطب المشهور الذى تدور حوله الحكايات .

لقد كان ما يسمى فى العصور القديمة سينتاور ، فقد كانت له هيئة البشر حتى الأرداف والجزء الباقى كان جسم حصان . ولكن كايرون كان ما يسمى بسينتاور ــ أسود . فقد كان من منطقة نائية جداً ، تقع بعيداً ، بعيداً فى الجنوب . فقد كان جزؤه البشرى بلون الأبنوس ، فقط شعر رأسه وذقنه كان أبيض ومجعداً ، أما جسده الحصانىّ فقد كان مخططاً كما هو الحال لدى الحمار الوحشى . وكان يرتدى قبعة غريبة من الخوص المجدول . ومن حول رقبته كان يتدلى حجاب ذهبى كبير من سلسلة ، وكان يُرى عليه ثعبانان ، واحد فاتح اللون وواحد داكن اللون يعض كل منهما الآخر فى ذيله ويكوّنان شكلاً بيضاوياً .

وتوقف باستيان وقد فوجىء . وأغلق الكتاب ــ ليس بدون أن يترك إصبعه بحذر بين الصفحات ــ ونظر مرة أخرى بإمعان تام إلى الغلاف . فكان هناك حقاً الثعبانان اللذان يعضان ذنب بعضهما ويكوّنان شكلاً بيضاوياً . ترى ماذا كانت تعنى هذه العلامة الغريبة ؟

كل فرد فى جميع أنحاء فانتازين كان يعرف ماذا تعنى هذه الميدالية ؟ لقد كانت علامة من كان فى مهمة لدى الإمبراطورة الطفولية ، ومن كان يستطيع أن يتصرف باسمها كما لو كانت هى نفسها موجودة .

وكان يُقال أنها تمنح حاملها قوى خفية ، بالرغم من أن لا أحد كان يعرف بالضبط ما هى . وكل فرد كان يعرف اسمها : آورْين .

ولكن كثيرين من الذين يخشون النطق بهذا الاسم ، كانوا يطلقون عليها اسم « الجوهرة » أو أيضا « البانتاكِل »[8] أو ببساطة فقط « البريق » .

إذن فالكتاب أيضا كان يحمل علامة الامبراطورة الطفولية !

دار همس خلال القاعة وسُمعت بعض صيحات الدهشة ، فلم يحدث منذ وقت طويل أن عُهدت الجوهرة لأحد الأشخاص .

ودب كايرون بحوافره عدة مرات إلى أن هدأ الاضطراب ، ثم قال بصوت عميق : « أيها الأصدقاء ، لا تتعجبوا أكثر من اللازم ، إننى سأحمل آورِينْ لوقت قصير فقط . ما أنا إلا موصِّل له وقريباً سأسلم « البريق » إلى شخص أحق به » .

وانتشر سكون بلا نفس بالقاعة .

واستأنف كايرون كلامه قائلا : « إننى لا أريد أن أخفف من هزيمتنا بكلمات جميلة . إننا جميعا نقف حائرين أمام مرض الإمبراطورة الطفولية . إننا لا نعرف سوى أن فناء فانتازين قد جاء فى نفس الوقت مع هذا المرض . ولا نعرف أكثر من ذلك . ولا حتى إذا كان فن الطب عامة هو الذى يستطيع إنقاذها . ولكنه من المحتمل ـ وأرجو ألاّ تصيب أحد منكم إهانة عندما أقولها صراحة ـ من المحتمل أننا نحن المجتمعون هنا لا نملك كل المعارف ، ولا كل الحكمة . وفوق ذلك فإن أملى الأخير والوحيد أن يكون فى مكان ما فى هذه المملكة التى لا حدود لها كائن أكثر حكمة منا ويمكنه أن يمنح العون والنصيحة . ولكن هذا أكثر من مشكوك فيه . ومهما كانت إمكانية النجاة كامنة فى مكان ما ـ فهناك أمر مؤكد : إن البحث عنها يتطلب شخصاً مقتفيا للأثر يستطيع اكتشاف مسالك فى الطرق الوعرة ولا يتراجع أمام

(٨) هذا الاسم Pantakel مشتق من كلمتين ، الأولى Pan بمعنى جميع أو كل أو مشمول ، والثانية Takel بمعنى البكرة الرافعة التى تستخدم لشد حبال أشرع المراكب الشراعية ، أى أن الاسم كله ـ وهو أيضا تركيب جديد من ابتكار المؤلف ـ يمكن أن يعنى الرافعة الشمولية أى التى يمكنها أن تشد وترفع كل شىء .

خطورة ولا عناء ، باختصار : بطلا . وقد ذكرت لى الإمبراطورة الطفولية اسم هذا البطل الذى تعهد إليه مصيرها ومصيرنا جميعا : إنه يسمى أتريو وهو يسكن فى بحر الأعشاب خلف جبال الفضة . وسوف أسلم له آورين وأبعثه إلى مهمة البحث الكبرى . والآن أنتم تعلمون كل شىء » . وبذلك خرج السينتاور العجوز من القاعة محدثاً ضجيجاً .

ونظر الباقون لبعضهم حائرين .

وسأل أحدهم : « كيف كان اسم هذا البطل ؟ » .

وقال آخر : « أتريو أو ما شابه ذلك » .

وقال ثالث : « لم أسمع به أبدا وجميع الأطباء الـ ٤٩٩ هزوا رؤوسهم مهمومين .

ودقت ساعة البرج العاشرة . وتعجب باستيان كيف انقضى الوقت بسرعة . فى أثناء الدراسة كانت كل حصة تبدو عادة كتصغير للأزل . تحت فى الفصل كان عندهم حينئذ تاريخ لدى السيد درين ، وهو رجل نحيل عكر المزاج فى أغلب الأحيان ، والذى كان يحلو له بوجه خاص أن يستهزىء بباستيان أمام الجميع لمجرد أنه لم يكن يستطيع حفظ سنوات المعارك ، وتواريخ ميلاد وفترات حكم أى أناس .

لقد كان بحر الأعشاب الواقع خلف جبال الفضة يبعد عن برج العاج بسفر أيام كثيرة كثيرة . وكان عبارة عن مروج حشائش الإستبس التى كانت فعلاً واسعة وكبيرة ومسطحة كأحد البحور . وكانت تنمو أعشاب لينة بارتفاع الرجال ، وعندما تهب عليها الرياح ، تسرى أمواج فوق السهول مثلما هو الحال فوق المحيط ، وتُحدث هديراً كالماء .

والشعب الذى كان يعيش هناك ، كان يسمى « قوم الأعشاب » « أو أيضا « أصحاب الجلود الخضراء » فقد كانت لهم شعور زرقاء بسواد ، وكان جلدهم ذا لون أخضر داكن مائل قليل إلى اللون البنى ــ مثل الزيتون . وكانوا يعيشون حياة قاسية صارمة وقانعة لأبعد الحدود ، وأبناؤهم صبيان وبنات كانوا يُربّون على

الشجاعة والكرم والإباء . وكان عليهم أن يتعلموا تحمل الحر والبرد وقدر كبير من التقشف ويثبتوا شجاعتهم . وكان هذا ضروريا لأن أصحاب الجلود الخضراء كانوا شعبا من الصيادين . وكل ما كانوا يحتاجون إليه فى معيشتهم ، كانوا يصنعونه إما من أعشاب البرارى الصلبة ذات الألياف ، أو يأخذونه من الجواميس الأرجوانية التى كانت تسير فى قطعان هائلة فوق بحر الأعشاب .

وكانت هذه الجواميس الأرجوانية تقريباً ضعف حجم الثيران والأبقار العادية ، ولها جلد أحمر أرجوانى وقرون هائلة أطرافها قاطعة وصلبة كالخناجر . وكانت مسالمة بوجه عام ولكن عندما تشم رائحة الخطر أو تشعر بالهجوم ، يمكن أن تصبح مرعبة كإحدى قوى الطبيعة ، لا أحد غير أصحاب الجلود الخضراء يمكنه أن يجرؤ على مطاردة هذه الحيوانات ــ وفوق ذلك فقد كانوا يفعلون هذا بالقوس والنبال فقط . وكانوا يفضلون قتال الفروسية ولذلك كثيرا ما كان يحدث أنه ليس الحيوان هو الذى يضطر لفقد حياته ولكن الصياد . وكان أصحاب الجلود الخضراء يحبون ويكرمون الجواميس الأرجوانية ، وكانوا يرون أن اكتساب الحق فى قتلها لا يتأتى إلا فى حالة استعداد المرء لأنْ تقتله هى .

ولم يكن خبر مرض الإمبراطورة الطفولية والمصير الذى يهدد جميع أنحاء فانتازين قد وصل بعد إلى هذه البلاد . فلم يكن أحد من المسافرين قد أتى إلى مخيمات أصحاب الجلود الخضراء منذ وقت طويل . وقد نما العشب لينا أكثر من أى وقت مضى وكان النهار أكثر ضياء والليل مليئا بالنجوم . وكل شىء بدا طيباً .

ولكن فى يوم من الأيام ظهر سينتاور ــ أسود عجوز أبيض الشعر فى المخيم . وكان جلده يقطر عرقا ، وكان يعطى انطباعاً بأنه مرهق لدرجة مميتة وكان وجهه الملتحى نحيلاً ومنهكا . وكان يحمل على رأسه قبعة غريبة من الخوص المجدول وتتدلى من رقبته سلسلة عليها حجاب ذهبى كبير . لقد كان كايرون .

ووقف وسط المكان الخالى الذى تحيط به خيام المعسكر فى حلقات تزداد اتساعا باستمرار ، هناك حيث يلتقى كبار السن للتشاور أو حيث تقام الرقصات وتُنشد الأغانى فى أيام الأعياد .

وانتظر ونظر حوله ، ولكن لم يتزاحم حوله غير الرجال والنساء العجائز جداً والأطفال الصغار جداً ، الذين يحملقون فيه بفضول . ودب بحوافره وهو نافذ الصبر .

وقال وهو ينفخ وقد خلع قبعته وجفف جبينه : « أين الصيادون والصيادات » ؟ .

وأجابت امرأة بيضاء الشعر وعلى ذراعها طفل رضيع : « إنهم جميعا فى الصيد . ولن يعودوا إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام » .

وسأل السينتاور : « وهل أتريو معهم أيضا » ؟ .

ـ « أجل أيها الغريب ، ولكن من أين تعرفه ؟ » .

ـ « أنا لا أعرفه . ائتونى به » .

فرد رجل عجوز بعكازين : « أيها الغريب ، انه سيأتى كارها ، لأنّ اليوم يوم صيده وهو يبدأ عند غروب الشمس . أتدرى ماذا يعنى هذا » ؟ .

وهز كايرون شعر عرفه بالنفى ودب بحوافره وقال : « لست أدرى ، وليس لهذا أهمية أيضا ، لأن عليه أن يقوم بشىء أهم . أنتم تعرفون هذه العلامة التى أحملها ، احضروه إذن » .

فقالت فتاة شابة : « إننا نرى الجوهرة ونعرف أنك تأتى من عند الإمبراطورة الطفولية . ولكن من أنت » ؟ .

ودمدم السينتاور قائلاً : « اسمى كايرون ، الطبيب كايرون ، إذا كان لذلك دلالة عندكم » .

وتزاحمت امرأة محنية الظهر متقدمة إلى الأمام صائحة : « نعم ، حقا . إننى أتعرف عليه مرة ثانية . لقد رأيته مرة عندما كنت مازلت صغيرة السن . إنه أشهر وأعظم طبيب فى جميع أنحاء فانتازين » .

فانحنى لها السينتاور وقال : « شكراً ، سيدتى ، والآن فربما يتلطف أحدكم ويأتى بأتريو هذا . فالأمر عاجل . إن حياة الإمبراطورة الطفولية فى خطر » .

فصاحت فتاة صغيرة والتى ربما فى الخامسة أو السادسة من عمرها : « أنا

سأقوم بذلك » .

وجريت بعيدا ، وبعد ثوان قلائل رؤ يت بين الخيام وهى تسرع فوق حصان بدون سرج .

فقال كايرون متبرّماً : « أخيراً » ثم انهار مغشيا عليه .

وعندما عاد إلى رشده ، لم يكن يدرى أين هو لأن الدنيا كانت مظلمة من حوله . ولكن شيئا فشيئا اتضح له أنه فى خيمة واسعة وأنه يرقد فوق أغطية لينة من الجلود . ويبدو أن الوقت كان ليلا ، فقد اقتحم شعاع متحرك من النار عبر شق فى ستار الباب .

فدمدم وهو يحاول النهوض قائلا : « ياخبر . منذ كم من الوقت وأنا راقد هنا على هذا الحال ؟ »

وطل رأس من خلال ستار الباب وانسحب مرة أخرى ، وقال شخص ما : « أجل ، يبدو أنه قد استيقظ » .

ثم سُحب ستار الباب جانبا ، ودخل صبى فى العاشرة من عمره تقريبا . وكان نصف جسده الأعلى عارياً ، ولم يكن هناك سوى رداء أحمر أرجوانى يتدلى من حول كتفيه حتى الأرض ، وعلى ما يبدو كان من نسيج شعر الجاموس . وشعره الطويل الأزرق اللون بسواد كان مربوطا خلف رأسه بأشرطة جلدية مكوّناً خصلة من الشعر . وعلى جلد جبهته ووجنتيه ذى اللون الأخضر الزيتونى كانت بعض الزخارف البسيطة مرسومة بلون أبيض وعيناه الداكنتان تبرقان ناظرة إلى الشخص الدخيل ، وخلاف ذلك فلم يكن هناك أى انفعال ملحوظ على قسماته .

وتساءل قائلا : « ماذا تريد منى ، أيها الغريب ؟ لماذا أتيت إلى خيمتى ؟ ولماذا أخذت منى صيدى ؟ فلو أننى اليوم كنت قتلت الجاموس الكبير ــ وكان السهم فعلاً على الوتر ، عندما صاح أحدهم علىّ ــ ، لأصبحت غدا صيادا . والآن لابد لى أن أنتظر عاما كاملاً . لماذا ؟ » .

فحملق فيه السينتاور العجوز مأخوذاً .

وأخيراً تساءل قائلاً : « أيعنى ذلك ، أن أتريو هذا هو أنت ؟ » .

ـ « أجل ، أيها الغريب » .
ـ « أليس من المحتمل أن يكون هناك شخص آخر ، رجل يافع ، صياد خبير لهذا الاسم ؟ » .
ـ « لا ، أنا أتريو ، وليس شخصاً آخر » .

وهوى كايرون العجوز فوق المخدع وقال لاهثا : « طفل . صبى صغير . حقا ، إن قرارات الإمبراطورة الطفولية يصعب فهمها » .

وصمت أتريو وانتظر بدون أن يتحرك .

وقال كايرون الذى لم يستطع ضبط انفعاله إلاّ بجهد : « اعذرنى يا أتريو ، لم يكن قصدى إهانتك ، ولكن الأمر أتى مفاجئا لى فقط . وبأمانة فأنا غير متمالك لنفسى . ولم أعد أدرى ما ينبغى التفكير فيه . فأنا أتساءل جديا إذا كانت الإمبراطورة الطفولية تدرى فعلاً ماذا فعلت عندما اختارت طفلا مثلك . إن هذا جنون بَيِّن ! وإن كانت قد فعلته بنية كاملة ، إذن . . إذن » . . وهز رأسه بعنف وصاح قائلاً : « لا ، لا ، لو كنت أعرف إلى من هى ترسلنى لرفضت ببساطة ، أن أبلغك أمر تكليفها . كنت رفضت » .

فسأل أتريو : « أى أمر تكليف ؟ » .

فصاح كايرون الذى تملكه الغضب حينئذ : « إنه لأمر فظيع . إن تنفيذ أمر تكليفها ربما يكون ضرباً من المستحيل حتى بالنسبة لأعظم الأبطال وأكثرهم خبرة ، ولكن بالنسبة لك . . إنها ترسلك للبحث عن المجهول ، عن شىء لا يعرفه أحد . لا أحد يستطيع مساعدتك ، لا أحد يستطيع نصيحتك . لا أحد يستطيع أن يعرف ما سوف يواجهك . وبالرغم من ذلك يجب عليك أن تقرر فورا ، الآن حالا ، وعلى التو ، إذا كنت تقبل أمر التكليف أَمْ لا . فلا ينبغى تضييع أى لحظة أخرى . لقد عدوت عشرة أيام وليال دون راحة تقريبا لكى أصل إليك . ولكن الآن ــ الآن أكاد أتمنى لو أننى لم أجىء إلى هنا أبدا . فأنا عجوز جدا ، وفى نهاية قواى . إعطنى جرعة ماء ، من فضلك ! » .

وأحضر أتريو إناء به ماء آبار منعشة . وشرب السينتاور على دفعات طويلة ،

ثم مسح لحيته وقال بهدوء أكثر قليلا : « آه ، شكرا ، انه لمنعش . والآن أشعر بتحسن ، اسمع ، يا أتريو أنت لست مضطراً لقبول هذه المهمة . إنّ الإمبراطورة الطفولية تترك الأمر لك . وهى لا تأمرك بشىء . وسوف أشرح لها وهى سوف تعثر على شخص آخر . فلا يمكن أن تكون قد عرِفَتْ أنك صبى صغير . لقد خلطت بينك وبين شخص آخر ، إن هذا هو التفسير الوحيد » .

وقال أتريو وهو يريد أن يعرف : « فى أى شىء تتمثل المهمة ؟ » .

فأجاب السينتاور العجوز : « أن تعثر على دواء للإمبراطورة الطفولية وتنقذ فانتازين » .

فتساءل أتريو متعجبا : « هل هى مريضة ؟ » .

وأخذ كايرون يحكى عن حالة الإمبراطورة الطفولية وما أخبر به الرسل من جميع أجزاءفانتازين . واستمر أتريو يطرح مزيدا من الأسئلة ، والسينتاور يعط معلومات على قدر استطاعته . وأصبح حديثا ليليا طويلا . وكلما ازداد إدراك أتريو للمدى الكامل للمصير الذى اجتاح فانتازين فجأة ، ازداد وضوح الدهشة الظاهرة التى ارتسمت على وجهه الذى كان جامد التعبير فى بادىء الأمر .

وأخيرا تمتم بشفتين شاحبتين قائلاً : « وكل هذا لم أكن أعرفه » .

ونظر كايرون من تحت حاجبيه ذات الشعر الكث الأبيض نظرة جادة وحزينة ، وقال : « والآن أنت تعرف مجرى الأمور ، وربما تدرك الآن لماذا لم أتمالك نفسى عندما رأيتك . ولكن الإمبراطورة الطفولية ذكرت اسمك وقالت لى : اذهب وزر أتريو ، وقالت : إننى أضع كل ثقتى به . وقالت : اسأله إذا كان يريد أن يأخذ على عاتقه مهمة البحث الكبرى من أجلى ومن أجل فانتازين ، ولست أدرى لماذا وقع اختيارها عليك . ربما لا يستطيع القيام بهذه المهمة المستحيلة إلاّ صبى صغير مثلك . لست أدرى ولا أستطيع تقديم المشورة إليك » . وجلس أتريو مطرق الرأس صامتا . لقد أدرك أنه وُضع هنا فى اختبار أكبر بكثير جدا من صيده . وحتى بالنسبة لأعظم الصيادين وأحسن مقتف للأثر يكاد لا يمكن اجتيازه ، وكان بالنسبة له أصعب من اللازم .

وقال السينتاور العجوز مستفهما : « والآن ، هل تريد ؟ » .

ورفع أتريو رأسه ونظر إليه .
وقال بثبات : « أنا أريد » .

وهز كايرون رأسه ببطء ، ثم أخذ السلسلة بالحجاب الذهبى من رقبته ووضعها حول رقبة أتريو . وقال بتأثر مهيب : « آوْرين يمنحك قوة كبيرة ، ولكن لا يجوز لك استعمالها . لأن حتى الإمبراطورة الطفولية لا تستعمل سلطتها أبدا . آوْرين سوف يحميك ويقودك ، ولكن غير مسموح لك أن تتدخل أبدا ، مهما رأيت لأن رأيك الخاص لن يُعمل له حساب ابتداء من هذه اللحظة . ولذلك يجب عليك أن ترحل بدون سلاح . لابد أن تترك ما يحدث يحدث . وكل شىء يجب أن يكون بالنسبة لك متساويا ، الشر والخير ، الجميل والقبيح ، الأبله والحكيم ، كما هو متساو أمام الإمبراطورة الطفولية . ليس لك إلا البحث والسؤال ، ولكن ليس لك أن تحكم تبعاً لحكمك الخاص . لا تنس هذا أبداً ، يا أتريو » .

وقال أتريو بإجلال مكررا : « آوْرين ! إنى أنوى أن أثبت جدراتى بالجوهرة . متى ينبغى علىّ بداية الرحلة ؟ » فأجاب كايرون : « الآن ، حالا . لا أحد يعرف كم من الوقت ستستغرق مهمتك الكبرى فى البحث . ومن المحتمل أنه من الآن سيُعمل حسابٌ لكل ساعة . هيّا ، ودّع والديْك وإخوتك » .

فرد أتريو : « ليس لدى أحد . والداى قتلهما الجاموس بعد وقت قصير من ولادتى » .

ـ « ومن رباك ؟ » .

ـ « جميع النساء وجميع الرجال مشتركون . ولذلك أطلقوا علىّ أتريو ، وهذا يعنى بكلمات اللغة العظمى : ابن الجميع .

لا أحد كان يستطيع أن يفهم ذلك أفضل من باستيان . بالرغم من أن والده ما زال فعلا على قيد الحياة . وأتريو لم يكن لديه أب ولا أم . ولكن فى مقابل ذلك قام بتربيته جميع الرجال والنساء مشتركين وكان « ابن الجميع » ، بينما هو ، أى باستيان لم يكن لديه أحد على الإطلاق ـ أجل أنه كان « ابن لا أحد » . وبالرغم من ذلك فقد كان باستيان سعيدا أن يكون لديه بهذا الشكل شيئا مشتركا مع أتريو ،

حيث إنه خلاف ذلك لم يكن لديه للأسف شبه كبير معه ، لا فيما يتعلق بشجاعته وعزيمته ، ولا فيما يتعلق بهيئته . ولكنه هو أيضا ؛ أى باستيان ، كان فى مهمة بحث كبرى لا يدرى عنها إلى أين ستؤدى به ؟ وكيف ستنتهى ؟

وقال السنتاور العجوز : « اذن ، من الأفضل أن تنصرف دون توديع . سوف أبقى وأشرح لهم كل شىء » .

وأصبح وجه أتريو أكثر نحولا وصلابة .

وسأل قائلا : « أين أبدأ ؟ » .

فأجاب كايرون : « فى كل مكان ، وفى لا مكان . من الآن فصاعدا أنت وحيد ولا أحد بيستطيع أن يشير عليك . وسوف يكون الأمر على هذه الحال إلى نهاية مهمة البحث الكبرى ــ مهما كانت نهايتها » .

وطأطأ أتريو رأسه قائلا : « وداعا ، يا كايرون ! » .

ــ « وداعا يا أتريو . و ــ حظا سعيدا ! » .

والتفت الصبى وهو يريد أن يخرج من الخيمة . عندئذ نادى عليه السينتاور مرة أخرى وعندما وقفا أمام بعضهما الآخر وضع العجوز كلتا يديه على كتفيه ونظر فى عينيه بابتسامة كلها احترام وقال ببطء :

« أعتقد ، أننى بدأت أفهم سبب وقوع اختيار الإمبراطورة الطفولية عليك ، يا أتريو » .

وأخفض الصبى جبينه قليلاً ثم خرج مسرعا .

وفى الخارج أمام الخيمة كان يقف أرتاكس ، حصانه ، وقد كان أرقطاً وصغيراً كحصان برىّ ، وكانت أرجله قوية وقصيرة ، وبالرغم من ذلك فقد كان أكثر العدّائين سرعة ومثابرة على المدى البعيد . وقد كان ما زال مسرجا وملجما مثلما كان عندما عاد مع أتريو من الصيد .

وهمس أتريو فى أذنه وربت على رقبته قائلا : « أرتاكس ، يجب أن نشد الرحال يجب أن نذهب بعيدا ، بعيدا جدا . لا أحد يعرف إذا كنا سنعود أو متى سنعود » .

وهز الحصان الصغير رأسه ونفخ بصوت خافت .

وأجاب قائلا : « أجل ، يا سيدى ، وماذا عن أمر صيدك ؟ » .

فرد أتريو وهو يمتطى صهوته قائلا : « إننا ذاهبون إلى صيد أكبر بكثير » .

فنفخ الحصان الصغير قائلا : « قف ، سيدى ، لقد نسيت أسلحتك . أتريد أن ترحل بدون السهم والقوس ؟ » .

فأجاب أتريو : « أجل يا أرتاكس ، لأننى أحمل « البريق » ولابد أن أكون أعزلا » .

فصاح الحصان الصغير قائلا : « هُوُ ! وإلى أين المسير ؟ » .

ورد أتريو قائلا : « إلى حيث تريد . يا أرتاكس ، فمنذ هذه اللحظة نحن فى مهمة البحث الكبرى » .

وبذلك انصرفا مسرعين ، واحتوتهم ظلمة الليل .

وفى نفس الوقت حدث فى موضع آخر من فانتازين شىء لم يلاحظه أحد ، ولم يكن لدى أتريو ولا أرتاكس ولا حتى كايرون أدنى فكرة عنه .

ففى أحد المروج الليلية البعيدة جدا تجمّع الظلام مكوّنا شكلا شديد الضخامة كالشبح . وتكثف الظلام إلى أن ظهر حتى فى الليل الدامس لتلك المراعى كجسم هائل من السواد وكانت معالمه ما زالت غير واضحة . ولكنه كان يقف على أربعة مخالب وتوهجت نار خضراء فى عيون رأسه الأشعث الهائل . حينئذ رفع منخاره عاليا فى الهواء وراح يقتفى الأثر عن طريق الشم . ووقف على هذا الحال لفترة طويلة . وفجأة بدا أنه عثر على الرائحة التى يبحث عنها . لأن جلجلة عميقة تدل على فرحة الانتصار إندفعت خارج حنجرته .

وبدأ يجرى . وأسرع مخلوق الظلام فى قفزات طويلة صامتة خلال الليل البهيم .

ودقت ساعة البرج الحادية عشرة . وبدأت حينئذ الفسحة الكبيرة . ووصل إلى أعلى صراخ الأطفال من الممرات والذين كانوا يجرون إلى أسفل إلى فناء المدرسة .

وباستيان الذى كان لا يزال يجلس مربعا رجليه على دواسات الجمباز ، كانت رجلاه قد خدرت . فهو لم يكن واحدا من الهنود الحمر . فنهض واقفا وأحضر طعام الفسحة وتفاحة من حقيبته وراح يسير قليلا جيئة وذهابا فى المخزن . وتملت أقدامه ثم عادت إلى طبيعتها مرة أخرى ببطء . ثم تسلق حصان الجمباز وجلس فوقه جلسة الفرسان ، وتخيل نفسه أتريو راكبا على أرتاكس مسرعا خلال الليل . ورقد فوق رقبة حصانه الصغير . وصاح قائلا : « هيّا ، اجر يا أرتاكس ، هيّا ، هيّا » .

ثم أصابه الفزع . فقد كان من الرعونة التامة الصراخ بهذا الصوت العال . فماذا إذن إذا ما كان شخص ما قد سمعه الآن ؟ وانتظر برهة وأرهف سمعه . ولكن لم يصل إليه بأعلى سوى الصراخ متعدد الأصوات من فناء المدرسة .

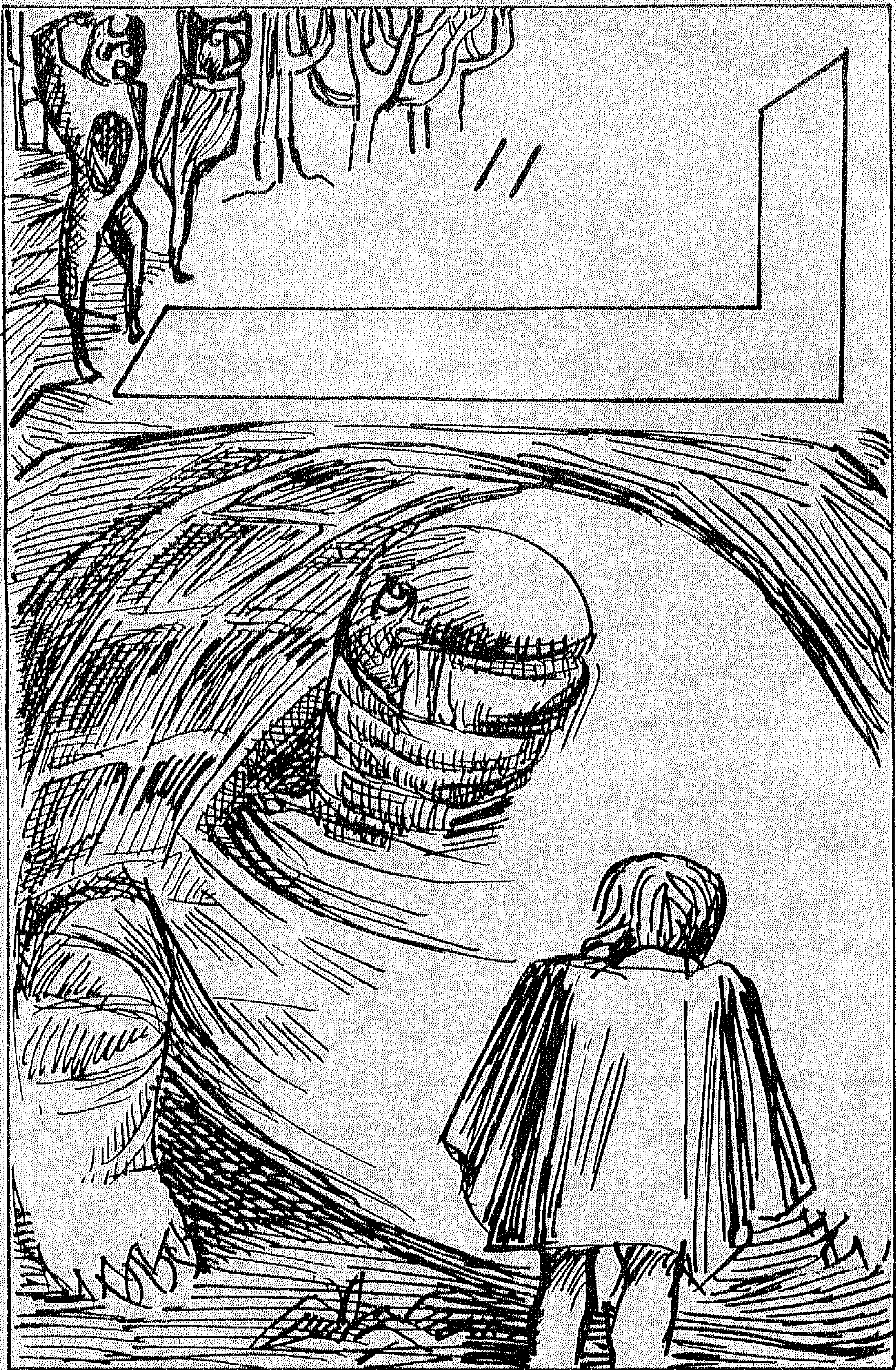
ونزل مرة أخرى من حصان الجمباز إلى أسفل وقد أصابه قليل من الخجل . حقا ، لقد تصرف مثل طفل صغير ! .

وأخرج طعام الفسحة من لفافته ودعك التفاحة فى سرواله إلى أن لمعت . ولكن قبل أن يُعمِل أسنانه فيها ، توقف . وقال لنفسه بصوت عال : « لا ، يجب أن أقسم مؤونتى بعناية . من يدرى كم من الوقت سأضطر للاكتفاء بهذا » .

ووضع الطعام وهو مهموم فى لفافته مرة أخرى وأدخله مع التفاحة فى الحقيبة ثانية . ثم استقر متنهدا فوق دواسات الجمباز ومد يديه مرة أخرى إلى الكتاب .

٣

مورلا.. العجوز الشمطاء





تعب وإرهاق استنفد قوى كايرون ، السينتاور ـ الأسود العجوز ، فهوى على مخدعه المكون من الجلود اللينة عندما سمع رنين حوافر حصان أتريو . والسيدات اللاتى وجدنه فى اليوم التالى فى خيمة أتريو ، خِفْن على حياته . وكذلك عندما عاد الصيادون بعد ذلك بعدة أيام ، لم تكن حالته قد تحسنت تحسنا يذكر ، ولكنه بالرغم من ذلك كان فى استطاعته أن يشرح لهم لماذا ركب أتريو حصانه منصرفا وأنه لن يعود عما قريب . ولأن الجميع كانوا يحبون الصبى فقد ذهبت عنهم روح المرح منذ ذلك الحين وتفكروا فيه بانشغال كبير . ولكنهم فى نفس الوقت كانوا فخورين أيضا ، لأن الإمبراطورة الطفولية قد كلفته هو بالذات بمهمة البحث الكبرى ـ بالرغم من أن لا أحد كان يفهم ذلك فهما تاما .

وبالمناسبة فإن كايرون العجوز لم يعد مطلقا إلى برج العاج . ولكنه لم يمت أيضا وكذلك لم يبق لدى أصحاب الجلود الخضراء فى بحر الأعشاب . فقدره سوف يقوده إلى طريق آخر تماما وغير متوقع بالمرة . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكى فى مناسبة أخرى .

واستمر أتريو راكبا حصانه فى نفس الليلة حتى سفح جبال الفضة . وعندما توقف للراحة كان الصباح قد اقترب . وأكل أرتاكس قليلا من الحشائش وشرب ماء من جدول جبلى رائق . والتف أتريو فى معطفه الأحمر ونام بضع ساعات . ولكن عندما أشرقت الشمس ، استأنفا رحلتهما مرة أخرى .

وفى اليوم الأول اجتازا جبال الفضة . وهناك كان كل ممر وكل طريق معروف لديهما وقد سارا متقدمين بسرعة إلى الأمام . وعندما شعر بالجوع أكل الصبى قطعة

من لحم الجاموس ورغيفين صغيرين صنعا من حبوب الأعشاب ، والتى كان يحتفظ بها فى كيس على السرج - فى الحقيقة من أجل الصيد .

فقال باستيان : « ألم أقل لك لا بد للإنسان أن يأكل شيئا بين الوقت والاخر » وأحضر طعام الفسحة من الحقيبة وفك لفافته ، وكسره بحذر إلى قطعتين ، ولف احداهما مرة أخرى ووضعها بالداخل . والأخرى أكلها وانتهت الفسحة ، وفكر باستيان ماذا سيأتى فى الفصل بعدئذ . آه ، صحيح ، جغرافيا لدى السيدة كارجه . وكان يجب على الإنسان أن يذكر أسماء وفروع أنهار ، ومدنا وأعداد سكان ، والثروات المعدنية والصناعات . وهزباستيان كتفيه وواصل قراءته .

وعند غروب الشمس كانت جبال الفضة من ورائهما ، فتوقفا للراحة مرة أخرى . وفى هذه الليلة حلم أتريو بالجواميس الأرجوانية ورآها وهى تسير من خلال بحر الاعشاب ، وحاول أن يقترب منها وهو على حصانه . ولكن دون جدوى . فقد ظلت دائما على نفس البعد ، مهما حفز حصانه على الإسراع .

وفى اليوم الثانى أتيا عبر بلاد الأشجار المغردة . وكان لكلٍّ منها شكل مختلف ، وأوراق مختلفة ولحاء مختلف ، ولكن سبب تسمية هذه البلاد بهذا الاسم هو أن الإنسان كان يستطيع أن يسمعها وهى تنمو كموسيقى ناعمة تصدح من قريب ومن بعيد ثم تتحد فى كيان شامل أخّاذ لا يمكن مقارنته فى الجمال بأى شىء آخر فى فانتازين . ولم يكن السير عبر هذه المنطقة خال من الخطورة تماما ، حيث إن بعضهم ظل جالسا كالمسحور وقد نسى كل شىء . وأحس أتريو بقوة هذه النغمات الرائعة ولكنه لم يترك نفسه لإغراء التوقف .

وفى الليلة التالية حلم مرة أخرى بالجواميس الأرجوانية وفى هذه المرة كان سائرا على الأقدام . وهى تمر أمامه فى قطيع كبير ، ولكنها كانت خارج مدى قوسه ، وعندما أراد أن يتسلل للاقتراب منها ، لاحظ كما لو كانت قدماه ملتصقة بالأرض ولا يمكن تحريكها . وقد استيقظ على مجهوده فى انتزاعهما ، وكان الوقت مازال قبل شروق الشمس ، ولكنه شد الرحال على الفور .

وفى اليوم الثالث شاهد الأبراج الزجاجية لمنطقة إريبو حيث يلتقط سكان هذه الناحية ضوء النجوم ويجمعوه ويصنعون منه أشياء مزخرفة زخرفة رائعة ، والتى لم يكن أحد فى فانتازين غيرهم أنفسهم يعرف غرض استعمالها فعلا .

ولقد قابل بعض هؤلاء الناس ، وكانوا ذوى أحجام صغيرة ، وهم أنفسهم كانوا يبدون كما لو كانوا من الزجاج المصنوع بالنفخ . وقد زودوه بحفاوة كبيرة بالطعام والشراب ، ولكن عندما سأل عمَّن يمكنه أن يعلم شيئا عن مرض الإمبراطورة الطفولية غرقوا فى صمت حزين حائر .

وفى الليلة التالية حلم أتريو مرة أخرى أن قطيع الجاموس الأرجوانى قد مر من أمامه ورأى كيف ينفصل أحد الحيوانات ، وكان فحلا هائلا ، ضخما جداً ، عن مجموعه الآخرين ، ويتجه إليه ببطء وبدون خوف أو غضب . ومثل جميع الصيادين الحقيقيين ، فقد كانت لدى أتريو أيضا موهبة أن يرى على الفور فى كل مخلوق الموضع الذى يجب أن يصيبه لكى يرديه قتيلا . وفوق ذلك فقد أوقف الجاموس الأرجوانى نفسه بحيث يجعلها هدفاً محققا له . ووضع أتريو السهم وشد القوس المتين بكل قواه ـ ولكنه لم يستطع الرماية . فقد كانت أصابعه كما لو كانت ملتصقة بوتر القوس ولم تتركه .

وعلى هذا المنوال أو ما شابه ذلك كان مجرى أحلامه فى جميع الليالى التالية . فقد كان يريد قتله ، وقد عرفه من بقعة بيضاء على جبهته ـ ولكنه لأى سبب من الأسباب لم يستطع أن يرسل السهم المميت .

وواصل سيره بالحصان أياما باستمرار إلى أبعد ـ دون أن يدرى ودون أن يجد أحدا يمكنه أن يشير عليه . وكان الحجاب الذهبى الذى يحمله ، يلاقى الاحترام من جميع الكائنات التى قابلته ، ولكن لا أحد منهم عرف الإجابة على سؤاله .

ذات مرة لمح من بعيد شوارع اللهب لمدينة بروش حيث تسكن المخلوقات التى تتكون أجسامها من النار ، ولكنه فضل عدم القيام بزيارة إلى هناك . واجتاز السهول المرتفعة الواسعة ، أرض السّسافِرة الذين يولدون كبارا ، ويموتون عندما يصبحون أطفالا رُضّع . وأتى إلى معبد أدغال موامات ، حيث يتعلق عامود كبير من

حجر القمر حرا فى الهواء ، وتحدث مع الكهان الذين يعيشون هناك . وحتى هناك اضطر إلى مواصلة الرحيل دون معلومات .

وكان قد سار حينئذ هائما فيما يقرب من أسبوع عندما شاهد فى اليوم السابع وفى الليلة التى تلته شيئين مختلفين تمام الاختلاف ، واللذان غيّرا من وضعه الداخلى والخارجى تغييرا أساسيا .

صحيح أن حكاية كايرون العجوز عن الاحداث المرعبة التى حصلت فى جميع أجزاء فانتازين قد أثرت فيه ، ولكن كان كل هذا حتى ذلك الوقت مجرد خبر بالنسبة له . وفى اليوم السابع كان عليه أن يشاهدها بعينى رأسه .

وكان وقت الظهيرة عندما سار راكبا خلال غابة كثيفة مظلمة تتكون من أشجار عملاقة جدا وكثيرة الأغصان . لقد كانت تلك غابة هاوليڤالد التى التقى فيها قبل ذلك بوقت قليل الأربعة رسل . وفى هذه المنطقة كانت توجد عفاريت من جن لحى الأشجار ، وكان أتريو يعرف ذلك . وقد كانوا ، كما قيل له ، آدميون وآدميات ، كان منظرهم مثل جذوع الشجر ذات الأغصان . وعندما كانوا يقفون كعادتهم بلا حراك فمن الممكن أن يظن المرء أنهم فعلا أشجار ويمر بهم دون أن يدرى . فقط عندما يتحركون يرى المرء أن لديهم أذرعا كهيئة الأغصان وأرجلا ملتوية كهيئة الجذوع . وصحيح أنهم كانوا أقوياء جدا ، ولكنهم لم يكونوا خطرين ـ على أقصى تقدير كان يحلو لهم بين الحين والآخر أن يداعبوا التائهين من الجوّالين .

وكان أتريو قد اكتشف مرجا فى الغابة ينساب من خلاله جدول ماء صغير ، وترجّل لكى يترك أرتاكس يشرب ويأكل العشب ، عندما سمع فجأة قعقعة وصعصعة من خلفه فى الغابة والتفت وراءه . واتجهت ناحيته ثلاثة عفاريت من جن لحى الأشجار من داخل الغابة ، وعندما شاهدهم سرت قشعريرة باردة فوق ظهره . الأول منهم كانت تنقصه الأرجل ونصفه الأسفل لدرجة أنه اضطر للمشى على يديه . والثانى كان لديه ثقب هائل فى صدره يستطيع المرء أن ينظر من خلاله . والثانى كان يقفز على رجله الوحيدة اليمنى ـ لأن نصفه الأيسر كله كان ناقصا ، كما لو كان مقطوعا من الوسط إلى جزئين .

وعندما رأوا الحجاب على صدر أتريو ، هزوا رؤ وسهم لبعض ثم أتوا مقتربين ببطء . وقال الذى يسير على يديه بصوت كطقطقة إحدى الأشجار : « لا تفزع ، صحيح أن منظرنا ليس على قدر من الجمال ، ولكن لا يوجد أحد فى هذا الجزء من غابة هاوليڤالد غيرنا يمكنه أن يحذرك . لذلك جئنا . »

فسال أتريو : «تحذروننى ! مم ؟ »

وقال ذلك ذو الصدر المثقوب بصوت كالأنين : « لقد سمعنا عنك ، وحُكى لنا عن سبب سفرك . ولا يجوز لك أن تواصل رحلتك هنا ، وإلا فأنت مفقود . »

فتنهد المفلوق قائلا : « وإلاّ يحدث لك نفس ما حدث لنا ، أُنظر إلينا . هل تود ذلك ؟ »

فقال أتريو مستفسرا : « ماذا حدث لكم ؟ » فتأوه الأول قائلا : « الدمار ينتشر ، ينمو وينمو ويزداد يوما بعد يوم - إذا ما جاز للمرء أن يقول عن اللا شىء إنه يزداد . الآخرون كلهم هربوا فى الوقت المناسب من غابة هاوليڤالد ، ولكننا لم نرد مغادرة وطننا . ففاجأنا ونحن نيام ، وفعل بنا ما تراه أمامك الآن . »

فسأل أتريو : « أتشعرون بألم شديد ؟ »

فأجاب عفريت جن لحى الأشجار الثانى ذو الثقب فى صدره : «لا ، فالمرء لا يحس شيئا ولكن ينقص المرء شىء ما فقط ، وكل يوم يزداد النقص لدى المرء عندما يصاب به مرة . وسرعان ما سنكون غير موجودين بالمرة . » .

وقال أتريو راغبا المعرفة : « وأين الموضع فى الغابة الذى بدأ منه ؟ »

« أتريد أن تراه » سأل ذلك العفريت الذى كان نصفا فقط ، ونظر إلى رفقائه فى الألم متسائلا ، وعندما هزوا رؤ وسهم بالإيجاب ، استمر قائلا :

« سوف نقودك إلى حيث يمكنك مشاهدته ، ولكن يجب أن تعدَ بعدم زيادة الاقتراب وإلا سيجذبك بشكل لا يمكن مقاومته . »

فقال أتريو : « حسنٌ ، أعدكم ذلك . »

والتفت الثلاثة وتحركوا ناحية طرف الغابة . وشد أتريو أرتـاكس من اللجام وتبعهم . ومشوا برهة صغيرة بلا هدف بين الأشجار العملاقة ، ثم توقفوا أمـام جذع سميك جدا ، ومحيطه ربما لا يستطيع تطويقه خمسة من الرجال اليافعين .

فقال العفريت عديم الأرجل : « تسلق إلى أعلى ما يمكنـك ، ثم انظر إلى مشرق الشمس وهناك سوف تراه ـ أو بالأحرى لن ترى شيئا . »

وتسلق أتريو على الأغصان البارزة ومنحيات الجذع إلى أعلى . ثم وصل إلى الفروع السفلى ، فتحرك إلى أعلى إلى الفروع التالية ، وسلك طريقه بقوة إلى أعلى ، وأعلى ، إلى أن فقد الرؤ ية إلى أسفل . واستمر فى التسلق ، وازداد نحول الجذع ، وتزايد عدد الفروع الجانبية بحيث إنه تقدم بسهولة مضطردة . وعندما جلس أخيرا على أعلى فنن ، وجه نظره إلى مشرق الشمس . وعندئذ رآه :

إنّ قمم الأشجار الأخرى القريبة جداً كانت خضراء ، ولكن أوراق الأشجار الواقعة خلفها بدت فاقدة لكل لون ، فقد كانت رمادية اللون . وأبعد من ذلك بقليل بدت وقد أصبحت شفافة بشكل غريب ، كالضباب أو بمعنى أفضل غـير واقعية بشكل متزايد . ووراء ذلك لم يكن هناك شىء ، مجرد لا شىء . ولم تكن منطقة قاحلة ، لا ظلام ، ولا ضياء أيضا ، لقد كان شيئا لا تتحمله العيون ويعطى المرء شعورا بأنه أصبح أعمى ـ لأنه لا تستطيع أية عين أن تتحمل النظر فى العدم التام . ووضع أتريو يده أمام وجهه وكاد يسقط من الفرع الواقف عليه فتشبث ونزل مرة أخرى بأسرع ما يستطيع . لقد رأى ما فيه الكفاية . والآن فقد أدرك تماما الرعب الذى انتشر فى فانتازين .

وعندما وصل مرة أخرى عند سفح جذع الشجرة العملاقـة كان الثـلاثة عفاريت من جن لحى الأشجار قد اختفوا . وامتطى أتريو صهوة حصانه ، وأسرع فى ركض طويل فى اتجاه يؤدى بعيدا عن هذا العدم الذى ينتشر ببطء ولكن دون توقف . فقط عندما عم الظلام وخلّف وراءه غابة هاوليڤالد بفترة طويلة توقف للراحة .

وفى هذه الليلة كانت تنتظره الحادثة الثانية والتى ستعطى مهمة بحثه الكبرى اتجاها جديدا . فقد رأى فى المنام ـ بشكل أوضح بكثير عن ذى قبل ـ الجاموس الأرجوانى الضخم الذى كان يريد أن يصرعه . وفى هذه المرة أمامه دون قوس وسهام . وشعر بأنه صغير ضئيل وقد ملأ وجه الحيوان السماء كلها . وسمعه يتحدث إليه ، ولم يستطع أن يفهم كل شىء ، ولكنه قال ما يلى تقريبا :

« لو كنت قتلتنى ، لكنت الآن صيادا . ولكنك تغاضيت عن هذا ، ولذلك أستطيع الآن مساعدتك يا أتريو . اسمع ! هناك كائن فى فانتازين أكبر سنا من جميع الكائنات الأخرى . بعيدا ، بعيدا عن هناك فى الشمال تقع مستنقعات الحزن . وفى وسط هذه المستنقعات يرتفع الجبل العظمى . وهناك تسكن مورلا العجوز الشمطاء . ابحث عن مورلا العجوز الشمطاء . »

وبعد ذلك استيقظ أتريو .

ودقت الساعة اثنتى عشرة مرة . وسرعان ما نزل زملاء باستيان بالفصل حينئذ إلى قاعة الجمباز للحصة الأخيرة . وربما سيلعبون اليوم الكرة الشعبية ، أو سيلعبون بالكرة الطبية الثقيلة ، والتى أبدى فيها باستيان دائما عدم مهارة تامة ـ ولذلك لم يكن يرغب فيه أى فريق وأحيانا كان عليهم أن يلعبوا بكرة مضرب صغيرة وصلبة كالحجر كانت تؤلم بفظاعة إذا أصابت شخصا ما . وكانت تصيب باستيان دائما بكل قوة لأنه كان هدفا سهلا . وربما يجىء الدور اليوم على حبال التسلق ـ وهو تمرين كان باستيان يكرهه بشكل خاص . فبينما كان معظم الآخرين فى أعلى تماما ، كان هو يتأرجح عادة مثل جوال الدقيق برأس فى حمرة عرف الديك الرومى عند الطرف الأخير للحبل ولا يستطيع أن يصعد نصف متر إلى أعلى ، وهو ما كان مدعاة للسرور المكتوم للفصل كله . ومدرّس التربية الرياضية ، السيد مينجه لم يكن يقتصد من تهكمه على حساب باستيان .

إن باستيان كان مستعدا ـ أن يدفع الكثير ليصبح مثل أتريو . حينئذ يـريهم كلهم . وتنهد بعمق .

وسار أتريو بحصانه ناحية الشمال ، دائما ناحية الشمال . ولم يَجُدْ على نفسه وعلى حصانه إلا بأشد ضروريات الراحة للنوم والطعام . وسار ليلا ونهارا ، فى وهج الشمس والمطر فى العواصف والأنواء . ولم يعد يضع شيئا فى الاعتبار ولم يعد يسأل أحداً .

وكلما استمر فى اتجاهه نحو الشمال ازداد الظلام . وملأت أيام النهار دغشة رمادية كالرصاص ظلت ثابتة على الدوام . وفى الليالى كانت تتلاعب أنوار كالشفق الشمالى فى السماء .

وفى صباح ما ، حيث بدا الزمان كله قد توقف فى ضوء أغبش عتم ، رأى من فوق إحدى الهضاب مستنقعات الحزن . أفواج من الضّباب كانت تسرى فوقها ، وهناك كانت تبرز غابات صغيرة من أشجارٍ جذوعها تنقسم إلى أسفل إلى أربعة أو خمسة أو أكثر من العيدان المقوسة لدرجة أنها بدت كسرطانات الماء الضخمة التى تقف بأرجل متعددة فى الماء الأسود . ومن فروعها المورقة ذات اللون البنى كانت تتدلى فى كل مكان جذوع للتهوية متجهة إلى أسفل والتى كانت تشبه أذرع الاخطبوط الساكنة . وكان من شبه المستحيل معرفة فى أىّ المواضع كانت الأرض صلبة من بين البرك الموحلة ، وفى أىّ المواضع تتكون فقط من طبقة من النباتات العائمة .

ونفخ أرتاكس بصوت خافت من الفزع . وقال : « هل ينبغى أن ندخل هناك ، يا سيدى ؟ » فأجاب أتريو : « نعم ، يجب أن نعثر على الجبل العظمى الذى يقع فى وسط هذه المستنقعات . »

وحث أرتاكس على التقدم ، فأطاع الحصان الصغير . وكان يختبر صلابة الأرض بحوافره خطوة خطوة ، ولذا لم يتقدما إلى الأمام إلا ببطء شديد . وأخيرا ترجل أتريو ، وشد أرتاكس من اللجام خلفه . وقد انغرس الحصان عدة مرات ، ولكنه كان ينجح دائما فى تخليص نفسه . ولكن كلما تعمقوا داخل مستنقعات الحزن ، ازدادت حركته تثاقلا ، وأطرق برأسه ولم يتقدم إلى الأمام إلا بجهد جهيد . فقال أتريو : « أرتاكس ، ماذا بك ؟ »

فرد الحيوان قائلا : « لست أدرى يا سيدى ، من رأيى أنّ علينا الرجوع . فكل شىء ليس له فائدة إننا نجرى وراء شىء لم تره إلا فى الحلم . ولكننا لن نعثر على شىء . وربما كان الأوان أيضا قد فات فعلا . وربما تكون الامبراطورة الطفولية قد ماتت فعلا ، وأن كل ما نفعله ليس له مغزى . دعنا نرجع يا سيدى . »

فقال أتريو مندهشا : « إنك لم تتحدث مطلقا على هذا النحو يا أرتاكس . ماذا بك ؟ هل أنت مريض ؟ » .

فأجاب أرتاكس : « ربما ، فمع كل خطوة نخطوها يزداد الحزن فى قلبى . ولم يعد لدى أى أمل . وأشعر بأننى ثقيل جدا . وأعتقد أننى لا أستطيع مواصلة السير . » .

فصاح أتريو : « ولكن يجب علينا أن نستمر ، هيّا يا أرتاكس ! »

وشد اللجام ولكن أرتاكس ظل واقفا ، وكان قد انغرس حتى بطنه . ولم يعد يفعل أى شىء ليخلص نفسه .

وصرخ أتريو قائلا : « أرتاكس ، لا يجوز لك أن تتراخى الآن ! هيا ، اخرج ، وإلا غرقت ! »

فرد الحصان الصغير قائلا : « دعنى يا سيدى ! لن أفلح . أكمل السير وحدك ! ولا تهتم بأمرى ! فأنا لم أعد أستطيع تحمل هذا الحزن . أريد أن أموت . »

وجذب أتريو اللجام يائسا ، ولكن الحصان الصغير استمر يغرق إلى أعمق . ولم يستطع أن يفعل شيئا تجاه ذلك . وأخيرا عندما لم يبرز سوى رأس الحيوان من المياه السوداء أخذه فى أحضانه . وهمس قائلا : «سأمسك بك يا أرتاكس ، لن أتركك تغرق . »

وصهل الحصان الصغير مرة أخرى بصوت منخفض وقال :

« إنك لن تستطيع أن تساعدنى ، لقد انتهى أمرى . نحن الاثنين لم نكن ندرى ماذا ينتظرنا هنا . والآن نحن نعرف لماذا تحمل المستنقعات هذا الاسم ؟ إنه الحزن هو الذى أثقلنى لدرجة إجبارى على الغرق . لا مفر . »

فقال أتريو : ولكننى أيضا هنا ، ولا أشعر بشىء .
فأجاب أرتاكس : «أنت تحمل « البريق » يا سيدى ، فأنت مُصان»
فصاح أتريو : «اذن أريد أن ألف العلامة حول رقبتك . فربما تحميك أنت أيضا»

وهمّ أن يخلع السلسلة من رقبته .

فنفخ الحصان قائلا : «لا ، لا يجوز لك ، ياسيدى . لقد مُنح لك البانتا كل وليس لديك التصريح بمواصلة إعطائه كما يحلو لك . لابد أن تواصل البحث بدونى»

وضغط أتــريـو وجهــه عـلى وجنــة الحصـــان . **وهمس بصــوت مختنق** : «أرتاكس . . . آه ، يا عزيزى أرتاكس !»

وسأل الحيوان قائلا : «أتريد أن تحقق لى رغبة أخيرة ياسيدى ؟»
وهز أتريو رأسه بالإيجاب صامتا .

– «أرجوك أن تنصرف . لا أودُّك أن ترانى عندما يصل بى الأمر الآن إلى المنتهى . أتريد أن تصنع لى هذا المعروف ؟»

فنهض أتريو ببطء . وكان رأس الحصان الصغير حينئذ واقع إلى نصفه فى المياه السوداء .

وقال : «وداعا أتريو ، ياسيدى !ـــ وشكرا !»

وزم أتريو شفتيه ولم يستطع أن يقول شيئا .
وحيّا أرتاكس برأسه مرة أخرى . ثم أشاح بوجهه وانصرف .

وأجهش باستيان بالبكاء فهو لم يستطع كتمانه . وامتلأت عيناه بالدموع ، ولم يتمكن من مواصلة القراءة . وكان عليه أن يخرج منديله أولا ثم ينفض أنفه قبل أن يستطيع الاستمرار .

ولم يدر أتريو كم من الوقت استمر فى خوضه . لقد كان كا لأعمى والأطرش .

وازداد الضباب كثافة ، وتملك أتريو شعور بأنه يدور هائما فى حلقة منذ ساعات . ولم يعد يهتم إلى أين تطأ قدمه ، وبالرغم من ذلك فلم ينغرس أبدا إلى أعمق من ركبته . فلقد كانت علامة الإمبراطورة الطفولية تقوده إلى الطريق الصحيح بشكل لم يكن يدركه .

وفجأة وقف أمام منحنى جبل عال وعرنوعا ، وصعد إلى أعلى الصخرة المشققة ، وتسلق القمة القُببية المستديرة . وفى البداية لم يلاحظ من أى شىء تتكوّن هذه الصخور ولكنه عندما وصل إلى أعلى تماما وألقى نظرة شاملة على الجبل ، فرأى أنها ألواح عظمية هائلة تتكاثر من بين شقوقها وفلوقها الطحالب .

لقد عثر إذن على الجبل العَظْمى .

ولكنه لم يشعر بالرضى لهذا الاكتشاف . فنهاية حصانه الصغير الوفى جعلته يتقبل هذه الحقيقة دون اكتراث تقريبا . وكان عليه الآن أن يكتشف أين ومن هى مورلا العجوز الشمطاء التى تسكن هناك . وأثناء ما هو لم يزل فى تفكيره ، شعر فجأة بهزّة خفيفة تسرى من خلال الجبل ، ثم تراءى إلى سمعه زفير هائل ومصمصة وصوت يبدو وكأنه يأتى من أعمق أحشاء الأرض يقول :

«اسمعى ، أيتها العجوز ، هناك شىء يدب فوقنا .»

وأسرع أتريو ناحية طرف ظهر الجبل من حيث أتت الأصوات . وعند ذلك تزحلق فوق وسادة من الطالحب واندفع فى الانزلاق . ولم ينجح فى التماسك واستمر ينزلق فى سرعة متزايدة وأخيرا سقط إلى أسفل . ولحسن حظه وقع فى أحد الأشجار القائمة بأسفل وقد تلقفته أغصانها .

ورأى أتريو أمامه كهفا عملاقا فى الجبل حيث كانت تتحرك وتتخبط فيه المياه السوداء ، فهناك بالداخل تحرك شىء ما وأتى إلى الخارج ببطء . وكان يبدو ككتلة صخرية فى حجم أحد البيوت . فقط عندما ظهر للنظر تماما ، عرف أتريو أنه رأس يقبع فوق رقبة طويلة مجعدة . رأس سلحفاة . وكانت عيناها فى حجم البرك السوداء . وكان فمها يقطر أوحالا وطحالبا وكان هذا الجبل العظمى كله ــ وهذا

ما أدركه أتريو الآن فجأة ــ حيوان واحد هائـل ، سلحفاة مستنقعـات ضخمة : مورلا العجوز الشمطاء !

ثم سُمع مرة أخرى هذا الصوت الزافر والمشابه للغرغرة وهو يقول :

«أيها الصغير ، ماذا تفعل هناك ؟»

ومد أتريو يده إلى الحجاب على صدره ، وأمسك به بحيث لابد أن تراه عينها الكبيرة فى حجم البركة ، وقال : «هل تعرفى هذا يامورلا ؟»

واستغرقت برهة قبل أن تجيب قائلة :

« انـظرى أيتها العجـوز ــ آورين ــ اننا لم نره منذ وقت طـويل ، عـلامـة الامبراطورة الطفولية ــ منذ فترة طويلة . »

فرد أتريو قائلا : «الإمبراطورة الطفولية مريضة ، هل علمت بذلك ؟»
فأجابت مورلا : «الأمر بالنسبة لنا سيان ، أليس كذلك أيتها العجوز ؟»

ويبدو أنها كانت تتحدث مع نفسها بهذه الطريقة الخاصة ، ربما لأنه لم يكن لديها مشارك آخر فى الحديث ومن يدرى منذ أى مقدار من الزمن .

وأضاف أتريو بالحاح شديد قائلاً : «إذا لم ننقذها ، فسوف تموت . »
فأجابت مورلا : «لا يهم أبضا . »
فصاح أتريو : «ولكن معها ستهلك فانتازين . إن الدمار ينتشر فعلا فى كل مكان . لقد رأيته بنفسى . »

وحملقت فيه مورلا بعينها الضخمة الزائغة . وغرغرت بصوتها قائلةً : «ليس لنا اعتراض على هذا . أليس كذلك أيتها العجوز ؟»

فصرخ أتريو : «اذن سوف نهلك جميعا ، نحن جميعا !»
فردت مورلا : «انظر أيها الصغير . وماذا يعنينا هذا ؟ فكل شىء لم يعد له أهمية لنا . كل شىء سيان ، كل شىء سيان . »

فصرخ أتريو غاضبا : «وأنت أيضا يامورلا سوف تهلكين ، وأنت أيضا . أم

ترين أنك سوف تعيشين بعد فانتازين لأنك على هذا القدر من الكِبر ؟»

فغرغرت مورلا بصوتها قائلة : «انظر ، نحن عجائز ، أيها الصغير ، عجائز جدا جدا وقد عشنا بما فيه الكفاية . وشاهدنا الكثير جدا . ومن يعرف الكثير مثلنا ، لا يكون لشىء آخر أهمية عنده . فكل شىء يعيد نفسه إلى الأبد ، النهار والليل ، الصيف والشتاء ، والدنيا فارغة وبدون شمس . وكل شىء يدور فى حلقة . وما ينشأ لابد أن ينقضى مرة أخرى ، وما يولد لابد أن يموت . وكل شىء يُبطل الآخر ، الخير والشر الغباء والحكمة ، الجمال والقبح . كل شىء خاوٍ . لا شىء حقيقى . لا شىء مهم .»

ولم يعرف أتريو بماذا يجيب . فنظرة العجوز الشمطاء مورلا الهائلة المعتمة الغائبة قد شلت جميع أفكاره . وبعد برهة سمعها تتكلم مرة أخرى قائلة :

«أيها الصغير ، أنت صغير السن . ونحن عجائز . ولو كنت عجوزا مثلنا لعلمت أنه لا يوجد شىء سوى الحزن . انظر . لماذا لا ينبغى لنا أن نموت ، أنت ، أنا ، الإمبراطورة الطفولية ، الجميع ، الجميع ؟ إن كل شىء ليس إلا خداع . ليس إلا لعب فى اللا شىء . كل شىء سيان تماما . دعنا فى سلام ، أيها الصغير ، اذهب بعيدا .»

وشد أتريو كل عزيمته لكى يقاوم الشلل الذى كان يخرج من نظرها .

وقال : «إذا كنت تعرفين الكثير هكذا ، فأنت تعرفين أيضا فى أى شىء يكمن مرض الإمبراطورة الطفولية وإذا كان هناك دواء لها ؟»

فلهثت مورلا قائلة : «نحن نعلم ، أليس كذلك أيتها العجوز ، نحن نعلم . ولكنه سيان إذا أُنقذت أم لا . فلماذا إذن ينبغى أن نقول ؟»

فألح عليها أتريو قائلا : «اذا كان الأمر فعلا سيان عندك تماما ، فيمكنك أن تذكريه لى بنفس القدر ؟»

فقالت مورلا بصوت كالشخير : « يمكننا أيضا ، أليس كذلك أيتها العجوز ؟ ولكن ليست لدينا الرغبة فى ذلك » .

فصاح أتريو : «إذن فالأمر عندك ليس فعلا سيان . إذن فأنت نفسك لا تؤمنين بما تقولين .» واستمرت فترة صمت طويلة ، ثم سمع صوت غرغرة وتجشؤ عميق . لابد وأنه كان نوعا من الضحك ، هذا إذا ما كانت مورلا العجوز الشمطاء تعرف الضحك على الإطلاق . وعلى كل حال فقد قالت : «أنت ماكر ، أيها الصغير . انظر . أنت ماكر . لم نمزح منذ وقت طويل : أليس كذلك أيتها العجوز ؟ انظر . إننا نستطيع فعلا أن نقوله لك بنفس القدر ليس هناك فرق . أنقول له ، أيتها العجوز ؟»

وساد صمت طويل . وانتظر أتريو إجابة مورلا بشوق ، دون أن يقطع حبل أفكارها البطيئة البائسة بالأسئلة . وأخيرا أكملت حديثها قائلة :

«أنت تحيا لوقت قصير ، أيها الصغير . نحن نحيا وقتا طويلاً ، فعلا وقتا طويلاً جدا . ولكننا نحيا فى الزمن . أنت لفترة قصيرة . ونحن نحيا طويلا . الإمبراطورة الطفولية كانت قبلى . ولكنها ليست عجوزا . إنها دائما شابه . انظر . إن وجودها لا يقاس بحقبة زمنية ، ولكن بالاسم . إنها تحتاج إلى اسم جديد ، بين الحين والآخر اسم حديد . أتعرف اسمها ، أيها الصغير ؟»

فقال أتريو معترفا : «كلا ، لم أسمع به أبدا من قبل» .

فأجابت مورلا : «أنت أيضا لا تستطيع ذلك ، ولا حتى نحن نستطيع تذكّره . وبالرغم من ذلك فقد كان عندها من الأسماء الكثير ، ولكنها نُسيت جميعا ، فقد انقضى كل شىء . ولكنها لا تستطيع أن تحيا بدون اسم . وهى ، الإمبراطورة الطفولية ، لا تحتاج إلا لاسم جديد ، فتصبح معافية ، ولكن ليس هناك أهمية لأن تصبح »

وأغلقت عينيها ذات حجم البحيرة وبدأت فى سحب رأسها ببطء .

فصاح أتريو : «انتظرى . من أين ستحصل على الاسم ؟ من سيمنحها الاسم ؟ أين أجد الاسم ؟ »وسمع مورلا وهى تغرغر بصوتها قائلة : «لا أحد منا . لا كائن فى فانتازين يستطيع أن يمنحها اسما جديدا . ولذلك فكل شىء بلا جدوى . لا تبالى أيها الصغير فكل شىء غير هام . »

وصرخ أتريو غير متمالك نفسه : «مَن إذن ؟ من يستطيع أن يمنحها الاسم وينقذها وينقذنا جميعا ؟»

فقالت مورلا : « لا تفعل مثل هذا الضجيج . دعنا فى سلام وانصرف . ونحن لا نعرف أيضا من يستطيع ذلك . »

فصرخ أتريو بصوت متزايد الارتفاع : «إذا لم تكونى تعرفينه ، فمن يعرفه اذن ؟» وفتحت عينها مرة أخرى .

وزفرت قائلة : «لو لم تكن تحمل « البريق » لا لتهمناك ، فقط لكى يحل الهدوء مرة أخرى . انظر»

فقال أتريو بعناد : « من ؟ قولى لى من يعرف ، وأنا أتركك دائما وإلى الأبد فى سلام !»

فأجابت : «الأمر سيان تماما . ربما أيولالا فى أرض التنبؤات الجنوبية . ربما تعرف هى . فما شأننا بذلك . »

- «وكيف أجىء إلى هناك »

- «أنت لا تستطيع أن تأتى إلى هناك على الإطلاق . أيها الصغير . انظر . ولا بعد رحلة عشرة آلاف يوم . فحياتك قصيرة جدا . ولسوف تموت قبلها . إنها بعيدة جدا ، فى الجنوب ، بعيدة أكثر من اللازم . لذلك فكل شىء لا جدوى له . لقد قلنا هذا منذ البداية ، أليس كذلك ، أيتها العجوز ؟ دع الأمر وأعرض عنه ، أيها الصغير . وقبل كل شىء ، دعنا فى سلام !»

وبذلك أغلقت عينيها الزائغتين نهائيا وسحبت رأسها إلى الوراء فى الكهف . وعلم أتريو أنه لن يعرف منها المزيد .

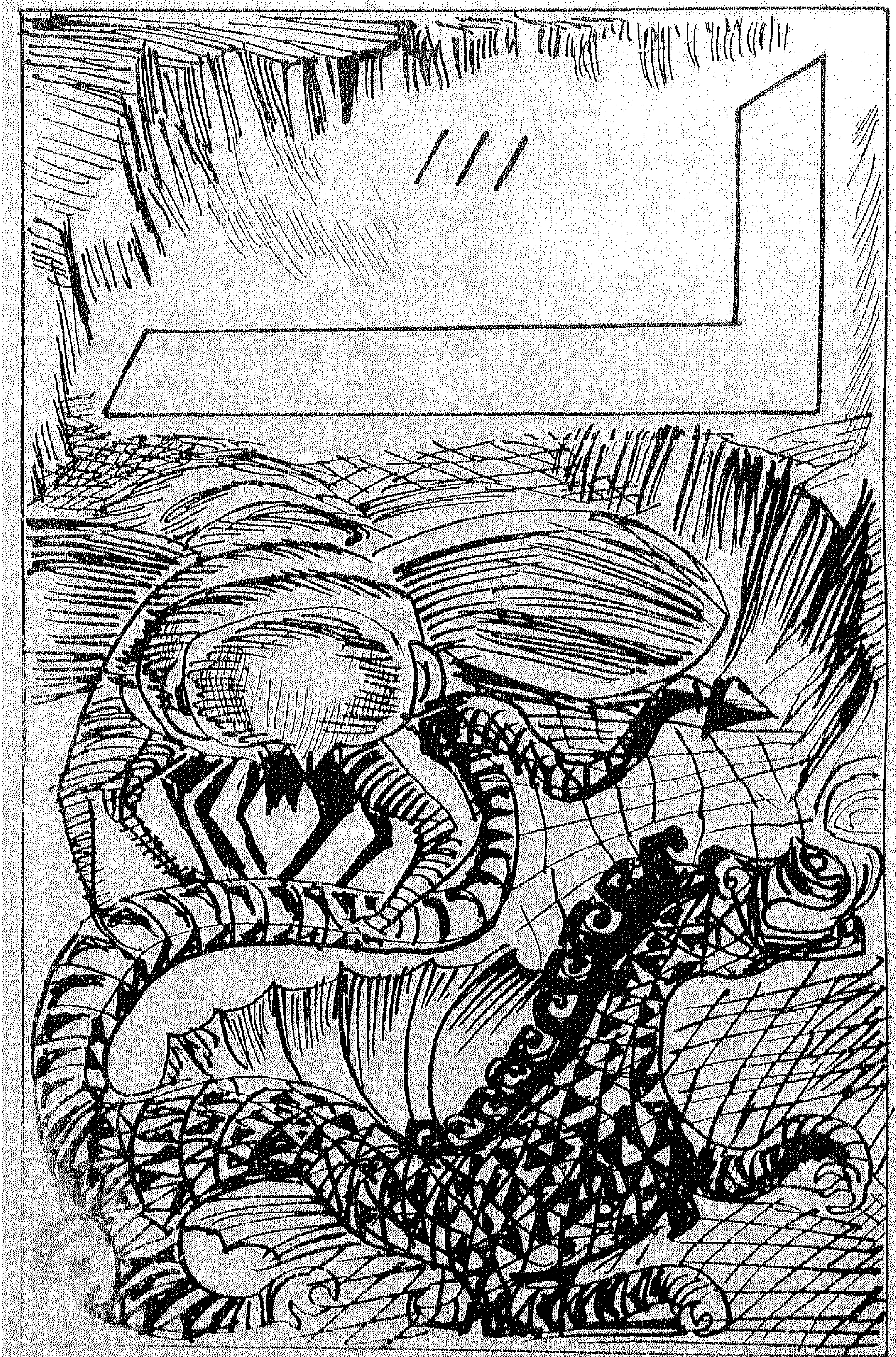
وفى نفس الساعة عثر كائن الظلال الذى تكوّن من ظلام أحد المروج الليلية ، على أثر أتريو ، وكان فى طريقه إلى مستنقعات الحزن . ولن يستطيع أى شىء ولا أحد فى فانتازين أن يبعده عن هذا الأثر مرة أخرى .

وأسند باستيان رأسه على يده وحملق أمامه مفكرا . وقال بصوت عال :

«غريب أن ولاكائن فى فانتازين يستطيع أن يعطى الإمبراطورة الطفولية اسما جديداً .» إذا كان الأمر يتعلق فقط باختلاق اسم ، لاستطاع باستيان بسهولة أن يقدم المساعدة . فقد كان عظيما فى هذا الشأن . ولكن للأسف لم يكن فى فانتازين حيث يمكن استخدام قدراته ، وربما أكسبته التعاطف أو التكريم . ومن ناحية أخرى كان فى تمام السعادة أيضا أنه غير موجود هناك ، لأنه لن يجرؤ على الدخول فى منطقة مثل مستنقعات الحزن بأى حال من الأحوال . أضف إلى ذلك كائن الظلال المخيف هذا ، والذى كان يتعقب أتريو دون أن يدرى . وكان باستيان يود أن يحذره . ولكن لم يكن ذلك ممكنا . ولم يعد هناك شىء آخر سوى الأمل ومواصلة القراءة .

٤

إجراموك المتعددة



ثمة جوع وعطش بدآ يؤلمان أتريو . فمنذ يومين كان قد خلّف وراءه مستنقعات الحزن ، ومنذ ذلك الوقت هام على وجهه من خلال صحراء صخرية لا يوجد فيها أى شىء حى . والقليل الذى كان معه من الزّاد ، كان قد غرق مع أرتاكس فى المياه السوداء . وحفر أتريو بيديه بلا جدوى بين الصخور ليعثر على جذر على الأقل ، ولكن لم يكن ينمو هناك أى شىء ، ولا حتى الطحالب أو الأعشاب .

وفى بادىء الأمر كان سعيدا على الأقل بشعوره بأن الأرض صلبة تحت أقدامه ، ولكنه شيئا فشيئا اضطر بأن يعترف بأن موقفه أصبح بالأحرى أكثر سوءا . لقد ضل الطريق ولم يستطع حتى أن يحدد الجهة الأصلية التى كان يتحرك فيها ، لأن غبش الضوء كان متساويا فى جميع الجهات ولم يتح له نقطة لتحديد موقفه . وهبت ريح باردة لا تنقطع من حول الصخور الإبرية التى كانت تتراكم من حوله من كل جانب .

وتسلق متون جبال ومرتفعات صخور ، وصعد عاليا ، ثم نزل مرة أخرى ، ولكن لم يبد له مطلقا منظر آخر غير منظر جبال متزايدة فى بعدها ، ومن ورائها سلاسل مرة أخرى وهكذا إلى الأفق من جميع الجهات ، ولا شىء حى ، ولا خنفس صغير ولا نملة ولا حتى النسور التى من عادتها أن تتعقب التائه بصبر إلى أن ينهار .

ولم يعد هناك شك : فالبلد التى ضل فيها الطريق كانت الجبال الموات . قليلون فقط رأوها مرة ، ولم يعد واحد منهم تقريبا . ولكن الحكايات التى كانت تحكى بين قوم أتريو ، كانت تتحدث عنهم . وتذكّر مقطعا من أغنية قديمة :

من الأفضل لكل صياد
أن يموت فى المستنقعات

لأنه فى الجبال المواتت
توجد تلك الهوة السحيقة
حيث تسكن إجرامول ، المتعددة ،
أكثر الرعب ذعرا . . .

حتى وإن كان أتريو يعرف فى أى اتجاه عليه أن يسير لكى يعود ، فإن ذلك لم يكن ممكنا . فكان قد تقدم إلى بعيد جدا . ولم يكن فى استطاعته إلا مواصلة السير . وإن كان الأمر يخصه هو وحده ، لربما جلس فى أحد الكهوف الصخرية . وانتظر الموت هناك دون أن يبالى ، كما تعود الصيادون من قومه أن يفعلوا فى مثل هذه الحالات . ولكنه كان فى مهمة البحث الكبرى . فالأمر يتعلق بحياة الإمبراطورة الطفولية وفانتازين كلها . ولم يكن مسموحاً له أن يفقد الأمل .

وهكذا استمر يصعد إلى أعلى الجبال وأسفلها ، وأحيانا كان يدرك أنه كان يسير وقتا طويلا كشخص نائم ، بينما كان فكره يقيم فى أراض أخرى ولا يعود منها إلا كارها .

واهتز باستيان فزعا . ودقت ساعة البرج الواحدة . فقد انتهت الدراسة لليوم واستمع باستيان إلى ضجيج وصياح الأطفال المندفعين بأسفل من الفصول وخلال الممرات وسمع دبيب أقدام عديدة على السلالم . ثم ترامى إليه بأعلى صوت نداءات مختلفة من الشارع لفترة قصيرة . وأخيرا إنتشر السكون فى مبنى المدرسة .

وقبع هذا السكون على وجدان باستيان كغطاء مقبض ثقيل ، يهدده بالاختناق فمن الآن سيكون وحيدا تماما فى مبنى المدرسة الكبير ــ اليوم بطوله ، والليلة التالية ، ومن يدرى إلى أى مدى . فمن الآن أصبح الأمر جادا .

والآخرون ذهبوا حينئذ إلى المنزل ليتناولوا طعام الغذاء . وأيضا باستيان كان جوعانا ، ويشعر بالبرد برغم الأغطية العسكرية الملفوفة حول كتفيه . وفجأة فقد كل شجاعته ، وبدت له خطته كلها مجنونة تماما وبلا مغزى . وأراد أن يذهب إلى البيت الآن حالا ، وعلى الفور . فقد كان الوقت حينذاك مازال ملائما . وحتى ذلك الوقت

لم يكن الأب قد استطاع أن يلاحظ شيئا . وباستيان لم يكن بحاجة حتى أن يقول له إنه هرب اليوم من المدرسة . وبالطبع سوف يتضح الأمر فى وقت ما ، ولكن سوف تنقضى فترة من الزمن إلى ذلك الحين . وماذا عن أمر الكتاب المسروق ؟ أجل ، وهذا أيضا سوف يضطر للاعتراف به فى وقت ما . ولسوف يتقبل الوالد الأمر ، كما تقبل خيبات الأمل التى سببها له باستيان . ولم يكن هناك سبب للخوف منه . فمن المحتمل أنه سيذهب فى صمت تام إلى السيد كوريانلدر ويضع كل شىء فى موضعه السليم .

ومد باستيان يده إلى الكتاب ذى اللون النحاسى لكى يضعه فى الحقيبة ، ولكنه توقف بعدئذ . وفجأة قال بصوت عالٍ مخترقا سكون المخزن : «لا ، لو كان أتريو مكانى لما فقد الأمل بهذه السرعة لمجرد أن الأمر صعب قليلا . وما بدأته لا بد أن أنهيه . فلقد سرت الآن إلى مدى أبعد من أن أعود فيه ، ليس فى إمكانى إلا مواصلة المسيرة مهما نتج عن ذلك .

وشعر بوحشة شديدة ، ولكن فى نفس الوقت كان يشوب هذا الشعور شىء يشبه الفخر ، الفخر بأنه ظل قويا ولم يستسلم للإغواء .

لقد كان لديه جزء يسير من التشابه مع أتريو !

وجاءت اللحظة التى لم يستطع فيها أتريو حقا مواصلة السير . فقد اتسعت أمامه الهوة السحيقة . إن روعة الفزع للمنظر لا يمكن وصفه بكلمات . فبعرض بلد الجبال الموات انفتحت الأرض فى شق يحتمل أن يكون عرضه نصف ميل تقريبا . ولم يكن ممكنا معرفة عمقه .

ورقد أتريو على الحافة على بروز صخرى وحملق إلى أسفل فى الظلام ، الذى بدا أنه يصل إلى باطن الأرض . وتناول صخرة فى حجم الرأس كانت على مدى يده ، وقذف بها إلى هناك بأبعد ما يستطيع . الصخرة سقطت وسقطت وسقطت إلى أن ابتعلها الظلام . وتصنت أتريو ، ولكن لم يصل إلى مسامعه أى صوت للارتطام ، مع أنه انتظر وقتا طويلا .

ثم فعل الشىء الوحيد الذى بقى له أن يفعله . فقد بدأ يتجول بطول حافة الهوة السحيقة . وفى نفس الوقت كان مستعدا فى كل لحظة لمواجهة أكثر الرعب ذعر هذا الذى تحكى عنه الأغنية القديمة . ولم يكن يعرف أى نوع من المخلوقات يمكن أن يكون فلم يكن يعرف إلا أن اسمه إجرامول .

وكانت الهوة السحيقة تسير فى خط متعرج من خلال الصحراء الجبلية . ولم يكن هناك بالطبع طريق عند طرفها ، ولكن ارتفعت أبراج صخرية هناك أيضا كان عليه أن يتسلقها والتى كانت تهتز أحيانا من تحته بشكل خطير ، أو كانت تقبع كتل صخرية هائلة فى طريقه والتى اضطر أن يتفاداها بجهد . أو كانت تهوى منحدرات من كسر الصخور إلى ناحية الشق الأرضى ، والتى كانت تتحرك فور أن يعبر عليها . وأكثر من مرة لم يمنعه من السقوط إلا عرض قدم واحد .

ولو كان يعرف أن هناك متعقباً لأثره يزداد اقترابا منه ساعة بعد ساعة ، لربما اندفع إلى أى سلوك بلا تفكير يمكن أن يدفع ثمنه غاليا وهو فى طريقه الوعر . لقد كان ذلك هو كائن الظلام الذى كان يتعقبه منذ أن بدأ رحلته . وفى تلك الأثناء كان قد تكثف شكله لدرجة استطاعة المرء أن يتعرف على خطوط ملامحة بوضوح . لقد كان ذئبا ، فى سواد القار وفى حجم الثور . وكان يركض وأنفه على الأرض دائما مقتفيا أثر أتريو من خلال الصحراء الصخرية للجبال الموات . وكان لسانه يتدلى من فمه إلى بعيد وقد شد مشافره إلى أعلى لدرجة أن المرء كان يستطيع أن يرى أسنانه المرعبة . وحداثة الأثر المشموم قالت له إن بضعة أميال فقط هى التى تفصله عن ضحيته وكانت المسافة تتضاءل بلا هوادة .

ولكن أتريو لم يكن يدر شيئا عن متعقبه وكان يبحث عن طريقه بحذر وبطء . وفى اللحظة التى دخل فيها كهفا ضيقا ، سمع فجأة ضجيجا لم يستطع أن يفسره لنفسه ، لأنه لم يكن له شبه بأى ضجيج آخر سمعه من قبل . لقد كان هديرا وزئيرا وصليلا ، وفى نفس الوقت شعر أتريو كيف كانت الصخرة كلها التى كان بداخلها تهتز ، وسمع صوت قعقعة كتل الأحجار التى سقطت فى جلبة من جدران الجبل وانتظر برهة وهو يتساءل اذا كان الزلزال ــ أو ما هو محتمل أن يكون ــ سوف

ينتهى ، وعندما توقف ، استمر فى زحفه ، ووصل أخيرا إلى المخرج ومد رأسه بحذر إلى الخارج .

وحينئذ رأى : فوق ظلام الهوة السحيقة كانت تتدلى شبكة عنكبوت هائلة مشدودة من الطرف إلى الآخر . وفى الخيوط اللزجة لهذه الشبكة ، والتى كانت فى سمك الحبال ، كان يتلوى تنين حظ أبيض كبير ، وكان يضرب بذيله ومخالبه من حوله ، وهذا لا يزيد إلا من تشابكه بشكل لا يمكن إنقاذه .

وحيوانات تنين الحظ تنتمى إلى أكثر الحيوانات ندرة فى فانتازين . وليس لديها شبه بحيوانات التنين العادية أو تنين الثعبان التى كانت تسكن فى كهوف أرضية عميقة مثل الثعابين العملاقة المقززة ، والتى تنشر الرائحة الكريهة وتقوم بحراسة أنواع من الكنوز الحقيقية أو الوهمية . ومخلوقات نتاج الفوضى هذه طباعها غالبا ما تكون شريرة متذمرة ، ولها أجنحة جلدية مثل أجنحة الخفاش تستطيع بواسطتها أن ترتفع إلى الهواء بضجيج وبلا مهارة ، وهى تنفث من أفواهها ناراو دخانا . أما حيوانات تنين الحظ فهى مخلوقات الهواء والدفء ، مخلوقات السرور الزائد ، وبرغم حجم جسمها الهائل خفيفة الوزن كسحابة الصيف .

ولذلك فهى لا تحتاج إلى أجنحة للطيران ، فهى تسبح فى أجواء السماء كالسمك فى الماء . وعند مشاهدتها من الأرض فهى تشبه البرق البطىء . وأروع ما بها غناؤها وصوتها يصدح كالرنين الذهبى لجرس كبير ، وعندما تتكلم يكون وقعها كما لو كان الإنسان يسمع رنين الأجراس هذا من بعيد . ومن يتسنى له مرة الاستماع لمثل هذا الغناء ، فلن ينساه طيلة عمره ، وسيحكى عنه لأحفاده أيضا .

ولكن تنين الحظ هذا الذى رآه أتريو حينئذ لم يكن فى الحقيقة فى موقف يستطيع أن يشعر فيه بميل إلى الغناء . فجسمه الطويل المرن ، الذى كانت قشورة الصدفية تلمع بلون وردى وأبيض ، كان يتعلق مقوسا ومقيدا فى شبكة العنكبوت الهائلة . وكانت شعور الذقن الطويلة عند فم الحيوان وشعر عُرفه الكث وخصلات شعر ذيله والتى على أعضاء جسمه كانت متشابكة فى الحبال اللزجة لدرجة أنه لم يكن يستطيع الحركة تقريبا . وكانت كرتا عينيه فى رأسه ذى شكل الأسد هى فقط التى تلمع بلون حمرة الياقوت وتبين أنه مازال حيا .

وكان الحيوان الرائع ينزف من جروح متعددة ، حيث كان هناك شيء آخر ، شيء هائل ، كان ينقض باستمرار وبسرعة البرق على جسم التنين الأبيض كسحابة داكنة تغير من شكلها بشكل متواصل . فتارة كانت تشبه عنكبوتا عملاقا بأرجل طويلة وعيون متوهجة كثيرة وجسم بدين يغطيه شعر كثيف أسود متلبد ، ثم تصبح يدا واحدة كبيرة ذات مخالب طويلة تحاول أن تعتصر تنين الحظ ، وفى اللحظة التالية تتحول إلى عقرب عملاق أسود يضرب بشوكته السامة ناحية ضحيته التعسة .

وكان الصراع بين كلا الكائنين الهائلين مريعا . وكان تنين الحظ مازال يدافع عن نفسه بأن ينفث نارا زرقاء كانت تحرق الشعر الخشن للمخلوق ذى شكل السحابة . وتصاعد الدخان ودار فى سحابات من خلال الشق الصخرى . والرائحة الكريهة جعلت تنفس أتريو شبه مستحيلا . وقد نجح تنين الحظ فوق ذلك مرة فى أن ينزع بأسنانه أحد أرجل خصمه الطويلة . ولكن العضو المنزوع لم يسقط فى عمق الهوة ، ولكنه تحرك فى الهواء وحده للحظة ، ثم عاد مرة أخرى إلى مكانه الأول واتحد ثانيةً مع الجسم السحابى الداكن . وهكذا تكررت الأحداث ، وبدا التنين وكأنه يعض فى الفراغ بمجرد أن يتمكن من الإمساك بأحد الأعضاء بأسنانه .

وحينئذ فقط لاحظ أتريو ما فات عنه حتى ذلك الوقت : إن هذا المخلوق الفظيع كله لم يكن مطلقا من جسد واحد صلب ، ولكن من حشرات صغيرة لا تحصى ذات لون فى زرقة الصلب ، كانت تحدث أزيزا كالزنابير الغاضبة ، وتتخذ وهى فى سرب كثيف أشكالا جديدة دائما .

لقد كانت إجرامول ، وحينئذ عرف أتريو أيضا لماذا كانت تدعى «المتعددة» وقفز خارجا من مخبئه ، ومد يده إلى الجوهرة من على صدره وصرخ بأعلى ما فى استطاعته قائلا : «قفى ! باسم الإمبراطورة الطفولية . قفى !» .

ولكن صوته ضاع فى زئير وفحيح المخلوقين المتصارعين . هو نفسه لم يسمعه تقريبا . وبدون أن يتردد جرى فوق الحبال اللزجة للشباك ناحية المتصارعين . واهتزت الشبكة تحت أقدامه ، وفقد توازنه ، وسقط بين الثغرات ، وتعلق بيديه فقط فوق العمق المظلم ، وجذب نفسه إلى أعلى ثانية والتصق ، وناضل مخلّصا نفسه مرة أخرى واستمر مسرعا .

وشعرت إجرامول فجأة ان شيئا يقترب منها . ودارت فى سرعة البرق وكان منظرها مرعبا : وحينئذ لم تكن سوى وجه هائل فى لون زرقة الصلب بعين واحدة فوق بداية الأنف ، والتى كانت تحملق فى أتريو بحدقة متسلطة ملؤها شر لا يمكن تخيله .

وأطلق باستيان صرخة فزع خافتة .

ورنت صرخة الفزع من خلال الوادى العميق وترامى صداها هنا وهناك . وأدارت إجرامول عينها ناحية الشمال وناحية اليمين لكى ترى إذا كان قد أتى وارد جديد ، حيث إنه لم يكن ممكنا أنه هو الصبى الذى وقف أمامها كالمشلول من الرعب ، ولكن لم يكن هناك أحد .

وفكر باستيان وهو فى غاية الإضطراب : «أمن الممكن أن تكون هى صرختى التى سمعتها ؟ ولكن هذا غير ممكن على الإطلاق »

وحينئذ سمع أتريو صوت إجرامول عاليا جدا ومبحوحا قليلا ، لا يريد أن يتناسب مطلقا مع وجهها العملاق . وهى لم تكن تحرك فمها عند الكلام أيضا فقد كان ذلك أزيز سرب هائل من الزنابير أخذ شكل الكلمات :

وسمع أتريو : «فرد من ذوى الرجلين ! بعد هذا الوقت الطويل ، الطويل من الجوع قطعتان شهيتان مرة واحدة ! يا له من يوم سعيد لإجرامول !»

وكان على أتريو أن يجمع كل قواه . ووضع « البريق »أمام العين الوحيدة للوحش الهائل ، وسأل قائلا : «أتعرفون هذه العلامة ؟»

وأحدثت المجموعة المتعددة الأصوات أزيزاً يقول : «اقترب ، ياذا الرجلين ! ، إجرامول لا ترى جيدا» .

وتقدم أتْريو خطوة أخرى ناحية الوجه . وحينئذ فتح فمه . وبدلا من اللسان كان له قرون استشعار متلألئة وبعدد لا يحصى ، وكماشات وقبّاضـات وأحدث السرب أزيزاً يقول : «أكثر اقترابا !»

ومرة أخرى تقدم خطوة ، ووقف بعدئذ بالقرب من الوجه لدرجة أنه استطاع أن يرى بوضوح الكائنات الفردية الزرقاء بلون الصلب والتى لا تحصى عددا ، والتى كانت تدور بشدة فى فوضى . وبالرغم من ذلك فقد ظل الوجه المرعب بلا حراك .

فقال : «أنا أتريو ، وأنا فى مهمة للإمبراطورة الطفولية .»

فرد الأزيز الغاضب قائلا بعد برهة : «أنت تأتى فى وقت غير مناسب . ماذا تريد من إجرامول ؟ إنها مشغولة جدا ، كما ترى »

فأجاب أتريو : «إننى أريد تنين الحظ هذا ، اعطنى إياه !»

- «لأى غرض تحتاجه ، يا أتريويا ذا الرجلين ؟»
- «لقـد فقدت حصـانى فى مستنقعـات الحـزن . ولابـد لى أن أذهب إلى أرض التنبؤات الجنوبية ، لأن أيولالا فقط هى التى تستطيع أن تقول لى من يقدر أن يمنح الإمبراطورة الطفولية اسما جديدا . فإذا لم تحصل عليه فلابد لها أن تمـوت ومعها فانتازين كلها حتى أنتم ، يا إجرامول المسماة بالمتعددة» .

ورن صوت ممدود من الوجه قائلا اليه : «آه ! هل هذا هو سبب تلك المواضع التى لم يعد فيها شىء ؟ »

فرد أتريو قائلا : « أجل ، أنتم تعرفونه إذن أيضا ، يا إجرامول . ولكن أرض التنبؤات الجنوبية تقع أبعد من أن أستطيع الوصول اليها فى الزمن الذى من الممكن أن تستغرقه حياتى . ولذلك فاننى أطلب منكم تنين الحظ هذا . فإذا ما حملنى عبر الهواء ، فربما يمكننى الوصول إلى الهدف » .

وسمع من السرب الحائم الذى يشكل الوجه ، شيئا يمكن أن يكـون قهقهة متعددة الأصوات . ـ « أنت مخطىء ياأتريو ياذا الرجلين . إننا لا نعلم شيئا عن

أرض التنبؤات الجنوبية ولا عن أُيولالا ، ولكننا نعلم أن التنين لن يعد يستطيع أن يحملك . وحتى إن كان غير مصاب ، فإن رحلتكم ستستغرق وقتا طويلا لدرجة أن الإمبراطورة الطفولية تكون فى ذلك الوقت قد ماتت بسبب مرضها . فيجب عليك يا أتريو ألاّ تقيس مهمة بحثك بحياتك يا أتريو يـاذا الرجلين ، بـل طبقا لحيـاتها هى . »

وكانت النظرة النابعة من العين ذات الحدقة المتسلطة يكاد لا يمكن احتمالها ، وأطرق أتريو برأسه .

وقال بصوت خافت : « هذا حقيقى » .

واستمر الوجه قائلا بدون حراك : « وخلاف ذلك فان سُمّ إجرامول فى جسد التنين ، وسيبقى له من العمر على أقصى تقدير ساعة قصيرة من الزمن . »

فدمدم أتريو قائلا : « إذن لم يعد هناك رجاء ، لا له ولا لى ، ولا حتى لكم ، يا إجرامول . »

فقال أزيز الصوت : « ولكن ، إجرامول ستكون قد أكلت مرة أخرى على الأقل . ولكن لَمْ يُقَلْ بعدُ إنها فعلا آخر وجبة لإجرامول . ولكنها ربما تعرف وسيلة أخرى لنقلك فى لمح البصر إلى أرض التنبؤات الجنوبية . والسؤال فقط هو ، إذا كانت تعجبك ، يا أتريويا ذا الرجلين . » .

ـــ « عما تتحد ثون ؟ »

ـــ « إنه سر إجرامول . حتى مخلوقـات الهوّة لهم أسـرارهم ، يا أتـريو يـا ذا الرجلين . وإجرامول لم تصرح به أبداً من قبل . وأنت أيضا يجب أن تقسم بأنك لن تبوح به أبدا . لأنه سيكون تلفا على إجرامول ، آه ، تلفا كبيرا على إجرامول ، إذا ما عُرف . »

ـــ « أُقسم بذلك . تكلموا ! » .

وانحنى الوجه الهائل الأزرق بلون الصلب قليلا إلى الأمام وأحدث أزيزا يكاد يكون غير مسموع قائلا :

« لابد أن تترك إجرامول تعضك » .

واهتز أتريو فزعا .

واستمر الصوت قائلا : إنّ سُم إجرامول يقتل بعد ساعة ، ولكنه يمنح من يحمله فى نفس الوقت القوة فى أن ينتقل إلى كل مكان يتمناه من فانتازين . فكر فقط فيما لو عُرف هذا ! جميع الضحايا ستفلت من إجرامول ! »

فصاح أتريو : « ساعة واحدة ؟ ولكن ماذا يمكننى تحقيقه فى بحر ساعة واحدة ؟ »

وأحدث السرب أزيرا يقول : « ولو ، إنه بالرغم من ذلك أكثر من كل الساعات التى ما زالت باقية أمامك هنا . قرر أنت ! » .

وتصارع أتريو مع نفسه .

وأخيرا سأل قائلا : « هل ستحررون تنين الحظ إذا ما رجوتكم هذا باسم الإمبراطورة الطفولية ؟ »

فأجاب الوجه قائلا : «لا ، ليس لك الحق أن ترجو إجرامول من أجل ذلك ، حتى وإن كنت تحمل آورين « البريق » . فإن الإمبراطورة الطفولية تعترف بنا على ما نحن عليه . ولذلك تطيع أيضا إجرامول علامتها . وأنت تعرف هذا كله جيدا . »

وكان أتريو مازال واقفاً مطرق الرأس . فان ما قالته إجرامول كان حقيقة . إذاً فلم يستطع انقاذ تنين الحظ الأبيض . ولم يكن لرغباته الخاصة حساب .

ونهض قائلا : « افعلى ، ما اقترحتيه ! »

وفى سرعة البرق انقضت عليه السحابة الزرقاء بلون الصلب وحوطته من كل جانب .

وأحس بألم شديد فى كتفه الأيسر ، ولم يفكر إلا فى : إلى أرض التنبؤات الجنوبية ! ثم اسودت الدنيا أمام عينيه .

وعندما وصل الذئب بعد ذلك بوقت قصير إلى المكان ، رأى شبكة العنكبوت الهائلة ـ ولكنه لم يشاهد أحدا آخر . فقد انقطع فجأة الأثر الذى كان يتعقبه حتى ذلك المكان ، ولم يستطع العثور عليه مرة أخرى رغم كل المساعى .

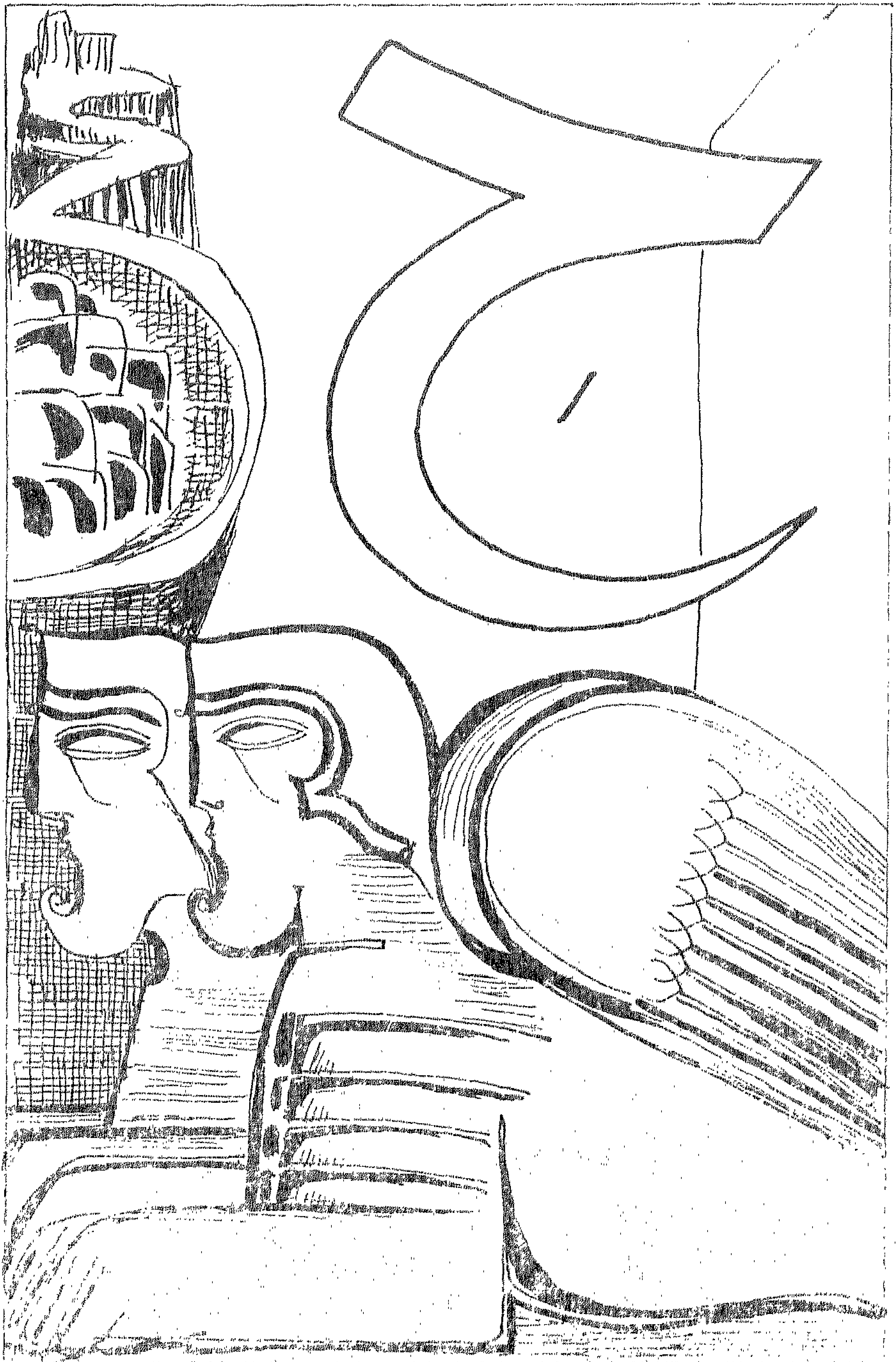
وتوقف باستيان . وشعر بتوعك ، كما لو كان بجسمه هو نفسه سم إجرامول . وقال بصوت خافت محدثا نفسه : « الحمد لله ، أننى لست فى فانتازين . فمثل هذه الوحوش الهائلة ليس لها وجود لحسن الحظ فى الواقع . فكل هذا ما هو إلا قصة . »

ولكن هل كانت فعلا مجرد قصة ؟ كيف كان اذن ممكنا ، أن إجرامول وربما أيضا أتريو قد سمع صرخة باستيان الفزعة ؟ .

إن هذا الكتاب قد بدأ ببطء يصبح مخيفا له .

٥

الناسكان





جَثَمَ(٩) الشك على أتريو للحظة مرعبة فى أن تكون إجرامول قد خدعته ، لأنه عندما عاد إلى رشده ، وجد نفسه مازال فى الصحراء الصخرية .

ونهض بصعوبة ، وحينئذ رأى أنه وإن كان فى صحراء جبلية قاحلة ، ولكنها كانت مختلفة تماما . وبدت الأرض كلها كما لو كـانت تتكون خـالصة من ألـواح صخرية كبيرة بلون حُمرة الصدأ ، مرصوصة فوق بعضها ومزحزحة عن بعضها ، وتكوّن بذلك مختلف أشكال الأبراج والأهرامات الغريبة ، وفيما بينها غطت الأرض شجيرات منخفضة وحشائش . وقد سادت الجو حرارة حارقـة . وكانت الأرض مغموسة فى ضوء شمس مُشع ، بل وساطع يخطف الأبصار .

وظلل أتريو وجهه بيده ولمح على بعد ميل تقريبا بوابة صخرية ذات شكل غير منتظم ، وقوسها يتكون من ألواح حجرية موضوعة فى وضع أفقى ، وربما يصل ارتفاعها إلى مائة قدم .

أيكون هذا هو مدخل أرض التنبؤات الجنوبية ؟ وعلى مدى إمكانية بصره لم يكن خلف البوابة شىء سوى سهل خال لا نهائى ، لا مبنى ولا معبد ولا مرج ـ لا شىء يشبه موضع أرضٍ للتنبؤات .

وبينما هو يفكر فيما ينبغى أن يفعله ، سمع فجأة صوتا برونزيا عميقا يقول :

« أتريو » ثم مرة أخرى « أتريو . »

---

(٩) فى الأصل الألمانى = Zweifel befiel Atreju بمعنى انتاب أتريو شعور بالشك . وقد لجأ المترجم إلى لفظ « جثم » ليراعى الترتيب الهجائى للغة العربية باختياره تلك الكلمة البادئة بحرف « ج » .

فالتفت ورأى تنين الحظ الأبيض يأتى من خلف أحد الأبراج الصخرية الحمراء بلون الصدأ وكانت الدماء تسيل من جروحه ، وكان خائر القوى لدرجة أنه لم يستطع أن يجر نفسه إليه إلا بصعوبة . وبالرغم من ذلك غمز مرحا بإحدى عينيه الحمراوين فى حمرة الياقوت ، وقال :

« لا تعجب كثيرا لأننى أيضا هنا ، يا أتريو . صحيح أننى كنت كالمشلول عندما كنت عالقا فى شباك العنكبوت ، ولكننى سمعت كل شىء قالته لك إجرامول . وحينئذ فكرت ، أننى على كلٍ معضوض منها ، فلماذا لا أستخدم أيضا السر الذى أباحته لك ؟ وهكذا فلتُّ منهاً . »

وفرح أتريو .

وقال : « لقد صعب علّى أن أتركك لإجرامول ، ولكن ماذا كان فى استطاعتى ؟ »

فرد تنين الحظ قائلا : « لا شىء . ولكنك بالرغم من ذلك أنقذت حياتى ـ وإن لم يكن ذلك بدون اشتراكى فى المساعدة . »

ومرة ثانية غمز بعينه ، وهذه المرة بعينه الأخرى .

فقال أتريو مكررا : « أنقذت حياتك ـ لمدة ساعة ، لأنه لم يعد لنا نحن الاثنين أكثر من ذلك . فإننى أشعر بسم إجرامول يزداد شدة مع كل لحظة . »

فرد التنين الأبيض قائلا : « لكل سم ، سم مضاد ، سوف ترى أن كل شىء سيسير على خير . »

فقال أتريو : «لست أدرى كيف»

فرد التنين : « ولا أنا أيضا ، ولكن هذا عينه هو الشىء الجميل . وحتى عندما كنت متعلقا بالشباك لم أفقد الأمل ـ وكما ترى ، بحق . »

وابتسم أتريو . وقال : « قل لى ، لماذا نقلت نفسك إلى هنا ـ وليس إلى مكان آخر أفضل حيث ربما تجد شفاءك ؟ »

فقال التنين : « إنّ حياتى مِلْك لك ، إذا أردت أن تقبلها . وقد فكرت أنك ستحتاج إلى حيوان للركوب فى مهمة البحث الكبرى . وسوف ترى ، أنه أمر مختلف تماما أن يدب المرء على قدميه عبر المنطقة ، وحتى أن يركض ممتطيا فرسا جيدا ، أوأن يمرق عبر أجواء السماء على ظهر تنين حظ . اتفقنا ؟ »

فأجاب أتريو : « إتفقنا » .

فأردف التنين قائلا : « بالمناسبة ، أنا اسمى فُخور . »

فقال أتريو : حسنا ، يافُخور ، ولكن بينما نحن نتكلم ، يمر الوقت القليل الباقى لنا . لابد أن أفعل شيئا . ولكن ماذا ؟»

فأجاب فُخور : « أن يكون عندك حظ، وإلا فماذا ؟ »

ولكن أتريو لم يكن قد سمعه . فقد سقط ، ورقد بلا حراك ملفوفا فى المنحنيات اللينة لجسم التنين .

فقد سرى مفعول سُم إجرامول .

وعندما فتح أتريو عينيه مرة أخرى ـ ومن يدرى بعد ذلك بأى وقت ـ لم ير فى بادىء الأمر سوى وجه غاية فى الغرابة مائلا فوق وجهه . لقد كان أكثر وجه تجعيدا وكرمشةً رآه ، ولكنه كان تقريبا فى حجم قبضة يده . لقد كان لونه بنى غامق كتفاحة مشوية ، وكانت عيناه تلمع كالنجوم . وفوق الرأس غطاء من أوراق الشجر الذابلة .

ثم شعر أتريو أن وعاء صغيرا للشرب قد وضع على شفتيه .

ودمدمت الشفتان الصغيرتان المجعدتان فى الوجه الصغير المكرمش قائلة : « دواء جميل ، دواء جيد ! اشرب فقط ، ياولدى ، اشرب . إنه منعش . » .

فرشف أتريو قليلا . وكان مذاقه فريدا ، حلوا قليلا ، ولكنه لاذع . وقال بصعوبة : « وماذا من أمر التنين الأبيض ؟ »

فأجاب الصوت الهامس قائلا : « على ما يرام . لا تشغل بالك ، ياولدى الصغير . سيعود للشفاء . سيعود كلاكما للشفاء . فلقد انتهيتم من أسوأ الأشياء

اشرب فقط ، اشرب . »

وأخذ أتريو جرعة أخرى ، وراح فى النوم مرة ثانية . ولكن هذه المرة كان نوم المعافاة العميق المنعش .

ودقت ساعة البرج الثانية .

ولم يستطع باستيان أن يطيل حبسها : كان لابد أن يذهب بسرعة إلى دورة المياه . وكان عليه أن يذهب منذ فترة من الزمن ، ولكنه لم يستطع أن يتوقف عن القراءة . وخلاف ذلك فقد خاف قليلا أن ينزل إلى مبنى المدرسة . وقال لنفسه ، إنه لا يوجد داع لذلك ، فقد كان خاليا ولن يراه أحد . وبالرغم من ذلك كان خائفا ، كما لو كان مبنى المدرسة كائنا سوف يراقبه .

ولكن لم تكن هناك فائدة لكل شىء ، فلقد كان مضطرا !

ووضع الكتاب بالصفحات المفتوحة على دواسة التربية الرياضية ، ونهض ومشى إلى باب المخزن . وتصنت فترة وقلبه يخفق . وسحب المزلاج ، وأدار المفتاح الكبير ببطء فى القفل . وعندما ضغط على مِقبض الباب ، انفتح بقرقعة عالية .

وأسرع إلى الخارج ماشيا على جواربه ، وترك الباب وراءه مفتوحا ، لكيلا يحدث ضجيجا لا لزوم له مرة أخرى . ثم تسلل السلم إلى أسفل إلى الطابق الأول . وامتد أمامه الممر الطويل ذو الأبواب المدهونة بلون خضرة السبانخ والمؤدى إلى الفصول المدرسية . وكانت دورة مياه التلاميذ عند الطرف الآخر . وكان الأمر فى غاية العجلة ، وجرى باستيان بأسرع ما يمكنه . ووصل إلى المكان المنقذ على آخر لحظة بمعنى الكلمة .

وبينما كان جالسا فى دورة المياه فكر فى سبب عدم مجابهة الأبطال فى مثل هذه القصص فعلا لمثل هذه المشاكل أبدا . مرة ـ عندما كان أصغر من ذلك بكثير ـ سأل حتى فى حصة الدين إذا كان السيد عيسى يضطره الأمر أيضا مثل الإنسان العادى ، لأنه كان أيضا يأكل ويشرب مثل الإنسان العادى . وضج الفصل من الضحك ، وكتب له مدرس الدين لفت نظر فى دفتر الفصل بسبب « السلوك غير اللائق » . ولم

يتلق باستيان إجابة على سؤاله . بينما هو لم يكن فعلا يريد أن يسلك مسلكا غير لائق .

وقال باستيان لنفسه حينئذ : « ربما أن هذه الأمور جانبية وغير هامة لدرجة أنه لا داعى أن تُذكر فى مثل هذه القصص . »

بالرغم من أنها من الممكن أن تكون أحيانا ذات أهمية تدعو إلى اليأس والخجل .

وكان قد فرغ من مهمته ، وشد السلسلة وهمّ بالخروج ، عندما سمع فجأة وقع خطوات بالخارج فى الطرقة . وفُتح باب كل فصل بعد الآخر وأُغلق مرة أخرى ، وزادت الخطوات اقترابا . وعلت ضربات قلب باستيان حتى رقبته . أين يختبىء ؟ وظل واقفا حيث كان كالمشلول . وفُتح باب دورة المياه ولحسن الحظ بالكاد على قدر يخفى باستيان . ودخل مُدبّر شئون المدرسة . وبالتسلسل ألقى نظرة فى الكبائن كُلٌ على حدة ، وعندما جاء إلى تلك التى كان الماء لا يزال يجرى فيها والسلسلة تتأرجح ، توقف لحظة مشدوها . ودمدم متبرما بشىء من الكلام ، ولكنه عندما لاحظ أن الماء قد توقف جريه ، هز كتفيه ومشى إلى الخارج . ورن صوت خطواته على السلم .

ولم يجرؤ باستيان طيلة الوقت على التنفس ، وبعدئذ استنشق بعمق . وعندما أراد الخروج ، لاحظ أن ركبتيه ترتعشان .

وبحذر وبأسرع ما يستطيع مرق بطول الممر ذى الأبواب المدهونة بلون خضرة السبانخ ، وإلى أعلى السلم ، عائدا إلى المخزن . وعندما أغلق الباب بالقفل والمزلاج مرة أخرى زال عنه التوتر .

واستقر على مخدعه المكون من دوسات الجمباز مرة ثانية وأطلق تنهيدة عميقة ، وتدثر فى الأغطية العسكرية ، ومد يده إلى الكتاب .

وعندما استيقظ أتريو مرة أخرى شعر بأنه منتعش تماما وقوى . ونهض ، وكان الوقت ليلا والقمر يسطع منيرا ، ورأى أتريو أنه فى نفس المكان الذى انهار فيه إلى

جوار التنين الأبيض . وأيضا فُخور كان لا يزال راقدا هناك ، ولكنه كان يتنفس بهدوء وعمق وبدا غارقا فى النوم ، وكانت جميع جروحه مضمدة .

ولاحظ أتريو أن كتفه هو أيضا قد أحيط بنفس الرعاية ، ولكن ليس بالقماش ولكن بالأعشاب والألياف النباتية .

وعلى بعد خطوات قليلة كان هناك كهف فى الصخر يسقط من مدخله شعاع ضوء خافت . ونهض أتريو بحذر ، دون أن يحرك ذراعه الأيسر ، ومشى إلى مدخل الكهف المنخفض . رانحنى إلى أسفل وشاهد فى الداخل غرفة بدت كمطبخ الكيميائيين بمقياس مصغر . وفى الخلفية كانت جذوة مرحة من النار تطقطق فى مدفأة مكشوفة . وفى كل مكان انتشرت بلا نظام بواتق طويلة وأفران وزجاجات ذات شكل غريب . وكانت حزم من النباتات الجافة مختلفة النوع مرصوصة فوق أحد الرفوف . والمنضدة الواقعة فى الوسط وقطع الأثاث الأخرى كانت تبدو مركبة من عيدان الجذور . وبوجه عام فقد كان المسكن يعطى انطباعا غاية فى الراحة .

ولم يلاحظ أتريو أن آدميا صغيرا على كرسى ذى مساند أمام المدفأة ، إلا عندما سمع صوت نحنحة . وكان يحمل على رأسه كهيئة القبعة مصنوعة من خشب الجذور ، والذى كان يبدو كرأس غليون معكوس . ووجهه كان أيضا بلون بنى غامق ومُجعّد مثل ذلك الوجه الذى رآه منحنيا فوقه عندما استيقظ أول مرة . ولكن كانت تقبع فوق أنفه نظارة كبيرة ، ولكن ملامحه تعطى انطباعا أكثر حدة وأكثر همّا . وكان الآدمى الصغير يقرأ فى كتاب كبير على حجره .

ثم دخل شخص صغير ثانٍ مترنحا من غرفة أخرى تقع فى الخلف ، وقد عرف أتريو فيه على الفور ذلك الكائن الذى تناوله بالرعاية من قبل . وحينئذ فقط رأى أنه عبارة عن أنثى . وكانت ترتدى خلاف الكاب المصنوع من أوراق الشجر ــ وتماما مثل الرجل الصغير على كرسى المدفأة ــ كهيئة عباءة الرهبان ، كانت تبدو كذلك مصنوعة من ورق الشجر الذابل . وكانت تغنى مسرورة بصوت خافت ، وفركت يديها ، وانشغلت بعدئذ بقدْر معلق فوق النار . وكان كلا الشخصين لا يكادان يصلان أعلى من رِجْل أتريو من النعل إلى الركبة . وعلى ما يبدو أن كلا هذين كانا

عبارة عن أعضاء من عائلة العفاريت القزمية كثيرة التشعب ، وإن كانا غير عاديين جدا .

وقال الرجل الصغير متبرماً : « يا امرأة ، ابعدى عن الضوء . أنت تزعجينى فى دراستى »

« فردت المرأة الصغيرة : « لهوةً عليك وعلى دراستك ، من تهمه هذه . المهم الآن هو أن يجهز إكسير الشفاء الخاص بى . فكلا الاثنين بالخارج يحتاجان إليه » .

فرد الرجل الصغير بعصبية : « إن كلا الاثنين بالخارج سيحتاجان أكثر إلى نصيحتى ومعونتى » .

فأجابت المرأة الصغيرة قائلة : « ليكن ، لكن ليس قبل أن يتعافيا . افسح المكان ، أيها العجوز » .

وتزحزح الرجل الصغير بكرسيه قليلا عن النار متبرما .

وتنحنح أتريو لكى يلفت النظر إليه ، والتفت زوج العفاريت القزمية إليه .

وقال الرجل الصغير : « لقد أصبح معافىً ، والآن الدور علىّ » .

فتنهدت المرأة الصغيرة بصوت عال قائلة : « ليس هاهنا ، أنا التى تقرر إذا كان صحيحا . الدور عليك عندما أقول أنا أن عليك الدور ! »

ثم اتجهت إلى أتريو قائلة :

« كان يسرنا أن ندعوك للدخول . ولكن ربما يكون المكان ضيقا جدا عليك . لحظة . سأخرج إليك حالا » .

وصحنت شيئا ما فى هاون صغير وأبقت به بعدئذ فى القِدْر . ثم غسلت يديها وجففتها فى عباءتها وهى تقول للرجل الصغير :

« أنت تظل جالسا هاهنا ، يا إنجيڤرك حتى أناديك ، مفهوم » ؟

فدمدم الرجل الصغير قائلا : « حسنٌ ، يا أُورجل » .

وأتت عفريتة الأقزام الصغيرة من لكهف إلى الخلاء . وتطلعت إلى أتريو من أسفل متفحصة له بعينين مزمومتين ، وقالت : « هيه ؟ يبدو أن صحتنا جيدة تماما ، أليس كذلك » ؟

وهز أتريو رأسه بالإيجاب .

وتسلقت المـرأة الصغيرة بـروزا صخريـا على ارتفـاع مماثـل لوجـه أتـريـو ، وجلست .

وسألت لكى تعرف قائلة : « ألم تعد هناك آلام » ؟

فأجاب أتريو : « شىء لا يستحق الذكر » .

فصاحت به المرأة الصغيرة بنبرة آمرة وعينين متلألئتين : « ماذا إذن ؟ هـل تشعر بألم أم لا ؟ »

فقال أتريو موضحاً : « مازال هناك ألم ، ولكن الأمر لا يهمنى . . »

فنفخت أورجل قائلة : « ولكن يهمنى أنا ؟ وشىء يبعث على السرور عندما يقول المرضى للطبيب عما يهم . ماذا تفهم أنت فى ذلك ، يا عديم الخبرة . لابد من وجود الألم عند التماثل للشفاء ، فلو لم يكن هناك ألم ، لكان ذراعك قد مات » .

فقال أتريو الذى شعر وكأنه طفل أصابه اللوم : « معذرة ، لقد أردت فقط أن أقول . . أى ، إننى أردت تقديم شكرى » .

فقاطعته أو رجل بغلظة قائلة : « دع هذا . ما أنا إلا طبيبة . ولم أقم إلا بواجب المهنة . وقد رأى إنجيڤوك ، زوجى ، البنتاكل عالقا حول رقبتك . فلم يعد هناك سؤ ال بالنسبة لنا » .

فسأل أتريو : « وفُخور ؟ كيف حاله ؟»

— « من هذا ؟»

— « تنين الحظ الأبيض » .

— « آه ! لا أعرف بعد . لقد أصابه ضرر أكثر منك . ولكنه يتحمل أيضا أكثر قليلا . لابد وأنه سيمر بسلام . أنا متأكدة تقريبا أنه سيعافى مرة أخرى . إنه يحتاج إلى الراحة قليلا من الوقت . من أين أصابكم هذا السم ، هيه ، هيه ؟ ومن أين تأتون هكذا على غرة ؟ وإلى أين تريدون ؟ ومن أنتم »

وكان إنجيڤوك حينئذ قد أتى أيضا إلى مدخل الكهف وسمع كيف يجيب أتريو على أسئلة أورجل العجوز . ثم تقدم وصاح قائلا :

« اقفلى فمك يا امرأة ، الآن الدور علىّ » .

ثم اتجه إلى أتريو وخلع القبعة ذات شكل رأس الغليون وهرش رأسه الصغيرة الصلعاء وقال : « لا تأخذ نبرة كلامها على محمل سيىء . إن أورجل العجوز غالبا ما تكون فظة ، ولكنها لا تقصد ذلك . أنا اسمى إنجيڤوك . ونحن نسمى أيضا الناسكان . هل سمعت عنا من قبل » ؟

فقال أتريو معترفا : « لا ».

وبدا إنجيڤوك قد أحس بقليل من الإهانة .

وقال : « حسنٌ . إنك لا تتعامل مع الدوائر العلمية ، وإلا لكان أحدهم قال لك بالتأكيد إنك لن تستطيع أن تعثر على ناصح أفضل منى إذا أردت الذهاب إلى أيولالا فى أرض التنبوءات الجنوبية . لقد أتيت إلى العنوان الصحيح ، يا بنى » .

فصاحت أورجل العجوز مقاطعة : « لا يكن سلوكك على هذا النحو » .
ثم تسلقت من مكان جلوسها إلى أسفل واختفت فى الكهف وهى تزوم .
وتغافل إنجيڤوك عن ملاحظتها متعمدا .

وواصل كلامه قائلا : « أستطيع أن أفسر لك كل شىء . فقد درست الأمر بدقة تامة طيلة حياتى . وأقمت مرصدى خصيصا لذلك . وقريبا سوف أنشر بحثا علميا كبيرا عن أرض التنبوءات . والعنوان : لغز أيولالا ، مفسّراً بواسطة البروفسور إنجيڤوك . وقعه ليس رديئا على السمع ، أليس كذلك ؟ ولكن ينقصنى للأسف بعض النقاط الصغيرة . ويمكنك أن تساعدنى فى ذلك ، يا بنى » .

فتساءل أتريو قائلا : « مرصد ؟» حيث لم تكن الكلمة معروفة لديه . فهزّ إنجيڤوك رأسه بعيون تلمع من الفخر . وحث أتريو بحركة بيده أن يتبعه .

ومن بين الألواح الصخرية الهائلة كان يسير ممر صغير كثير التعاريج إلى أعلى دائما . وفى بعض المواضع التى كانت ترتفع بانحدار شديد ، حُفرت درجات صغيرة كانت بالطبع صغيرة جدا على أقدام أتريو . وقد صعدها بخطوة واحدة فقط . وبالرغم من ذلك فقد لاقى كل الجهد فى أن يلحق بالعفريت القزم الذى كان يتدحرج أمامه بخفة .

وسمع إنجيڤوك وهو يقول : « ليلة مقمرة منيرة اليوم ، ستستطيع رؤ يتها » .

فقال أتريو راغبا فى المعرفة : « من ؟ أيولالا ؟ »

ولكن إنجيڤوك أشاح بيده غاضبا وواصل سيره مترنحا .

وأخيرا وصلا إلى قمة البرج الصخرى . وكانت الأرض مسطحة ، ومن جانب واحد فقط ارتفع شىء كالساتر الطبيعى ، درابزين من لوح صخرى . وفى وسط هذا اللوح ثقب يبدو أنه قُطع بالأدوات . وأمام الثقب منظار مقرب صغير على حامل مصنوع من خشب الجذور .

ونظر إنجڤيوك من خلاله ، وضبطه قليلا بأن لف بضعة صواميل ، ثم هز رأسه بارتياح وطالب أتريو أن يلقى بدوره نظرة أيضا . وقام هذا بتنفيذ الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يقبع على الأرض لكى ينظر من خلال المنظار وهو معتمد على مرفقيه .

وكان مُوجَّها إلى البوابة الصخرية الكبيرة بحيث يكون الجزء الأسفل من العامود الأيمن فى الصورة . وحينئذ رأى أتريو أنه إلى جانب هذا العامود كان يجلس أبو هول ضخم فى مكان عال فى سكون تام فى ضوء القمر . وكانت المخالب الأمامية التى يتكىء عليها ، مخالب أسد ، والجزء الخلفى لجسمه كان جسم ثور ، وكان يحمل على ظهره جناحى نسر هائلين ، ووجهه وجه انسان ــ على الأقل من ناحية الشكل ، لأن التعبير لم يكن تعبيرا بشريا . وكان من الصعب تحديد ما إذا كان هذا الوجه يبتسم أو أنه يعكس حزنا لا حد له أو حتى عدم مبالاة تامة . وبعد أن شاهده أتريو لفترة من الزمن ، بدا له مملوءا بشرّ سحيق وقسوة ، ولكن بعد ذلك بقليل كان عليه أن يصحح انطباعه مرة ثانية ، فلم يجد فيه سوى بشاشة صافية .

وسمع صوت العفريت القزم عند أذنه يقول : « هذا يكفى . لن تصل إلى حل اللغز . وهكذا بالنسبة لكل شخص وبالنسبة لى أيضا . لقد راقبته طيلة عمرى ولم أفهمه . والآن إلى الآخر » .

وأدار أحد الصواميل ، ومرت الصورة أمام فتحة قوس البوابة التى لم يكن يمتد من ورائها سوى سهل واسع خال ، ثم أتى العمود الأيسر للبوابة إلى مجال نظر

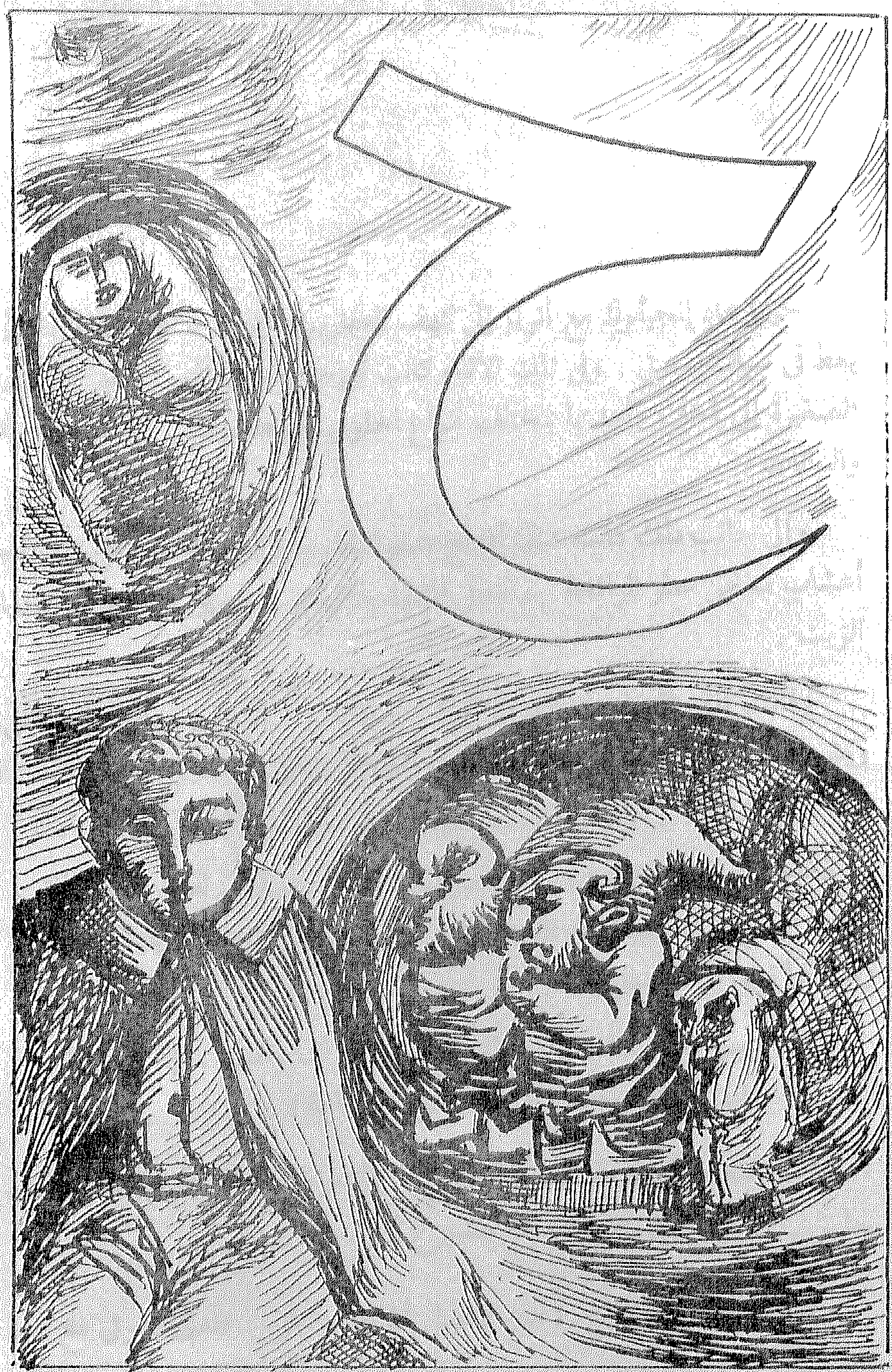
أتريو ، وهناك كان يجلس أبو هول ثان بنفس الوضع . وكان جسده القوى يلمع فى ضوء القمر بلون شاحب غريب كالفضة السائلة . وكان يبدو أنه يحملق فى أبى الهول الأول دون أن يحيد عنه النظر ، مثلما كان ينظر الأول بلا حركة فى اتجاهه .

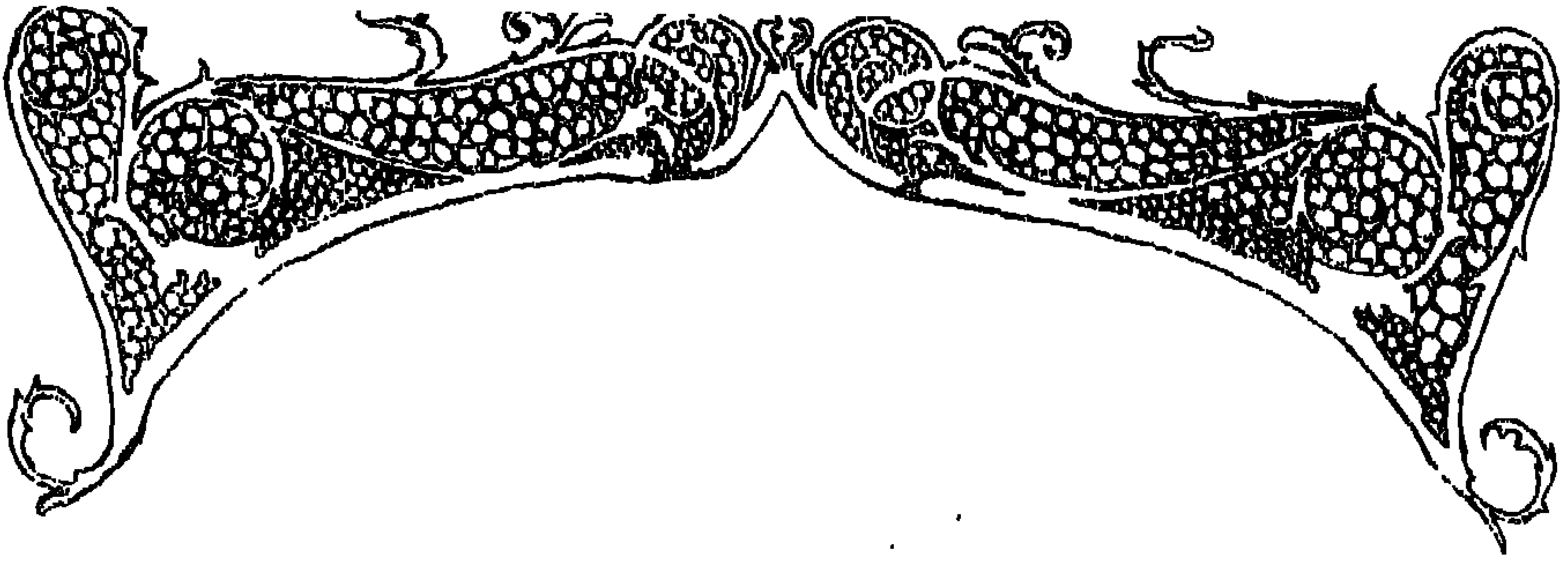
وسأل أتريو بصوت خافت دون أن يستطيع إبعاد نظره عنهما : « هل هما تمثالان ؟»

فأجاب إنجيڤوك وهو يقهقة ضاحكا : « إطلاقا ، إنهما آباء هول حقيقة ، حية ـــ وكم هى حية ! لقد شاهدت ما فيه الكفاية مؤقتا . هيا ، فلنذهب إلى أسفل مرة أخرى . سوف أشرح لك كل شىء » .

ووضع يده أمام المنظار المقرب بحيث لم يعد أتريو يرى شيئا . ومشيا طريقهما عائدين بصمت .

٦
البوابات السحرية الثلاثة





حينما عاد إنجيڤوك مع أتريو إلى كهف العفاريت القزمية ، كان فُخور ما زال يغط فى سبات عميق . وفى تلك الأثناء كانت أورجل العجوز قد أخرجت المنضدة الصغيرة إلى الخلاء وأعدتها بمختلف أنواع الحلوى والعصائر المطبوخة من الفراولة والنباتات .

وإلى جانب ذلك كانت هناك أقداح صغيرة للشرب وإبريق صغير مملوء بمشروب أعشاب ساخن عطر الرائحة . واكتمل المشهد بفانوسين صغيرين بزجاجتين يغذيهما الزيت .

وقالت أنثى العفاريت القزمية آمرة : « جلوس . أتريو يجب أولا أن يأكل ويشرب شيئا لكى يعود إلى قواه . فالدواء وحده لا يكفى . »

فقال أتريو : « شكرا ، أنا أشعر بأن صحتى جيدة جداً » .

فنفخت أورجل قائلة : « ممنوع المعارضة ! فطالما أنت هنا ، تفعل ما يقال لك ، مفهوم إن السم فى جسدك قد فقد فعاليته . فلا داعى إذن للعجلة ، يابنى . فلديك وقت كما تريد ، فلتتمهل إذن » .

فقال أتريو معترضاً : « إن الأمر لا يتعلق بى أنا وحدى ، إن الإمبراطورة الطفولية تحتضر . ربما يتوقف الأمر الآن على كل ساعة » .

فقالت العجوز متبرمة : « كلام فارغ . بالتسرع لا يحقق المرء شيئاً مطلقاً . جلس . كل . اشرب . هيا ، هل ستسرع ؟ » .

وهمس إنجيڤوك قائلا : « من الأفضل أن يسلم المرء . فلدىّ خبرتى مع هذه

المرأة . إذا أرادت شيئاً ، فلا شىء يجدى . وخلاف ذلك فعلينا أن نناقش الكثير ، نحن الاثنين » .

وجلس أتريو وأرجله منثنية أمام المنضدة الصغيرة جداً ، ومد يده . ومع كل جرعة ومع كل لقمة كان يشعر فعلا كما لو كانت تسرى فى عروقه وعضلاته حياة ذهبية دافئة . وحينئذ فقط لاحظ كم كان خائر القوى .

وسال لعاب باستيان فى فمه . وشعر فجأة كما لو كان يشم رائحة عطر وجبة العفاريت الأقزام . وشمشم فى الهواء من حوله ، ولكنه بالطبع كان مجرد تخيل .

وزمجرت بطنه بصوت مسموع من الجوع . ولم يعد يستطيع الاحتمال . فأخرج بقية طعام الفسحة والتفاحة من حقيبته وأكل كليهما . وبعدها شعر بقليل من التحسن ، بالرغم من أنه لم يكن قد شبع إلى حد بعيد .

ثم اتضح له أن هذه هى وجبته الأخيرة . وأفزعته الكلمة . وحاول ألا يفكر فى ذلك فيما بعد .

وقال أتريو لأورجل : « من أين أتيت بكل هذه الأطايب ؟ » .

فقالت : « أجل ، يا بنى ، لابد أن يسير المرء إلى بعيد ، إلى بعيد لكى يعثر على الأعشاب والنباتات الصحيحة . ولكن إنجيڤوك العنيد هذا يريد أن يسكن هنا بالذات ـ من أجل دراساته الهامة . وهو لا يهتم بكيفية إحضار الطعام إلى المائدة » .

فأجاب إنجيڤوك بوقار : « يا امرأة ، ماذا تفهمين أنت فيما يهم وفيما لا يهم . تحركى بعيداً ودعينا نتحدث » .

واختفت أورجل متذمرة فى الكهف الصغير حيث أحدثت ضجيجاً بمختلف أنواع الأوانى .

وهمس إنجيڤوك قائلا : « دعها ، إنها عجوز طيبة ولكن يجب عليها بين الحين والآخر أن تتشدق بشىء ما . اسمع يا أتريو . سوف أشرح لك الآن بعض الشىء عن أرض التنبؤات الجنوبية وهو ما يجب عليك معرفته . وليس من السهل تماماً

التقدم إلى أيُولالا . بل من الصعب جداً . ولكنى لا أود أن ألقى عليك محاضرة علمية . ومن الأفضل أن تطرح أنت أسئلة . فإننى من السهل أن أتوه قليلا فى التفاصيل . اسأل إذن » .

فقال أتريو : « حسنٌ ، مَنْ أو ما هى أُيولالا ؟ »

فدمدم إنجيڤوك ورمقه بعينين بارقتين غضباً وقال : « اللعنة . إنك تسأل بشكل مباشر مثل زوجتى . ألا تستطيع أن تبدأ بشيء آخر ؟ » .

ففكر أتريو ثم سأل قائلا : « هذه البوابة الصخرية الكبيرة ذات أبى الهول التى أريتها لى هل هذا هو المدخل ؟ » .

فأجاب إنجيڤوك : « هذا أفضل . فهكذا نتقدم إلى الأمام . إن البوابة الصخرية هى المدخل ، ولكن بعدها تأتى بوابتان أخريان ، ثم بعد البوابة الثالثة تسكن أيُولالا ـ إذا استطاع المرء إطلاقا أن يقول إنها تسكن . »

ـ « هل كنت بنفسك مرة عندها ؟»

فأجاب إنجيڤوك وهو منحرف المزاج قليلا مرة أخرى : « إلى أين تتجه أفكارك ! إننى لا اشتغل إلا بطريقة علمية . ولقد جمعت كل تقارير الذين كانوا هناك . طالما أنهم عادوا ، طبعا . وهذا عمل هام . وأنا لا أستطيع أن أسمح لنفسى بالمخاطرة الشخصية . فمن المؤكد أن يؤثر هذا على عملى . »

فقال أتريو : « فهمت . إذن ما أهمية هذه البوابات الثلاث ؟»

فقام إنجيڤوك ، وشبك ذراعيه خلف ظهره وراح يمشى جيئة وذهابا بينما هو يقول ما يلى :

« الأولى تدعى بوابة اللغز الكبير والثانية تدعى بوابة المرآة السحرية ، والثالثة تدعى بوابة بلا مفتاح . . . »

فقاطعه أتريو قائلا : « غريب ، فعلى قدر ما رأيت ، لم يكن خلف البوابة الصخرية شيء سوى سهل خال . فأين تلك البوابات الأخرى إذن ؟»

فصاح به إنجيڤوك متسلطا : « هدوء ! لا يستطيع المرء الشرح إذا داومت على المقاطعة . فكل شيء صعب جدا . فالأمر على النحو التالى : لا تكون البوابة الثانية هناك إلا عندما يمر المرء من البوابة الأولى . والثالثة هناك عندما يخلف المرء البوابة الثانية من ورائه وأيولالا فقط عندما يمر المرء عبر البوابة الثالثة . وقبل ذلك لا يوجد أى شيء من كل هذا . لا شيء هناك ؛ ببساطة ، هل فهمت ؟»

وهز أتريو رأسه بالإيجاب ، ولكنه فضل الصمت لكيلا يغضب العفريت القزم من جديد .

ــ « لقد رأيت البوابة الأولى ، بوابة اللغز الكبير من خلال منظارى المقرب . وكذلك أبوا الهول الاثنين . وهذه البوابة مفتوحة دائما ــ بالطبع . ليس لها ضلف على الإطلاق . ولكن بالرغم من ذلك لا يستطيع أحد المرور ، إلا ــ » وهنا مد إنجيڤوك سبابته الصغيرة جدا إلى فوق وهو يقول : « إلا عندما يغلق آباء الهول عيونهم . أتدرى لماذا ؟ إن نظرة واحدة من أبى الهول تختلف اختلافا تاما عن نظرة أى كائن آخر . فكلانا ، وجميع الآخرين ، نلتقط بنظرنا شيئا . ونرى العالم . ولكن أبو الهول لا يرى شيئا ، فهو أعمى بشكل ما . وفى مقابل ذلك ترسل عيونها شيئا ما . وما هو هذا الشيء الذى يرسله نظرهم ؟ جميع ألغاز الدنيا . ولذلك ينظر كلا أبوى الهول الاثنين إلى الآخر دون انقطاع . لأنه ليس سوى أبى الهول يستطيع أن يتحمل نظرة أبى هول آخر . والآن تخيل ما يمكن أن يحدث لشخص يجرؤ على السير فى مجال تبادل نظر كلا الاثنين هذين ! إنه يتصلب على الفور لا يستطيع التحرك مرة أخرى دون أن يكون من قبل قد حل جميع ألغاز الدنيا . إنك ستجد آثار مثل هؤلاء المساكين عندما تصل الى هناك . »

فقال أتريو معقبا : « ولكن ، ألم تقل أنهم أحيانا يغلقون عيونهم ؟ ألا يجب عليهم أحيانا أن يناموا ؟ »

فاهتز إنجيڤوك من الضحك قائلا : « يناموں ؟ يا للعجب ، أبو الهول ينام . كلا ، حقيقة لا . إنك فعلا فتى خالى الذهن . ولكن سؤالك ليس خاطئا بالرغم من ذلك . وهو بعينه النقطة التى أكرس لها بحثى . إن آباء الهول تغلق عيونها لدى

بعض الزائرين وتدعهم يمرون . ولكن السؤال الذى لم يفسره أحد حتى اليوم هو : لماذا ذلك الشخص بعينه وليس شخصا آخر ؟ فهُما لا يدعان بأى حال من الأحوال مثلا الحكماء والشجعان والخيّرين ، ويبعدون الأغبياء والجبناء أو الأشرار . أجل ، يا للغرابة . لقد شاهدت بعينىْ رأسى أنهم سمحوا بالدخول لشخص أرعن ضعيف العقل ، أو لشخص محتال وضيع بينما انتظر أفضل الناس استقامة ورجاحة فى العقل شهورا فى أغلب الأحيان ، وفى آخر الأمر انسحبوا بلا توفيق . ويبدو أنه ليس هناك أهمية إذا كان أحدهم يريد الوصول إلى أرض التنبؤات بسبب الضيق أو الحاجة ، إذن انه يحاول لمجرد المزاح» .

وسأل أتريو قائلا : « وأبحاثك ، ألم تعط أية دلائل ؟»

وفورا استعاد إنجيڤوك نظرته الغاضبة ذات البريق وقال :

« هل تنصت أم لا ؟ لقد قلت منذ قليل أن لا أحد حتى اليوم قد فسر هذا السؤال . ولقد أعددت بالطبع بعض النظريات مع مرور السنين . وفى بادىء الأمر ظننت أن النقطة الفاصلة التى يحكم آباء الهول طبقا لها هى ربما خصائص جسمانية معينة ــ الحجم ، الجمال ، القوة أو ما شابه ذلك . ولكننى اضطررت سريعا إلى إلغائها . ثم حاولت تحديد علاقات رقمية معينة ، مثل استبعاد ثلاثة من خمسة دائما ، أو أن فقط ذوى الأعداد الأولية التى تقبل القسمة على واحد وعلى نفسها هم الذين يحصلون على التصريح بالدخول . وقد سار ذلك أيضا سيرا حسنا جدا فيما يتعلق بالماضى ، ولكنها لم تفلح مطلقا عند التنبؤ فقط ، وفى تلك الأثناء اتخذت الرأى القائل بأن قرار آباء الهول عفوى تماما وليس له مغزى على الإطلاق . ولكن امرأتى تدعى بأن هذا رأى فاسق وغير فانتازى فوق ذلك ، وأنه ليس له أية علاقة بالعلم . »

وسمُع صوت أنثى العفاريت القزمية وهى تسب من الكهف قائلة : «هل عُدْتَ ثانية إلى هرائك ؟ إستح ! أنت ترى أن فى استطاعتك إنكار مثل هذه الأسرار العظام ببساطة ، ليس إلا لأن الجزء الضئيل من المخ فى رأسك قد أصابه الجفاف ، أيها الغبى العجوز !»

فقال إنجيڤوك متنهدا : « ها أنت تسمع . والأمر الفظيع هو أن معها حق . »
وسأل أتريو قائلا : و« ماذا عن حجاب الإمبراطورة الطفولية ، أتعتقد أنهم لن يحترمونه ؟ فإنهم أيضا من مخلوقات فانتازين . »

فقال إنجيڤوك وهز رأسه ذات حجم التفاحة يمنة ويسرة : « نعم ، ولكنهم عند ذلك يجب أن يروه . وهم لا يرون شيئا . ولكن نظرهم سيصيبك . وكذلك لست متأكدا من أن آباء الهول يطيعون الإمبراطورة الطفولية . ربما هم أعظم منها . لست أدرى ، لست أدرى . وعلى كل حال فالأمر يدعو للشك والريبة جدا . »

فقال أتريو هو يريد المعرفة : « وبم تنصحنى إذن ؟ »

فأجاب العفريت القزمى : « ستضطر أن تفعل ما يضطر الجميع أن يفعلوه . أن تنتظر كيف سيقررون ــ دون أن تعرف السبب . »

وهز أتريو رأسه مفكرا .

وجاءت أو رجل الصغيرة من الكهف وكانت تحمل بعناء دلوا صغيرا به سائل يتصاعد منه البخار ، وتحت ذراعها حزم من النباتات المجففة . ومشت وهى تتمتم لنفسها إلى تنين الحظ الذى كان لم يزل نائما بلا حراك . وبدأت تتسلق عليه وتغير الضمادات على جروحه . وتنهد مريضها العملاق مرة واحدة فقط بارتياح وتمطّى ، وخلاف ذلك بدا أنه لا يلاحظ شيئا تقريبا من العلاج .

وقالت إلى إنجيڤوك عندما سارت مرة أخرى عائدة إلى المطبخ : « أليس من الأفضل أن تستطيع أن تجعل من نفسك شخصا مفيدا قليلا ، بدلاً من أن تقبع هنا وتثرثر بكلام فارغ . »

فصاح زوجها من خلفها قائلا : « إننى أجعل من نفسى مفيدا جدا ، ربما أفيد منك ، ولكنك لن تدركى هذا أبدا ، أيتها المرأة البلهاء ! »

وتحول إلى أتريو واستمر فى حديثه وهو يقول : « إنها لا تستطيع أن تفكر إلا فى الشىء العملى . وهى ببساطة لا تدرك الأمور الكلية العظيمة . »

ودقت ساعة البرج الثالثة .

وإذا كان ذلك محتملا على الإطلاق ، فإن الأب يكون قد لاحظ حينئذ على أقصى تقدير أن باستيان لم يأت إلى المنزل . فهل يا ترى انشغل باله ؟ ربما سينطلق ويبحث عنه . وربما يكون قد أخبر الشرطة فعلا . وفى النهاية تنقل أخبار البحث عنه فى الإذاعة . وأحس باستيان بوخزة فى تجويف معدته .

ولو كان الأمر كذلك ، فأين سيبحثون عنه ؟ فى المدرسة ؟ ربما أيضا هنـا فى المخزن ؟ هل كان قد أغلق الباب بالمرة عندما عاد من دورة المياه ؟ إنه لم يعد يستطيع التذكر ، ووقف لكى يتفقد الأمر . أجل ، لقد كان الباب محكم الغلق .

وفى الخارج بدأت الدنيا تصبح نصف مظلمة . والضوء الذى كان يدخل عبر كُوّة السقف ازداد ضعفا دون أن يلاحظ ذلك أحد .

ولكى يتخلص باستيان من قلقه سار قليلا جيئة وذهابا فى المخزن . وأثناء ذلك اكتشف كمية من الأشياء التى ليس لها فى الواقع أية علاقة بالمتعلقات المدرسية التى كانت هناك علاوة على ذلك . فعلى سبيل المثال جراموفون قديم منبعج ذو بوق ـــ من يدرى ، متى ومن أحضره إلى هناك ؟ وفى أحد الأركان كانت هناك عدة لوحات فى إطارات ذهبية مزينة بزخارف متعرجة لم يعد شىء يُرى منها تقريبا ، سوى وجـه شاحب هنا وهناك ذو نظرة صارمة . يظهر بلمعة منطفئة من الخلفية الداكنة . وكان هناك أيضا شمعدان ذو سبعة أذرع متآكلة من الصدأ ، والذى كانت ما تزال عالقة به بقايا شموع سميكة كونت من قطراتها خيوطاً طويلة كاللذقون .

ثم فزع باستيان حيث تحرك شكل ما فى أحد الزوايا المظلمة . وعند النـظرة الثانية فقط أدرك أن هناك مرآة كبيرة نصف معتمة حيث رأى فيها نفسه بشكل غير واضح . وسار مقتربا منها وتأمل نفسه فترة . إنه لم يكن جميلا ، بجسمه السمين وأرجله المنحنية إلى الخارج ووجهه الشاحب هذا . وهز رأسه ببطء وقال بصوت عال « لا »

ثم عاد الى مخدعه المكوّن من الدواسات . واضطر وقتذاك أن يضع الكتاب بالقرب من عينيه لكى يستطيع مواصلة القراءة .

وسأل إنجيڤوك : « أين كنا واقفين ؟»
فقال أتريو مُذكّرا له : « عند بوابة اللغز الكبير »
ــ « صحيح ! فلنفترض أنك وُفّقتَ فى المرور . وحينئذ ــ وحينئذ فقط ــ ستتواجد لك البوابة الثانية ، بوابة المرآة السحرية . وكما قلت ، لا أستطيع أن أقول لك شيئا من ملاحظتى الشخصية ، ولكن فقط ما جمعته من التقارير . وتلك البوابة الثانية مفتوحة ومغلقة فى نفس الوقت . إن هذا وقعا مجنونا ، أليس كذلك ؟ ربما من الأفضل أن نقول أنها لا مغلقة ولا مفتوحة ، بالرغم من أن الوقع لن يصبح بذلك أقل جنونا . باختصار إنها عبارة عن مرآة كبيرة أو ما شابه ذلك بالرغم من أن الشىء غير مصنوع من زجاج ولا من معدن . ولم يستطع أحد أن يقول لى من أى شىء هى مصنوعة . وعلى كل حال ، عندما يقف المرء أمامها ، فانه يرى نفسه ــ ولكن طبعا ، ليس كما هو الحال فى مرآة عادية . فالمرء لا يرى شكله الخارجى ، ولكن المرء يرى كيانه الداخلى الحقيقى كما هو مطبوع عليه فى الحقيقة . ومن يريد المرور فعليه ــ هكذا أريد التعبير عن الأمر ــ أن يسير الى داخل نفسه . »

فقال أتريو : « على كل حال ، يبدو لى أن بوابة المرآة السحرية هذه أسهل المرور من خلالها من البوابة الاولى . »

فصاح إنجيڤوك ، وبدأ يسير مرة أخرى جيئة وذهابا :« خطأ ! خطأ فاحش تماما ، يا صديقى ! لقد شاهدت أن خصوصا هؤلاء الزوار الذين يعتبرون أنفسهم لا غبار عليهم بالمرة ، يفرون صارخين من الوحش الذى يواجههم فى المرآة فى ضحك ساخر . وقد اضطررنا نحن أن نعالج بعضهم حتى طيلة أسابيع ، قبل أن يتمكنوا بالمرة من بداية رحلة عودتهم للوطن » .

فقالت أو رجل متبرمة ، والتى كانت تمر حينها بدلو صغير جديد : « نحن ! إننى أسمع دائما كلمة نحن . من قمت أنت بعلاجه ؟ »

وأشاح إنجيڤوك فقط بيده .

واستمر فى محاضرته قائلا :« وهناك آخرون على ما يبدو أنهم شاهدوا أمورا أكثر فظاعة ، ولكن كانت لديهم بالرغم من ذلك الشجاعة على المرور . وكان الأمر بالنسبة للبعض أقل رعبا ، ولكن الأمر كلّف كل شخص قهراً للذات . ولا يمكن

التصريح بذلك الشيء الذى كان له اعتبار لدى الجميع . فهو يختلف لدى كل شخص . »

فقال أتريو : « حسن ، ولكن المرء يستطيع المرور من خلال المرآة السحرية ؟»

فقال العفريت القزمى مؤيدا : « يستطيع ، بالطبع يستطيع المرء ، وإلا لما كانت بوابة ، منطقى ، أليس كذلك ؟ . »

فقال أتريو : « ويستطيع المرء أن يلف من الخارج أيضا ، أم لا ؟»

فقال إنجيڤوك مكررا : « يستطيع تماما . فقط لن يكون هناك بعدئذ شيئا وراء ذلك . فالبوابة الثالثة تكون هناك فقط عندما يمر الإنسان من خلال البوابة الثانية . كم مرة يجب أن يقال لك هذا ؟»

ــ « وما هى أهمية هذه البوابة الثالثة ؟»

ــ « هنا فحسب سيصبح الأمر صعبا بجد ! فإن البوابة بلا مفتاح مغلقة . ببساطة ، مغلقة ، وانتهى الأمر ! فلا توجد هناك أكرة ولا مقبض ، ولا ثقب مفتاح ، ولا شيء . وطبقا لنظريتى فإن ضلفة الباب الوحيدة التى تقفل باحكام ، تتكون من سيلينيوم فانتازى . وربما تعلم أنه لا يوجد شيء يمكن به تحطيم أو ثنى أو حل السيلنيوم الفانتازى . فهو غير قابل للتحطيم على الاطلاق . »

ــ « إذن لا يمكن العبور من خلال هذه البوابة أبدا ؟»

ــ « مهلا ، مهلا ، يا بنى . لقد دخل أناس وتحدثوا مع أيولالا ، أليس كذلك ؟ فيمكن إذن فتح الباب . »

ــ « ولكن كيف ؟»

« اسمع : إن السيلينيوم الفانتازى يعطى رد فعل على إرادتنا . فإرادتنا هى التى تجعله هكذا لا يلين . وكلما زادت رغبة الفرد فى الدخول ، ازداد غلق الباب إحكاما . ولكن إذا استطاع الفرد أن ينسى كل غرض ولا تكن لديه رغبة فى شيء على الاطلاق ــ فإن الباب ينفتح أمام هذا الشخص من تلقاء نفسه تماما . »

وأخفض أتريو بصره وقال بصوت خافت : « إذا كان هذا حقا ــ فكيف أتمكن من الدخول ؟ كيف سيمكننى عدم الرغبة ؟»

فهز إنجيڤوك رأسه متنهدا وقـال : « لقد قلت : إن البـوابة بـلا مفتاح هى صعبها . »

واستمر أتريو قائلا : « وإذا ما نجحتُ بالرغم من ذلك ، فهل سأكون بعدئذ فى أرض التنبؤات الجنوبية ؟»

فقال العفريت القزمى : « نعم » .

ـــ « وسأتمكن من التحدث مع أيولالا ؟ »

فقال العفريت القزمى : « نعم » .

ـــ « ومن وما هى أيولالا ؟ »

فقال العفريت القزمى وعيناه تلمعان بالغضب : « ليس عندى أية فكـرة . لا أحد ممن كانوا عندى أراد أن يبوح لى بذلك . فكيف يُنهى شخص عمله العلمى إذا كان الجميع يحيطون أنفسهم بصمت غامض ، هه ؟ إنه لأمر يدعو لنزع الشعر من الغضب ـ إذا كان المرء لديه شعر . إذا ما تقدمت إلى عندها ، ياأتريو ، فهل سوف تقول لى أخيرا ؟ هل ستفعل ؟ إننى سأهلك من الرغبة فى المعرفة ولا أحد ، لا أحد يريد مساعدتى . أرجوك أن تعدنى أنك سوف تقول لى ! . »

ونهض أتريو ونظر إلى بوابة اللغز الكبير الواقعة فى ضوء القمر المنير . وقـال بصوت منخفض : « لا أستطيع أن أعدك بهذا ياإنجيڤوك ، بالـرغم من أننى أود بسرور أن أعبر لك عن امتنانى . ولكن إذا كان لاأحد قد تحدث عن كنه وماهية أيولالا ، فلابد من وجود سبب لذلك . وقبل أن أعرفه لا أستطيع أن أقرر إذا كان مسموح معرفةُ هذا لشخصٍ لم يقف بنفسه أمامها . »

فصرخ فيه العفريت القزمى وكاد الشرر يتطاير من عينيه : « إذن هيّا عجّل بالانصراف ! فلا شىء يجنيه المرء سوى الجحود ! فيبذل المرء جهده طيلة حياته من أجل بحث سرٍّ ذى أهمية عامة . ولكن لا يتلقى عونا . كان ينبغى ألاّ أهتم بك على الإطلاق ! »

وبذلك جرى إلى داخل الكهف الصغير حيث سُمع بداخله الصفع الشديد لغلق باب صغير ومرت أُورجل بأتريو وقالت وهى تكـركر من الضحـك : « إنه

لا يقصد ، صاحب الرأس الضامرة هذا . لقد خاب أمله فقط مرة أخرى بصورة شديدة بسبب أبحاثه المضحكة . فإنه يود جدا أن يكون ذلك الشخص الذى يحل اللغز الكبير ، أن يكون العفريت القزمى الشهير إنجيڤوك . لا تأخذ هذا منه على محمل سيىء . »

فقال أتريو : « كلا ، من فضلك قولى له إننى أشكره من كل قلبى على كل شىء فعله من أجلى . وأشكرك أنت أيضا . وإذا كان مسموحا لى ، فسوف أقول له السر - إذا رجعت . »

فسألت أورجل العجوز قائلة : « أتريد أن تتركنا ؟ »

فأجاب أتريو : « يجب علىّ ، فغير مسموح لى أن أُضيع الوقت . وسوف أذهب الآن إلى أرض التنبؤات . وداعا ! وحافظى على فُخور ، تنين الحظ أثناء ذلك من أجلى . » ثم استدار وانصرف متجها إلى بوابة اللغز الكبير . ورأت أورجل قوامه المعتدل ومعطفه الهفهاف وهو يختفى بين الصخور . فجرت وراءه وصاحت قائلة : « حظا سعيدا ياأتريو . » ولكنها لم تعرف إذا كان قد سمعها . وبينما هى تعود مترنحة إلى كهفها الصغير ، دمدمت قائلة : « إنه سيحتاج إليه - حقا ، سيحتاج إلى كثير من الحظ . »

وكان أتريو قد اقترب من البوابة الصخرية إلى حوالى خمسين خطوة . وكانت عملاقة وأكبر بكثير مما كان يتخيلها من البُعد . ومن خلفها كان سهل قاحل تماما لا يتيح نقطة واحدة تساعد على الاستدلال ، لدرجة أن النظر كان يهوى فى مكان كالفراغ . وأمام البوابة وبين كلا العمودين رأى أتريو حينئذ عددا لا يحصى من جماجم الموتى والهياكل العظمية - بقايا عظام مختلف أنواع سكان فانتازين الذين حاولوا تخطى البوابة والذين تجمدوا إلى الأبد بسبب نظرة آباء الهول .

ولكن هذا لم يكن هو الذى دعا أتريو إلى التوقف . إن الذى جعله يقف كان منظر آباء الهول .

لقد شاهد أتريو الكثير فى مهمة بحثه الكبرى ، رأى الشىء الرائع والشىء المخيف ، ولكن مالم يكن يعرفه حتى تلك الساعة أن كلا الاثنين موجودان فى شىء

واحد ، وأن الجمال يمكن أن يكون مرعبا .

وغمر ضوء القمر كلا الكائنين الهائلين ، وبينما هو يتجه إليهما ببطء ، بديا كأنما يرتفعان إلى مالا نهاية . وشعر كما لو كانا يصلان برؤ وسهما إلى القمر . وبدا التعبير الذى كانا ينظران به إلى بعضهما ، يتغير مع كل خطوة يزداد بها اقترابا . ومن خلال الجسدين الممتدين فى العلو ، وخاصة من خلال الوجهين الذين يشبهان الإنسان سرت واهتزت تيارات من قوة مخيفة مجهولة ـ كما لو كانا غير موجودين كوجود حجر المرمر ، ولكن كما لو كانا يتأهبان كل لحظة للاختفاء ، وفى نفس الوقت يخلقان أنفسهما من جديد . وكانا كما لو أنهما لهذا السبب عينه أكثر واقعية من كل صخرة .

وشعر أتريو بالخوف .

ولم يكن ذلك إلى حد كبير خوفا من خطر يتهدده ، لقد كان خوفا يتخطاه هو نفسه . فلم يكن يفكر تقريبا ، أنه ـ إذا ما أصابته نظرة آباء الهول ـ لابد وأن يظل واقفا جامدا مسحورا ومتصلبا إلى الأبد . كلا ، لقد كان الخوف من الشىء الغامض ، من الشىء الرائع فوق كل الحدود ، من حقيقة القوة العليا ، التى كانت تزيد من ثقل خطواته على الدوام ، إلى أن شعر كما لو كان من الرصاص البارد الرمادى .

وبالرغم من ذلك استمر فى السير . ولم يعد ينظر إلى علٍ . وظل خافضا رأسه ومشى ببطء ، مقدما قدماً على الأخرى ، متجها إلى البوابة الصخرية . وتزايد باستمرار هوْل ثقل الخوف الذى كان يريد أن يضغطه إلى الأرض . ولكنه استمر يمشى . ولم يعرف إذا كانت آباء الهول قد أغلقت عينيها أم لا . فلم يكن لديه وقت يضيعه . وكان عليه أن يترك الأمر يدور حول حصوله على الإذن بالدخول أو أن تكون هذه هى نهاية مهمة بحثه الكبرى .

وفى نفس اللحظة التى اعتقد فيها أن جميع قوى إرادته لم تعد تكفى لتحمله خطوة واحدة فقط إلى الأمام ، سمع صدى هذه الخطوة فى داخل القوس الصخرى . وفى نفس الوقت سقط عنه كل الخوف ، كلّية وبلا أثر لدرجة أنه أحس أنه لن يشعر بالخوف أبدا مرة أخرى مهما حدث .

ورفع رأسه ورأى أن بوابة اللغز الكبير من ورائه ، لقد سمح له آباء الهول بالمرور . ومن أمامه ، وعلى بعد عشرين خطوة فقط كانت هناك بعدئذ بوابة المرآة السحرية حيث لم يكن هناك من قبل سوى السهل الخالى اللانهائى . وقد كانت ضخمة ومستديرة كقرص ثان للقمر (حيث كان القرص الصحيح مازال يحوم عاليا فى السماء) وتتلألأ كالفضة اللامعة . وكان من الصعب الاعتقاد بإمكانية المرور من خلال هذه المساحة المعدنية بالذات ، ولكن أتريو لم يتردد لحظة . وكان يتوقع ، كما وصف له إنجيڤوك ، أن تنعكس له صورة لنفسه فى هذه المرآة تبعث على الفزع ، ولكنها بدت له حينئذ ـ لأنه ترك كل الخوف ـ أنها تكاد لا تستحق الاعتبار .

وفى تلك الأثناء ، وبدلا من الصورة المفزعة رأى شيئا لم يكن يتوقعه على الاطلاق ، ولم يستطع كذلك أن يدركه . لقد رأى صبيا سمينا بوجه شاحب ـ تقريبا فى عمره هو نفسه ـ كان يجلس على مخدع من الدواسات مربعا رجليه ، ويقرأ فى كتاب . وكان ملفوفا فى أغطية رمادية ممزقة . ومن خلفه أمكن تبين بعض الحيوانات الساكنة فى دغشة الضوء ، نسر ، وبومة وثعلب ، وأبعد من ذلك قليلا كان يلمع شىء يبدو كهيكل عظمى أبيض . ولم يكن من الممكن تبينه بدقة .

وانتفض باستيان عندما فهم ما قرأه حالا . لقد كان ذلك هو ! فالوصف كان صحيحا فى جميع تفاصيله . وبدأ الكتاب يرتعش فى يديه . لقد راح الأمر حينئذ إلى بعيد جدا بشكل حاسم . فلم يكن ممكنا على الإطلاق أن يكون هناك شيئاً فى كتاب مطبوع لا ينطبق إلا عليه وفى هذه اللحظة لا غيرها فكل شخص آخر كان سيقرأ نفس الشىء فى هذا الموضع . إن الأمر لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى صدفة مجنونة . وعلى الرغم من أنها بدون شك كانت صدفة غاية فى الغرابة .

وقال لنفسه بصوت عال : « باستيان ، إنك فعلا تُخرف . من فضلك تمالك نفسك ! » لقد حاول أن يقولها بصوت صارم بقدر الإمكان ، ولكن صوته ارتعش قليلا ، لأنه لم يكن مقتنعا تماما أن الأمر كان مجرد صدفة .

وفكر قائلا : « تصور ، إذا كانوا فى فانتازين يعرفون شيئا عنك ، لكان ذلك رائعا . » ولكنه لم يجرؤ أن يقولها بصوت مرتفع .

وكانت ابتسامة مندهشة فقط على شفتى أتريو عندما دخل فى الصورة المنعكسة - وكان متعجبا قليلا أن ينجح بهذه السهولة فيما بدا للآخرين صعبا لا يمكن التغلب عليه . ولكن بينما هو يمر أحس بقشعريرة غريبة . ولم يكن يدرى ماذا حدث له فى الحقيقة : فعندما وقف على الجانب الآخر من بوابة المرآة السحرية ، نسى كل ذاكرة فى نفسه هو ، وفى حياته السابقة وفى أهدافه وأغراضه . ولم يعد يدرى شيئا عن مهمة البحث الكبرى التى قادته إلى هناك ، ولم يعد حتى يعرف اسمه الخاص . لقد كان كطفل ولد من جديد .

ورأى على بعد خطوات قليلة أمامه ، بوابة بلا مفتاح ، ولكن أتريو لم يتذكر هذه التسمية ولا أنه كان ينوى المرور منها لكى يأتى إلى أرض التنبؤات الجنوبية . إنه لم يكن يعرف على الإطلاق ماذا يريد أو ينبغى عليه فعله ولا سبب وجوده هناك . لقد كان يشعر أنه خفيف ومرح جدا ، وكان يضحك بلا سبب ، فقط من السرور .

والبوابة التى رآها أمامه كانت صغيرة ومنخفضة كبوابة عادية ، موجودة منفردة تماما - وبدون أسوار محيطة بها - فى مساحة قاحلة . وكانت ضلفة هذه البوابة مغلقة .

وتأملها أتريو برهة . وبدت كأنها مصنوعة من مادة تلمع بلون النحاس . لقد كانت جميلة ، ولكن أتريو فقد الاهتمام بها بعد قليل من الوقت . ومشى حول البوابة وتأملها من الناحية الخلفية ، ولكن المنظر لم يختلف عن الناحية الأمامية . وكذلك لم تكن هناك أكرة ولا مقبض للباب ولا ثقب لمفتاح . وعلى ما يبدو لم يكن ممكناً فتح الباب ، ولأى غرض كذلك ، حيث إنه لم يكن يؤدى إلى أى مكان ، فقط كان موجودا هناك . حيث لم يكن خلف البوابة سوى سهل واسع وخال تماما .

وكانت لدى أتريو الرغبة فى الانصراف . فالتفت عائدا ، ومتجها إلى بوابة المرآة السحرية المستديرة وتأمل ناحيتها الخلفية لبعض الوقت دون أن يدرك معنى ذلك . وقرر أن ينصرف .

فقال باستيان بصوت عال : « لا ، كلا ، لا تنصرف ! ارجع يا أتريو . لابد أن تمر من خلال البوابة بلا مفتاح ! »

ولكنه عاد متجها بعد ذلك إلى البوابة بلا مفتاح . وأراد أن يتأمل البريق النحاسى مرة أخرى . فوقف مرة أخرى أمام البوابة وانحنى إلى اليسار وإلى اليمين مبتهجا . وتلمس برقّة المادة الغريبة . فقد كانت تعطى إحساسا بالدفء والحيوية أيضا . وانفتح الباب لشق واحد .

وأدخل أتريو رأسه من خلاله ، وحينئذ رأى شيئا لم يكن رآه من قبل على الجانب الآخر ، عندما مشى حول البوابة . وسحب رأسه مرة أخرى ، ومر بنظره على البوابة : لم يكن هناك شىء سوى السهل الخالى . فنظر مرة أخرى من خلال شق الباب ورأى ممرا طويلا تكونه أعمدة هائلة لا تحصى عددا . وخلف ذلك درجات وأعمدة أخرى وشرفات ودرجات مرة أخرى وغابة كاملة من الأعمدة . ولكن لم يكن واحد من هذه الأعمدة يحمل سقفا . فقد كانت سماء الليل تُرى من فوقها .

ودخل أتريو من خلال البوابة ونظر حوله وهو ممتلىء بالدهشة . ومن خلفه هوى الباب منغلقا .

ودقت ساعة البرج الرابعة .

ضوء النهار المعتم الذى كان يسقط من خلال كُوّة السقف ، إختفى شيئا فشيئا . لقد كانت الدنيا مظلمة بحيث لا يمكن مواصلة القراءة . فحتى الصفحة الأخيرة لم يستطع باستيان تفسيرها إلاّ بعناء . فوضع الكتاب جانبا .

ماذا عليه أن يفعل الآن ؟

من المؤكد أن هناك نوراً كهربائياً فى هذا المخزن . وتحسس باستيان طريقه إلى الباب فيما يشبه الظلام ، وتلمس الحائط . ولم يستطع العثور على مفتاح للنور . وكذلك لم يكن هناك واحد على الجانب الآخر .

وأخرج باستيان علبة ثقاب من جيب سرواله (لقد كان دائما معه شىء منها لأنه كان يحب أن يشعل نارا صغيرة) ، ولكنها كانت مبتلة ، ورابعها فقط هو الذى اشتعل . وبحث على الضوء الضعيف للشعلة الصغيرة عن مفتاح للنور . ولكن لم يكن هناك واحد منها .

إنه لم يضع ذلك فى حسبانه . وعندما تصور أنه سيجلس هناك المساء كله ، والليلة كلها فى ظلام تام ، شعر ببرودة من الفزع . إنه لم يعد طفلا صغيرا ، وفى المنزل أو فى أى مكان آخر مألوف لم يكن يخاف مطلقا من الظلام ، ولكن الأمر كان مختلفاً تماما هناك فوق فى هذا المخزن الضخم مع كل هذه الأشياء الغريبة .

وحرق عود الثقاب أصبعه فرماه بعيدا . ووقف برهة هناك وتصنت وكان المطر قد خفت حدّته وكان يدق فقط بصوت خافت فوق السقف الصاجى الكبير .

ثم خطر بباله الشمعدان الصدىء ذو السبعة أذرع الذى اكتشفه من بين الأمتعة المهملة وتحسس طريقه إلى المكان ، وعثر عليه وجرّه إلى ناحيته إلى دواسات الألعاب الرياضية . وأشعل فتيل الجذوع الشمعية المتبقية السميكة - السبعة كلها - وانتشر على الفور ضوء ذهبى وطقطقت شعل النار بصوت خافت واهتزت أحيانا فى تيار الهواء إلى هنا وهناك .

وتنفس باستيان الصعداء ومد يده مرة أخرى إلى الكتاب .

٧

صوت الصمت





خيالات سوداء فى الضوء المنير للقمر كانت تُلقى بها غابة الأعمدة حيث دخل أتريو متجولا فيها سعيدا مبتسما(١٠) . وأحاطه صمت عميق ، وكاد لايسمع وقع أقدامه المجردة . ولم يعد يعرف من هو وما اسمه وكيف أتى إلى هناك وماذا يبحث عنه هناك . وكان ممتلئا بالدهشة ، ولكنه خال من الهموم تماما .

كانت الأرض فى كل مكان مغطاه بالفسيساء الذى كان يشكل زخارف متشابكة محيرة أو مشاهداً وصوراً غامضة . ومشى أتريو إلى هناك وصعد سلالم عريضة ، ووصل إلى شرفات واسعة ثم نزل سلالم مرة أخرى وسار من خلال طريق طويل بين أعمدة حجرية . وتأملها واحدا بعد الآخر ، وأسعده أن كل واحد مزخرف بشكل آخر ، ومغطى بعلامات أخرى . وهكذ تحرك مستمراً فى الابتعاد عن البوابة بلا مفتاح .

وبعد أن استمر يمشى على هذا النحو ، من يدرى كم الزمن ، وصل إلى مسامعه أخيراً رنين هائم من بعيد ، وظل واقفا يستمع . واقترب الرنين ، لقد كان صوتا شاديا جميلا جدا ، وفى نقاء الأجراس ، وعاليا كرنين صوت طفل ، ولكنه كان حزيناً إلى غير منتهى ، أجل ، أحيانا كان يبدو أنه ينتحب . هذه الأنشودة الشاكية سرت بين الأعمدة بسرعة النسمة ، ثم ظلت باقية عند أحد الأمكنة ، وحامت إلى أعلى وإلى أسفل ، واقتربت مرة أخرى ، وبدت أنها تدور حول أتريو فى قوس واسع .

(١٠) هناك بعض التصرف فى الترتيب اللفظى للترجمة اضطر إليه المترجم ليأتى بكلمة تبدأ بالحرف التالى من الأبجدة العربية .

فلم يتحرك وانتظر .

وازدادت الدوائر التى كان يكوّنها الصوت حول أتريو ضيقـا شيئا فشيئـا ، وعندئذ استطاع أن يفهم الكلمات التى كان ينشدها :

« اه ، كل شىء لايحدث إلا مرة واحدة
ولكن مرة لابد أن يحدث كل شىء
وفوق الجبل والوادى ، فوق الحقل والمرج
سوف أنقضى ، وأختفى . . . . . »

واستدار أتريو ناحيـة الصوت الـذى كان يحـوم بلا هـوادة بين الأعمـدة هنا وهناك ، ولكنه لم يستطع أن يرى هناك أحدا .

فصاح قائلا : « من أنت ؟»

وعاد الصوت كرجع الصدى قائلا : « من أنت ؟»

وتفكر أتريو .

وتمتم قائلا : « من أنا ؟ لا أستطيع أن أقول . يبدو لى كما لو كنت أعرف ذلك فى وقت ما ، ولكن هل لذلك أهمية ؟ »

وأجاب الصوت الشادى :

« إذا أردت أن تسألنى سراً
فبالشعر ، بالقافية معى تكلّم
لأن الحديث فى غير الأبيات
لاأُدركه فهماً ـ لاأدركه فهماً . . . »

ولم يكن أتريو متمرنا جدا فى صياغة الأبيات والقوافى ، وبدا له أن الحديث ربما سيدور بصعوبة نوعا ، اذا ما لم يفهم الصوت غير ما هو مسجوع . وكان عليه أن يشحذ فكره برهة قبل أن يُبدع قائلا :

« إذا كان السؤال لى مسموح
فأود منك عن شخصك تبوح »

فرد الصوت على الفور قائلا :

« الآن إنى أسمعكْ
وهكذا بوضوح أفهمكْ . »

ثم أنشد من اتجاه آخر قائلا :

« حيث إن إرادتك حسنة ، فإنى أشكرك ، أيها الصديق .
ومرحبا بك ضيفا عندى تكون ،
أناأيولالا ، صوت السكون
فى قصر السّر العميق . »

واسترعى انتباه أتريو أن الصوت يرن أحيانا أكثر ارتفاعا وأحيانا أكثر انخفاضا ، ولكنه لم يصمت تماما أبدا . وحتى عندما لاينشد كلاما أو عندما يتحدث هو إليه ، كان هناك صوت يحوم دون انقطاع حوله ويستمر .

ولأن الرنين ابتعد عنه ببطء ، جرى وراءه وسأل قائلا :

« قولى ، أيولالا ، أما زلت تسمعينى ؟
إننى لاأستطيع ، وأود أن أراك بعينى . »

ولفح الصوت مارا بأذنه قائلا :

« لم يحدث أبداً
أن رآنى أحداً
أنت لاتستطيع رؤ يتى
برغم وجودى وكنيتى . »

فسأل قائلا : « إذن فأنت غير مرئية ؟ » ولكن عندما لم تأت إجابة ، تذكر أنه يجب أن يسأل فى صيغة شعرية ، فقال :

« أنت غير مرئية ببساطة
أم أنك بلا جسد البتّة ؟»

وسمع رنينا خافتا من الممكن أن يكون ضحكا أو نحيباً ، ثم أنشد الصوت يقول :

« نعم ولا ، وكلاهما ليسا

كما تقصد أنتَ
إننى لاأظهر فى الضياء
مثلما أنت تظهرْ .
لأن جسدى صدح ورنين
فهو مسموع ليس أكثرْ
والصوت هذا نفسُهْ
هو كيانى كله . »

وتعجب أتريو واستمر فى سيره خلف الرنين بلا هدف خلال غابة الأعمدة . بعد برهة كان لديه سؤال جاهز :

« هل أنا فهمتك حقاً ؟
هل يكون شخصك ليس إلا هذا الرنين ؟
ولكن عندما عن الإنشاد تبطلين فعلا ،
فهل عن الوجود تنعدمين ؟»

ثم سمع الإجابة ، قريبة جدا منه :

« اذا ماأتى للنهاية النشيدْ ،
فسوف يحدث لى
ماليس للكائنات عنه محيدْ
عندما أجسادهم تنذوى
وهكذا مجرى الأمور
أنا أحيا ، طالما يصدر رنينى
ولكن لن يبق هناك الكثير لاستمرار كيانى . »

ثم سمع النحيب مرة أخرى ، وأتريو الذى لم يكن يفهم لماذا تبكى أيولالا ، أسرع فى التساؤل :

«لِمَ أنت حزنية ، قولى لى بسرعةْ !
فأنت مازلت صغيرة . ورنين صوتك كالطفلةْ . »

وعاد صوت الرنين كرجع الصدى مرة أخرى :

« قريبا ستذورنى الرياح
فما أنا إلا أنشودة الشكوى
ولكن اسمع ، الزمن رواح
لهذا السبب اسأل ، اسأل !
ماذا تريد منى قولا ؟»

وكان الصوت قد تلاشى فى مكان مابين الأعمدة ، وأتريو الذى لم يعد يستطيع سماعه ، أدار رأسه متصنتا إلى جميع الجهات . وعم صمت لفترة قصيرة ، ثم عاد النشيد مقتربا من بعيد بسرعة . وكاد رنينه يكون نافذ الصبر :

« أُيولالا هى الإجابة . عليك أن تسألها !
لن تستطيع أن تقول شيئا ، إذا أنت لم تسألها ! »

فصاح أتريو فى اتجاهها :

« أُيولالا ، أود أن أفهم ، ساعدينا :
لماذا عليك أن تختفى قريبا وتتركينا ؟»

وأنشد الصوت يقول :

« ستقضى نحبها ببطء الإمبراطورة الطفولية
ومعها المملكة الفانتازية .
حيثما أكون فسيبتلع العدم المكانْ
وسيحدث لى هذا سريعا فى التّو والآنْ
وسنختفى فى الأبد واللامكانْ
كما لو لم نكن منذ الأزل
اسم جديد يلزمها من الأسماءْ
بغير هذا هى لن تستطيع الشفاءْ »

وأجاب أتريو :

« أيولالا ، قولى من سينقذ حياتها
اسما جديدا من سيستطيع منحها ؟»

واستمر الصوت قائلا :

« اسمع ، اسمع كلامى أنا ،
قبل الانصراف من هنا .
وان لم تفهمه الآن ، فعميقا بذاكرتك احفره
ثم فى الساعة الأفضل ، بلا نقصان
إلى وضح النهار ارفعه
من قاع بحر الذاكرة
مثلما يرن الآن
فى الساعة الحاضرة
فكل شىء يرتبط بما تأتيه من عمل
نجاحا كان أم فشل . »

وسمع صوت شاك فقط دون كلمات فترة من الزمن ، وفجأة رن قريبا من أتريو ، كما لو كان أحدهم يتحدث إليه فى أذنه :

« اسما جديدا للإمبراطورة الطفولية
من يقدر على منحه إياها ؟
لاأنت ولاعفريتة ولاجنى ولاأنا على إعطاها
لاأحد يفك عنا اللعنة
ولاأحد يزيل عن صحتها العلة
لسنا سوى شخصيات فى كتاب
نفعل ما ابتدعنا من أجله
لسنا إلا صورا وأحلاماً فى قصة ،
كما نحن ، فعلينا أن نكون

لاحكيم ولاملك ولاطفلة
يقدر على استحداث بدعة .
ولكن على الجانب الآخر من فانتازين ، هناك مملكة
اسمها الدنيا الخارجة ،
والذين يسكنون هناك ـ حقا إنهم أغنياء
فحياتهم مختلفة .
بنو آدم ، هكذا يُسمون
من على الأرض بحق يسكنون ،
وبنات حواء ، ذلك الجنس البشرى
اشقاء فى الدماء للكلمة الحقة .
موهبة منح الأسماء
لديهم من الابتداء
فقد جَلبوا فى جميع الأوقات
للامبراطورة الطفولية بالحياة .
وأسماء جديدة منحوها لها رائعة
ولكن وقت طويل انقضى
منذ وفد إلينا فى فانتازين آدمى وأتى ،
إنهم لم يعودوا يعرفون السبيل
ونسوا فى الحقيقة كيف نكون
ولم يعودوا فى ذلك يعتقدون .
آخ ، لو يأتى طفل واحد آدمىّ ،
لتم فعل كل شىء !
آخ لو واحد فقط للإعتقاد استعد
وفقط للنداء استمع !
بالنسبة لهم إنها قريبة ، وبالنسبة لنا فهى بعيدة
أبعد من أن نأتى إليهم .
فعلى الجانب الآخر لفانتازين يقع عالمهم

وللذهاب اليهم ليس لدنيا من وسيلة ـ
ولكن هل ستحفظ ما تقوله أيولالا
يابطلى اليافع أم لا ؟»

فقال أتريو مضطربا : « نعم ، نعم » وبذل كل الجهد فى أن يطبع فى ذاكرته ماسمعه ، ولكنه لم يكن يعرف الغرض من ذلك ، ولهذا لم يدرك ما قاله الصوت . ولكنه أحس فقط بأنه أمر هام جدا جدا ، ولكن الإنشاد والإجهاد من سماع قول كل شيء فى قواف ، أصابه بالنعاس . وتمتم قائلا :

« إننى أريد أن أتذكرْ
ولكن قولى لى ، ماذا بذلكِ أفعلْ ؟»

وأجاب الصوت : « عليك أن تقرر أنت نفسك
فالخبر الآن عندكْ
وقد دقت ساعة الفراق
بينى وبينك . »

فسأل أتريو وهو نصف نائم :
« هل ستنصرفين ؟
إلى أى مكان تنوين ؟ »

وحينئذ عاد مرة أخرى هذا النحيب فى الصوت ، الذى استمر يتزايد فى الابتعاد أثناء إنشاده :

« العدم جاء يقتربُ
وصمتت النبوءة
ولن يُسمع بعد الآنْ
رنين يعلو وينخفضْ
فمن كل الذين إلىّ أتوا
فى غابة أعمدة الصخور
والى صوتى استمعوا
ستكون أنت الأخير .

ربما سيكون النجاح حليفك
فيما لم يوفق فيه أحد قبلك .
ولكن من أجل تحقيق ذلك
احفظ ما أنشدته لك ! »

ثم سمع أتريو من مكان دائم الابتعاد ، تلك الكلمات :

« فوق الجبل والوادى ، فوق الحقل والمرج
سوف أنقضى . وأختفى — .
آه . كل شيء لايحدث إلا مرة واحدة
ولكن مرة لابد أن يحدث كل شيء . . . »

وكان هذا هو آخر شيء سمعه أتريو .

وجلس عند أحد الأعمدة ، وركن عليه ظهره ، ونظر عاليا إلى سماء الليل وحاول أن يفهم ما سمعه . وحط الصمت من حوله كرداء ناعم ثقيل ، وراح فى النوم . وعندما استيقظ أحاط به شفق صباح بارد . ورقد على ظهره ونظر إلى السماء . وشحب ضوء آخرِ النجوم . وفى نفس الوقت تذكر مرة أخرى كل شيء عايشه من قبل ، وهدف مهمة بحثه الكبرى . وحينئذ عرف أخيرا ما كان يجب أن يفعله . ليس غير طفل من البشر من الدنيا الواقعة على الجانب الآخر من حدود فانتازين ، هو الذى يستطيع أن يمنح الإمبراطورة الطفولية اسما جديدا . عليه أن يعثر على طفل من البشر ويحضره إليها .

وبحركة واحدة هب واقفا .

وفكر باستيان : « آخ ، كم أود أن أساعدها ـ هى، وأتريو أيضا . ولسوف أبتدع اسما جميلا جدا . لو أعرف فقط كيف يمكننى الذهاب إلى أتريو . لذهبت إليه على الفور كم سيندهش عندما أكون فجأة هناك . ولكن للأسف هذا لايمكن ، أو ؟ »

ثم قال بصوت خافت : « اذا كان هناك أى طريق للمجيء إليكم ، فقولوا لى عنه . فسوف آتى ، بالتأكيد ياأتريو ولسوف ترى . . »

وعندما نظر أتريو حوله ، رأى أن غابة الأعمدة وسلالمها وشرفاتها قد اختفت ولم يكن من حوله إلا ذلك السهل الخالى تماما الذى رآه خلف كل بوابة من البوابات السحرية الثلاث قبل أن يمر من خلالها . ولكن لم يعد هناك بعدئذ لابوابة بلا مفتاح ولابوابة المرآة السحرية .

ونهض وألقى نظرات فاحصة فى كل الاتجاهات . وعندئذ اكتشف أن موضعا مثل الذى أتى إلى ناظريه مرة من قبل فى غابة هاوليڤالد ، قد تكوّن . ولكنه كان فى هذه المرة أكثر اقترابا منه . فانصرف عنه وراح يجرى بأسرع ما يستطيع فى الاتجاه المعاكس . فقط بعد هروب طويل اكتشف أتريو بعيدا فى الأفق مرتفعا صغيرا من المحتمل أن يكون ذلك المرتفع الذى يشكل تلك الطبيعة الجميلة المتكونة من الألواح الصخرية الحمراء فى حمرة الصدأ ، التى كانت فيها بوابة اللغز الكبير .

وجرى فى اتجاهها ، ولكن كان عليه أن يجرى طويلا قبل أن يقترب منها اقترابا كافيا ، ليستطيع أن يتبين التفاصيل . صحيح قد كان هناك ما يشبه تلك الطبيعة ذات الألواح الصخرية ، ولكنه لم يستطع اكتشاف أحد الأبواب . ولم تعد الألواح الحجرية حمراء ، ولكن رمادية وعديمة اللون .

وفقط عندما جرى مرة أخرى وقتا طويلا تجاهها ، اتضح له ، أن هناك بالفعل قطْع بين الصخور يشبه الجزء الأسفل من البوابة ، ولكن لم تعد هناك قبة تتقوس من فوقه ، فماذا حدث ؟

ولم يجد الإجابة إلا بعد ساعات طوال فيما بعد ، عندما وصل أخيرا إلى المكان . إن القوس الحجرى الهائل قد سقط ــ وانصرفت آباء الهول .

وبحث أتريو لنفسه عن مسلك من بين الأطلال ، ثم تسلق فوق هرم من الصخور ، وبحث ببصره عن الموضع الذى من المؤكد أن الناسكين وتنين الحظ كانو فيه . أو أنهم قد هربوا هم أيضاً فى تلك الأثناء من العدم ؟

ثم رأى كيف أن أحداً كان يلوّح بعلم صغير من مرصد إنجيڤوك . ولوّح أتريو بكلتا ذراعيه وصاح وهو يضع يديه عند فمه :

« هيه ! هل ما زلتم هناك ؟ »

وما كاد رنين صوته ينخفض ، حتى ارتفع من الوادى السحيق الذى كان به كهف الناسكين ، تنين حظ أبيض يلمع بلون الأصداف : فُخور .

وطار عبر الهواء هناك فى حركات ملتوية رائعة بطيئة ، بينما استلقى على ظهره عدة مرات فى سعادة غامرة ، وقام بحركات لولبية فى سرعة البرق لدرجة انه بدا كشعلة نيران بيضاء مرتفعة الألسنة ، ثم هبط أمام الهرم الصخرى الذى كان يقف عليه أتريو . وارتكن بكلا مخلبيه الأماميين ، وغدا ضخماً بحيث تدلت رأسه من رقبته المنحنية عالياً إلى أتريو وأدار كريتا عينيه الحمراوين بحمرة الياقوت ، وأخرج من السرور لسانه من حلقه المفتوح على اتساع وهدر بصوت برونزى قائلاً :
« أتريو ، صديقى وسيدى . كم هو طيب أنك عدت أخيراً . لقد كدنا نفقد الأمل ــ هذا يعنى الناسكين ، ليس أنا . »

فرد أتريو : « وأنا أيضاً مسرور لرؤ يتك مرة أخرى . ولكن ماذا حدث فى هذه الليلة الوحيدة ؟ » .

فصاح فُخور : « ليلة وحيدة ؟ أتظن أنها كانت ليلة واحدة فقط ؟ سوف تتعجب . اصعد سوف أحملك » .

وامتطى أتريو صهوة الحيوان الهائل . لقد كانت أول مرة يركب فيها على تنين حظ . وبالرغم من أنه كان قد درّب أحصنة برية على الركوب ، ولم يكن خوافاً حقاً ، كاد يذهب عنه السمع والرؤ ية فى اللحظة الأولى لهذا الركوب لفترة قصيرة عبر الهواء . وتشبث فى عرف فُخور الهفهاف ، إلى أن ضحك هذا بصوت هادر وصاح :
« يجب أن تعتاد على هذا من الآن ، يا أتريو ! »

فرد أتريو صائحا وهو يلهث : « على كل حال ، يبدو لى أنك عدت سليم الصحة تماما . »
فأجاب التنين : « تقريبا ، وليس تماما بعد . »
ثم هبط أما كهف مسكن الناسكين وكان إنجيڤوك وأورجل يقفان إلى جوار بعض أمام المدخل وينتظرانهما .

واندفع إنجيڤوك على الفور مبرطما : « ماذا شاهدت ؟ يجب أن تحكى لى كل شىء . كيف كان السلوك مع البوابات ؟ هـل نظريـاتى صحيحة ؟ من ومـا هى أيولالا ؟ »

فقاطعته أورجِل العجوز بخشونة قائلةً : « صهٍ ! الآن عليه أن يأكل ويشرب أولا . فأنا لم أطه وأحمّر للاشىء . وسيبقى وقت كاف لفضولك عديم الفائدة ! »

وكان أتريو قد نزل من على ظهر التنين وحيّا زوج العفاريت القزمية . ثم استقر الثلاثة جميعا على المنضدة الصغيرة التى كانت مرة أخرى مجهزة بمختلف أنواع الأشياء اللذيذة وقنينة صغيرة بمشروب أعشاب يتصاعد منه البخار .

ودقت ساعة البرج الخامسة . وفكر باستيان بحزن فى لوحى شيكولاته بالمكسرات حفظهما بالمنزل فى صوان حجرة نومه الصغير — فى حالة أن ينتابه الجوع ليلا . لو كان يدرى ، أنه لن يعود إلى هناك أبدا ، لاستطاع أن يأخذهما معه كمؤونة للطوارىء ، ولكن لم يكن فى الإمكان تغيير شىء من ذلك . من الأفضل عدم التفكير فى ذلك !

وتمدد فخور فى الوادى الصخرى الصغير بحيث كانت رأسه المائلة إلى جانب أتريو ويستطيع سماع كل شىء .

وصاح قائلا : « تصوروا صديقى وسيدى يعتقد أنه غاب ليلة واحدة فقط ! »

فسأل أتريو : « أليس الأمر كذلك ؟ »

وقال فُخور : « لقد كانت سبعة أيام وسبع ليال ! انظر ، لقد شفيت جميع جروحى تقريبا ! »

والآن فقط لاحظ أتريو أن جروحه هو أيضا قد شفيت . وسقطت عنه ضمادة الأعشاب .

وتعجب قائلا : « كيف يمكن هذا ؟ لقد سِرْتُ عبر الثلاث بوابات السحرية ، وتحدثت مع أُيولالا ، ثم رحت فى النوم — ولكن ليس من الممكن أننى نمت لهذا الوقت الطويل . »

فقال إنجيڤوك : « إن الزمان والمكان لابد وأن يكونا مختلفين تماما هناك . وبالرغم من ذلك ، فلم يبق أحد من قبلك فى أرض التنبؤات لهذه المدة مثلك . ماذا حدث ؟ تكلم أخيرا . »

فرد أتريو : « أود أولا أن أعرف ماذا حدث هنا ؟ »

فقال إنجيڤوك : «إنك ترى بنفسك . إن جميع الألوان تختفى ، وكل شىء تزداد عدم واقعيته ، وبوابة اللغز الكبير لم تعد هناك . ويبدو كما لو أن العدم قد بدأ أيضا هنا . »

فقال أتريو مستعلما : « وآباء الهول ، أين ذهبوا ؟ هل طارا ؟ هل رأيتموهما ؟ »

فقال إنجيڤوك متبرما : « لم نر شيئا . كنت آمل أنك ستستطيع أن تقول لنا شيئا عن ذلك . القبة الصخرية سقطت فجأة ، ولكن لا أحد منا سمع أو رأى شيئا . وفوق ذلك فقد ذهبتُ إلى هناك وفحصتُ الأطلال . أتدرى ماذا اتضح ؟ إن أماكن الكسر عتيقة القِدم وقد نمت فوقها أعشاب رمادية ، كما لو كانت هناك منذ مائة عام ، ومثل الآن ، كما لو لم تكن هناك بوابة اللغز الكبير على الإطلاق . »

فقال أتريو بصوت خافت : « ولكنها كانت موجودة هناك . لأننى سِرْت من خلالها ، وكذلك من خلال بوابة المرآة السحرية وأخيراً من خلال بوابة بلا مفتاح . »

وقصّ أتريو بعد ذلك ، كل ما لاقاه . وكان يتذكر كل التفاصيل الفردية بلا عناء .

إنجيڤوك الذى كان فى البداية يطالب بوصف أكثر دقة عن طريق طرح أسئلة بينية ، أصبح أثناء سرد الحديث بالتدريج أكثر صمتاً . وعندما كرر أتريو فى النهاية ما أفصحت له أُيولالا حرفياً تقريباً ، صمت تماماً . واتخذ وجهه الصغير المجعد تعبير الحزن العميق . وختم أتريو تقريره قائلاً : « إنك تعرف السر الآن . لقد كنت تريد أن تعرفه حتماً ، أليس كذلك ؟ أُيولالا كائن يتكون من صوت فقط . وشخصيتها يمكن سماعها فقط . فهى هناك أينما يصدر رنينها . »

وصمت إنجيڤوك برهة ، ثم صرخ قائلاً بصوت مبحوح : « أتريد أن تقول إنها كانت هناك . »

فأجاب أتريو : « نعم ، فطبقاً لكلامها هى ، أنا آخر شخص تكلمت معه »

وجرت دمعتان صغيرتان على وجنتى إنجيڤوك المجعدتين . وصاح بصوت متحشرج : « بلا جدوى . عملى طيلة حياتى كلها ، أبحاثى ، ملاحظاتى التى استغرقت سنوات ـ كل شىء بلا جدوى . أخيراً يجلب أحدهم لى آخر لبنة من بنائى العلمى ، وكان يمكننى إنهاؤه أخيراً ، وكنت أستطيع أن أكتب الفصل الأخير ـ والآن بالذات لم تعد تفيد ليست لها قيمة بالمرة ، لا تعين أحداً بشىء ، لم تعد تساوى خردلة ، لم تعد تهم ولا ذيل خنزير ، لأن الأمر الذى يدور حوله ، لم يعد له وجود . خلص وانتهى ، وليلتكم سعيدة ! »

وهزه نحيب كان وقعه على السمع كنوبة من نوبات السعال . ونظرت إليه أورجل العجوز مشفقة ومسحت بيدها على رأسه الصغيرة الصلعاء ودمدمت قائلة :

« مسكين إنجيڤوك العجوز . مسكين إنجيڤوك العجوز . لا تشعر بخيبة الأمل هكذا . ستعثر على شىء آخر . »

فعنفها إنجيڤوك قائلاً بعينين براقتين : « يا امرأة ، إن من تريه أمامك ليس انجيڤوك المسكين العجوز ، ولكن شخصاً مأساوياً » .

ومثلما حدث مرة من قبل فقد جرى إلى الكهف ، وسُمع صوت باب صغير يغلق بشدة . وهزت أورجل رأسها متنهدة ، وتمتمت قائلة : « إنه لا يقصد ذلك ، إنه إنسان طيب عجوز ، فقط مجنون تماماً للأسف » .

وعندما انتهت وجبة الطعام ، نهضت أورجل وقالت : « سوف أحزم أمتعتنا الآن ، إن ما نستطيع أن نأخذه معنا ليس بالكثير ، ولكن هذا يجتمع مع ذلك . أجل ، لابد أن يتم فعل ذلك الآن . »

فسأل أتريو : « أتريدان أن تنصرفا من هنا ؟ »

فهزت أورجل رأسها بحزن بالإيجاب قائلة : « لم يعد لنا غير هـذا . فحيثما ينتشر الدمار ، لا ينمو شيء بعد . وبالنسبة لزوجي العجوز لم يعد هناك الآن سبب للبقاء . لابد أن نرى كيف ستسير الأمور . بشكل ما سوف تسير . وأنتما ؟ ماذا تنويان ؟ »

فأجاب أتريو : « يجب أن أفعل ما قالته أُيولالا . لابد أن أحاول العثور على طفل بشرى وإحضاره إلى الإمبراطورة الطفولية لكى تحصل على اسم جديد . »

وسألت أورجل : « وأين تريد البحث عن ذلك الطفل البشرى ؟ »

فقال أتريو : « أنا نفسى لا أدرى . على الجانب الآخر من حدود فانتازين كما قيل . » **ثم أمكن سماع الصوت الجرسى لفُخور يقول** : « سوف ننجز الأمر . سوف أحملك ، وسترى أن عندنا حظ » .

فدمدت أورجل قائلة : « إذن ، هيا ، انصرفا . »

فقال أتريو مقترحاً : « ربما أمكننا أن نأخذكما معنا جزءا من الطريق ؟ »

فردت أورجل : « هذا ما كان ينقصنا أيضاً ؟ إننى لن أسبح أبداً فى حياتى فى الهواء ، فالعفاريت القزمية الجيّدة يبقـون على الأرض الصلبـة . وخلاف ذلـك لا ينبغى لكما أن تقيما معنـا ، فلديكما الآن أمـر أهم ، أنتما الاثنـين ــ من أجلنا جميعاً » .

فقال أتريو : « ولكننى أود بسرور أن أعرب لكما عن امتنانى . »

فبرطمت أورجل قائلة : « إنك تفعل ذلك بألا تضيع وقتاً أكثر بهرائك عديم الفائدة ، بل انطلق على الفور . »

فقال فُخور : « معك حق ، هيّا ، أتريو ! »

وامتطى أتريو صهوة تنين الحظ . ثم استدار مرة أخرى إلى أورجل الصغيرة العجوز

وصاح : « إلى اللقاء ! »

ولكنها كانت فعلاً فى الكهف تحزم أمتعتها .

وعندما خرجت بعد ذلك بعدة ساعات مع أنجيفوك إلى الخلاء ، كان كل منهما يحمل على ظهره سلة مشحونة تماماً ، وكلاهما كان متحمساً مرة أخرى للنزاع . وهكذا سارا يهتزان على أرجلهما الصغيرة المقوسة ، دون أن يلتفتا مرة أخرى إلى الوراء .

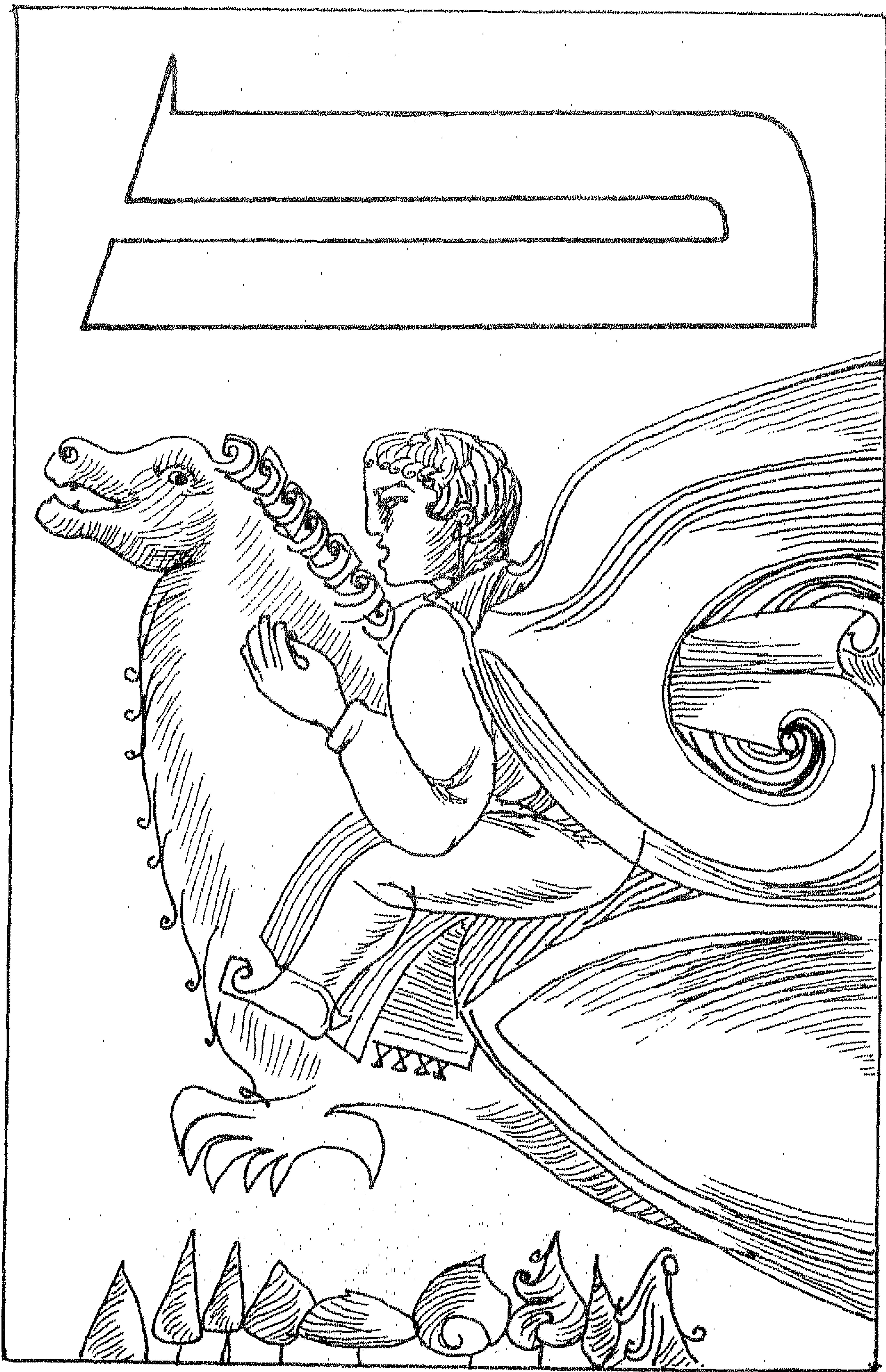
وبالمناسبة ، فإن إنجيفوك أصبح فيما بعد مشهوراً جداً ، أشهر عفريت قزمى فى عائلته فوق ذلك ، ولكن ليس بسبب أبحاثه العلمية . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

وفى نفس وقت رحيل الناسكين ، كان أتريو يهدر فوق ظهر فُخور بعيداً ، بعيداً جداً عبر أجواء سماء فانتازين .

ونظر باستيان بدون قصد إلى كُوّة السقف بأعلى ، وتخيل كيف يكون الأمر ، إذا رأى هناك فجأة إلى فوق فى السماء ، التى كادت أن تكون مظلمة تماماً ، تنين الحظ كشعلة بيضاء ترتفع ألسنتها وهو يقترب ــ لو حضر كلاهما ليأخذاه معهما !
فتنهد قائلاً : « آخ ، لكان هذا أمراً ! »

لاستطاع أن يساعدهم ــ ويساعدوه . لكان ذلك إنقاذاً للجميع

٨
في بلاد الغوغاء


ב



دَخل أتريو ممتطيا التنين[١٠] عبر الأجواء العليا . وتطاير معطفه الأحمر بحركات قوية من ورائه . وهفهفت مع الرياح خصلة من شعره الأزرق اللون بسواد ، والتى كانت مربوطة إلى أعلى بشرائط من الجلد . وانساب فُخور ، تنين الحظ الأبيض فى حركات متموجة منتظمة وبطيئة من خلال الضباب ونُتَف السحاب بالسماء .

إلى أعلى وإلى أسفل ، إلى أعلى وإلى أسفل ، إلى أعلى وإلى أسفل .

كم من الوقت كانوا فى طريقهم ؟ أياما وليالى ، وأياما أخرى ـ ولم يعد أتريو يعرف كم من الوقت . وكان التنين يستطيع الطيران أيضا وهو نائم ، مستمرا ، ودائم الاستمرار ، وأحيانا كان أتريو يغلبه النعاس وهو متشبث بالعرف الأبيض للتنين . ولكنه لم يكن سوى نوما خفيفا ومضطربا . ولذلك أصبحت يقظته أيضا شيئا فشيئا حلما لم يعد به أى شىء واضح .

وفى العمق بأسفل كانت تمر كالظلال سلاسل جبال وبلاد وبحار وجزر وأنهار . ولم يعد أتريو يهتم بذلك ولا يحث مطيته ، كما كان يفعل فى بادىء الأمر عندما أقلعا من أرض التنبؤات الجنوبية . ففى البداية كان نافذ الصبر ، لأنه اعتقد أنه فوق ظَهر تنين حظ لا يمكن أن يكون صعبا للغاية الوصول إلى حدود فانتازين ـ وإلى المملكة الخارجية وراء الحدود ، حيث يحيى أبناء البشر .

ولم يكن يعرف كم حجم فانتازين .

والآن كان يصارع الإجهاد الصخرى الذى كان يريد التغلب عليه . وعيناه الداكنتان اللتان كانتا حادة كعينى نسرفَتىّ ، لم تعد ترى البعد . وبين الحين والآخر

(١٠) أنظر الهوامش بالفصل السابق .

كان يستجمع إرادته كلها ويشب إلى أعلَى وهو جالس ، وينظر مستطلعا من حوله ، ولكنه سرعان ما كان يهوى بنفسه إلى أسفل مرة ثانية ويحملق فقط أمامه فى جسد التنين الطويل المرن الذى كانت قشوره الصدفية اللون تلمع بلون وردى وأبيض . وكان فُخور أيضا منهكا . وحتى قواه التى كانت تبدو هائلة ، وصلت شيئا فشيا إلى نهايتها .

ولأكثر من مرة شاهدا فى رحلة طيرانهما الطويلة هذه تلك الأماكن من الطبيعة بأسفلهم حيث انتشر العدم ، والتى لا يستطيع الإنسان النظر إليها دون أن يشعر بأنه أصيب بالعمى . كثير من هذه الأماكن بدت من مثل هذا الارتفاع صغيرة نوعا ، ولكن كانت هناك أيضا أماكن أخرى كبيرة كحجم بلاد كاملة وممتدة فى الأفق البعيد . وتملك الفزع تنين الحظ وفارسه ، وغيرا طريقهما وواصلا طيرانهما فى اتجاه آخر لكيلا يضطرا إلى مشاهدة هذا الشىء الفظيع . ولكنها حقيقة غريبة أن الشىء الفظيع يفقد فظاعته عندما يتكرر باستمرار . ونظراً لأن أماكن الدمار لم تكن تقل بل تزداد باستمرار ، فقد تعود عليها فُخور وأتريو شيئا فشيئا — أو زيادة على ذلك قد انتابهما نوع من اللامبالاة .

فأصبحا يكادان لا يعيرا ذلك اهتماما .

وكانا لم يتحدثا مع بعضهما منذ فترة طويلة ، عندما أسمع فُخور فجأة صوته البرونزى يقول : « أتريو ، ياسيدى الصغير ، هل أنت نائم ؟ »

فقال أتريو : « كلا » بالرغم أنه فى الحقيقة كان أسير حلم مخيف : « ماذا هناك يافُخور ؟ »

– « إننى أتساءل إذا كان من الأرجح أن نعود . »

– « نعود ؟ إلى أين ؟ »

– « إلى برج العاج . إلى الإمبراطورة الطفولية . »

– « تقصد أننا ينبغى أن نذهب إليها خائبين ؟ »

– « كلا ، إننى لن أصف الأمر على هذا النحو ، ياأتريو . ماذا كان نص مهمتك ؟ »

- « على أن أبحث عن أصل المرض الذى تحتضر بسببه الامبراطورة الطفولية ، وماهو الدواء الشافى له . »

فرد فُخور قائلا : « ولكن لم تكن مهمتك إحضار ذلك الدواء الشافى بنفسك . »

- « ماذا تقصد ؟ »

- « ربما إننا نرتكب خطأ جسيما بمحاولتنا تخطى حدود فانتازين للبحث عن طفل بشرى . »

- « أنا لا أفهم ما تهدف إليه ،يافُخور . إشرح لى ذلك بشكل أكثر دقة . »

فقال التنين : « إن الإمبراطورة الطفولية مريضة مرض الموت لأنها تحتاج إلى اسم جديد ، وقد أباحت لك بذلك مورلا العجوز الشمطاء . ولكن مَنْح هذا الاسم لا يستطيعه إلا الأطفال البشريين من الدنيا الخارجية . ذلك ما صرحت له به أيولالا . وبهذا تكون قد نفذْتَ مهمتك ، ويبدو لى أنه ينبغى عليك أن تخبر الإمبراطورة الطفولية بكل ذلك فى وقت قريب . »

فصاح أتريو : « ولكن بم يساعدها إذا ما أخبرتها بكل ذلك فقط ولم أحضر معى فى نفس الوقت طفلا بشريا يستطيع إنقاذها ؟ »

فأجاب فُخور : « ليس فى مقدورك معرفة ذلك وهى تقدر على أكثر منى ومنك بكثير جدا . ربما من السهل عليها استدعاء طفل بشرى إليها . ربما لديها الوسائل والطرق غير المعروفة لك ولى ولجميع كائنات فانتازين . ولكنها هذا يجب أن تعرف ما تعرفه أنت الآن . لتفترض أن الأمر هكذا . إذن لكان الأمر ليس فقط لا مغزى له بالمرة ، أن نحاول بالاعتماد على أنفسنا العثور على طفل بشرى وإحضاره لها ، بل ومن الممكن أيضا أنها تموت فى تلك الأثناء بينما نحن نواصل البحث باستمرار ، وكان فى استطاعتنا إنقاذها ، إذا ما رجعنا فقط فى الوقت المناسب » .

وصمت أتريو ، فما قاله التنين كان صحيحا بلاشك . فمن الجائز أن يكون الأمر هكذ ومن الجائز أيضا أن يكون الأمر مختلفا تماما . وقد كان من الممكن جدا أنها ستقول له إذا ما رجع الآن إلى الوطن برسالته : « بم يساعدنى هذا كله ؟ فلو أنك

أحضرت معك المنقذ لأصبحت سليمة الصحة . ولكن الآن فات الأوان بالنسبة لى لإرسالك مرة أخرى . »

إنه لم يعرف ماذا ينبغى علية عمله . وكان متعبا ، أتعب بكثير من أن يتخذ أى قرار . وقال بصوت خافت ولكن التنين سمعه جيدا : « أتعرف يافخور ، ربما معك حق وربما أيضا ليس معك حق . دعنا نواصل الطيران لمسافة صغيرة أخرى . فإذا لم نكن بعدئذ عند أية حدود ، فلنعد . »

فسأل التنين : « ماذا تسميه مسافة صغيرة ؟ »

فتمتم أتريو قائلا : « بضع ساعات ــ أقل لك ، ساعة واحدة من الآن . »

ولكن هذه الساعة الواحدة كانت أكثر من اللازم بساعة واحدة .

ولم ينتبه كلاهما إلى أن السماء فى الشمال قد اسودت بالسحاب . وفى الغرب حيث كانت الشمس ، كانت متوهجة وقد تدلت خيوط منذرة بالشر كأعشاب بحرية دامية إلى الأفق بأسفل . وفى الشرق ارتفعت أنواء كغطاء من الرصاص الرمادى ، وأمامها نُتف من السحاب الممزق مثل حبر قد بهت لونه الأزرق . ومن الجنوب زحف بحر أصفر بلون الكبريت وفيه كان يسرى البرق ويلمع .

وقال فُخور : « يبدو أننا سنأتى إلى طقس ردىء . »

ونظر أتريو حوله فى جميع الاتجاهات .

وقال : « نعم ، يبدو أنه خطير . ولكن علينا مواصلة الطيران . »

فرد فُخور : « من الأرجح أن نبحث لنا عن مأوى . فإذا كان الأمر هو ما أتوقع ، فهو ليس بمزاح . »

وسأل أتريو : « وماذا تتوقع ؟ »

فقال فُخور مفسرا : « إن هؤلاء هم عمالقة الرياح الأربعة الذين يريدون حسم إحدى معاركهم مرة أخرى . وهم فى صراع دائم تقريبا حول إثبات من فيهم الأقوى ومن سيسود الآخرين . والأمر بالنسبة لهم نوع من اللعب لأنه لا تحدث لهم أنفسهم شيئا أثناء ذلك . ولكن ويل لمن يدخل فى منازعاتهم . فغالبا لا يبق منه الكثير » .

فسأل أتريو : « ألا تستطيع أن تطير إلى أعلى من ذلك ؟»

ــ « أتقصد إلى خارج مداهم ؟ لا ، لا أستطيع الوصول إلى هذا الارتفاع . وأسفلنا لا يوجد على قدر ما أرى ، غير ماء ، بحُر ما من البحار الهائلة . إننى لا أرى شيئا نستطيع الاختباء فيه . »

فقال أتريو مقررا : « إذن لا يبق لنا إلا أن ننتظرهم . فأنا على كل حال أود أن أسألهم شيئا . »

فصاح التنين وقد قفز قفزة من الفزع : « ماذا تريد ؟»

فقال أتريو موضحا : «اذا كانوا هم عمالقة الرياح الأربعة ، فسيعرفون جميع الجهات الأصلية لفانتازين . لا أحد سيستطيع أن يقول بشكل أفضل منهم أين الحدود ؟ »

فصرخ التنين قائلا : « يا للسماء . أتعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتسامر معهم براحة تامة ؟ »

وقال أتريو وهو يريد المعرفة : « ماهى أسماؤهم ؟»

فأجاب فُخور : « الذى من الشمال يدعى لير ، والذى من الشرق باوريو ، والذى من الجنوب شيرك والذى من الغرب ما يستريل . ولكن يا أتريو ، من أنت فى الحقيقة ؟ أأنت صبى صغير أم أنك قطعة من حديد لاتعرف الخوف ؟ »

فرد أتريو : « عندما مشيت عبر بوابة آباء الهول ضاع عنى كل الخوف . وإلى جانب ذلك فأنا أحمل علامة الإمبراطورة الطفولية . وجميع مخلوقات فانتازين يحترمونها . ولماذا لن يفعل هذا عمالقة الرياح ؟ »

فصاح فخور قائلا : « أوه ، سيفعلونه ! ولكنهم أغبياء ، وأنت لن تستطيع إيقافهم عن الصراع مع بعضهم . سوف ترى ماذا يعنى ذلك ؟ »

وفى تلك الأثناء كانت سحب الأنواء قد تجمعت من جميع الجهات لدرجة أن أتريو رأى من حوله شيئا يشبه قمعا ذا أبعاد هائلة ، فوهة بركان بدأت حوائطه تدور

فى سرعة متزايدة ، لدرجة أن اللون الأصفر الكبريتى والرمادى كالرصاص ، والأحمر كالدم والأسود الغطيس اختلطت مع بعضها فى تداخل . وهو نفسه اندفع كذلك فى دوامة دائرة وهو على تنينه الأبيض ، كعود ثقاب فى دوامة هائلة . وحينئذ شاهد عمالقة العاصفة .

وفى الواقع كانوا عبارة عن وجوه فقط ، حيث إن أجزاء جسمهم كانت متغيرة ومتعددة - تارة طويلة وتارة قصيرة ، تارة بالمئات ، وتارة لاشىء بالمرة ، تارة واضحة وتارة أخرى مبهمة ـ وكانوا فوق ذلك متشابكين مع بعضهم فى تراقص دائرى أوتصارع مهول لدرجة أنه كان مستحيلا تماما التعرف على شكلهم الحقيقى . وحتى وجوههم كانت تتغير باستمرار ، تصبح بدينة ومنتفخة ، ثم تعود ممطوطة إلى أعلى أو بالعرض ، ولكنها ظلت على الدوام وجوها يمكن تفريقها عن بعضها . وكانوا يفتحون أفواهم ويصرخون ويجأرون ، ويولولون ويضحكون لبعضهم الآخر . ويبدا أنهم لم يشعروا حتى بوجود التنين وراكبه ، لأنه كان بالمقارنة بهم ضئيلا كالبعوضة .

وشب أتريو إلى أعلى . ومد يده اليمنى إلى الحجاب الذهبى على صدره وصاح بأعلى مايستطيع :

« باسم الامبراطورة الطفولية اسكتوا واسمعوا لى » .

وحدث مالايمكن تصديقه .

وسكتوا كما لو ابتلاهم خرس مفاجىء . وانقفلت أفواههم ، وتركزت ثمان عيون جاحظة على آورِيُن . وحتى الدوامة توقفت . وفجأة عم صمت الأموات .

وصاح أتريو : « أجيبونى . أين حدود فانتازين ؟ أتعرف هذا يالير ؟ »

فأجاب وجه السحاب الأسود : « ليس فى الشمال »

- « وأنت ياباووريو ؟ »

فرد وجه السحاب الرمادى بلون الرصاص : « وليس فى الشرق أيضا . »

- «تكلم أنت ياشيرك »

فقال وجه السحاب الأصفر بلون الكبريت : « لاتوجد حدود فى الجنوب . »

- « أتعرف أنت يامايستريل ؟»

فرد وجه السحاب الأحمر بلون النار « لاتوجد حدود فى الغرب . »

ثم قال الأربعة جميعهم كما لو كانوا يتكلمون بفم واحد :

« من أنت ، يامن تحمل علامة الإمبراطورة الطفولية ولاتعلم أن فانتازين لاحدود لها ؟» وصمت أتريو . وشعر كما لو ضربه أحدهم على مقدمة رأسه وهو مشدوه . فهو لم يفكر فى الحقيقة أنه لاتوجد حدود على الإطلاق . وبعدئذ كان كل شىء لاجدوى له .

وكاد لايشعر أن عمالقة الرياح قد بدأوا لعبة تصارعهم من جديد . وكذلك كان سيان عنده ما سيحدث بعد ذلك . وتشبث بعرف التنين عندما قذفته دوامة الى أعلى فجأة . واندفعا فى دوران يحيط بهما وميض البرق . ثم كادا يغرقان فى أمطار هادرة تنهمر فى اتجاه أفقى . وفجأة انجذبا إلى لفحة هواء متوهجة كادا يحترقان فيها ، ولكنهما اندفعا إلى بَرَد لايتكون من حبيبات ولكن من أقماع ثلجية فى طول الرماح دفعت بهما إلى العمق . ثم سُحبا مرة أخرى إلى أعلى ، ثم أُلقى بهما وقُذفا إلى هنا وهناك - فقد كان عمالقة الرياح يتصارعون مع بعضهم من أجل السيادة .

وصرخ فُخور عندما ماألقت به دفعة من الرياح على ظهره : « امسك نفسك ! » ولكن كان الوقت قد فات . وفقد أتريو توازنه وسقط فى العمق . سقط ، وسقط ثانية ثم لم يعرف شيئا بعد ذلك .

وعندما عاد إلى رشده ، كان يرقد على رمل ناعم . وسمع هدير أمواج ، وعندما رفع رأسه ، رأى أنه قُذف به إلى شاطىء أحد البحور . وكان يوما مغيما ومليئا بالضباب ولكنه ساكن الرياح . وكان البحر هادئا ولم يكن هناك شىء يشير إلى أنّ صراع عمالقة الرياح كان يعصف هناك منذ قليل . أم من الجائز أنه أتى إلى مكان مختلف تماما وبعيد ؟ وكان الشاطىء مسطحا ، ولم تكن تُرى صخور أو هضاب فى أى مكان ، ليس الا بضعة أشجار مائلة منحنية تقف فى الضباب كأيد كبيرة ذات مخالب .

وجلس أتريو . وعلى بعد خطوات قليلة رأى رداءه الأحمر المصنوع من شعر

الجاموس ، فزحف إلى هناك ووضعه حول كتفيه . ولدهشته لاحظ أن الرداء لم يعد مبللا تقريبا إذن ربما كان يرقد هناك منذ وقت طويل .

كيف أتى إلى هنا ؟ ولماذا لم يغرق ؟

وطفت إليه ذكرى ما غير واضحة لأذرع حملته وأصوات غريبة تغنى قائلة :

« ولد مسكين ولد جميل ! امكسوه . لا تدعوه يغرق ! » .

ربما لم يكن ذلك إلا هدير الأمواج .

أم كانت عرائس وعرسان البحر ؟ على ما يبدو أنهم رأوا البنتاكل ولذلك أنقذوه .

ومد يده بلا قصد إلى الحجاب ــ إنه لم يعد هناك ! لقد ضاعت السلسلة من حول رقبته . فقفز واقفا وجرى هنا وهناك وصاح فى كل الاتجاهات : « فُخور فُخور . أين أنت ؟»

لاإجابة . لاشىء غير الهدير البطىء للأمواج المتلاطمة على الشاطىء .

من يدرى ، إلى أين نفخ عمالقة الرياح التنين الأبيض ؟ ربما كان فُخور يبحث عن سيده الصغير فى مكان ما مختلف تماما بعيد جدا عن هنا . ربما أيضا لم يعد على قيد الحياة والآن لم يعد أتريو فارسا على تنين ، ولا رسولا للإمبراطورة الطفولية – ليس إلا صبيا صغيرا ووحيدا تماماً .

ودقت ساعة البرج السادسة .

الآن عم الظلام بالخارج . وانقطع المطر . وكان هناك سكون تام . وحملق باستيان فى لهب الشموع . ثم انتفض فزعا لأن ألواح الأرضية طقطقت . وبدا له كما لو كان يسمع شخصا يتنفس . فكتم أنفاسه وتصنت . وكان المخزن العملاق يعمّه الآن الظلام ماعدا دائرة الضوء الصغيرة التى تنشرها الشموع . ألم تتعثر هناك خطوات بصوت خافت على السلم ؟ ألم تتحرك فى التو أكرة باب المخزن ببطء تام ؟

وطقطقت ألواح الأرضية مرة أخرى .

ما العمل إذا كانت هناك عفاريت فى المخزن . . .؟

فقال باستيان بصوت نصف مرتفع : « كلا ، لا توجد أشباح . هذا ما يقوله الجميع . »

ولكن لماذا توجد إذن مثل هذه القصص الكثيرة حولها ؟

ربما كان كل الذين يقولون إنه لا توجد أشباح مجرد خائفين من الاعتراف بذلك .

ولف أتريو نفسه جيدا فى معطفه الأحمر لأنه كان يشعر بالبرد ، واتخذ طريقه إلى داخل البلد . ولم تتغير طبيعة الأرض تقريبا ، على قدر ما استطاع أن يرى منها بسبب الضباب . فقد كانت مسطحة ومتساوية الشكل ، غير أنه أتت من بين الأشجار المنحنية بالتدريج وبتزايد مستمر أحراش وشجيرات كانت تبدو كالمصنوعة من الصاج الصدىء وتكاد تكون فى صلابته أيضا . وكان من الممكن أن تصيب الإنسان بجراح إذا لم ينتبه .

وبعد حوالى ساعة وصل أتريو إلى شارع مرصوف بكسر صخور حدباء ذات أشكال غير منتظمة . وقرر أتريو أن يتبع اتجاه الشارع الذى ولا بد أن يؤدى إلى مكان ما ، ولكنه وجد أنه من الأريح أن يسير إلى جانب الشارع فى التراب من أن يسير على الأسفلت غير المستوى . وكان يمتد فى تعريجات ملتوية ، وينحنى إلى اليسار وإلى اليمين دون أن يستطيع الإنسان أن يرى لذلك سببا . لأنه لم تكن هناك أيضا لا هضبة ولا نهر . وبدا كل شىء منحنيا فى هذه المنطقة .

ولم يكن أتريو قد مشى متجولا لمدة طويلة عندما سمع من بعيد صوت دبيب غريب يجىء مقتربا . وكان كهدير مكتوم لطبلة كبيرة ، ومن خلال ذلك سمع صفيرا حادا كما لو كان صادرا من صفافير صغيرة ورنين الأجراس . واختبأ خلف أحد الأحراش على حافة الشارع وانتظر .

واقتربت الموسيقى الغريبة ، وأخيرا تصاعدت من الضباب أوائل الشخصيات . على ما يبدو كانوا يرقصون ولكنه لم يكن رقصا مبهجا أو جذابا ، ولكنهم كانوا يقفزون بحركات غاية فى الغرابة ، ويتمرغون على الأرض ، ويزحفون

على أربع وينتصبون إلى أعلى ويتصرفون كالمجانين . ولكن الشىء الوحيد المسموع أثناء ذلك كانت ضربات الطبول المكتومة الوئيدة والصفير الحاد والنشيج والنهيج الصادر من حناجر عديدة .

وتكاثر باستمرار ، وكان موكبا يبدو كأنه لاينتهى ، وشاهد أتريو وجوه الراقصين فكانت رمادية اللون كالرماد وغارقة فى العرق ، ولكن عيونهم جميعا كانت تتوهج ببريق وحشى محموم . وكان بعضهم يضرب نفسه بالسياط . وظن أتريو أنهم مجانين ، وسرت رعدة باردة فوق ظهره .

وبالمناسبة ، لقد استطاع أن يتأكد أن الجزء الأكبر من هذا الموكب كان يتكوّن من أشباح الليل والعفاريت والأشباح . وكذلك كان من بينهم فامبيرات مصاصو الدماء وعدد كبير من الساحرات ، وعجائز ذوات أسنمة كبيرة ولحى على الذقن كلحية الماعز ، ولكن أيضا صغارا فى السن يبدين حسناوات وشريرات . على ما يبدو كان أتريو قد أتى هنا إلى أحد بلاد فانتازين التى تسكنها مخلوقات الظلام . ولو كان آوْرِينُ ما زال معه ، لتقدم إليهم وواجههم دون تردد ليسألهم عما يحدث هنا . ولكنه فضل أن ينتظر فى مخبئه إلى أن مر الموكب المجنون واختفى آخر من فى الموكب وهو يعرج ويحجل فى الضباب .

وحينئذ فقط تجاسر أن يخرج إلى الشارع ويتابع بنظره موكب الأشباح . أكان عليه أن يتبعه أم لا ؟ ولم يستطع اتخاذ القرار . وفى الحقيقة لم يعد يعرف على الإطلاق إذا كان مازال عليه أو فى إمكانه أن يفعل أى شىء فى ذلك الوقت .

ولأول مرة شعر بوضوح إلى أى مدى يفتقد حجاب الإمبراطورة الطفولية وكم هو بلا حيلة . ولم تكن الحماية التى كان يضمنها له ، هى الشىء الفاصل - فكل المتاعب وفقدان الضروريات ، وكل المخاوف والشعور بالوحدة كان عليه أن يتخطاها بقواه الذاتية بالرغم من ذلك - ولكنه طالما كان يحمل العلامة لم يكن أبدا فى حالة من عدم التأكد مِن الذى يجب عليه أن يفعله . فقد كان يقود إرادته وقراراته الى الاتجاه الصحيح مثل بوصلة مليئة بالأسرار . ولكن الآن كان الأمر مختلفا ، الآن لم تعد هناك قوة خفية تقوده .

فقط من أجل ألاّ يظل واقفا كالمشلول . فقد أمر نفسه باتباع موكب الأشباح الذي كان إيقاع طبوله المكتوم مازال يُسمع من بعيد .

وبينما هو يسرع بلا صوت خلال الضباب ـ وكان حريصا دائما أن يحافظ على مسافة كافية بعيدا عن آخر أفراد الموكب ـ ، حاول أن يتبين حالته .

لماذا ، آخ ، لماذا لم يستمع إلى فُخور ، عندما نصحه بالطيران فورا إلى الامبراطورة الطفولية ؟ كان سيبلغها رسالة أُيولالا ويُعيد إليها « البريق » وبدون آوْرين وبدون فُخور لم يعد يستطيع الوصول إلى الامبراطورة الطفولية . إنها سوف تنتظره حتى آخر لحظة من حياتها ، وتأمل فى حضوره ، وتعتقد أنه سيُحضر النجدة لها ولفانتازين ـ ولكن هيهات !

وكان هذا سيء بما فيه الكفاية ، ولكن الأسوأ من ذلك كان ما عرفه عن طريق عمالقة الرياح : بأنه لاتوجد حدود . فإذا كان مستحيلا الخروج من فانتازين ، فإنه من المستحيل أيضا نداء طفل بشرى من الجانب الآخر للحدود لتقديم العون ، ولأنّ فانتازين كانت لا نهائية ، فكان من غير الممكن منع نهايتها !

وبينما كان يواصل سيره متعثرا فوق الأسفلت غير المستوى من خلال سحابات الضباب سمع فى ذاكرته صوت أُيولالا الناعم مرة أخرى . وتوهجت شرارة أمل صغيرة فى قلبه.فيما مضى كان كثيرا ما يأتى بشر إلى فانتازين ، لكى يمنحوا الإمبراطورة الطفولية دائما أسماء جديدة رائعة ـ هكذا أنشدت . إذن فقد كان هناك طريقا من عالم إلى الآخر .

« بالنسبة لهم إنها قريبة ، وبالنسبة لنا فهى بعيدة
أبعد من أن نأتى إليهم . »

أجل هكذا كلمات أُيولالا . لاشىء إلا أن أطفال البشر قد نسوا هذا الطريق ألم يكن ممكنا ، أن فردا ، فردا واحدا يتذكره مرة أخرى ؟

وكان حزن أتريو قليلا على أنه هو نفسه لم يعد له أمل . ولكن الشىء الهام هو أن يسمع طفل بشرى نداء فانتازين ويأتى ـ كما كان يحدث فى جميع الأوقات . وربما ، ربما بدأ أحدهم فعلا رحلته وهو فى الطريق !

وصاح باستيان : « نعم ، نعم ! » وفزع من صوته الخاص ، وأضاف قائلا بصوت منخفض : « سوف آت لمساعدتكم ، لو فقط عرفت كيف ! أنا لا أعرف الطريق يا أتريو . أنا لا أعرفه حقا . »

وكان رنين الطبول المكتوم والصفير الحاد قد سكت ، وبدون أن يلاحظ ، كان أتريو قد اقترب من الموكب لدرجة أنه كاد أن يلحق فى سيره بآخر الشخصيات . ونظرا لأنه كان حافى القدمين فلم تحدث خطواته صوتا ــ ولكن لم يكن هذا هو الذى جعل هؤلاء الناس لا يلاحظونه على الإطلاق . وكان يمكنه أن يدب بأحذية طويلة ذات رقبة ومدقوق فى نعلها الحديد ، وأن يصيح عاليا ، فلا أحد كان سيهتم بذلك ــ ولم يعودوا يقفون بعد ذلك فى موكب ، ولكن متفرقين على بُعد فوق حقل من الحشائش الرمادية والطين . بعضهم كان يترنح قليلا هنا وهناك ، وآخرون يقفون أو يجلسون القرفصاء بلا حراك ، ولكن عيونهم جميعا التى كان بها بريق أعمى محموم ، كانت تنظر فى نفس الاتجاه .

والآن رأى أتريو أيضا ، فى أى شىء يحملقون كما لو كانوا مأخوذين فى رعب : فعلى الجانب الآخر من الحقل كان العدم .

لقد كان كما شاهده أتريو من قبل من قمة الشجرة عند عفاريت جن لحى الأشجار أو فى السهل الذى كانت به البوابات السحرية الثلاثة لأرض التنبؤات الجنوبية ، أو من على ظهر فُخور ، من ارتفاع كبير ــ ولكنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد رآه دائما إلا من البُعد . ولكنه الآن وقف دون استعداد فى مواجهته مقتربا منه تماما ، وقد كان يسرى من خلال المنطقة كلها ، وكان هائلا ، يقترب بطيئا ، بطيئا ، ولكن دون توقف .

ورأى أتريو أن الأشباح فى الحقل بدأت ترتعد أمامه ، لدرجة أن أعضائها التفّت كما لو أصابتها التقلصات ، وقد فتحوا أفواههم كما لو كانوا يريدون الصراخ أو الضحك ، ولكن ساد صمت الأموات . ثم ــ كما لو كانوا أوراق شجر ذابلة تملكتهم نفخة رياح ــ اندفعوا جميعا فى نفس الوقت إلى ناحية العدم ، وسقطوا ، وتدحرجوا وقفزوا إلى داخله .

وما كاد يختفى آخر هذه المجموعة الشبحية بلا صوت ولا أثر ، حتى لاحظ أتريو بفزع كيف أن جسده هو أيضا بدأ يتحرك تجاه العدم فى خطوات كالدفعات . وأرادت أن تتملك منه رغبة جامحة فى الاندفاع أيضاً إلى هناك . وشد أتريو كل إرادته ودافع عن نفسه ضدها . وأجبر نفسه على التوقف . وببطء ، وببطء تام نجح فى الدوران والتصارع والتقدم خطوة خطوة كما لو كان يواجه تيار ماء هائل غير مرئى . وضعفت قوة الجذب ، وجرى أتريو وجرى بأسرع ما يستطيع عائدا إلى أسفلت الشارع المنبعج . وتزحلق وسقط ، واستجمع قواه ، وواصل الجرى دون أن يفكر إلى أين سيقوده هذا الشارع فى الضباب ؟

وتابع وهو يجرى انحناءاته عديمة المغزى ، ولم يتوقف إلاّ عندما بزغ أمامه من الضباب سور مدينة عال فى سواد القار . ومن ورائه كانت ترتفع بضعة أبراج مائلة إلى السماء المغيمة . وكانت الضلف الخشبية السميكة لبوابة المدينة هشة ونخرة ، ومتدلية بميل بمفصلاتها الصدئة .

ومشى أتريو إلى الداخل .

وازدادت البرودة باستمرار بالمخزن . وبدأ باستيان يحس بالقشعريرة لدرجة الارتعاش . وما العمل إذا مرض ـ وماذا سيكون مصيره ؟ فكان من الممكن أن يصاب مثلا بالتهاب رئوى مثل فيللى ، الصّبى الذى بفصله ، إذن سيضطر أن يموت هنا فى المخزن وحيدا تماما . ولن يكون هناك أحد لمساعدته .

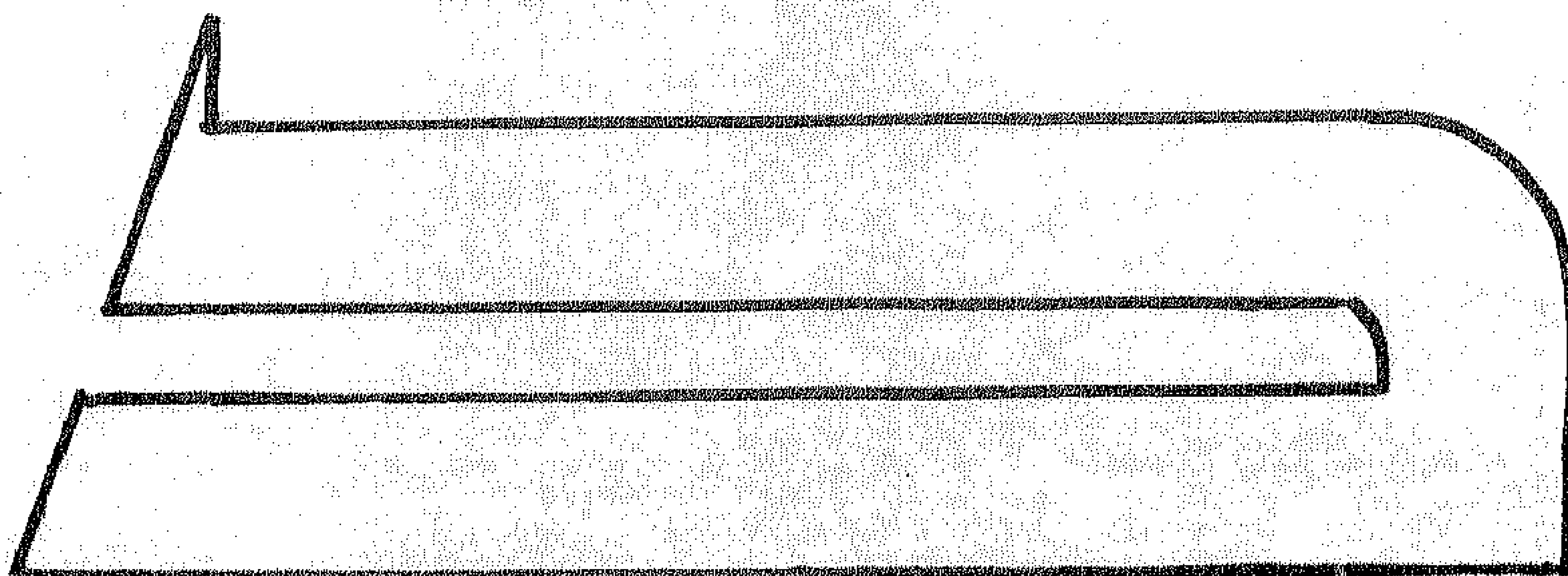
إنه سيكون سعيدا جدا إذا عثر عليه الوالد وينقذه .

ولكن أيذهب إلى المنزل ـ كلا ، لم يستطع ذلك . الموت أفضل !

وأحضر لنفسه الأغطية العسكرية ـ الباقية والتفّ بها من جميع الجهات .

وببطء ازداد شعوره بالدفء .

٩
مدينة الأشباح


כ



ذا أمواج هادرة كان البحر[١٠] ، حيث تردد صوت فُخور من مكان ما فيه ، وكان قويا كرنين جرس برونزى .

ــ « أتريو ! أين أنت ؟ أتريو ! »

وكان عمالقة الرياح قد أنهوا مباراة صراعهم منذ وقت طويل ، وتفرقوا عن بعضهم عاصفين ولسوف يتقابلون من جديد فى ذلك المكان أو فى مكان آخر لكى يحسموا نزاعهم مرة أخرى ، كما كانـوا يفعلون منذ المـاضى البعيد . ولقـد نسوا ما حدث منذ قليل لأنهم لا يحفظون شيئا فى ذاكراتهم ولا يعرفون سوى قوتهم الذاتية الهائلة . وهكذا اختفى التنين الأبيض أيضا وفارسه الصغير من ذاكراتهم منذ فترة طويلة .

وعندما سقط أتريو إلى العمق ، حاول فُخور بكل قواه فى بادىء الأمر الإسراع وراءه لكى يلتقطه أثناء السقوط . ولكن دوامة عاصفة شدت التنين إلى أعلى وحملته بعيدا بعيدا . وعندما عاد كان عمالقة الرياح هائجين فوق مكان آخر من البحر . وسعى فخور يائسا فى العثور على المكان ثانية حيث رجح بالتأكيد أن يكون أتريو قد سقط فيه ولكن حتى بالنسبة لتنين حظ أبيض فهو ضرب من المستحيـل اكتشاف النقطة الضئيلة لجسم منساب فى الزبد الراغى لبحر هائج ـ أو حتى غريق فى القاع .

وبالرغم من ذلك لم يُرِد فُخور أن يفقد الأمل . فصعد عاليا فى الأجواء لكى تكون لديه نظرة شاملة أفضل ، ثم عاد فكان فوق الأمواج ملاصقا لها ، أو طار فى حلقات ، حلقات مستمرة فى الاتساع . وأثناء ذلك لم يتوقف عن النداء على أتريو ، على أمل أن يرصده فى مكان ما فى المياه المُزْبِدة .

لقد كان تنين حظ ، ولم يكن شيء يستطيع أن يزعزع عقيدته فى أن كل شىء سينتهى نهاية طيبة . ومهما حدث فإن فُخور لن يفقد الأمل أبداً .

وتجول أتريو خلال الشوارع الساكنة كسكون الموتى لمدينة مهجورة . وكان المنظر مقبضا ومخيفا . ولم يبد أن هناك مبنى لا يعطى حتى لمجرد مظهره الخارجى انطباعا مهدِّدا ومشحونا باللعنات ، كما لو كانت المدينة كلها تتكون فقط من قصور عفاريت وبيوت أشباح ، وفوق الشوارع والأزقة التى كانت منحنية ومائلة ككل شىء فى هذه البلدة ، كانت تتدلى أنسجة هائلة للعنكبوت ، وتتصاعد رائحة كريهة من ثقوب الأقبية والآبار الفارغة .

وبعد أن كان أتريو فى البداية يسرع فى سكون من ركن حائط إلى آخر لكيلا يكتشفه أحد ، فسرعان ما لم يعد يبذل جهدا فى اخفاء نفسه . فقد كانت الميادين والشوارع خالية أمامه ، وكذلك لم تكن هناك حركة فى المبانى . ودخل فى بعضها ولكنه لم يجد إلاّ قطع أثاث مبعثرة وستائر ممزقة وزجاج وأوان محطمة ـ جميع دلائل الخراب . ولكن ولا ساكن . وعلى إحدى الموائد كانت هناك وجبة بُدىء فى تناولها ، بعض الأطباق وبها حساء أسود اللون ، وبعض الكسرات اللزجة التى ربما كانت خبزا ، وأكل من كليهما . وكان مذاقهما مقززا ، ولكنه كان جوعان جدا . وبدا له وصوله إلى هناك بالذات صحيحا تماما فى معنى من المعانى . فكل ذلك كان يناسب شخصا لم يبق له أمل .

وشعر باستيان بالضعف التام من الجوع .

السبب فى علم السماء فى أنه خطر بباله فى تلك اللحظة بعينها وبشكل غير مناسب فطيرة التفاح التى تصنعها الانسة أنّا . لقد كانت أفضل فطيرة تفاح فى العالم .

وكانت الآنسة أنّا تأتى ثلاث مرات فى الأسبوع وتنجز أعمالا كتابية للوالد وتنظم ميزانية البيت . وغالبا ما كانت تطهى أو تخبز شيئا أيضا . لقد كانت إنسانة قوية تتكلم وتضحك دون هموم بصوت عال . وكان الوالد مؤدبا معها ، ولكن فيما

عدا ذلك بدا أنه يكاد لا يدرك وجودها . ونادرا جدا ما استطاعت أن تجعل ابتسامة تتسلل إلى وجهه المهموم . وعندما تكون بالبيت كان الضوء يزداد قليلا .

وكان للآنسة أنّا ابنة صغيرة ، بالرغم من أنها لم تكن متزوجة . وكانت الفتاة تدعى كريستا وكانت أصغر من باستيان بثلاث سنوات ، وكان لها شعر أشقر رائع الجمال . وفيما مضى كانت الآنسة أنّا تحضر معها ابنتها الصغيرة دائما تقريبا . وكانت كريستا خجولة جدا . وعندما كان يحكى لها باستيان حكاياته لساعات طويلة . كانت تجلس ساكنة تماما وتستمع إليه بعينين مشدوهتين وكانت معجبة بباستيان وهو كان يحبها جدا .

ولكن من عام أودعت الآنسة أنّا ابنتها الصغيرة فى مدرسة داخلية بالريف . ومنذ ذلك الحين لم يعودا يريا بعضهما الآخر تقريبا .

وقد استاء باستيان جدا من الآنسة أنّا ، ولم تقنعه جميع تفسيراتها للسؤال كيف أن ذلك كان أفضل لكريستا .

ولكنه بالرغم من ذلك لم يستطع أن يقاوم أبدا فطيرة تفاحها .

وتساءل بانشغال ، كم من الوقت يستطيع الإنسان أن يصمد بلا طعام . ثلاثة أيام ؟ يومين ؟ ربما تنتاب الانسان تخيلات وهمية بعد أربع وعشرين ساعة ؟ وعدّ باستيان على أصابعه كم من الوقت وهو موجود هناك فعلا . لقد كانت عشر ساعات أو حتى أكثر قليلا . لو أنه فقط كان معه طعام الفسحة ، أو على الأقل احتفظ بالتفاحة ! وعلى ضوء الشموع المتراقص كادت العيون الزجاجية للثعلب والبومة ونسر الصخور العملاق تبدو حية . وقد ارتفعت ظلالها ضخمة على جدار المخزن .

ودقت ساعة البرج سبع مرات .

وخرج أتريو مرة أخرى إلى الشارع وتجوّل فى المدينة بلا هدف . وكانت تبدو كبيرة جدا . وأتى إلى حىّ كل المنازل فيه صغيرة ومنخفضة لدرجة أنه استطاع وهو واقف أن يلمس ميزاب الأسطح ، وأتى خلال أحياء أخرى حيث كانت قصور

متعددة الطوابق ذات واجهات تزينها التماثيل . ولكن كل هذه التماثيل كانت تمثل هياكل الموتى أو أشكالا شيطانية كانت تحملق إلى أسفل على المتجول الوحيد بوجوه منفرة .

وبعدئذ وقف فجأة كالمتسمر بلا حراك .

ففى مكان ما على مقربة تامة منه رنّ عويل خشن مبحوح له وقع يائس حزين لدرجة أنه قطّع قلب أتريو . وكانت كل وحشة وكل لعنة مخلوقات الظلام تكمن فى هذا الصوت الشاكى الذى لم يكن يريد أن ينتهى ، والذى كانت جدران المبانى المتزايدة التباعد تعيد قذفه على شكل صدى ، حتى أن رنينه أخيرا كان كعواء قطيع منتشر إلى بعيد من الذئاب الضخمة .

وسار أتريو خلف الصوت الذى تزايد انخفاضه باستمرار وأخيرا خمد فى نحيب خشن وكان عليه أن يبحث لبعض الوقت . وسار من خلال أحد المداخل ، وأتى إلى فناء ضيق عديم الضوء ، ومشى عبر قوس بوابة ووصل أخيرا إلى فناء خلفى رطب وقذر . وهناك كان يرقد أمام ثقب فى الجدار ذئب ممسوخ[١١] عملاق مقيد بالسلاسل وكاد الجوع أن يقضى عليه . وكان فى الإمكان عَدُّ كلّ ضلع من ضلوعه على حدة من أسفل جلده الأجرب ، وعُقد عموده الفقرى كانت تبرز للأمام كأسنان المنشار ، وقد تدلى لسانه طويلا من حلقه النصف مفتوح .

واقترب أتريو فى سكون . وعندما لاحظه الذئب الممسوخ ، رفع رأسه الهائل بحركة واحدة . وتوهج فى عينيه ضوء أخضر .

وتفرس الاثنان فى بعضهما فترة من الوقت دون كلمة ودون صوت . وأخيرا سُمع طنين الذئب الممسوخ خافتا ومهددا للغاية :

« اذهب بعيدا ! دعنى أموت فى هدوء ! »

وتمتم قائلا : « ولماذا ، لماذا لم يفروا ؟ »

(١١) Werwolf اسم تطلقه المعتقدات الشعبية الألمانية على إنسان مسخ على شكل ذئب لأعماله الشرّيرة .

ولم يتحرك أتريو . وأجاب بصوت خافت كذلك :

« لقد سمعت نداءك ولذلك أتيت . »

وهوى رأس الذئب الممسوخ إلى الوراء . وقال متذمرا : « إننى لم أُناد على أحد ، لقد كان ذلك نُواحى الخاص على موتى . »

وتساءل أتريو وهو يقترب خطوة أكثر : « من أنت ؟ »

– « أنا جمورك ، الذئب الممسوخ . »
– « لماذا ترقد هنا مُقيداً بالسلاسل ؟ »
– « لقد نسونى عندما انصرفوا ؟ »
– « من ـ هم ؟ »
– « هؤلاء الذين قيدونى بهذه السلسلة . »
– « وإلى أين ذهبوا ؟ »

ولم يجب جمورك . ونظر إلى أتريو بعينين نصف مغلقتين متربصتين . وبعد فترة سكون طويلة نوعاً سأل قائلا :

« ليس مكانك هنا ، أيها الغريب الصغير ، ليس فى هذه المدينة ، ليس هذا البلد . عما تبحث هنا ؟ »

وأطرق أتريو برأسه وقال : « لست أدرى كيف أتيت إلى هنا . ما اسم هذه المدينة ؟ »

فقال جمورك : « إنها عاصمة أشهر بلد فى كل فانتازين . ولا توجد بلد أخرى ولا مدينة أخرى لها مثل حكاياتها الكثيرة . وأنت أيضا أكيد سمعت عن مدينة الأشباح فى بلد الغوغاء ، أليس كذلك ؟ »

وهز أتريو رأسه بالإيجاب ببطء .

ولم يحول جمورك عينيه عن الصبى . فقد أدهشه أن هذا الصبى أخضر البشرة ينظر إليه بعينيه السوداوين الكبيرتين بهذا الهدوء ودون أن يُظهر أىّ خوف .

وسأل قائلا : « وأنت ـ من تكون ؟ »

وفكر أتريو برهة قبل أن يجيب قائلا : « أنا لا أحد . »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « هذا يعنى أنه كان لى اسم ذات مرة . وهو لا يصح أن يذُكر بعد ذلك . ولذلك فأنا لا أحد . »

وجذب الذئب المسموخ أشفاره قليلا إلى أعلى وأظهر أسنانه المخيفة ، وربما كان هذا إشارة إلى الابتسام . وكان يفهم جميع أنواع ظُلمة النفس ، وشعر أن أمامه شريكا متساويا معه بأى شكل من الأشكال .

وقال بصوت متحشرج : « إذا كان الأمر كذلك ، فإن لا أحدا سمعنى ، ولا أحد أتى إلىّ ، ولا أحد يتحدث معى فى ساعتى الأخيرة . »

وهز أتريو رأسه بالإيجاب مرة أخرى . ثم سأل قائلا :

ـ « أيستطيع لا أحد أن يفك قيدك ؟ »

وتراقص الضوء الأخضر فى عينى الذئب المسوخ . وبدأ يتهكم ويلحس أشفاره .

واندفع صوته يقول : « هل سوف تفعل ذلك حقا ؟ ستطلق سراح ذئب ممسوخ جائع ؟ ألا تعرف معنى ذلك ؟ لا أحد سيكون فى مأمن منى . »

فقال أتريو : « أجل ، وأنا لا أحد . لماذا سأخاف منك ؟ »

وأراد أن يقترب من جمورك ، ولكن هذا أطلق ذلك الدوى العميق المرعب مرة أخرى . وتراجع الصبى .

وسأل قائلا : « ألا تريد أن أطلق سراحك ؟ »

وبدا الذئب المسموخ منهكا جدا مرة واحدة : « لن تقدر على ذلك . ولكن إذا اقتربت إلى متناول يدى فلابد أن أقطعك إربا ، يابنى . وسوف يؤجل ذلك نهايتى قليلا فقط ، لمدة ساعة أو ساعتين . إذاً ابتعد عنى ، ودعنى أنْفَقُ فى هدوء . »

وفكر أتريو .

وأخيراً قال : « ربما أعثر على شىء لتأكله . ففى استطاعتى أن أذهب للبحث فى المدينة . » وفتح جمورك عينيه ببطء مرة أخرى ونظر إلى الصبى . وكانت النيران الخضراء فى نظرته قد انطفأت .

ـ « اذهب إلى الجحيم ، أيها الأحمق الصغير . أتريد أن تحافظ على حياتى إلى أن يكون العدم هنا ؟ »

فتلعثم أتريو قائلا : « كنت أعتقد إذا ما أحضرت لك طعاما وشبعت ، فربما سيُمكننى الاقتراب منك لكى أنزع عنك القيد . . . »

وجز جمورك على أسنانه . وقال : « لو كان قيداً عاديا الذى يربطنى هنا ، أتعتقد أننى لم أكن قضمته بنفسى منذ وقت طويل ؟ »

وكما لو كان يريد برهنة ذلك التقف السلسلة وتخبطت أسنانه محدثة ضجيجا . . وجذب فيها ثم تركها .

ـ « إنها سلسلة سحرية . لا أحد يستطيع فكها إلا نفس الشخص الذى قيدنى بها . ولكنه لن يعود أبدا . »

ـ « ومن قيدك بها ؟ »

وبدأ جمورك فى النحيب ككلب مضروب . فقط بعد برهة من الزمن كان قد هدأ بحيث استطاع أن يجيب قائلا :

ـ « لقد كانت جابا ، الأميرة العبوس . »

ـ « والى أين ذهبت ؟ »

« لقد ألقت بنفسها فى العدم ـ مثل كل الآخرين هنا . »

وفكر أتريو فى الراقصين المجانين الذين شاهدهم بالخارج أمام المدينة فى الضباب .

وتمتم قائلا : « ولماذا ، لماذا لم يفروا ؟ »

ـ « لم يكن لديهم أمل . وهذا يضعف أمثالكم . فالعدم يجذبكم بقوة ، ولن يقاومه واحد منكم لوقت طويل . »

وبينما هو يقول ذلك ، أطلق جمورك ضحكة عميقة شريرة .

وواصل أتريو تساؤله : « وأنت ، إنك تتحدث كما لو لم تكن تنتمى إلينا . »

وعاد جمورك ينظر إليه بهذه النظرة المتربصة .

ـ « إننى لا أنتمى اليكم . »
ـ « من أين تأتى إذنْ ؟ »
ـ « ألا تعرف ما هو الذئب الممسوخ ؟ »
وهز أتريو رأسه بالنفى صامتا .

فقال جمورك : « أنت لا تعرف غير فانتازين . وهناك عوالم أخرى ، على سبيل المثال أولاد البشر . ولكن هناك كائنات ليس لهم عالم خاص . ولكنهم يستطيعون أن يدخلوا ويخرجوا فى كثير من العوالم . وأنا أنتمى إلى هؤلاء . ففى عالم البشر أظهر كإنسان ، ولكننى لست بشرا . وفى فانتازين اتخذ الهيئة الفانتازية ـ وأنا لست واحدا منكم . » وجلس أتريو القرفصاء ببطء على الأرض ، ونظر إلى الذئب الممسوخ المحتضر بعينين مشدوهتين داكنتين .

ـ « هل كنت فى دنيا أولاد البشر ؟ »

ـ « كثيرا ما ترددت بين عالمهم وعالمكم . »

فقال أتريو متلعثما ولم يستطع أن يمنع ارتعاش شفتيه : « جمورك ، أيمكنك أن تبوح لى بالطريق إلى عالم أولاد البشر ؟ »

وبرقت ومضة خضراء فى عينى جمورك ، وكان كما لو أنه يضحك داخليا .

ـ « الطريق إلى هناك سهل جدا بالنسبة لك ولأمثالك . ولكن بالأمر مشكلة خافية عنكم ، وهو أنكم لن تستطيعوا العودة مرة ثانية أبدا . وعليكم أن تبقوا هناك إلى الأبد . أتريد ذلك ؟ »

فسأل أتريو بعزم : « ماذا يجب عليّ أنْ أفعله ؟ »

ــ « ما فعله جميع الآخرين هنا من قبلك ، يابنى . ليس عليك إلا أن تقفز فى العدم . ولكن لا داعي للعجلة لأنك سوف تفعل ذلك إنْ آجلا أو عاجلا على شتى الأحوال عندما تختفى آخر أجزاء فانتازين . »

ونهض أتريو .

ولاحظ جمورك أن الصبى يرتعش بكل جسده . ولأنه لم يكن يعرف السبب الحقيقى لذلك ، قال مهدئا : « يجب ألا تخاف ، فهو لا يؤلم . »

فرد أتريو قائلا : « لست خائفا ، إننى لم أفكر أبدا فى أنى سأستعيد كل الأمل هنا بالذات وعن طريقك أنت . »

وتوهجت عينا جمورك كقمرين أخضرين ضيقين .

ــ « ليس لديك داع للأمل يابنى ـ مهما كنت تنوى فعله . فعندما تظهر فى عالم البشر ، لن تكون ما أنت عليه هنا . وهذا هو السر الذى لا يستطيع أحد معرفته فى فانتازين . »

ووقف أتريو وذراعاه متدليتين وسأل قائلا : « ماذا سأكون هناك ؟ قل لى السر ! » جمورك صمت وقتاً طويلا ولم يتحرك . وخشى أتريو ألاّ يتلقى إجابة بعد ، ولكن أخيرا ارتفع صدر الذئب الممسوخ بنفَسٍ ثقيل ، وبدأ يتحدث بصوت متحشرج قائلا :

« ماذا تعتبرنى ، يابنى ؟ صديقك ؟ احترس ، إننى أقضى الوقت معك فقط . والآن أنت لا تستطيع حتى الانصراف . إننى أمسك بك عن طريق أملك . ولكن أثناء حديثى يحيط العدم بمدينة الأشباح من جميع الأنحاء وسرعان ما لن يكون هناك مخرج . حينئذ تكون أنت مفقود . فإذا سمعت لى ، تكون قد اتخذت القرار . ولكن مازلت تستطيع الفرار . »

وازدادات شدة الملامح القاسية حول فم جمورك . وتردد أتريو للحظة قليلة ، ثم همس قائلا : « قل لى السر . ماذا سأكون هناك ؟ »

ومرة أخرى لم يجب جمورك لفترة طويلة . وسار تنفسه الآن متحشرجا ومتدافعا . ولكنه على حين غرّة تامة نهض بحيث إنه انتصب حينئذ متكئا على مخالبه الأمامية ، واضطر أتريو أن يرفع نظره إليه . والآن فقط شوهد حجمه الهائل تماما وفظاعته .

وعندما عاد يواصل الحديث مرة أخرى كان صوته متحشرجا :

ــ « هل رأيت العدم يابنى ؟ »

ــ « نعم ، مرات كثيرة . »

ــ « كيف يبدو ؟ »

ــ « كما لو كان المرء أعمى . »

« حسن ، وعندما تدخلون فيه ، فانه يعلق بكم ، أى العدم . فتكونون كالمرض المعدى الذى عن طريقه يصبح البشر عميانا بحيث لا يستطيعون أن يفرقوا بين الخيال والحقيقة . أتعرف كيف يُطلق عليكم هناك ؟ »

وهمس أتريو قائلا : كلا . »

فنبح جمورك قائلا : « الأكاذيب ! »

وهز أتريو رأسه يمنة ويسارا . وقد هربت كل الدماء من شفتيه .

ــ « كيف يمكن هذا ؟ »

وكان جمورك يتسرى بفزع أتريو . وكانت المحادثة تنعشه بشكل ملحوظ . وبعد برهة قصيرة استكمل حديثه قائلا :

ــ « أتسألنى عما ستكونه هناك ؟ ولكن ماذا تكون أنت هنا ؟ وماذا تكونون أنتم يا كائنات فانتازين ؟ إنكم صور أحلام ، مُخْتَلَقَاتٌ فى مملكة الشعر . شخصيات فى قصة لا تنتهى ! أتعتبر نفسك حقيقة واقعة يابنى ؟ حسن ، أنت ذلك هنا فى عالمك . ولكن عندما تسير عبر العدم ، فلن تكون ذلك فيما بعد . حينئذ لن يمكن التعرف عليك . حينئذ ستكون فى عالم آخر . وهناك لن يكون لديكم شبه مع أنفسكم . وسوف تحملون الوهم والتضليل إلى عالم البشر . وعليك أن تخمن

يابنى ، ما هو مصير جميع سكان مدينة الأشباح الذين قفزوا فى العدم ؟ »

وقال أتريو متلعثما : « لست أدرى . »

ـ « سيصبحون أفكارا وهمية فى رؤوس البشر ، تخيلات خوف حيث لا يوجد فى الواقع شىء يُخشى منه ، رغبات إلى أشياء تجعلهم مرضى ، تخيلات يأس حيث لا يوجد سبب لليأس . »

وسأل أتريو فزعا : « هل سنصبح جميعا هكذا ؟ »

فرد جمورك : « كلا ، هناك أنواع كثيرة من الوهم والخيال ، وحسبما تكونون هنا ، من جمال أو قبح ، غباء أو ذكاء ، فستصبحون هناك أكاذيب جميلة أو قبيحة ، غبية أو ذكية . »

وقال أتريو راغبا فى المعرفة : « وأنا ، ماذا سأكون ؟ »

وابتسم جمورك ساخرا .

ـ« لن أقول لك ذلك ، يابنى . سوف تراه أنت . أو بالأحرى لن تراه ، لأنّ أنت لن تكون أنت » .

وصمت أتريو ونظر إلى الذئب الممسوخ بعينين مشدوهتين .

وأكمل جمورك كلامه قائلا :

« ولذلك يكره ويخشى البشر فانتازين وكل شىء يأتى من هنا . إنهم يريدون تدميرها وهم لا يعرفون أنهم بذلك يزيدون من طوفان الأكاذيب الذى ينصب بلا انقطاع فى عالم البشر ـ ذلك التيار من كائنات فانتازين الذى لم يعد فى الإمكان التعرف عليهم . والذين يضطرون إلى أن يتخذوا كيانا وهميا من الجثث الحية . إنهم لا يعرفون . أليس هذا مضحكا ؟ »

وسأل أتريو بصوت منخفض : « ألم يعد هناك واحد لا يكرهنا ويخشانا ؟ »

فقال جمورك : « على كل حال أنا لا أعرف أحدا . وهذا أيضا لا يدعوك لمزيد من الدهشة ، لأنكم أنتم ستضطرون هناك أن تتسببوا فى جعل الناس يعتقدون أنه

لا وجود لفانتازين . »

فقال أتريو مكررا وهو مأخوذ : « أنه لا وجود لفانتازين ؟ »

وأجاب جمورك : «مؤكد ، يابنى . وهذا بعينه هو أهم شىء . ألا تستطيع أن تتخيل ذلك فقط عندما يعتقدون أنه لا وجود لفانتازين ، فلن يفكروا فى زيارتكم ، وبذلك يرتبط كل شىء ، لأنه فقط إذا لم يعرفوكم بشكلكم الحقيقى ، فيمكن أن يُفعل بهم كل شىء . »

ـ « ماذا ـ يُفعل بهم ؟ »

ـ « كل ما يريده المرء . سيكون للمرء سلطان عليهم . ولا توجد سلطة على البشر أقوى من الكذب . لأن البشر يابنى ، يعيشون على الخيالات ، وهذه يمكن قيادتها . وهذه السلطة هى الوحيدة التى يعتد بها . ولذلك وقفت أنا إلى جانب السلطة وخدمتها لكى أشارك فيها ـ وإن كان هذا بشكل مختلف عنك وعن أمثالك . »

واندفع أتريو قائلا : « أنا لا أريد أن أشارك فيها . »

فدمدم الذئب الممسوخ قائلا : « بهدوء ، أيها الأحمق الصغير ، فعندما يأتى الدور عليك لتقفز إلى العدم ، ستصبح أنت أيضا خادما للسلطة عديم الإرادة مشوّها . من يدرى فى أى شىء ستنفعها ؟ ربما بمساعدتك سيجعلون البشر يشترون مالا يحتاجون ، أو يكرهون مالا يعرفون ، أو يعتقدون فيما يخضعهم أو يشكّون فيما يمكن أن ينقذهم . وبِكُمْ ، أيها الفانتازى الصغير ، ستُعقد صفقات كبيرة فى عالم البشر وتنشب حروب ، وتقام الممالك العالمية . . . »

ونظر جمورك إلى الصبى فترة بعينين نصف مغلقتين ، ثم أضاف قائلا :

« ويوجد أيضا عدد كبير من أصحاب العقول الضعيفة المساكين ـ الذين يعتبرون أنفسهم بالطبع أذكياء جدا ، ويعتقدون أنهم يخدمون الحقيقة ـ والذين لا يفعلون شيئا بحماس أكثر من إنكارهم حتى لأولاد فانتازين . ربما ستكون أنت بالذات نافعا لهم . »

ووقف أتريو مطرقا رأسه .

لقد عرف الآن لماذا لم يعد يأتى بشر إلى فانتازين ، ولماذا لن يأتوا أبدا لكى يمنحوا الإمبراطورة الطفولية أسماء جديدة . وكلما تملك الدمار من فانتازين ، ازداد حجم طوفان الأكاذيب فى عالم البشر ، وبسبب ذلك كانت إمكانية حضور طفل بشرى تتلاشى أكثر مع كل لحظة . لقد كانت حلقة مفرغة ولا يوجد مفر منها . لقد عرف أتريو ذلك الآن .

وهناك شخص آخر عرف الأمر الآن : باستيان بلتازار بوكس .

لقد فهم الآن أنه ليست فانتازين فقط هى المريضة ولكن أيضا عالم البشر . فأحدهما متعلق بالآخر . وفى الواقع أنه كان يشعر بذلك دائما دون أن يستطيع أن يفسر لماذا الأمر على هذا النحو . إنه لم يكن يريد أن يرضى أبداً أن تكون الحياة بهذه الكآبة واللامبالاة ، هكذا دون أسرار ومعجزات ، مثلما يزعم كل الناس الذين يقولون دائما :

« هكذا الحياة . »

ولكنه أيضا عرف الآن أن المرء يجب أن يذهب إلى فانتازين لكى يعيد الصحة إلى كلا العالمين .

وكوْن أن لا أحد من البشر لم يعد يعرف الطريق إلى هناك ، كان يرجع إلى الأكاذيب والتخيلات الخاطئة التى أتت إلى العالم وجعلت الإنسان أعمى بسبب تدمير فانتازين . وفكر باستيان بالفزع والخجل فى أكاذيبه الخاصة . والقصص المُختلَقة التى كان يحكيها لم يحسبها من ضمنها . لقد كان ذلك شيئا آخر . ولكنه كذب عدة مرات عن قصد وتعمد تام ـ أحيانا من الخوف ، وأحيانا لكى يحصل على شىء ما يريد تملكه حتما ، وأحيانا أيضا لكى يتفاخر بنفسه فقط . تُرى أية مخلوقات من فانتازين دمرها وشوهها وأساء استغلالها ، وحاول أن يتخيل شكلهم الحقيقى الذى يحتمل أنهم كانوا عليه من قبل ـ ولكنه لم يستطع . وربما لأنه كان يكذب .

وعلى كل حال فقد ثبت شيء واحد : وهو أنه ساهم فى وصول حال فانتازين إلى هذا السوء . وكان يريد أن يفعل شيئا لكى يصلح الأمور مرة أخرى . وكان مدُانا بذلك لأتريو الذى كان مستعدا لكل شىء فقط من أجل أن يُحضره . إنه لم يكن يستطيع ولا يريد أن يخيّب أمل أتريو . يجب أن يعثر على الطريق .

ودقت ساعة البرج الثامنة .

وكان الذئب الممسوخ ينظر إلى أتريو بإمعان .

وقال : « والآن أنت تعرف كيف يمكنك المجيء إلى عالم البشر ، أما زلت تريد ذلك يابنى ؟ »

وهز أتريو رأسه بالنفى .

وتمتم قائلا : « إننى لا أريد أن أصبح أكذوبة . »

فرد جمورك فيما يشبه السعادة : « ولكنك ستصبح هكذا ، أردت أم لم تُرد . »

وقال اتريو متسائلا : « وأنت ؟ لماذا أنت هنا ؟ »

فقال جمورك رغم إرادته : « كان لدى مهمة . »

ــ « أنت أيضا ؟ »

ونظر أتريو إلى الذئب الممسوخ بانتباه يكاد يتعاطف معه وقال : « وهل أديتها ؟ » فدمدم جمورك قائلا : « كلا ، وإلا لما كنت مقيدا بهذه السلسلة بالتأكيد . بالرغم أن الأمور كانت تسير سيرا غير بطال بالمرة فى بادىء الأمر ، إلى أن أتيت إلى هذه المدينة . وقد هيأت لى الأميرة العبوس التى كانت تحكم هنا ، استقبالا بكل التكريم . ودعتنى إلى قصرها ، وقامت على إطعامى وسقياى بوفرة زائدة وتحدثت معى ، وتصرفت فى كل الأمور كما لو كانت تنتمى إلى فصيلتى . بالطبع كانت الكائنات فى بلد الغوغاء محببة إلى نفسى جدا نسبيا ، كُنت أشعر كما لو كانت فى بيتى . وكانت الأميرة العبوس جميلة جدا بطريقتها ـ على كل حال بالنسبة لذوقى . وكانت تملّس علىّ وتعبث بشعرى ، وقد سمحت بذلك لأنه كان ممتعا جدا . فلم

يملّس علىّ أحد ويداعب شعرى على هذا النحو من قبل . باختصار ، لقد فقدت عقلى وانسقت إلى الثرثرة ، وكانت تتصرف كما لو كانت معجبة بى ، من يدرى كيف ذلك ، وأخيرا قصصت عليها مهمتى . لابد وأنها قد نومّتنى ، لأننى عادة أنام نوما خفيفا . وعندما استيقظت ، كنت مقيدا بهذه السلسلة وكانت الأميرة العبوس تقف أمامى وتقول : « لقد نسيت ياجمورك أننى أيضا انتمى إلى مخلوقات فانتازين . وإذا حاربت ضد فانتازين ، فأنت تحارب أيضا ضدى . فأنت إذن عدوى ، ولقد تغلبت عليك بالحيلة . وهذه السلسلة لا يمكن فكها ثانية إلا بواسطتى ولكننى الآن ذاهبة مع خدمى وخادماتى إلى العدم ولن أعود أبدا مرة ثانية » واستدارت وانصرفت . ولكن ليس الكل حذى حذوها . فقط عندما أتى العدم فى اقتراب متزايد على الدوام ، انجذب من سكان المدينة المزيد والمزيد بقوة لدرجة أنهم لم يعودوا يستطيعون المقاومة . نعم ، لقد وقعتَ فى الفخ ، يابنى ، لقد سمعتُ لهذه المرأة لوقت أطول من اللزوم . ولكنك يابنى . ذهبت أيضا إلى نفس الفخ الآن ، واستمعت إلىّ لوقت أطول من اللزوم . ففى هذه اللحظة أحاط العدم بالمدينة كالحلقة ، فأنت محبوس ولن تستطيع الفرار من بعد . »

فقال أتريو : « إذن سوف نقضى نحبنا سويا » .

فرد جمورك : « من المحتمل ، ولكن بطريقة مختلفة تماما ، أيها الأحمق الصغير . لأننى سوف أموت قبل أن يكون العدم هنا . ولكنه سيبتلعك أنت . وهذا فارق كبير . لأن من يموت قبل ذلك تنتهى قصته ، ولكن قصتك ستستمر بلا نهاية كأكذوبة . »

فسأل أتريو قائلا : « لماذا أنت شرير هكذا ؟ »

فأجاب جمورك بغموض : « إن لديكم عالما ، وأنا لا . »

ـ « ماذا كانت مهمتك ؟ »

جمورك الذى كان حتى ذلك الوقت مازال جالسا فى اعتدال ، انزلق إلى الأرض وقد خارت قواه بشكل ملحوظ . ولم يعد يُسمع صوته الخشن إلا كاللّهاث : « إن

الـذين أعمل فى خـدمتهم ، والذين قـرروا تدمـير فانتـازين ، رأوا خطورة عـلى خطتهم . ـ فلقد نما إلى علمهم أن الإمبراطورة الطفولية قد بعثت رسولا ، بطلا عظيما ـ ، وبدا الأمر وكأنه سوف ينجح فى استدعاء طفل بشرى إلى فانتازين . وكان من الضـرورى جـدا ، قتله فى الـوقت المنـاسب . ـ ولهـذا أرسلونى لأننى كثيـراً ما سافرت فى أرجاء فانتازين . ـ ولقد عثرت على أثره فى الحال ـ وتتبعته ليلا ونهاراً ـ ولحقت به ببطء ـ عبر بلد السسافرة ـ عبر معبد أدغال موامات ـ عبر غابات هاوليڤالد ـ مستنقعات الحزن ـ الجبال الموات ـ ولكن بعدئذ عند الهاوية السحيقة عند شبك إجرامول ـ فقدت أثره ـ كما لو تحلل فى الهواء ـ فواصلت البحث ، ففى مكان مالابد أن يكون ـ ولكننى لم أعثر على أثره بعد ذلك ـ وهكذا أتيت أخيرا إلى هنا . ـ إننى لم أوفق ولكن هو أيضا ، لأنّ فانتازين ستنتهى ! لقد كان اسمه بالمناسبة أتريو . »

ورفع جمورك رأسه . وتراجـع الصبى خطوة إلى الـوراء ، ونهض أتريـو إلى أعلى . وقال « إننى هو ، أنا أتريو . »

وسرت رعشة خلال الجسد النحيل للذئب الممسوخ . وتكررت وازدادت شدة على شدة . ثم صدر من حنجرته صوت يشبه سعالا لاهثا وازداد ارتفاعا وحشرجة ، وتصاعد إلى زئير رجع صداه من جميع جدران البيوت . لقد كان الذئب الممسوخ يضحك !

لقد كان أفظع صوت سمعه أتريو من قبل ، ولم يسمعه أبدا مرة أخرى ، أو ما يشبهه .

ثم انتهى فجأة .

لقد مات جمورك .

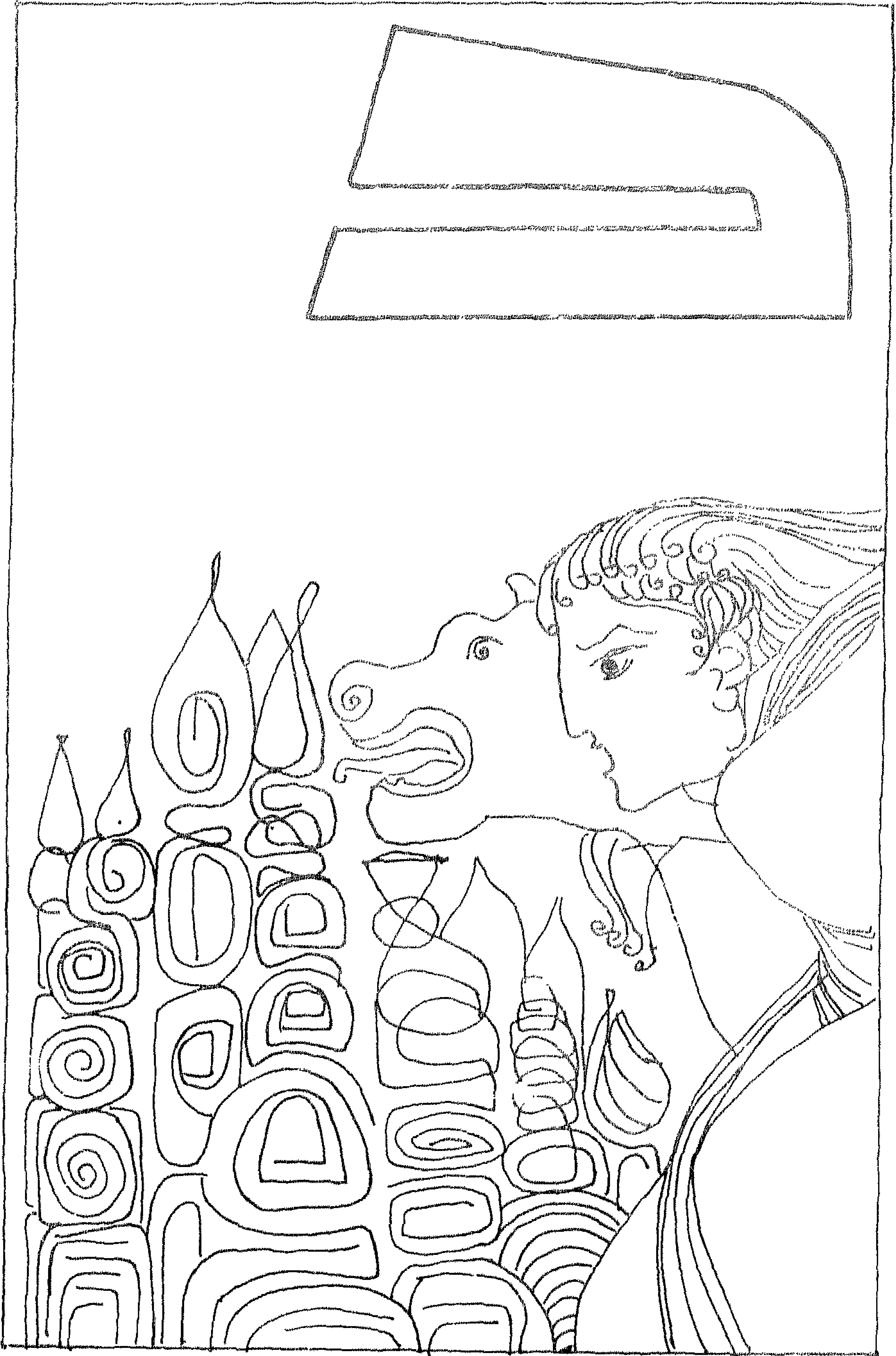
ووقف أتريو لفترة طويلة بلا حراك . وأخيرا اقترب من الذئب الممسوخ ـ وهو نفسه لم يعرف لماذا . وانحنى فوق رأسه ولمس بيده الفرو الأسود خشن الشعر . وفى نفس اللحظة ، وبأسرع من أية فكرة ، أطبقت أسنان جمورك وظلت ثابتة قاضمة فى رِجْل أتريو لقد كان الشر مازال قويا به حتى فيما بعد الموت .

وحاول أتريو يائسا أن يفتح فك الأسنان . دون جدوى . فلقد رسخت الأسنان الهائلة فى لحمه كما لو كانت مثبتة بصواميل من الصلب . وانهار أتريو إلى جوار جثة الذئب الممسوخ على الأرض القذرة .

واقتحم العدم خطوة خطوة ، دون توقف وبلا صوت من جميع الأنحاء من خلال السور الأسود العالى الذى يحيط بالمدينة .

١٠

الطيران إلى برج العاج


ב



رُزق تنين الحظ الأبيض اكتشافا غاية فى الغرابة فى تلك اللحظة التى دخل فيها أتريو عبر الباب المظلم لمدينة الأشباح ، وبدأ جولته من خلال الأزقة الملتوية التى انتهت بعدئذ بشكل مصيرى إلى ذلك الفناء الخلفى القذر .

وفى بحث دائب بلا كلل عن سيِّده وصديقه الصغير صعد عاليا جدا إلى السحب ونُتف الضباب بالسماء ونظر إلى جميع النواحى . وامتد البحر إلى جميع الجهات ، والذى هدأ ببطء فقط بعد العاصفة الهائلة التى كانت تمخر فيه حتى القاع . وفجأة رأى فُخور على مسافة بعيدة شيئا لم يستطع تبينه . لقد كان كشعاع ضوء ذهبى يلمع على فترات متماثلة وينطفىء مرة أخرى ، يلمع وينطفىء مرة أخرى . وبدا شعاع الضوء هذا موجّه إليه هو ، فُخور ، بالضبط .

واقترب بأسرع ما يستطيع من المكان ، وعندما حام أخيرا فوقه ، وجب عليه أن يتأكد أنّ علامة الوميض هذه تأتى من أعماق الماء ، وربما كذلك من قاع البحر .

إنّ حيوانات تنين الحظ ـ وقد قيل ذلك فيما سبق ـ مخلوقات من الهواء والنار . وعنصر البلل ليس فقط غريبا بالنسبة لها ، بل إنه خطير جدا كذلك . فمن الممكن أن ينطفئوا بالتمام تقريبا كشعلة من النار ـ هذا إذا لم يختنقوا قبلها ، لأنهم يتنفسون بلا انقطاع هواء بكل جسدهم عن طريق قشورهم المائة ألف فى عددها وكالصدف فى لونها . وهم يتغذون فى نفس الوقت من الهواء والحرارة ، ولا يلزمهم غذاء آخر ، ولكنهم بدون هواء وحرارة لا يستطيعون الحياة إلا لوقت قصير جدا .

ولم يعرف فُخور ماذا عليه أن يفعل ؟ ولم يكن يعرف حتى ما هو هذا اللمعان الغريب هناك إلى أسفل فى أعماق البحر ؟ وعمّا إذا كان له علاقة بأتريو على

الإطلاق . ولكنه لم يفكر طويلا . فانطلق عاليا فى الهواء ثم استدار برأسه إلى أسفل ، ووضع مخالبه ملاصقة لجسده الذى جعله متصلبا ومستقيما كالعصاه ، ثم هوى بنفسه إلى العمق . وغطس فى البحر بارتطام هائل جعل الماء يتناثر بشكل نافورة عملاقة . وكاد أن يفقد الوعى من الاصطدام فى بادىء الأمر ، ولكنه أجبر نفسه بعد ذلك على فتح عينيه الحمراوين بلون الياقوت . وحينئذ رأى اللمعان قريبا أمامه ، على بعد عدة أطوال من جسده فقط فى العمق . وانساب الماء من حول جسده وبدأ يكوّن فقاعات هواء لؤلؤية كما فى وعاء قبل أن يبدأ فى الغليان . وفى نفس الوقت أحس كيف فقد حرارته وازداد ضعفه باستمرار . وبآخر القوى المتبقية لديه أرغم نفسه على الغوص أكثر عمقا — وحينئذ رأى منبع الضوء قريبا جدا — لقد كان آوْرين ، البريق ! ولحسن الحظ كان الحجاب قد ظل عالقا بسلسلته على فرع من الشعب المرجانية الذى كان يبرز من جدار وادٍ صخرى عميق — وإلا لكانت الجوهرة قد غطست إلى عمق عديم القرار .

ومد فخور مخلبه إليه ، وخلّصه ولفّ السلسلة حول رقبته لكيلا يفقده — لأنه أحس أنه سيفقد الوعى عما قريب .

وعندما عاد إلى رشده ، كاد لا يستطيع معرفة المكان فى بادىء الأمر ، لأنه لدهشته البالغة كان يطير حينئذ فوق البحر مرة ثانية عبر الأجواء . وكان يطير بسرعة كبيرة فى اتجاه محدد تماما ، أسرع بكثير مما تسمح به قواه المنهكة . وحاول أن يطير أبطأ قليلا ، ولكن كان عليه أن يلاحظ أنّ جسده لم يعد يطيعه . إن إرادة أخرى أقوى بكثير جدا قد تملكت من جسده وكانت توجهه الآن . وهذه الإرادة نبعت من آوْرينْ الذى كان يحمله بالسلسلة حول رقبته .

وكان النهار قد مال وأقبل المساء ، عندما شاهد فُخور أخيرا شاطىء بحر من بعيد . لم يكن يرى كثيرا من الأرض خلفه ، ويبدو أنها كانت تقع داخل الضباب . ولكنه عندما اقترب أكثر ، اكتشف أنّ معظم الأرض قد ابتعله ذلك العدم الذى كان يؤلم العيون لأنه كان يعطى شعورا بالعمى

ولو كان فى استطاعة فُخور أن يقرر بإرادته الخاصة ، لربما كان قد عاد من هنا

ولكن القوة الغامضة للجوهرة أجبرته على مواصلة الطيران إلى الأمام . وسرعان ما عرف لماذا ، لأنه اكتشف وسط هذا العدم اللانهائى فجأة جزيرة صغيرة لا تزال صامدة ، جزيرة تتكون من منازل ذات أسقف هرميّة مدببة وأبراج مائلة . وانتاب فُخور إحساس بمن سيعثر عليه هناك ، والآن لم تعد الإرادة القوية فقط التى كانت تنبع من الحجاب وتؤثر فيه ، ولكنها أيضا إرادته الخاصة التى جعلته يطير متجها إلى هذا الهدف .

فى الفناء الخلفى عديم الضوء ، الذى كان يرقد فيه أتريو إلى جوار الذئب المسوخ الميت ، كان الظلام قد عمّ تقريبا . وكان الغسق المعتم الذى يتقاطر إلى أسفل إلى البئر الضيق العميق المتكون من الفراغ بين البيوت ، يكاد لا يكفى ليميّز بين الجسد الفاتح اللون للصبى والفروة السوداء للوحش . وكلما ازداد الظلام ازداد ظهورهما كما لو كانا شيئا واحدا .

وكان أتريو قد كف منذ وقت طويل عن جميع المحاولات لتحرير نفسه من منجلة الحديد الصلب لفك الذئب . وكان فى حالة تشبه فقدان الوعى ، حيث رأى مرة أخرى الجاموس الأرجوانى أمامه فى بحر الأعشاب ، والذى لم يصرعه . وأحيانا كان ينادى على الأطفال الآخرين ، رفقاء الصيد ، الذين يحتمل أن يكونوا الآن جميعا صيادين بالمعنى الصحيح ولكن لاأحد كان يرد عليه . لاشىء غير الجاموس العملاق الساكن كان يقف وينظر إليه . ونادى أتريو على أرتاكس ، حصانه الصغير . ولكنه لم يأت ، وكذلك لم يسمع صهيله الحاد فى أى مكان . ونادى على الامبراطورة الطفولية ، ولكن بلا جدوى . ولم يستطع أن يشرح لها شيئا . إنه لم يصبح صيادا ، ولم يعد رسولا ، لقد كان لاأحد .

واستسلم أتريو .

ولكنه شعر بعد ذلك بشىء آخر : بالعدم . لابد وأنه كان الآن قريبا جدا وعاد أتريو يشعر بقوة الجذب المفزعة هذه التى كانت تعطى إحساسا بالدوار . واعتدل وجذب رجله وهو يتأوه . ولكن الأسنان لم تتركه .

وفى هذه الحالة كان حظه السعيد . لأنه لو لم توقفه أسنان جمورك لكان فُخور قد

أتى بعد فوات الأوان بالرغم من كل شىء .

ولكن هكذا سمع أتريو فجأة الصوت البرونزى لتنين الحظ فوقه فى السماء .

« أتريو هل أنت هنا ؟ أتريو ! »

فصاح أتريو : « فخور ! » ثم وضع كلتا يديه كالمخروط أمام فمه وصرخ إلى أعلى :

« أنا هنا . فُخور ! فُخور ! ساعدنى ! أنا هنا ! » واستمر فى إعادة صراخه هذا . ثم رأى جسد فخور الأبيض اللولبى وهو يسرى كالبرق الحى عبر القطعة الصغيرة المتلاشية من السماء ، فى بادىء الأمر بعيدا جدا ، عاليا جدا إلى فوق ، ثم مرة أخرى أكثر اقترابا . وصرخ أتريو ، وصرخ ، ورد تنين الحظ بصوته الجرسى . وأخيرا رصد ذلك الذى فوق هذا الذى بأسفل هناك ، صغيرا كجعران مسكين فى جُحر مظلم

وحاول فُخور الهبوط ولكن الفناء الخلفى كان ضيقا ، وكان الوقت ليلا تقريبا ، وحطم التنين أثناء هبوطه أحد اسقف المنازل الهرميّة المدببة . وهوت الأعمدة الخشبية للسقف محدثة دويا كالرعد . وأحس فُخور بألم قاطع . فقد شُجّ جسده بُجرح شديد عند الحافة العليا الحادة للسقف . وأصبح هبوطا على غير ما اعتاد من هبوط رشيق ، وسقط إلى أسفل فى الفناء مرتطما بشدة إلى جوار أتريو وجمورك الميت فوق الأرض المبللة القذرة .

ونفض نفسه وعطس مثل كلب يخرج من الماء وقال : « أخيرا ! أنت اذن قابع هنا ! هاأنا قد أتيت فى الوقت المناسب بالكاد . »

ولم يقل أتريو شيئا . ولفّ ذراعيه حول رقبة فُخور وأخفى وجهه فى عرفه الفضى الأبيض .

وطلب إليه فُخور قائلا : « هيّا . إجلس فوق ظهرى ! ليس لدينا وقت نضيعه » . وهز أتريو رأسة فقط . وعندئذ فقط رأى فُخور أن رِجل أتريو داخلة فى حلق الذئب الممسوخ . فقال وهو يدير كريتا عينيه الحمراوين كالياقوت : « سننجز هذا حالا ، لا تشغل بالك ! » وقبض بكلا مخلبيه وحاول فتح فك أسنان جمورك .

ولكن الأسنان لم تتزحزح ملليمترا واحدا عن بعضها

ولهث فخور ونفخ من الإجهاد ، ولكن هذا لم يُفد . ومن المؤكد أنه لم يكن سينجح فى تخليص صديقه الصغير لو لم يسعفه الحظ السعيد . ولكن حيوانات تنين الحظ لديها حظ سعيد ومعها أيضا هؤلاء الذين يحسنون إليهم .

فعندما توقف فُخور منهكا وانحنى فوق رأس جمورك لكى يرى فى الظلام بشكل أفضل ما يمكن عمله ، حدث أن حط حجاب الامبراطورة الطفولية الذى كان عالقا بالسلسلة حول رقبة فُخور ، على جبهة الذئب الممسوخ الميت . وفى نفس اللحظة انفتح فك الأسنان وترك رجل أتريو .

وصاح فُخور : « مرحى ! هل رأيت هذا ؟ »

لم يجب أتريو .

وسأل فُخور : « ماذا حدث ؟ أين أنت يا أتريو ؟ »

وتخبط فى الظلام باحثا عن صديقه . ولكنه لم يعد موجودا هناك . وبينما هو يحاول أن يخترق ظلام الليل بعينيه المتوهجتين الحمراوين ، بدأ هو نفسه يشعر بما انتزع أتريو بعيدا عنه بمجرد أن أصبح حرا : إنه العدم الذى كان يـزداد اقترابـه باستمرار . ولكن آورين كان يحميه من قوة الجذب .

ودافع أتريو عن نفسه بلا جدوى . لقد كان أقوى من إرادته الخاصة الصغيرة . وضرب حواليه وتصارع ورفس برجليه ، ولكن أعضاءه لم تطعه ، بل انصـاعت لذلك الجذب الذى لا يقاوم . ولم يعد يفصله عن الدمار النهائى سوى خـطوات قليلة .

وفى هذه اللحظة سرى فُخور كبرق أبيض متحرك فوقه وأمسكـه من خصلة شعره الطويلة ذات اللون الأزرق بسواد ، وانتزعه إلى أعلى وارتفع به إلى السماء فى سواد الليل .

ودقت ساعة البرج التاسعة

ولم يستطع واحد منهما ، لا فُخور ولا أتريو ، أن يقول فيما بعد كم من الوقت استغرق هذا الطيران عبر الظلام الدامس ، وعما إذا كان ليلة واحدة فقط . ربما توقف أيضاً الزمان كله بالنسبة لهما ، وعلقا بلا حراك فى الظلام اللانهائى . ولم تكن هذه هى أطول ليلة عايشها أتريو من قبل ولكن أيضاً بالنسبة لفُخور الذى كان أكبر سناً بكثير جداً .

ولكن حتى أطول وأحلك ليلة ستنقضى فى وقت ما . فعندما ظهر شفق الصباح الضعيف ، شاهد كلاهما برج العاج بعيداً فى الأفق .

ربما من الضرورى جداً أن نتوقف هنا لحظة لكى نشرح خاصية من خواص الجغرافيا الفانتازية ، الأراضى والبحار ، الجبال ومجارى الأنهار لا تقع هناك ثابتة بنفس الطريقة فى عالم البشر . ولذلك فمن المستحيل تماماً رسم خريطة لفانتازين مثلاً . ولا يمكن هناك أبداً معرفة مسبقة مؤكدة لأى بلد ستقع على حدود أى بلد آخر . وحتى الجهات الأصلية تتغير حسب المنطقة التى يتواجد بها المرء لحظتها . الصيف والشتاء والنهار والليل يتبعان فى كل منطقة قوانين أخرى . فيمكن للمرء الخروج من صحراء متوهجة الشمس ، ويأتى مباشرة إلى جوارها إلى حقول ثلجية قطبية . وفى هذا العالم لا توجد مسافات ظاهرية يمكن قياسها ، ولذلك فإن كلمة « قريب » أو « بعيد » لها معنى مختلف . وكل هذه الأشياء ترتبط بالحالة النفسية وإرادة ذلك الشخص الذى يقطع طريقاً معيناً . ولأن فانتازين بلا حدود ، فيمكن أن يكون مركزها فى كل مكان قريب أو بعيد بشكل متساوٍ . والأمر يرتبط ارتباطاً تاماً بذلك الذى يريد المجىء إلى المركز . والقلب الداخلى لمركز لفانتازين هذا ، هو برج العاج .

ولدهشته وجد أتريو نفسه جالسا فوق ظهر تنين الحظ دون أن يستطيع أن يتذكر كيف وصل إلى هناك ؟ ولم يكن يعرف إلاّ أن فخور قد انتزعه إلى أعلى من خصلة شعره . وعندما جذب معطفه حوله ، الذى كان يهفهف خلفه ، وهو يرتعد من البرد ، لاحظ أنه فقد كل لونه وأصبح رماديا . وكذلك الحال بالنسبة لجلده وشعره . وحينئذ رأى فى ضوء الصباح المتزايد أن الأمر لا يختلف أيضا بالنسبة

لفخور . ولم يعد التنين يشبه إلاّ شريط ضباب رمادى ، وكاد أن يكون غير واقعى كذلك . لقد اقترب كلاهما من العدم أكثر من اللازم .

وسمع التنين وهو يقول بصوت منخفض : « سيدى الصغير أتريو ، هل جرحك يؤلمك جدا ؟ »

لا ، يا فُخور ، لا أظن . لماذا تسأل ؟»

فأجاب التنين : « لقد شعرت أنك ترتعش ، ماذا فى العالم يمكن أن يجعل أتريو يرتعش الآن ؟ »

وصمت أتريو برهة قبل أن يجيب قائلا : « إننا سنصل عما قريب . وحينئذ لابد أن أقول للإمبراطورة الطفولية أنه ليس هناك من إنقاذ . إن هذا هو أصعب ما وجب علىّ عمله من أشياء »

فقال فُخور بصوت أقل انخفاضاً : « أجل ، هذا حق » .

واستمرا يطيران فى صمت ، فى اتجاه برج العاج دائماً .

وبدأ التنين بعد برهة يقول من جديد : « هل رأيتها من قبل يا أتريو ؟»

ــ « من ؟»

ــ « الإمبراطورة الطفولية ــ أو بالأحرى سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية . فعليك أن تخاطبها هكذا عندما تقف أمامها » .

ــ « لا ، إننى لم أرها أبدا » .

ــ « ولكننى رأيتها . منذ وقت طويل جدا . ولابد أن جدّك الأول كان فى ذلك الوقت طفلا صغيرا . وأنا أيضا كنت لا أزال نطاط سحاب صغير ليس فى رأسه شىء سوى السفاهة . فقد حاولت فى أحد الليالى إحضار القمر من السماء ، حيث كان ينير مستديرا وكبيراً بأعلى . وكما قلت ، لم يكن لدى أية فكرة . وعندما هويت بنفسى عائدا إلى الأرض خائبا فى آخر الأمر ، اقتربت جدا من برج العاج . وكان كشك زهرة المانوليا قد فتح باتساع بين أوراق زهرته ، ورأيت الإمبراطورة الطفولية جالسة فى وسطها . وألْقت إلىّ بنظرة ، نظرة واحدة قصيرة فقط . ولكن ــ لا أعرف كيف أقول لك ــ ابتداء من هذه الليلة أصبحت شخصا آخر » .

ـ « كيف يبدو منظرها ؟»

ـ « مثل فتاة صغيرة . ولكنها أكبر بكثير جدا من أكبر مخلوقات فانتازين سناً . وكان الأفضل أن أقول : « إنها بلا عمر » .

فقال أتريو : « ولكنها مريضة مرض الموت . أينبغى أن أُعدّها نفسيا بحذر لنهاية كل أمل ؟ » .

وهز فخور رأسه قائلا : « كلا ، إنها ستفهم كل محاولة لتخفيف الأمر . يجب عليك أن تقول لها الحقيقة » .

وسأل أتريو : « حتى وإن ماتت بسببه ؟»

وقال فخور : « لا أظن أن الأمر سيأتى هكذا » .

ورد أتريو : « أنا أعرف أنك تنين حظ » .

وبعد ذلك استمرا يطيران مرة أخرى لفترة طويلة صامتين .

وأخيرا تحدثا مع بعضهما للمرة الثالثة . وكان أتريو هو الذى قطع الصمت هذه المرة :

ـ « هناك شىء آخر أود أن أسألك عنه يا فخور » .

ـ «اسأل»

ـ « من هى ؟»

ـ « ماذا تقصد بهذا ؟»

ـ « إنّ آوْريْن له سلطة على جميع كائنات فانتازين ، سواء كانوا مخلوقات النور أو الظلام . وله سلطة أيضا عليك وعلىّ . ولكن الإمبراطورة الطفولية لا تمارس أبدا سلطتها . إنه كما لو لم تكن موجودة ، ولكنها موجودة فى كل شىء . هل هى مثلنا ؟»

فقال فُخور : « لا ، إنها غير ما نحن عليه . إنها ليست من مخلوقات فانتازين . إننا جميعا موجودين بوجودها . ولكنها من نوع آخر » .

وتردد أتريو فى النطق بسؤاله : « هل هى إذن ـ هل هى شىء مثل طفل البشر ؟ » .

فقال فخور : « كلا ، إنها غير ما عليه أولاد البشر » .

فقال أتريو مكررا : « إذن من تكون ؟»

ولم يجب فُخور إلاّ بعد برهة : « لا أحد فى فانتازين يعرف ، لا أحد يستطيع أن يعرف . إنه أعمق سر لعالمنا . لقد سمعت مرة حكيما يقول إن من يستطيع أن يفهمها تماما ، سوف يمحو بذلك وجوده ذاته . ولست أدرى ما كان يقصده . ولا أستطيع أن أقول لك المزيد » .

فقال أتريو : « والآن سوف يُمحى وجودها ووجودنا جميعا دون أن نكون قد فهمنا سرها » .

وصمت فُخور هذه المرة . ولكن كانت تتلاعب ابتسامة حول فمه الذى يشبه فم الأسد ، كما لو كان يريد أن يقول : «إن هذا لن يحدث» .

ولم يتحدثا ابتداء من ذلك الوقت .

وبعد ذلك بوقت قصير طارا فوق الطرف الخارجى « لحديقة التيه » ذلك السهل الذى يتكون من أحواض الزهور ، والشجيرات والطرق المتعرجة المحيطة ببرج العاج على شكل دائرة واسعة . ولفزعهم تحتم عليهم أن يكتشفوا أن العدم قد قام بفعله هنا أيضا .

صحيح أنها كانت مواضع صغيرة فى بادىء الأمر تختلط « بحديقة التيه » ، ولكنها كانت فى كل مكان . وكانت أحواض الزهور ذات الألوان البهيجة والأحراش اليانعة التى كانت بين تلك المواضع قد أصبحت رمادية اللون ويابسة ومدّت الأشجار الصغيرة الرقيقة أفرعا جرداء منحنية إلى أعلى تجاه التنين وفارسة كما لو كانت تريد أن تتوسل إليهم أن يساعدوهم،والمروج التى كانت فيما سبق خضراء ومتعددة الألوان أصبحت الآن شاحبة ، وتصاعدت رائحة خفيفة من العفونة والتحلل إلى الشخصين القادمين . والألوان الوحيدة التى كانت لا تزال موجودة ، كانت ألوان نباتات عش الغراب عملاقة مرتفعة ، وتكوينات زهور تبدو سامة ومشوهة وألوان صارخة متعددة ، والتى تعطى انطباعا أكثر كما لو كانت نتاج الجنون والمجون . وكان القلب الأخير لحياة فانتازين ما يزال يدافع عن نفسه يائسا وخائرا ضد الدمار النهائى الذى يحاصره وينهشه من جميع الجهات .

وكان برج العاج فى الوسط لا يزال يلمع بلون أبيض ساحر خلاّب ، طبيعى ، وبلا شائبة .

ولم يهبط فخور بأتريو على تلك الشرفة السفلى التى كانت معدة للرسل الذين يصلون طائرين . وشعر أنه لا هو ولا أتريو ستكون لديه القوة على صعود الشارع الرئيسى الطويل الحلزونى من هناك ، والذى كان يؤدى إلى قمة البرج بأعلى . وبدا له أيضا أن الموقف كله يسمح تماماً بتخطى جميع التعليمات ومسائل الإتيكيت . وقرر الهبوط هبوطا اضطراريا . وانطلق فوق المشربيات العاجية والجسور ، وتعاريج الدرابزين ووجد فى آخر لحظة أعلى جزء من الشارع الرئيسى ، وهناك حيث كان ينتهى أمام المنطقة الفعلية للقصر ، هوى بنفسه وانزلق إلى أعلى الشارع بينما هو يدور حول نفسه عدة مرات ، وتوقف أخيرا بذيله إلى الأمام .

أتريو الذى كان ماسكا بكلا ذراعية برقبة فخور ، اعتدل ونظر حوله فى جميع الجهات . لقد كان يتوقع نوعا من الاستقبال ، أو على الأقل مجموعة من حراس القصر يسألون من هو ، وماذا يريده هنا ــ ولكن لم يكن هناك أحد يُرى على البعد . وبدت المبانى البيضاء الناصعة من حوله كما لو كانت خالية من الحياة .

وفجأة طرأ على ذهنه : « لقد فروا جميعا ! لقد تركوا الإمبراطورة الطفولية وحدها . أم أنها فعلا قد . . . »

فهمس فُخور : « أتريو ، يجب أن تعيد إليها الجوهرة » .

وأسلت السلسلة الذهبية عن رقبته فانزلقت إلى الأرض .

وقفز أتريو من ظهر فُخور ــ ووقع . فلم يكن قد فكر فى جرحه . ومد يده وهو راقد إلى البانتاكل ووضعه حول رقبته . ثم انتصب بعد جهد بينما هو يرتكن على التنين .

وقال : « فُخور ، إلى أين يجب أن أذهب ؟ »

ولكن تنين الحظ لم يعد يعطى جوابا . ورقد هناك كالميت .

وانتهى الشارع الرئيسى عند سور دائرى عال أبيض أمام بوابة كبيرة منحوتة نحتا رائعا وكانت ضلفتاها مفتوحتين .

وسار أتريو وهو يعرج ناحيتها ، واستند على البوابة ، ووجد خلفها سلما خارجيا عريضا أبيض اللون لامعا ، وقد بدا له أنه يصل إلى السماء . وبدأ يصعد الدرجات . وأحيانا كان يتوقف لكى يستجمع قوى جديدة . وبقى أثر لقطرات دماء فوق السلم الأبيض .

ووصل أخيرا إلى أعلى ورأى أمامه طرقة طويلة . واستمر فى سيره المترنح وهو يتماسك بالأعمدة . ثم أتى عبر فناء ملىء بنافورات وألعاب مائية أخرى ، ولكنه لم يكن يستطيع تقريبا أن يفرق بين ما يراه . وكان يكافح متقدما للأمام كما لو كان فى حلم . ووجد بوابة أخرى أصغر ، وبعدها كان عليه أن يتسلق سلما عاليا جدا ، ولكنه هذه المرة ضيقا ، وأتى إلى حديقة كان كل شىء فيها منحوتا من العاج : الأشجار والزهور والحيوانات ، ثم زحف على أربع فوق عدة جسور مقوسة بدون داربزين أدت إلى بوابة ثالثة وكانت أصغر الجميع ، واستمر يجذب نفسه وهو راقد على بطنه ، ثم رفع بصره ببطء ورأى مخروط جبل عاجى لامع كالمرآة ، وعلى قمته كشك زهرة المانوليا الأبيض البراق . ولم يكن هناك طريق يؤدى إليه ، ولا سلم .

وأخفض أتريو رأسه على ذراعيه .

لا أحد وصل هناك من قبل أو سيصل فيها بعد ، يستطيع أن يقول كيف يُقطع الجزء الأخير من الطريق . لابد أن يُمنح هبةً للمرء .

وفجأة وقف أتريو أمام البوابة المؤدية إلى الكشك . ودخل ــ ورأى نفسه بعدئذ وجها لوجه أمام سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية .

وكانت تجلس متكئة على وسائد كثيرة ، على حشية طرية مستديرة فى وسط قبة الزهرة وهى تنظر إليه . وكانت تعطى انطباعا لا نهائيا فى رقته وقيمته . واستطاع أتريو أن يرى مدى مرضها من شحوب وجهها الذى كاد يبدو شفافا . وعيناها ذات شكل اللوزتين كانتا بلون الذهب الداكن . ولم تُظهرا أى نوع من الهم أو القلق . وابتسمت وكان قوامها الصغير الرشيق ملفوفا فى رداء حريرى واسع أبيض مضىء لدرجة أن أوراق المانوليا نفسها بدت غامقة بالنسبة له . وكانت تبدو كفتاة صغيرة لا يوصف حسنها وعمرها عشر سنوات على الأكثر ، ولكن شعرها الطويل الممشط

فى نعومة والذى ينسدل على كتفيها وظهرها فوق حشيّة الجلوس ، كان أبيض اللون كالثلج .

وفزع باستيان .
ففى هذه اللحظة حدث له شىء لم يعايشه أبدا من قبل .

لقد كان يستطيع حتى الآن أن يتخيل بوضوح تام كل شىء حكى فى قصّة بلا نهاية . لقد حدثت بعض الأمور الغريبة أثناء قراءة هذا الكتاب ، هذا أمر لا يمكن إنكاره ، ولكن من المؤكد كان يمكن تفسيرها . لقد تخيل على قـدر المستطاع من الوضوح أتريو وهو يركب فوق تنين الحظ ، وحديقة التيه وبرج العاج . ولكن حتى هذه اللحظة لم تكن سوى مجرد تخيلاته الخاصة .

ولكنه عندما أتى إلى الموضع الذى كان الحديث فيه عن الإمبراطورة الطفولية ، رأى وجهها أمامه لجزء من الثانية ــ ليس إلا لفترة ما يستغرقه وميض البرق . وهذا ليس فقط فى أفكاره ، ولكن أيضا بعينيه . أنه لم يكن تخيلا ، لقد كان باستيان متأكدا من ذلك تماما . لقد شاهد حتى تفاصيلاً لم تأت فى الوصف مطلقا ، مثل حواجبها التى كانت تنحنى مثل قوسين دقيقين كما لو كانا مرسومين بالحبر الصّينى ــ أو أنه كان لها شحمتا أذنين ممطوطتين بشكل غريب ــ أو الميل الخاص لرأسها فوق رقبتها الرقيقة . وكان باستيان يعرف بالتأكيد أنه لم ير فى حياته من قبل شيئا أجمل من هذا الوجه .

وفى نفس اللحظة عرف أيضا ما اسمها : طفلة الأقمار . لم يكن هناك على الإطلاق أدنى شك أن هذا هو اسمها .

وطفلة الأقمار نظرت إليه ــ هو ، باستَيان بلتازا بوكس . نظرت إليه بتعبير لم يعرف تفسيره . هل فوجئت هى أيضا ؟ هل كان بنظرتها رجاء ؟ أم اشتياق ؟ أم ــ أجل ، ماذا إذنْ ؟

وحاول أن يستعيد فى ذاكرته عيون طفلة الأقمار ، ولكنه لم يوفق بعد ذلك .

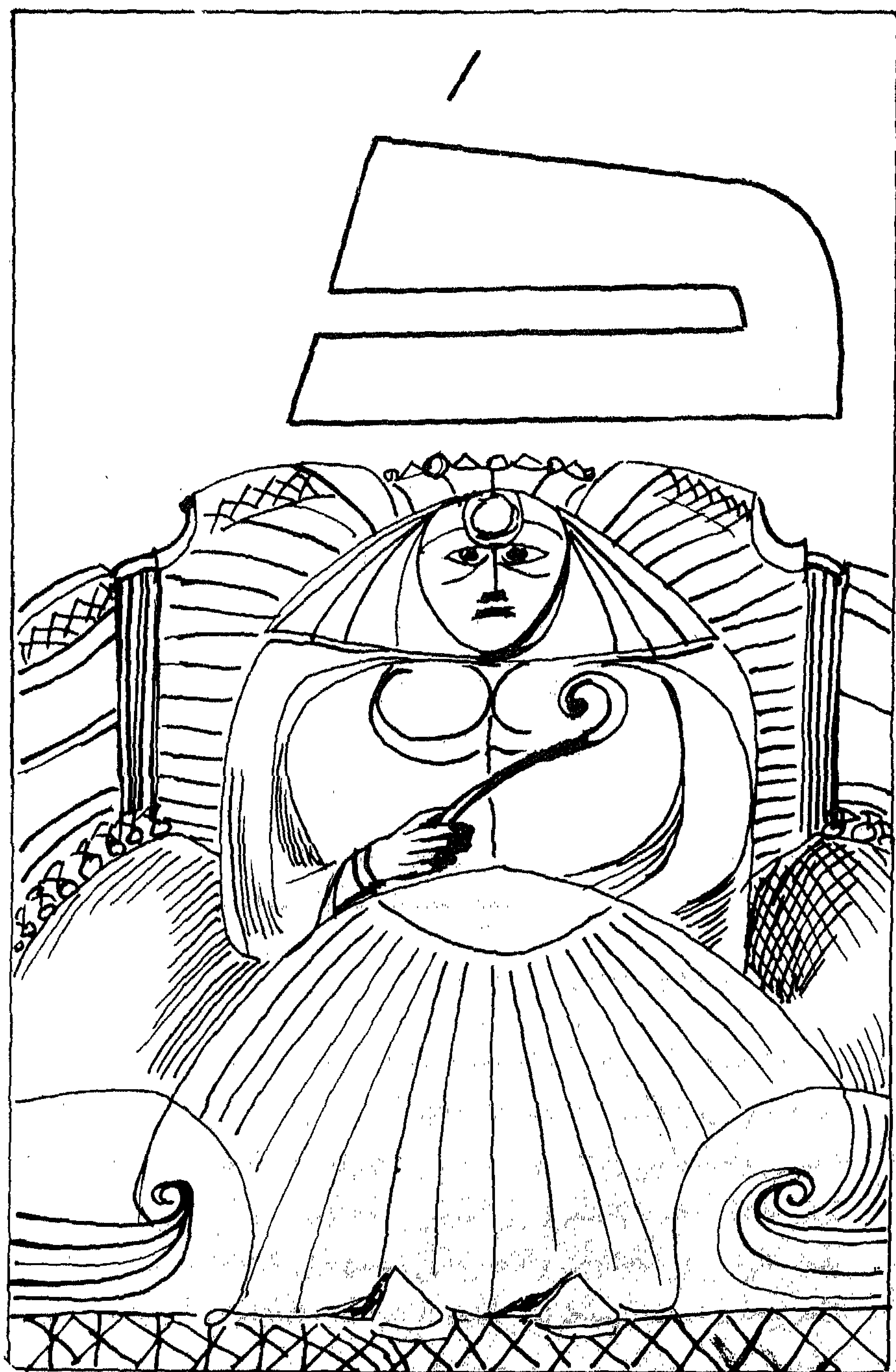
ولكنه كان يعرف شيئا واحدا بالتأكيد : هذه النظرة قد أصابته من خلال عينيه هو ، ورقبته إلى أسفل فى صميم قلبه . إنه مازال يشعر الآن بالأثر المتوهج الذى خلفته فى طريقها هذا . وشعر أن هذه النظرة موجودة الآن فى قلبه وأنها تضىء مثل كنز ملىء بالأسرار . وكان هذا يؤلمه بشكل غريب ورائع فى نفس الوقت .

حتى وإن لم يكن باستيان يريد ، فإنه لم يكن ليستطيع أن يدافع عن نفسه ضد ما حدث معه . ولكنه لم يكن يريد ، كلا . بالعكس ، فهو لم يكن ليعيد هذا الكنز مرة أخرى فى مقابل أى شىء فى العالم . ولم يكن يريد إلاّ شيئا واحداً . وهو مواصلة القراءة لكى يكون مرة أخرى لدى طفلة الأقمار ، لكى يراها مرة أخرى .

ولم يكن يدرى أنه بذلك سيقحم نفسه من الآن بشكل لا يمكن الرجوع عنه فى أغرب وربما أيضا أخطر مغامرة . ولكن حتى وإن كان يدرى ـ فإنه لم يكن بالتأكيد سببا بالنسبة له لكى يغلق الكتاب ويضعه جانبا ولا يعود إلى لمسه مرة أخرى أبدا .

وبحث بأصبع مرتعش الموضع الذى انتهى عنده وواصل القراءة . ودقت ساعة البرج العاشرة .

١١
الإمبراطورة الطفولية


כ



زالت عن أتريو القدرة على الكلام وهو واقف يتطلع إلى الإمبراطورة الطفولية . ولم يعرف كيف يبدأ ولا كيف يتصرف . كثيرا ما حاول أن يتخيل هذه اللحظة ، وأعد الكلمات ، ولكن كل هذا مُحى فجأة من رأسه .

وأخيرا ابتسمت له وقالت بصوت سُمع رقيقا كصوت طائر يغرد وهو نائم :

ـ « لقد عدت من مهمة البحث الكبرى ، يا أتريو . »

فقال أتريو وقد أطرق برأسه : « نعم »

وأكملت حديثها بعد فترة صمت صغيرة : « لقد أصبح معطفك الجميل رماديا ، وشعرك وجلدك رمادى كالحجر . ولكن كل شىء سيعود كما كان ثانية وأجمل . سوف ترى » وكانت حنجرة أتريو كما لو انغلقت . وهز رأسه فقط بشكل يكاد يكون غير ملحوظ . ثم سمع الصوت الرقيق يقول :

« أنت نفذت مهمتى . . . »

ولم يعرف أتريو اذا كانت هذه الكلمات قُصد بها سؤال . ولم يجرؤ على رفع عينيه لكى يقرأ ذلك من تعبيرات وجهها . ومد يده ببطء الى السلسلة بالحجاب الذهبى وأخذها من رقبته . وأمسك بها بيد مفرودة تجاه الامبراطورة الطفولية وهو لا يزال خافضا بصره باستمرار إلى الأرض . وحاول أن يركع على ركبتيه ، كما كان يفعل الرسل فى الحكايات والأغانى التى سمعها فى مخيمات وطنه ، ولكن رجله المجروحة لم تسعفه وسقط أمام أقدام الامبراطورة الطفولية وظل راقدا بوجهه على الأرض .

وانحنت ورفعت آورينْ ، وبينما هى تجعل السلسلة تنزلق من بين أصابعها البيضاء ، قالت : « لقد قمت بعملك على نحو جيد . أنا راضية جدا عنك . »

واندفع أتريو قائلا فيما يشبه الغضب : « لقد كان كل شيء بلا جدوى . ليس هناك من نجاة . »

وعم صمت طويل . وخبّأ أتريو وجهه فى منحنى ذراعه وسرت رعشة خلال جسده . وخشى أن يسمع صرخة اليأس من شفتيها ، صوت ألم ، وربما تأنيبا مريرا أو حتى ثورة غضب ولم يكن هو نفسه يعرف ماذا كان يتوقعه ـ ولكن بالتأكيد التام لم يكن ذلك الذى سمعه حينئذ : لقد ضحكت بصوت منخفض وبسرور . واضطربت أفكار أتريو ، واعتقد للحظة ، أنها أصبحت مجنونة . ولكنها لم تكن ضحكة الجنون . ثم سمع صوتها يقول :

« ولكنك أحضرته معك . »

ورفع أتريو رأسه .

ـ « من ؟ »

ـ « منقذنا . »

ونظر فى عينيها متفحصا ، ولم يستطع أن يعثر على شيء فيهما غير الصفاء والمرح . وابتسمت مرة ثانية .

ـ « لقد نفذت مهمتك . إننى أشكرك على كل ما صنعت وما عانيت . »

وهز رأسه . وقال متلعثما وهو يستعمل الآن لأول مرة النداء الرسمى الذى أوصاه به فُخور : « سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية ، أنا . . . كلا فعلا ، أنا لا أفهم ما تقصدين . »

فقالت : « هذا ملاحظ عليك ، ولكن سواء فهمت أم لم تفهم الآن ، فأنت قد أنجزت الأمر . وهذا هو المهم ، أليس كذلك ؟ »

وصمت أتريو ولم يخطر بباله ولا حتى سؤال . وحملق فى الإمبراطورة الطفولية فاغرا فمه . وواصلت كلامها قائلة : « لقد رأيته ، وهو أيضا تطلّع إلىّ . »

وأراد أتريو أن يعرف فقال : « متى كان هذا ؟ »

ـ « حالا ، عندما دخلت . لقد أحضرته معك . »

والتفت أتريو حوله بدون قصد : « أين هو إذنْ ؟ أنا لا أرى هنا أحدا غيرى وغيرك . » فأجابت : « أوه ، هناك أشياء غير مرئية بالنسبة لك . ولكن يمكنك أن تصدقنى . فهو ليس فى عالمنا بعد . ولكن عوالمنا اقتربت من بعضها لدرجة أننا استطعنا رؤ ية بعضنا ، لأنّ الجدار الرقيق الذى يفصلنا أصبح شفافا لفترة إستغراق شعاع البرق . وقريبا سيكون عندنا كاملاً ، وينادى علىّ باسمى الجديد الذى يستطيع هو فقط منحى إيّاه . عندئذ أصبح مُعافية وفانتازين معى . »

وأثناء كلمات الإمبراطورة الطفولية اعتدل أتريو بجهد . ورفع بصره إليها حيث كانت تجلس عالية قليلا علي مخدعها ذى الحشايا ، وسُمع صوته مقنعا عندما سأل بعدئذ : « فأنت تعرفين إذنْ منذ وقت طويل الرسالة التى كنت سأجلبها إليك . وما أباحته لى مورلاّ العجوز الشمطاء ، فى مستنقعات الحزن ، وما استطاع أن يصرح لى به صوت أيولالا الغامض فى أرض التنبؤات الجنوبية ــ كل هذا كنت تعرفينه ؟ »

فقالت : « نعم . وكنت أعزفه قبل أن أرسلك فى مهمة البحث الكبرى . »

وابتلع أتريو ريقه عدة مرات .

وأخيرا نطق قائلا : « لماذا أرسلتنى إذنْ ؟ ماذا كنت تتوقعين منى ؟ »

فأجابت : « لا شىء يختلف عما فعلت . »

فكر أتريو ببطء ، وقد تكونت تجعيدة غضب منحدرة بين حاجبيه : « ما فعلت . . إذا كان الأمر على نحو ما تقولين ، فقد كان كل شىء غير ضرورى . لقد كان لا لزوم له أن تبعثينى فى مهمة البحث الكبرى . لقد سمعتهم يقولون أن قراراتك غالبا ما تكون غير مفهومة بالنسبة لفرد مثلنا . هذا جائز . ولكن يصعب علىّ بعد كل ما شاهدته ، أن أتقبل بصبر أنك كنت فقط تمزحين معى . »

وأصبحت عينا الإمبراطورة الطفولية جادة جدا . وقالت :

« إننى لم أسمح لنفسى بالمزاح معك ، يا أتريو . وأنا أعرف جيدا بماذا أنا مدُانة لك . إن كل ما اضطررت أن تعانيه كان ضروريا . لقد بعثتك فى مهمة البحث الكبرى ــ ليس من أجل الرسالة التى أردت أن تبلغها لى الآن ، ولكن لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لاستدعاء منقذنا . لأنه اشترك فى كل ما خابرته وهو قد أتى معك

بالطريق البعيد . لقد سمعت صرخة فزعه عند الهوة السحيقة عندما كنت تتحدث مع إجرامول ، ولقد رأيت هيئته عندما وقفتَ أمام بوابة المرآة السحرية . ولقد دخلت فى صورته وأخذتَها معك ، ولذلك تبعك ، لأنه رأى نفسه بعينيك . وهو الآن يسمع كل كلمة نتكلمها سويا . وهو يعرف أننا نتحدث عنه وننتظره ونأمل فيه . وربما هو يفهم الآن أن كل العناء الضخم الذى أخذته على عاتقك ، يا أتريو ، كان يعنيه هو ، وبأن فانتازين كلها تنادى عليه . »

وكان أتريو لا يزال ينظر أمامه عابسا ، ولكن تجعيدة الغضب تلاشت شيئا فشيئا من على جبينه .

وسأل بعد برهة قائلا : « كيف يمكنك معرفة كل هذا ؟ الصرخة عند الهوة السحيقة والصورة فى المرآة السحرية ، ــ أم أن كل شىء كنت قد حددته من قبل أيضا » ؟
ورفعت الامبراطورة الطفولية أورين عاليا ، وأجابت بينما هى تضعه حول رقبتها :
« ألم تكن تحمل البريق دائما ؟ ألم تكن تعرف أننى دائما معك عن هذا الطريق ؟»
فرد أتريو : « ليس دائما ، فلقد فقدته » .
فقالت : « نعم . لقد كنت حينئذ وحدك فعلا . احك لى ماذا حدث فى هذا الوقت ! » وأخبر أتريو بما شاهده .

فقالت الإمبراطورة الطفولية : « الآن عرفت لماذا أصبحت رمادى اللون . لقد اقتربت من العدم أكثر من اللازم » .

وقال أتريو وهو يريد المعرفة : «ولكن هل هو حقيقى ما قاله جمورك ، الذئب الممسوخ ، حول مخلوقات فانتازين المبادة ، وأنها تصبح أكاذيب فى عالم أولاد البشر ؟ » فردت الإمبراطورة الطفولية وقد اغمق لون عينيها الذهبيتين : « نعم ، هذا حقيقى ، إن جميع الأكاذيب كانت يوما ما مخلوقات فانتازين . إنها من نفس المادة ــ ولكنها أصبحت مشوهة ، وفقدت كيانها الحقيقى . ولكن ما قاله لك جمورك كان نصف الحقيقة فقط ، مثلما لا ينتظر شىء آخر من نصف كائن . هناك طريقان لتخطى الحدود بين فانتازين وعالم البشر ، طريق صحيح وطريق خطأ . فإذا ما جُذبت كائنات فانتازين إلى هناك بالقوة بهذا الشكل المفزع ، فإنّ هذا هو الطريق

الخطأ . ولكن عندما يأتى أولاد البشر إلى عالمنا ، فإن هذا هو الطريق الصحيح ، وجميع من كانوا عندنا ، عايشوا شيئا لا يمكنهم معايشته إلاّ هنا ، وهو الذى جعلهم يعودون إلى عالمهم متغيرين . لقد أصبحوا مبصرين لأنهم رأوكم على هيئتكم الحقيقية . ولذلك استطاعوا بعدئذ أن يروا عالمهم الخاص وأبناء جنسهم أيضا بعيون أخرى . فحيثما كانو لا يجدون سوى أشياء عادية ، اكتشفوا فجأة عجائب وأسراراً . ولذلك كانوا يحبون أن يأتوا إلينا فى فانتازين . وكلما ازداد عالمنا بذلك ثراء وازدهارا ، قلت الأكاذيب فى عالمهم ، وأصبح كذلك أكثر كمالا . وهكذا ، فكيفما يدمر كلا عالمينا بعضهما الآخر ، يمكنهما أيضا أن يجعلا بعضهما الآخر أصحاء . »

وفكر أتريو برهة ثم سأل قائلا :

« كيف بدأ الأمر ؟»

فأجابت الإمبراطورة الطفولية : « إنّ الشقاء الذى أتى إلى كلا العالمين له كذلك أصل مزدوج . والآن كل شىء معكوس إلى ضده . فإن ما يمكن أن يجعل مبصرا ، يصيب بالعمى ، وكل ما يمكن أن يخلق جديدا يصبح دمارا ، والخلاص لدى أولاد البشر واحد ، واحد فقط يجب أن يأتى ويمنحنى اسما جديدا . وسوف يأتى . » وصمت أتريو .

وسألت الإمبراطورة الطفولية : « أفهمت الآن يا أتريو ، لماذا تحتم علىّ أن أكلفك بهذا الشىء الكثير ؟ فقط عن طريق قصة طويلة مليئة بالمغامرات والمعجزات والمخاطر كان يمكنك أن تقود منقذنا إلىّ . وهذه كانت قصتك . »

وجلس أتريو غارقا فى تفكير عميق . وأخيرا هز رأسه وقال :

« لقد فهمت الآن ، يا سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية ، إننى أشكرك على اختيارك لى . اغفرى لى غضبى . »

فردت بحنان : « لم يكن بإمكانك أن تعرف كل هذا ، وهذا كان ضروريا أيضا . »

وهز أتريو رأسه مرة أخرى . وبعد صمت قليل قال : « ولكننى متعب جدا . »

فردت قائلة : « لقد فعلت ما فيه الكفاية . أتحب أن تستريح ؟»

ـــ « ليس بعد. أولا أريد أن أرى النهاية الحسنة لقصتى . وإذا كان الأمر مثلما

تقولين ، وإذا كنتُ قد نفذتُ مهمتى ــ فلماذا لا يزال المنقذ غير موجود هنا ؟ ماذا ينتظر ؟»

فقالت الإمبراطورة الطفولية بصوت منخفض : « أجل ، ماذا ينتظر ؟»

وشعر باستيان كيف تبللت يداه من الاضطراب .

وقال : « لا أستطيع . أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعله كذلك ربما يكون الاسم الذى خطر ببالى ليس هو الصحيح على الاطلاق . »

وبدأ أتريو الحديث مرة أخرى قائلا : « أيجوز لى أن أسألك شيئا ؟»

وهزت رأسها بالإيجاب مبتسمة .

ــ « لماذا لا يمكن أن تصبحى معافية إلاّ إذا حصلت على اسم جديد ؟»

فقالت : « الاسم الصحيح فقط هو الذى يمنح الكائنات والأشياء حقيقتها . والإسم الخطأ يجعل كل شىء غير واقعى . وهذا هو ما تفعله الأكذوبة . »

ــ « ربما لا يعرف المنقذ بعد الاسم الصحيح الذى سيمنحه لك . »

فردت قائلة : « بلى ، إنه يعرفه . »

وجلس الاثنان صامتين مرة أخرى .

فقال باستيان : *« نعم ، إنى أعرفه ، لقد عرفته على الفور عندما رأيتك . ولكننى لا أعرف ما يجب أن أفعله . »*

ونظر أتريو الى أعلى وقال : « ربما يود أن يحضر ، وهو فقط لا يعرف كيف يفعل ذلك . »

فردت الإمبراطورة الطفولية : « إنه ليس فى حاجة إلى فعل شىء سوى أن ينادينى باسمى الجديد الذى يعرفه هو فقط . سيكون هذا كافيا . »

وبدأ قلب باستيان ينبض بشدة . هل يجرب فقط ؟ وإذا لم يفلح هذا ؟ وإذا كان مخطئا ؟ وإذا كان الاثنان لا يتحدثان عنه إطلاقا ، ولكن عن منقذ آخر تماما ؟ من

أين يريا. أن يعرف إذن إذا كانا يقصد انه هو فعلا ؟

وأخيرا بدأ أتريو من جديد : « إننى أتساءل إذا كان ممكنا أنه ما زال لا يدرك ، أنه هو المقصود وليس شخصا آخر ؟»

فقالت الإمبراطورة الطفولية : « كلا ، لا يمكنه أن يكون بهذه البلاهة بعد كل هذه العلامات التى تلقاها . »

فقال باستيان : « سوف أجرب » ولكنه لم يأت بالكلمة على شفتيه .

ماذا إذا ما فلحَتْ فعلا ؟ فسوف يأتى بشكل ما إلى فانتازين . ولكن كيف ؟ ربما وجب عليه أن يتقبل حدوث تغيير فى نفسه . وماذا سيصير إليه مصيره ؟ ربما سيكون الأمر موجعا أو أنه سيغمى عليه ؟ وهل فعلا يريد الذهاب إلى فانتازين بوجه عام ؟ إنه يريد الذهاب الى أتريو وإلى الامبراطورة الطفولية ولكنه لا يريد أبدا الذهاب إلى كل تلك الوحوش التى كانت تعج بهم هناك .

فقال أتريو : « ربما كانت تنقصه الشجاعة ؟»

فتساءلت الإمبراطورة الطفولية : « شجاعة ؟ هل نُطق اسمى يتطلب شجاعة ؟».

فقال أتريو : « إذن فاننى أعرف سببا واحداً فقط يمكن أن يكون هو المانع له . »

ـــ « ما هو ؟»

وتردد أتريو قبل أن ينطق به : « إنه ببساطة لا يريد ذلك . انه لا يهمه أمرك ولا أمر فانتازين . إننا لسنا ذات أهمية عنده . »

ونظرت اليه الامبراطورة الطفولية بدهشة .

فصاح باستيان : « لا ، لا ، لا يصح أن تظنوا ذلك ! ليس هذا هو السبب بالتأكيد ! آخ ، أرجوكم ، أرجوكم لا تفكروا هكذا عنّى ! ألا تسمعوننى ؟ الأمر ليس هكذا ، يا أتريو . »

فقالت الإمبراطورة الطفولية : « لقد وعدنى . فقد قرأت هذا فى عينيه . »

فصاح باستيان : « نعم ، هذا صحيح . وسوف آتى حالا أيضا ، ولكن يجب أن أفكر فى كل شىء مرة أخرى بتعمق . الأمر ليس بهذه السهولة . »

وأطرق أتريو برأسه مرة أخرى ، وانتظر الاثنان صامتين لوقت طويل مرة أخرى . ولكن المنقذ لم يظهر ، ولم تشر أصغر علامة أنه على الأقل يحاول أن يجعلهم يلاحظونه .

وتخيل باستيان كيف سيكون الأمر اذا ما وقف فجأة أمامهم ــ بكل بدانته ، ورجليه المقوستين إلى الخارج ووجهه الشاحب . لقد استطاع أن يرى بوضوح خيبة الأمل فى وجه الامبراطورة الطفولية عندما ستقول له : « ماذا تريد هنا ، يا أنت ؟ »

وربما سيضحك أتريو أيضا .

وعند تخيله هذا اندفعت حمرة الخجل فى وجهه .

إنهم بالطبع ينتظرون بطلا من الأبطال ، أميرا أو ما شابه ذلك . لا يجوز أن يُظهر نفسه لهم . لقد كان الأمر مستحيلا تماما . من الأفضل أن ينوى تحمل كل شىء ــ ولكن ليس هذا الأمر .

وعندما رفعت الإمبراطورة الطفولية نظرها أخيرا كان تعبير وجهها قد تغير . وكاد أتريو أن يفزع من هول وصرامة نظرتها ، وعرف كذلك أين رأى هذا التعبير من قبل : لدى آباء الهول !

وقالت : « ما زالت أمامى وسيلة ، ولكننى لا أحب أن استعملها . أتمنى ألا يجبرنى على ذلك . »

فسأل أتريو هامسا : « أية وسيلة ؟ »

ــ « سواء عرف أم لا ــ فهو ينتمى إلى قصّة بلا نهاية . وهو الآن لا يستطيع ولا يجوز له أن ينسحب . لقد أعطانى وعدا أن يفى به . ولكننى وحدى لا أستطيع أن أجعله يفعل ذلك . »

فصاح أتريو : « مَنْ فى كل فانتازين يستطيع شيئا أنت لا تستطيعينه ؟»
فأجابت : « واحد فقط ، إذا أراد . إنه عجوز الجبل المتجول . »
ونظر أتريو للامبراطورة الطفولية بمنتهى الدهشة .
وقال مكررا وهو يؤكد على كل كلمة : « عجوز الجبل المتجول ؟ أتريدين أن تقولى إنه موجود ؟»
ـ « أتشك فى ذلك ؟»
ـ « ان عجائز مخيماتنا يحكون عنه للأطفال الصغار جدا عندما لا يطيعون أو يكونون سيئين . إنهم يقولون انه يدوّن فى كتابه كل ما يفعله أو يتركه المرء ، وحتى ما يفكر فيه أو يحس به ، وأنه يظل مسجلا إلى الأبد كقصة جميلة أو قبيحة حسب الأمر . وعندما كنت لا أزال صغيرا ، كنت أصدق ذلك ، ولكننى فيما بعد فكرت أن هذا ليس إلاّ أسطورة مُختَلقة لإفزاع الأطفال . »
فقالت مبتسمة : « من يدرى ، ما هى أهمية الأساطير المختلقة ؟»
فقال أتريو وهو يبغى المعرفة : « إذن أنت تعرفينه ، هل رأيتيه ؟»
وهزت رأسها بالنفى : « إذا عثرتُ عليه ، فسوف يحدث لأول مرة أن نتقابل . »
وواصل أتريو كلامه قائلا : « العجائز عندنا يحكون أيضا أنه لا يمكن معرفة أين يتواجد جبل العجوز فى الوقت والساعة ، وأنه يظهر دائما دون أن يتوقع ذلك أحد تماما ، مرة هنا ، ومرة هناك ، وأنه لا يمكن مقابلته إلا بالصدفة أو بتصاريف القدر . »
فردت الإمبراطورة الطفولية : « أجل ، لا يمكن البحث عن عجوز الجبل المتجول . يستطيع المرء فقط العثور عليه . »
وسأل أتريو « حتى أنت ؟»
فقالت : « حتى أنا . »
ـ « واذا لم تعثرى عليه ؟»
فردت بابتسامة غامضة : « إذا كان موجودا فسوف أعثر عليه ، واذا عثرت عليه فسوف يكون موجودا . »

ولم يفهم أتريو الإجابة . وسأل مترددا :
ـ « هل هو ـ مثلك ؟»
فأجابت : « إنه مثلي ، لانه عكسي فى كل شيء .»
وأدرك أتريو أنه بهذا الشكل لن يعلم شيئا منها . وإلى جانب ذلك فقد أقلقته فكرة أخرى : فقال فيما يقرب الشدة :

« أنت مريضة مرض الموت ، يا سيدة الأماني ذات العيون الذهبية ، ولن تستطيعى وحدك أن تذهبى إلى بعيد . وعلى قدر ما أرى ، فقد تركك كل خدامك والمقربين إليك.فُخُور وأنا سوف نرافقك بسرور أينما تذهبى ، ولكن ـ بأمانة ـ لست أدرى إذا كانت قوى فُخُور ما زالت كافية . وقدمى ـ لقد رأيت بنفسك أنه لم يعد يحملنى .»

فردت قائلة : « شكراً يا أتريو ، شكرا على عرضك الشجاع والمخلص . ولكننى لا أنوى أخذكما معى . والمرء وحده سيعثر على عجوز الجبل المتجول . وكذلك لم يعد فُخُور هناك حيث تركته . إنه الآن فى مكان تشفى فيه كل جروحه وتُجدّد فيه كل قواه . وأنت أيضا يا أتريو ستكون قريبا فى ذلك المكان .»
وتلاعبت أصابعها بآوْرِينْ .
ـ « أى مكان هذا ؟»

ـ « لستَ فى حاجة الآن لمعرفته . سوف تصل إلى هناك وأنت نائم . وسوف يأتى اليوم الذي ستعرف أين كنت . »

وصاح أتريو وقد نسى من همه كل نوع من أنواع مراعاة التعبير : « ولكن كيف أستطيع النوم وأنا أعرف أنك ممكن أن تموتى فى كل لحظة !»
وضحكت الامبراطورة الطفولية مرة أخرى بصوت منخفض .
ـ « إننى لست وحيدة تماما كما تعتقد . لقد قلت لك أن هناك أشياء غير مرئية بالنسبة لك . إننى عندى السبع قوى من حولى ، والتى تخصنى ، كما تخصك ذاكرتك أو شجاعتك أو أفكارك . وأنت لا تستطيع أن تراها ، ولا تسمعها ، وبالرغم من ذلك فهى كلها عندى فى هذه اللحظة . ثلاثة منهم أنوى تركها لديك ولدى فخور

لكى ترعاكما . وأربعة سآخذها معى وسوف ترافقنى . ولكن أنت يا أتريو تستطيع أن تنام هانىء البال . وأثناء هذه الكلمات للامبراطورية الطفولية نزل على أتريو فجأة كل التعب الذى حل به أثناء مهمة البحث الكبرى ، كستار داكن اللون . ولكنه لم يكن التعب الثقيل كالحجر الناتج عن الإرهاق ، ولكنه كان اشتياق هدوء وسلام إلى النوم . لقد كانت لديه الرغبة أن يسأل سيدة الامانى ذات العيون الذهبية عن الكثير ، ولكنه الآن شعر كما لو كانت بكلامها قد أوقفت جميع رغبات قلبه ، وتركت رغبة واحدة فقط متبقية مُلِحة ، وهى الرغبة فى النوم . وغمُضت عيناه فجأة ، وتسلل إلى الظلام وهو جالس دون أن يهوى جانبا .

ودقت ساعة البرج الحادية عشر

وسمع أتريو أن الامبراطورة الطفولية قد أصدرت أمرا بصوت منخفض ناعم كما لو كان يأتى من مسافة بعيدة ، ثم شعر بنفسه مرفوعا إلى أعلى ومحمولا بحذر بأيد قوية .

وعم الظلام والدفء من حوله لوقت طويل . وبعد ذلك بوقت طويل استيقظ مرة نصف يقظة عندما لمس بلل لذيذ شفتيه الجافتين المشققتين وسرى خلال حلقه . ورأى من حوله بغير وضوح شيئا مثل مغارة كبيرة بدت جدرانها مصنوعة من الذهب فقط . ورأى تنين الحظ الأبيض راقدا إلى جواره . ثم رأى أو استنتج أكثر أن عين ماء تفور وسط المغارة وحول هذه العين رقد ثعبانان يعض أحدهما فى ذنب الآخر ، ثعبان فاتح اللون وواحد غامق اللون . . .

ثم مسحت يد غير مرئية فوق عينيه ، ومنحه ذلك إحساساً طيباً للغاية ، وغطس أتريو مرة أخرى فى سبات عميق خال من الأحلام .

وفى نفس الوقت غادرت الامبراطورة الطفولية برج العاج . وكانت ترقد على وسائد حريرية لينة ومحاطة بها فى هودج من الزجاج يحمله أربعة من خدامها غير المرئيين ، لدرجة أنه بدا كما لو كان الهودج يتحرك فى الهواء بنفسه ببطء .

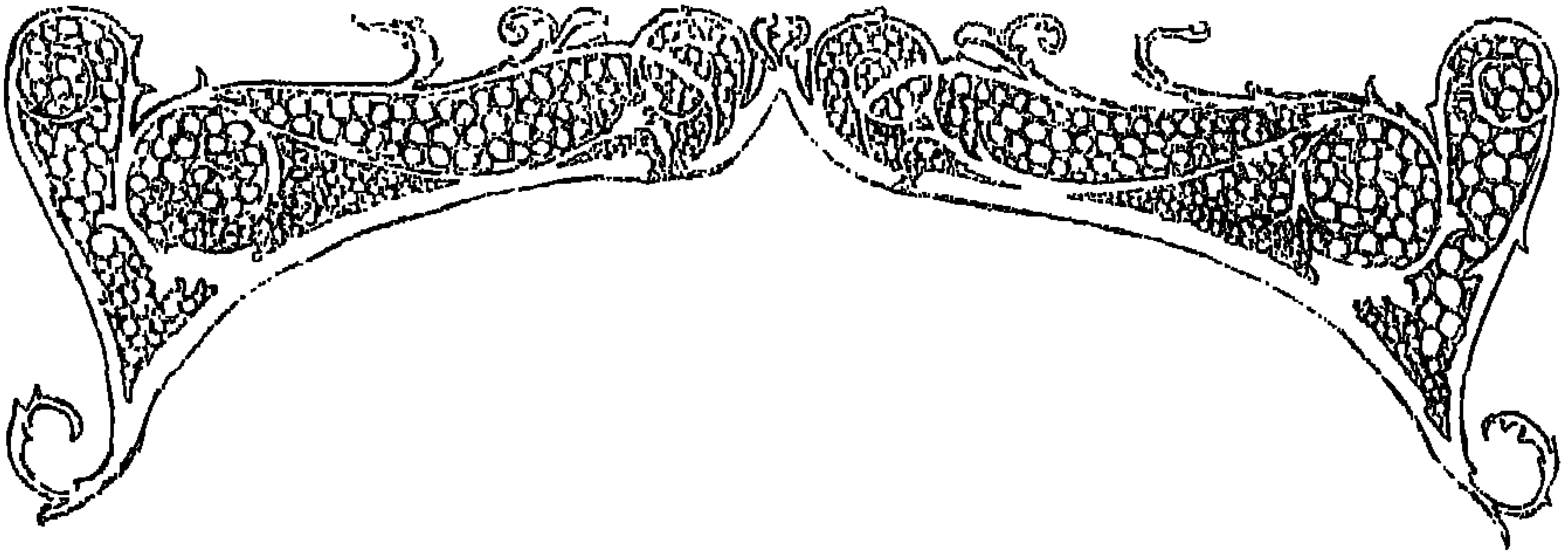
وتحركوا من خلال حديقة التيه ، أو بالأحرى ما كان متبقيا منها ، وكثيرا ما تحتم عليهم اتخاذ طرق لافة ، لأن كثيرا من الدروب كانت تنتهى إلى العدم .

وعندما وصلوا أخيرا إلى أبعد طرف من السهل ، وغادروا حديقة التيه ، توقف الحمالون غير المرئيين . وبدوا أنهم ينتظرون أمرا .

وانتصبت الإمبراطورة الطفولية فوق وسائدها وألقت نظرة إلى الوراء على برج العاج . وقالت بينما هى تنخفض عائدة الى وسائدها : « استمروا فى السير ! استمروا فى السير ـ الى أى مكان ! » وسرت دفعة من الهواء فى شعرها الأبيض كالثلج . وهفهف طويلا وثقيلا كالراية من خلف المحفة الزجاجية .

١٢
عجوز الجبل المتجول





سُمعت الانهيارات الجليدية وهى تسقط هادرة فوق حوائط الجبال المشققة وهاجت العواصف الثلجية بين الأبراج الصخرية لحواف قمم الجبال المغطاة بدروع من الجليد ، واختلطت ببعضها وهى تصفر فى الكهوف والوديان ، ومرت مسرعة من جديد فوق المساحات الواسعة من التيارات الجليدية . ولم يكن هذا بحال من الأحوال طقسا غير عادى لهذه المنطقة ، لأن جبل القدر ــ هكذا كان اسمه ــ كان أكبر وأعلى الجبال فى جميع فانتازين ، وأعظم قمة له كانت تصل فعلا إلى عنان السماء .

ولم يكن يجرؤ حتى أشجع متسلقى الجبال على المجىء إلى هذه المنطقة ذات الجليد الأبدى . أو بمعنى أدق : قد مضى وقت طويل جدا لا يمكن تخيله ، على النجاح فى تسلقه ، لدرجة أنه لم يعد أحد يعرف به . لأن ذلك كان أحد القوانين غير المفهومة والتى كان يوجد منها الكثير فى المملكة الفانتازية : إن جبل القدر لا يمكن أن يقهره أحد أبطال تسلق القمم إلا عندما يُنسى كليةً البطل السابق الذى استطاع ذلك ، ولم تعد هناك أيضا أية شواهد عنه منقوشة فى الصخر أو الحديد . وهكذا فقد كان كل من قام بذلك هو الأول دائما .

ولم يكن فى استطاعة أى كائن حى أن يتواجد هناك بأعلى فيما عدا بعض عفاريت الجليد العملاقة ــ إذا ما أردنا أن نحسب هؤلاء ضمن الكائنات الحية بوجه عام ، لأنهم يتحركون ببطء لا يمكن تخيله لدرجة أنهم يحتاجون لسنوات فى خطوة واحدة ، ولقرون لتمشية صغيرة . وهكذا كان من الواضح أنهم لا يستطيعون التعامل إلا مع أمثالهم ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن وجود العالم الفانتازى الباقى . وكانوا يعتبرون أنفسهم الكائنات الحية الوحيدة بالكون .

وقد ازدادت دهشتهم عندما حملقوا الآن إلى أسفل إلى تلك النقطة الضئيلة التى كانت تقترب من القمة باستمرار على طرق متعرجة ، وعلى نتوءات صخرية يكاد يكون السير عليها مستحيلا ، وعلى حوائط قائمة الزوايا لامعة الجليد ، وعبر حواف حادة كالسكين وعبر وديان وشقوق عميقة .

لقد كان الهودج الزجاجى الذى ترقد فيه الإمبراطورة الطفولية والذى كان يحمله أربع من قواها غير المرئيين . وكان لا يكاد يختلف عن المنطقة المحيطة ، لأن زجاج الهودج كان يشبه قطعة جليد صافية ، والرداء والشعر الأبيض للإمبراطورة الطفولية لم يكن من الممكن تفريقه تقريبا عن الثلج من حولها .

وكانت على الطريق حينئذ منذ وقت طويل ، لأيام وليال كثيرة كانت القوى الأربعة تحمل هودجها مواصلين السير دائما كما أمرتهم ، مواصلين السير دائما إلى أى مكان من خلال الأمطار ووهج الشمس ، وخلال الظلمات وضوء القمر . ولم تجعل هناك فرقا بين ما هو محتمل بالنسبة لها وبين ما هو غير محتمل ، مثلما كانت تعترف بكل شىء فى مملكتها بالمظلم والمنير ، بالجميل والقبيح . وكانت مستعدة أن تتعرض لكل شىء لأن عجوز الجبل المتجول من الممكن أن يكون فى كل مكان وفى اللامكان .

وبالرغم من ذلك لم يكن اختيار الطريق الذى سلكته الأربعة غير المرئيين ، اختيارا عفويا تماما . فالعدم الذى كان قد ابتلع حتى ذلك الوقت بلاداً بأكملها لم يترك لهم مخرجا بشكل متزايد على الدوام إلاّ ممرا واحدا . وأحيانا كان جسرا أو كهفا أو بابا استطاعوا بالكاد أن ينزلجوا من خلاله . وأحيانا كانت مجرد أمواج ببحيرة أو فرع أحد البحار حيث حملت القوى الهودج بالمريضة مرض الموت ، لأنه بالنسبة لهؤلاء الحمالين لم يكن هناك فرق بين اليابس والسائل .

وهكذا تسلقوا أخيرا إلى أعلى إلى عالم قمة جبل القدر الجليدى المتجمد ، واستمروا فى تسلقهم دون توقف ودون كلل . ولسوف يستمرون فى حملها إلى أعلى ، طالما أن الإمبراطورة الطفولية لم تعطهم أمرا آخر . ولكنها كانت ترقد على وسائدها وأغلقت عينيها ، ولم تتحرك . هكذا كانت ترقد منذ وقت طويل . وآخر كلمة قالتها كانت «إلى أى مكان» تلك الكلمة التى أمرت بها عند وداعها للبرج العاجى .

وتحرك الهودج الآن من خلال مجرى ضيق عميق بين الصخور ، شق بين حائطين صخريين يتباعدان عن بعضهما باتساع عرض الهودج بالكاد . وكانت الأرض مغطاة بثلج هش يحتمل أن يكون سمكه مترا ، ولكن الحمالون غير المرئيين لم ينغرسوا فيه ولم يخلفوا أثراً حتى لقدم . وكان الظلام الشديد سائدا فى قاع ذلك الشق الصخرى ، لأن ضوء النهار لم يكن سوى شريط ضيق على الإرتفاع البعيد . وكان الطريق يمتد بلا انحدار إلى أعلى وكلما ارتفع الهودج ، اقترب شريط ضوء النهار . وفجأة ودون توقع ، تراجعت الحوائط الصخرية إلى الجانب كلية ، وسمحت بالنظر إلى مساحة واسعة بيضاء لامعة . وكان هذا هو أعلى مكان . لأن جبل القدر لم يكن ينتهى بقمة مثل أغلب الجبال ، ولكن بذلك السهل العالى ، الذى كان فى اتساع أحد البلدان .

وفى وسط هذه المساحة ارتفع الآن بشكل مفاجىء جبل صغير ذو منظر غريب . لقد كان عاليا وضيقا نوعا ، يشبه برج العاج ، ولكنه ذو لون أزرق منير . وكان يتكون من كثير من النتوءات ذات الأشكال الغريبة التى ترتفع إلى السماء كأقماع جليدية عملاقة مقلوبة . وفى منتصف ارتفاع هذا الجبل تقريبا كانت هناك بيضة فى حجم البيت فوق ثلاثة من هذه النتوءات المدببة .

وفى منتصف الدائرة المحيطة بهذه البيضة ارتفعت من الخلف أقماع زرقاء أكبر حجما مثل مزامير أورج هائل إلى أعلى ، وكونت القمة الفعلية . وكانت للبيضة فتحة مستديرة بدت كالباب أو النافذة . وفى هذه الفتحة ظهر الآن وجه ينظر ناحية الهودج .

وفتحت الإمبراطورة الطفولية عينيها وبادلته النظرة كما لو كانت قد أحست بها .

وقالت بصوت منخفض : «قف !»

وظلت القوى المختفية واقفه .

وانتصبت الإمبراطورة الطفولية .

واستكملت كلامها قائلة : «إنه هو . يجب أن أسير الجزء الأخير من الطريق إليه وحدى انتظرونى هنا مهما حدث» .

واختفى الوجه من الفتحة المستديرة للجليد . ونزلت الإمبراطورة الطفولية من الهودج واتخذت طريقها عبر المساحة الثلجية الواسعة . لقد كان طريقا مجهدا ، لأنها كانت حافية القدمين . وكان للثلج قشرة جامدة . ومع كل خطوة كانت القشرة الثلجية تنكسر ، والطبقة الثلجية الصلبة كالزجاج كانت تقطع فى أقدامها الرقيقة ، والرياح الباردة كالصقيع تجذب شعرها ورداءها .

وأخيرا وصلت إلى الجبل الأزرق ووقفت أمام القمع الأملس كالزجاج ومن الفتحة المستديرة المظلمة للجليد الضخم انزلق سلم طويل ، أطول بكثير جدا من أن يحتمل أن يكون له مكان فى البيضة على الإطلاق . وأخيرا وصل إلى أسفل حتى سفح الجبل الأزرق وعندما أمسكته الإمبراطورة الطفولية رأت أنه يتركب كليةً من حروف مرصوصة فوق بعضها وأن كل درجة كانت سطرا . **وبدأت الإمبراطورة الطفولية الصعود وبينما هى تصعد درجة درجة كانت تقرأ فى نفس الوقت الكلمات التالية :**

إلى أدراجك انصرفى وعودى
فلا زمان ولا مكان
يسمح لكِ أن تلقى وجودى
دعى هذا ، لابد أن أسُد طريقى
عليك أنت فقط بالذات والتخصيصِ
ارجعى واسمعى نصحى وإرشادى
أنا العجوز عندما تلقانى
سوف يحدث ما ليس فى الإمكانِ
البداية تبحث عن النهاية
فعودى وارجعى لا تصعدى إلى الأعالى
وإلا فإنك لن تنالى
إلا بلبلة ليس لها من مثال

وتوقفت لكى تستجمع قوى جديدة ونظرت إلى أعلى . فمازال يرتفع إلى أعلى جدا . وحتى الآن لم تكن بعد قد قطعت حتى النصف فقالت بصوت مرتفع :

«يا عجوز الجبل المتجول ، إذا كنت لا تريد أن نتقابل ، فما كان من الضرورى أن تكتب لى هذا السلم إن حظرك الحضور هو الـذى يحضرنى إليـك .» وواصلت الصعود :

أنا أصون ما أبدعتيه
كمؤرخ وما أنت عليه
وكل ما كان حياة يوما من الأيام
سيصبح حرفا مّيتا على الدوام
فهل تريدين إلىّ الصعود الآن
سوف تحدث كارثة الزمان
وها هنا ينتهى ما بدأتيه
يا طفلة القياصرة لن تصبحى أبدا عجوز
مثلك لم أكن أبدا شابا ، أنا العجوز
السكونُ سأُدخله على ما حركتيه
فممنوع عليها الحياة
أن تشاهد نفسها فى الأموات

واضطرت مرة أخرى إلى التوقف لكى تستعيد أنفاسها . وقد كانت الآن عالية جدا ، وتأرجح السلم فى العاصفة الثلجية كفرع شجرة . وتشبثت الإمبـراطورة الطفولية فى درجات السلم الباردة جدا المكونة من الحروف . وصعدت آخر جزء من السلم إلى أعلى :

إذا أنتِ للتحذير لم تسمعى
ما يقوله السلم بفصاحة
وتكونى للفعلة مستعدة
وهى فى الزمان والمكان غير مباحة
فلا أستطيع إيقافك
لدى العجوز مرحباً بك .

وعندما خلّفت الإمبراطورة الطفولية هذه الدرجات الأخيرة من ورائها ، أطلقت تنهيدة خافتة ونظرت إلى أسفلها . وكان رداءها الأبيض الواسع قد تمزق ، فقد ظل عالقا بكل الخطوط العرضية ، والخطاطيف الصغيرة والأشواك بسلم الحروف . ولم يكن جديدا عليها ألا تميل إليها الحروف فقد كان ذلك يتأصل فى شعور متبادل .

ورأت أمامها البيضة والفتحة المستديرة ، التى ينتهى فيها السلم . وصعدت من خلالها ، وانقفلت الفتحة فورا من روائها . ووقفت فى الظلام دون أن تتحرك وانتظرت ما سيحدث .

ولكن لم يحدث شىء فى بادىء الأمر لوقت طويل .

وأخيراً قالت بصوت خافت فى الظلام : « ها أنا هنا . » ورجع صوتها كما لو كانت فى قاعة كبيرة خالية ــ أم هل كان صوت آخر أعمق بكثير ، ذلك الذى أجابها بنفس الكلمات ؟

واستطاعت شيئاً فشيئاً أن ترى فى الظلام شعاع ضوء ضعيف مائل للحمرة . وكان يشع من كتاب كان عالقاً فى الهواء وهو مفتوح وسط الغرفة البيضاوية . وكان مائلاً حيث إنها استطاعت أن ترى الغلاف . وقد كان مغلفاً بحرير ذى لون نحاسى ، ومثل الجوهرة التى كانت تحملها الإمبراطورة الطفولية حول رقبتها ، كان يُرى على الكتاب أيضاً ثعبانان يعضان بعضهما فى ذيل الآخر ويكوّنان شكلاً بيضاوياً ، وفى وسط هذا الشكل البيضاوى كان العنوان هو :

قِصَّةٌ بلا نهايَة

واضطربت أفكار باسيان . فقد كان ذلك هو الكتاب الذى يقرأ فيه حالاً ! ونظر إليه مرة أخرى . أجل ، بلا شك ، لقد كان هو الكتاب الذى بيده والذى كان يدور حوله الحديث . ولكن كيف يمكن لهذا الكتاب أن يظهر فى داخل نفسه ؟

وكانت الإمبراطورة الطفولية قد تقدمت مقتربة فرأت على الجانب الآخر من الكتاب المعلق فى الهواء وجه رجل يشع عليه ضوء مائل للزرقة من أسفل من الصفحات المفتوحة . وهذا الاشعاع كان يخرج من الكتابة فى الكتاب والتى كان لونها أخضر بزرقة(*) .

وكان وجه الرجل يبدو كلحاء شجرة عجوز جداً ، فقد كانت التجاعيد غائرة فيه . وكانت لحيته بيضاء وطويلة وكانت عيناه عميقة جداً فى تجاويف داكنة لدرجة أنه لم يكن من الممكن رؤيتها . وكان يرتدى عباءة راهب زرقاء مزودة بقلنسوة على الرأس ، وكان يمسك بيده بقلم يكتب به فى الكتاب . ولم يرفع نظره .

ووقفت الإمبراطورة الطفولية صامتة فترة طويلة وهى تنظر إليه . ولم يكن ما يفعله كتابةً بالمعني الصحيح ، ولكن قلمه كان ينزلق ببطء فوق الصفحة الخالية ، والحروف والكلمات كما لو كانت تتشكل من نفسها ، فقد كانت تطفو من الفراغ بشكل ما .

وقرأت الإمبراطورة الطفولية ما هناك ، وقد كان هو بالذات ما يحدث فى هذه اللحظة ، وهو : « الإمبراطورة الطفولية قرأت ما هناك . . . »

فقالت : « أنت تكتب كل ما يحدث . »

وكان الرد : « كل ما أكتبه يحدث » . ومرة أخرى كان هذا الصوت العميق الغائر ، الذى كانت تسمعه كصدى لصوتها هى .

والغريب أن عجوز الجبل المتجول لم يكن يفتح فمه . فقد كان يكتب كلماتها وكلماته ، وكانت تسمعها كما لو كانت تتذكر فقط ما قاله فى لحظتها .

وسألت قائلة : « أنا وأنت وكل فانتازين ــ كل شىء مكتوب فى هذا الكتاب ؟ »

(*) الأصل الألماني مكتوب باللونين الأحمر والأزرق كرمز لعالم الواقع ودنيا الخيال ، ولأسباب فنية ظهرت الطبعة العربية بخط مائل وآخر عادي معتدل .

وكتب وسمعت فى نفس الوقت إجابته :

ــ « ليس هكذا . إن هذا الكتاب هو كل فانتازين وأنت وأنا . »

ــ « وأين هذا الكتاب ؟ »

ــ « فى الكتاب . » هكذا كانت الإجابة التى كتبها .

وسألت : « إذن فهو ليس إلا الظاهر وانعكاس للظاهر ؟»

وكتب وسمعته يقول :

ــ « ماذا تبين المرآة ، التى تنعكس فى مرآة ؟ أتعرفين هذا يا سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية » ؟

وصمتت الإمبراطورة الطفولية برهة ، وفى نفس الوقت كتب العجوز أنها صمتت .

ثم قالت بصوت منخفض : «إننى أحتاج إلى مساعدتك»

فأجاب وكتب : « أنا أعرف . »

فقالت : « أجل ، فليكن هكذا . أنت ذاكرة فانتازين وأنت تعرف ماذا حدث حتى هذه اللحظة . ولكن ألا تستطيع أن تقلب الصفحات إلى الأمام فى هذا الكتاب وترى ماذا سيحدث ؟ »

وكانت الإجابة : « صفحات فارغة ! إننى أستطيع فقط أن أعيد النظر إلى ما حدث . فقد كنت أستطيع قراءتها أثناء كتابتى لها . وأنا أعرفها لأننى قرأتها . وأنا كتبتها لأنها حدثت . وهكذا تكتب قِصَّةٌ بِلا نِهَايَة نفسها بيدى » .

ــ « إذن أنت لا تعرف ، لماذا أتيتُ اليك ؟ »

وسمعت صوته العميق أثناء كتابته يقول : « كلا ، ووددت أنك لم تفعلى ذلك . فعن طريقى يصبح كل شىء نهائياً ولا يتغير ــ حتى أنت يا سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية . هذه البيضة هى مقبرتك ونعشك . لقد دخلت إلى ذكرى فانتازين . فكيف تريدين مغادرة هذا المكان ثانية » ؟

فأجابت : « إن كل بيضة بداية لحياة جديدة . »

فكتب وقال العجوز : « حقاً ، ولكن فقط إذا ما فتحت قشرتها . »

فصاحت الإمبراطورة الطفولية : « أنت تستطيع فتحها . فلقد تركتنى أدخل » .

فهز العجوز رأسه وكتب : « تلك كانت قوتك التى تسببت فى ذلك . ولكن لأنك الآن هنا ، فأنت لم تعودى تمتلكينها . لقد حُبِسْنا على الدوام . حقاً ، ما كان يجوز لك المجىء . هذه هى نهاية قِصَّةبلا نِهاية » .

فابتسمت الإمبراطورة الطفولية وبدت غير مضطربة ولا بأقل قدر من الاضطراب . وقالت : « أنت وأنا لم نعد نستطيع ذلك . ولكن هناك شخص يستطيع ذلك . »
وكتب العجوز : « لا يستطيع أحد أن يبدع بداية جديدة سوى طفل من البشر . »

فردت قائلة : « أجل ، طفل من البشر . »

ورفع عجوز الجبل المتجول بصره ببطء ونظر لأول مرة إلى الإمبراطورة الطفولية . وكان كما لو أن هذه النظرة تأتى من الطرف الآخر للكون . أتى من مثل هذا البعد ومثل هذا الظلام . وردت عليها بعينيها الذهبيتين وثبتت أمامها . لقد كان كصراع صامت بلا حركة . وأخيراً انحنى العجوز على كتابه مرة أخرى وكتب :

فردت قائلة : « إنى أريد ذلك . ولكن الشخص الذى أتحدث عنه وانتظره قد تخطاها منذ وقت طويل . إنه يقرأ فى هذا الكتاب الذى تكتبه ويسمع كل كلمة نقولها . إنه إذن معنا » .

وسمعت صوت العجوز بينما هو يكتب : « حقاً ، هو أيضاً ينتمى بلا رجعة إلى قِصَّة بلا نِهاية ، لأنها قصته هو » .

وقالت الإمبراطورة الطفولية آمرة : « قُصّها علىّ . يا من تكون ذاكرة فانتازين ، قصها علىّ ــ من البداية وكلمة كلمة كما كتبتها ! » .

وبدأت اليد الكاتبة للعجوز ترتعش : « إذا فعلت ذلك ، فلابد أن أكتب كل شىء من جديد . وكل ما أكتب سيحدث من جديد » .

فقالت الإمبراطورة الطفولية : « هكذا يجب أن يكون ! »

وانتاب باستيان شعور غير مريح .

تُرى ماذا تنوى عليه ؟ شىء ما له علاقة به . ولكن إذا كانت يد عجوز الجبل المتجول نفسه قد بدأت ترتعش . . .

وكتب العجوز وقال :

« إذا كانت قِصّة بلا نهايَة
على نفسها تشمل
فإن العالم فى هذا الكتاب
سوف يُدمّر ! »

وردت الإمبراطورة الطفولية قائلة :

« ولكن إذا إلينا
انضم البطل
فحياة جديدة يمكنها أن تنبت
وعليه الآن أن يقرر ! »

فقال وكتب العجوز : « حقاً ، إنك لفظيعة ، إن هذا يعنى النهاية بلا نهاية . إننا سوف ندخل فى دائرة العودة الأزلية . ولن يوجد منها مفر » .

وأجابت وصوتها لم يعد ناعماً ، بل صلباً وواضحاً كالماس : « ليس بالنسبة لنا . ولكن ليس أيضا بالنسبة له ـ إلا إذا أنقذنا جميعاً » .

ـ « أتريدين حقاً أن تضعى كل شىء فى يدى طفل من البشر ؟ »

ـ « أريد ذلك . »

وأضافت بصوت أكثر انخفاضاً : « أم أنك تعرف رأياً آخر ؟ »

وعم صمت لفترة طويلة قبل أن يقول الصوت العميق للعجوز : « كلا . » ووقف وهو منحنى بشدة فوق الكتاب بينما هو يكتب . وقد غطت القلنسوة وجهة وأصبح غير مرئى .

ـ « إذن ، افعل ما رجوتك من أجله ! »

وخضع عجوز الجبل المتجول لإرادة الإمبراطورة الطفولية وراح يقص عليها قِصَّة بلا نهاية من البداية . وفى هذه اللحظة تغير لون الضوء الذى كان يشع من صفحات الكتاب . وأصبح مائلاً للحمرة مثل العلامات الكتابية التى كانت تتشكل الآن تحت قلم العجوز . وكذلك عباءته الرهبانية والقلنسوة أصبحتا الآن بلون نحاسى . وبينما هو يكتب كان صوته العميق يرن فى نفس الوقت .

وكذلك باستيان سمعه بوضوح تام .

ولكن كانت الكلمات الأولى التى قالها العجوز ، غير مفهومة . فقد كانت تسمع مثل « ـ ة ـ ميد قلا بتكلا ـ ة ـ بتكم : اهبحاصل : ردنايروك دارنوك لراك » .

وفكر باستيان ، عجيب ، لماذا يتحدث العجوز فجأة بلغة أجنبية ؟ أم أنها من الجائز تعويذة سحرية ؟ واستمر صوت العجوز واضطر باستيان أن يتابعه .

هذه الكتابة كانت موجودة على الباب الزجاجى لدكان صغير ، ولكنها بالطبع لم تكن تبدو هكذا إلا عندما كان يُنظر إلى الشارع من خلال اللوح الزجاجى من داخل الغرفة المعتمة .

وفى الخارج كان صباح يوم بارد مغيم من أيام نوفمبر ، وكان المطر ينهمر مدراراً ، والقطرات تجرى من أعلى الزجاج إلى أسفله مارة بالأحرف المزخرفة وكل ما كان يمكن رؤيته من خلال اللوح الزجاجى ، كان سوراً قد لطخته الامطار على الجانب الآخر من الشارع . »

هذه القصة لا أعرفها على الإطلاق ، هكذا فكر باستيان بشىء من خيبة الأمل ، فهى لا تظهر إطلاقاً فى الكتاب الذى قرأته حتى الآن . طيّب والآن يتضح أننى كنت مخطئاً طوال الوقت . لقد ظننت فعلاً أن العجوز سوف يبدأ الآن فى سرد قِصَّة بلا نهاية من البداية .

وفجأة فُتح الباب بشدة لدرجة أن عنقوداً صغيراً من الأجراس النحاسية الصفراء الصغيرة ، والذى كان متدلياً فوقه ، أخذ يرن رنيناً مضطرباً ، ولم يتمكن من العودة إلى الهدوء لفترة طويلة .

وكان مسبب هذا الضجيج صبى صغير سمين ربما بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر . وكان شعره البنى الغامق يتدلى مبللاً على وجهة . وقد تخلل المطر معطفه فجعله ليناً يقطر منه الماء ، وكان يحمل حقيبة مدرسية مثبتة على كتفه بسير جلدى . وكان شاحب الوجه قليلاً ومنقطع الأنفاس ، ولكن على العكس تماماً من العجلة التى كان مازال عليها منذ برهة ، فقد وقف حينئذ كالمتسمر بالباب المفتوح . . . »

بينما كان باستيان يقرأ ذلك ويسمع فى نفس الوقت الصوت العميق لعجوز الجبل المتجول ، بدأ يسمع طنيناً فى أذنيه ويرى بريقاً مرتعشاً أمام عينيه .

ان ما حُكى هنا ، كان قصته هو ! وهى كانت فى قِصَّة بلا نهايَة . وهو ، أى باستيان ظهر كشخص فى الكتاب ، الذى كان يعتبر نفسه حتى الآن قارئاً له ! ومن يدرى ، أى قارىء آخر يقرأه الآن بالذات وهو يعتقد أنه ليس إلا قارئا ــ وهكذا دائماً إلى ما لا نهاية !

والآن انتاب باستيان الخوف . وشعر فجأة بضيق أنفاسه . وشعر كما لو كان محبوساً فى سجن غير مرئى . وأراد أن يتوقف ، ولم يرد الاستمرار فى القراءة .

ولكن الصوت العميق لعجوز الجبل المتجول واصل القصة ،

ولم يستطع باستيان أن يفعل شيئاً معاكساً لذلك . وسد أذنيه ، ولكن ذلك لم يُجْدِ ، لأن الصوت كان يرن فى أعماقه . وبالرغم من أنه كان يعرف منذ وقت طويل أن الأمر لم يكن هكذا ، فقد ظل متشبثاً بالفكرة القائلة بأن هذا التوافق مع قصته هو ربما لم يكن سوى صدفة مجنونة ،

ولكن الصوت العميق استمر يتكلم بلا هوادة .

وسمعه الآن بوضوح تام وهو يقول :

« . . . السلوك الحسن ليس عندك منه ما يساوى خمسة فنكات ، وإلا كنت قدمت نفسك على الأقل فى بادىء الأمر . »

فقال الصبى : « اسمى باستيان ، باستيان بلتازار بوكس . »

وفى هذه اللحظة مر باستيان بتجربة هامة : يمكن الاقتناع بتمنى شيئاً ــ ربما لسنوات طالما المرء يعرف أن الأمنية غير قابلة للتحقيق . ولكن إذا ما وقف الإنسان فجأة أمام إمكانية أن يتحول حلم الأمانى إلى حقيقة ، فالإنسان حينئذ لا يتمنى إلا شيئاً واحداً :

وهو ألاّ يكون قد تمناه أبداً .

وعلى كل حال فقد كان هذا هو شعور باستيان .

فالآن ، حيث إن الأمر أصبح جاداً لا رجوع عنه ، فقد تمنى الفرار أفضل من أى شىء . فقط لم يعد هناك « فرار » فى هذه الحالة . ولذلك فقد فعل ما لم يستطع أن يفيده بشىء على الإطلاق : فقد تظاهر بالموت مثل جعران يرقد على ظهره . وأراد أن يفتعل أنه غير موجود ، أراد أن يقبع ساكناً وصغيراً على قدر الامكان .

وواصل عجوز الجبل المتجول حكايته وفى نفس الوقت يدون من جديد كيف سرق باستيان الكتاب ، وكيف هرب إلى مخزن مبنى المدرسة وبدأ يقرأ هناك . ثم بدأ بحث أتريو من جديد ، وجاء إلى مورلا العجوز الشمطاء وعثر على فُخور فى شباك إجرامول عند الهوة السحيقة حيث سمع صيحة فزع باستيان . وتمت مداواته على يد أورجل العجوز من جديد وتعليمه على يد إنجيڤوك . وخطا عبر الثلاث بوابات السخرية ودخل على صورة باستيان وتحدث مع أُيولالا . ثم جاء عمالقة الرياح ، ومدينة الأشباح وجمورك وإنقاذ أتريو وعودته إلى برج العاج . وفى تلك الأثناء حدث أيضاً كل ما عايشه باستيان ، من إشعال للشموع ، وكيف رأى الإمبراطورة الطفولية ، وكيف انتظرت مجيئه بلا جدوى ، ثم بدأت طريقها مرة أخرى للبحث

عن عجوز الجبل المتجول ، ومرة أخرى صعدت إلى فوق على سلم الحروف ، ودخلت البيضة مرة أخرى ، ودار الحديث كله كلمة كلمة والذى أجراه كلاهما مع بعض ، والذى انتهى بأن بدأ عجوز الجبل المتجول يكتب ويحكى قِصَّة بلا نِهايَة .

وهنا بدأ كل شىء من الأول من جديد ــ دون تحول ولا تغيير ــ ومرة أخرى انتهى كل شىء عند لقاء الامبراطورة الطفولية ، مع عجوز الجبل المتجول ، الذى يكتب ويحكى قِصَّة بلا نِهاية مرة أخرى . . .

ولسوف تستمر إلى الأبد ، لأنه كان من المستحيل تماماً التمكن من تغيير شىء فى مجرى الأمور . هو فقط ، باستيان كان فى استطاعته التدخل . وكان عليه أن يفعل ذلك إذا لم يكن هو نفسه يريد أن يظل محبوساً فى هذه الدورة .

وكان يشعر كما لو كانت القصة قد تكررت ألف مرة ، كلا ، كما لو لم يكن هناك زمن قبل ذلك ولا بعد ذلك ، بل كما لو كان كل شىء موجوداً فى نفس الوقت وعلى الدوام . وأدرك الآن لماذا ارتعشت يد العجوز . وكانت دائرة الرجوع الأزلى هى النهاية بلا نهاية !

ولم يشعر باستيان أن دموعاً تجرى على وجهه . وفجأة صرخ بلا شعور تقريباً :

« يا طفلة الأقمار ! إنى قادم ! »

وفى نفس اللحظة حدثت عدة أمور فى وقت واحد .

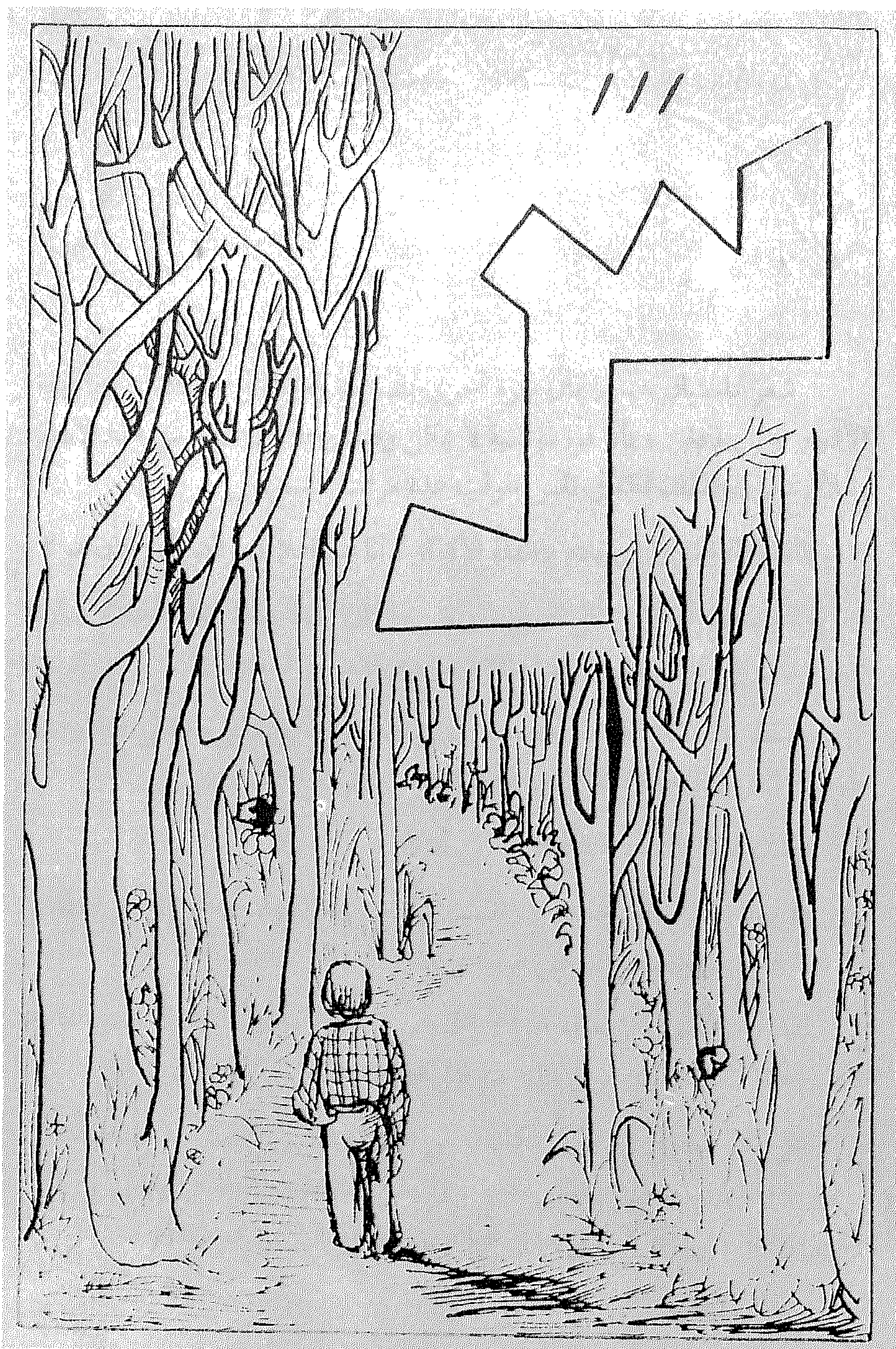
قوة هائلة فجرت قشرة البيضة الضخمة إلى أجزاء بينما سُمع دوى رعد عميق . ثم صفرت هناك ريح عاصفة من بعيد .

وخرجت من صفحات الكتاب الذى كان باستيان يضعه على ركبتيه لدرجة أنها بدأت تهفهف بشدة . وأحس باستيان بالعاصفة فى شعره ووجهه . وكادت تَسلبه أنفاسه ، وتراقص لهب شموع الشمعدان ذى السبعة أذرع واتخذ وضعاً أفقياً ، ثم سرت رياح عاصفة ثانية أشد قوة إلى داخل الكتاب وانطفأت الأنوار .

ودقت ساعة البرج الثانية عشرة .

١٣

پيريلين .. غابة الليل





شعر باستيان عندما قال مرة أخرى بصوت خافت فى الظلام : «ياطفلة الأقمار ، إنى قادم .» بأن قوة مواسية لا يمكن وصف حلاوتها تخرج من هذا الاسم وتملأه تماما . ولذلك قاله فى نفس الوقت عدة مرات لنفسه :

«طفلة الأقمار ! إنى قادم ياطفلة الأقمار ! أنا هنا فعلا !» ولكن أين كان هو ؟

ولم يستطع أن يرى أقل ضوء ، ولكن ما كان يحيط به لم يعد الظلام البارد للمخزن ، بل كان ظلاما مخمليا دافئا شعر فيه بالأمان والسعادة .

وسقط عنه كل الخوف والضيق . ولم يعد يتذكره إلا كشىء مضى منذ وقت طويل وشعر بالبهجة والخفة لدرجة أنه ضحك بصوت خافت .

وسأل قائلا : «طفلة الأقمار ، أين أنا ؟»

ولم يعد يشعر بثقل جسده . وتحسس بيديه من حوله وأدرك أنه يحوم فى الفضاء ولم تعد هناك دواسات ولا أرض صلبة .

لقد كان شعورا لم يعرفه أبدا ، إحساس بالتحرر والحرية التى لا حدود لها . لا شىء مما كان يثقل ويضيق عليه من قبل استطاع الوصول إليه الآن .

هل كان يحوم فى النهاية فى مكان ما من الفضاء الكونى ؟ ولكن بالفضاء الكونى نجوم ، وهو لم يستطع رؤ ية شىء منها . ولم يكن هناك سوى الظلام المخملى ، وكان يشعر براحة ، براحة لا مثيل لها فى حياته من قبل أبدا . هل هو ربما قد مات ؟

- «طفلة الأقمار ، أين أنت ؟»

وسمع الآن صوتا رقيقا كصوت الطيور يجيب عليه ، وربما أجابه عدة مرات دون أن يلاحظ . وسمعه قريبا جدا ولم يكن بمقدرته أن يقول من أى اتجاه كان يأتى :

- «ها أنا ذا ، عزيزى باستيان»
- «ياطفلة الأقمار ، هل هذا أنت ؟»

وضحكت بطريقة خاصة مغردة .

- «من سأكون إذن . إنك منحتنى الآن فقط هذا الاسم الجميل . أشكرك على ذلك مرحبا بك . يامنقذى ، وبطلى .»

- «أين نحن ، ياطفلة الأقمار ؟»
- « أنا عندك ، وأنت عندى .»

لقد كان حديثا كما فى الحلم ، ولكن باستيان كان يعرف بالتأكيد التام أنه كان يقظا ولا يحلم . وهمس قائلاً : « طفلة الأقمار ، هل هذه الآن هى النهاية ؟ » فأجابت : «كلا ، إنها البداية»

- «أين فانتازين ، ياطفلة الأقمار ؟ وأين الآخرون كلهم ؟ وأين أتريو وفُخُور ؟ هل اختفى كل شيء ؟ وعجوز الجبل المتجول وكتابه ؟ ألم يعد لهم وجود ؟»

- «إن فانتازين ستنشأ من جديد من أمنياتك ، ياعزيزى باستيان . وعن طريقى ستصبح حقيقة »

فقال باستيان بدهشة مكررا : «من أمنياتى ؟»

وسمع الصوت الحلو يقول : «أنت تعرف أنهم يطلقون علىّ سيدة الأمانى . ماذا ستتمنى لنفسك ؟»

وفكر باستيان ، ثم سأل بحذر :

- «كم أمنية مسموحة لى ؟»

- «على قدر ما تريد ــ كلما زادت ، كان أفضل ، ياعزيزى باستيان ، وازدادت فانتازين ثراء وتنوعاً .»

وكان باستيان مأخوذا وقد فوجىء . ولكن لأنه رأى نفسه فجأة أمام لا نهاية من الإمكانيات ، فلم تخطر بباله أية أمنية . وأخيرا قال : «لا أدرى شيئا . »

وعم الصمت برهة ، ثم سمع الصوت الرقيق كصوت الطيور :

- « هذا أمر سىء » .
- «لماذا ؟»
- «لأنه حينئذ لن يكون لفانتازين وجود»

وصمت باستيان وهو مرتبك . فقد أزعجه قليلا شعوره بالحرية المطلقة بأن كل شىء سيرتبط به .

وسأل قائلا : «لماذا هذا الظلام ، ياطفلة الأقمار ؟»

- «البداية دائما مظلمة ، ياعزيزى باستيان»
- «أحب أن أراكِ مرة أخرى ، ياطفلة الأقمار ، أتعرفين ، مثل تلك اللحظة التى نظرتِ إلىّ فيها»

وسمع مرة أخرى الضحك الخافت المغرد .

- «لماذا تضحكين ؟»
- «لأننى سعيدة»
- «بأى شىء ؟»
- «لقد قلت حالا أول أمنية لك»
- « وهل ستحققينها ؟ »
- «نعم ، إفرد يدك ! »

وفعل ذلك وشعر أنها وضعت شيئا فى كفه . لقد كان ضئيلا ولكنه ثقيل بشكل غريب وكانت تخرج منه برودة ويعطى إحساسا بأنه صلب وبلا حياة .

- «ما هذا ياطفلة الأقمار ؟»

فأجابت : «حبة رمل ، إنها كل ما تبقى من مملكتى التى كانت بلا حدود . إننى أهديها إليك »

فقال باستيان : «شكراً » وفى الحقيقة لم يكن يعرف ما سيفعله بهذه الهدية . لو كانت على الأقل شيئاً حياً !

وبينما هو لا يزال يفكر فيما تنتظر طفلة الأقمار منه ، أحس فجأة بغزغزة رقيقة فى يده . ونظر بمزيد من الدقة إليها .

وهمس قائلا : « انظرى ، ياطفلة الأقمار ! إنها بدأت تلمع وتتلألأ ! وهنا ـ هل ترين ـ ترتفع ألسنة لهب صغير . وكلا ، إنها بذرة . طفلة الأقمار ، إن هذه ليست حبة رمل على الإطلاق ! إنها حُبيبة بذور مضيئة تبدأ فى النمو ! »

وسمعها تقول : «أحسنت صنعا ، ياعزيزى باستيان . أترى ، إنه أمر سهل جدا بالنسبة لك »

وخرج من النقطة الصغيرة على كف باستيان الآن شعاع لا يكاد يرى ، ازداد حجمه بسرعة وجعل كلا الوجهين الطفوليين المختلفين فى نوعيهما اللذين كانا ينحنيان فوق المعجزة ، يضيئان فى الظلام المخملى .

وسحب باستيان يده ببطء وظلت النقطة المضيئة عالقة بالهواء بينهما كنجم صغير .

ونمت البذرة بسرعة شديدة وكان فى الاستطاعة النظر إليها فى هذه الأثناء . وأنبتت أوراقا وأعوادا ، وأخرجت براعم تفتحت إلى زهور رائعة تلمع بألوان متعددة وفسفورية . وقد تكونت فعلا ثمار صغيرة وبعد نضوجها مباشرة تتفجر كصواريخ صغيرة وتنثر من حولها أمطار شرار ملوّنة من حبيبات بذور جديدة .

ومرة أخرى تنمو نباتات من حبيبات البذور الجديدة ، ولكن لها أشكال مختلفة تشبه أوراق الخنشار أو نخل صغير ، أو كريات الصبار ، أو العيدان الشوكية أو الشجيرات المتشعبة . وكل منها كان يتوهج ويضىء بلون آخر .

سرعان ما امتلأ الظلام المخملى حول باستيان وطفلة الأقمار ، ومن فوقهم وتحتهم ومن جميع الجوانب ، بنباتات النور المتفتحة والمتكاثرة . وحامت فى الفضاء كرة متوهجة الألوان ، عالم جديد مضىء ، كبر ونما وفى قلب قلبه جلس باستيان وطفلة الأقمار يدا بيد وتطلعا بعيون مندهشة للمشهد البديع .

وبدت النباتات لا تنضب فى إخراجها لأشكال وألوان جديدة دائما . وتفتحت على الدوام براعم أزهار أكبر حجما . وتناثرت عناقيد زهور متزايدة الثراء على الدوام . وهذا النماء كله كان يتم فى سكون تام .

وبعد فترة من الزمن كان لبعض النباتات ارتفاع زهور عباد الشمس ، بل إن بعضها كان حتى فى حجم أشجار الفاكهة . وكانت هناك سعف وعروش من أوراق طويلة خضراء زمردية ، أو زهور كذيل طاووس ملىء بدوائر لها ألوان الطيف . ونباتات أخرى كانت تشبه أبراج المعابد الآسيوية المكونة من مظلات حريرية بنفسجية مفتوحة فوق بعضها وكانت بعض الجذوع السميكة متشابكة كهيئة الضفائر . ولأنها كانت منفذة للضوء فقد بدت كما لو كانت من زجاج وردى اللون مضىء من الداخل . وكانت هناك عرائش من الزهور تشبه عناقيد كبيرة من الفوانيس الورقية الزرقاء والصفراء . وفى بعض المواضع كانت تتدلى إلى أسفل عدة آلاف من «الأسطر» ، زهور النجمة كمساقط مائية فضية متلألئة ، أو ستائر ذهبية داكنة من زهور الناقوس ذات كئوس طويلة لحبوب اللقاح كهيئة الأهداب . وكبرت نباتات الليل المضيئة هذه فى كثافة وثراء متزايد على الدوام ، وتشابكت مع بعضها شيئا فشيئا مكونة جديلة رائعة من الضوء الهادىء .

وهمست طفلة الأقمار قائلة : «يجب أن تمنحه اسما !»

وقال : «بيريلين[١٢] ، غابة الليل»

ونظر إلى الإمبراطورة الطفولية فى عينيها ــ وحدث له الآن مرة أخرى ماحدث له عند تبادلهما للنظرة الأولى . وجلس كالمسحور وتطلع إليها ، ولم يعد يستطيع أن يحول عينيه عنها . وفى تلك المرة رآها مريضة مرض الموت . ولكنها الآن كانت أجمل بكثير جدا . رداؤ ها الممزق عاد كالجديد ، وتلاعب انعكاس الضوء الحالم متعدد الألوان فوق البياض النقى للحرير وشعرها الطويل . لقد تحقق حلمه .

---

(١٢) Perelin يُرجح أن المؤلف يشير باختياره لهذه التسمية إلى كلمة Perle لؤلؤة ، رمز النفائس المتلألئة اللامعة .

وتلعثم باستيان قائلا وفى رأسه دوار : «طفلة الأقمار ، هـل عدت الآن فى صحة حسنة ؟»

وابتسمت : «ألا تستطيع أن ترى ذلك ياعزيزى باستيان ؟»

فقال : «أود أنّ الأمر يظل إلى الأبد مثل الآن »

فردت قائلة : «اللحظة أبدية»

وصمت بـاستيان . ولم يفهم إجـابتها . ولكنـه لم يكن الآن فى حالـة تسمح بالتفكّر . ولم يكن يريد شيئا سوى أن يجلس أمامها وينظر إليها .

كونت الأحراش الوافرة لنباتات الضوء شبكة كثيفة من حولها شيئا فشيئـا ، نسيج متوهج الألوان احتواهما مثل خيمة كبيرة مستديرة من السجاجيد السحرية . وهكذا لم ينتبه باستيان إلى ما حدث بالخارج . ولم يعرف أن بيرلين استمرت فى الكبر والنمو وأن النباتات المنفردة قد زادت حجما باستمرار . ومازالت تنزل إلى أسفل فى كل مكان أمطار من حبات بذور صغيرة لشرارات الضوء تنبع منها بذور جديدة .

وجلس غارقا فى مرأى طفلة الأقمار .

ولم يكن ليستطيع أن يقول إذا كان قد انقضى وقت كثير أو قليل عندما غطت طفلة الأقمار عينيه بيدها .

وسمعها وهى تسأل : «لماذا جعلتنى انتظرك هذا الوقت الطويل ؟ لماذا أجبرتنى على الذهاب إلى عجوز الجبل المتجول ؟ لماذا لم تحضر عندما ناديت ؟»

وابتلع باستيان ريقه .

وقال وهو محرج : «ذلك لأننى ـ لأننى فكـرت ـ لقد كـان كل مـا يمكن ، الخوف أيضا ـ ولكن فى الحقيقة أننى كنت خجلان منك ، ياطفلة الأقمار»

وجذبت يدها ونظرت إليه بدهشة : «خجلان ؟ لأى سبب ؟»

وقال باستيان مترددا : «يعنى ، أقصد ، أنك كنت تتوقعين بالتأكيد شخصا يناسبك»

وسألت : «وأنت ؟ ألست تناسبنى ؟»

وتلعثم باستيان وأحس أن وجهه قد احمر : «هذا يعنى ، أردت أن أقول ، شخص يكون شجاعا وقويا وجميلا ــ أمير أو ما شابه ذلك ــ وعلى كل حال ليس شخصا مثلى .»

وأخفض بصره وسمعها مرة أخرى تضحك بهذه الطريقة الخافتة المغردة .

وقالت : «أترى ، الآن أنت تضحك علىّ أيضا»

وساد الصمت لفترة طويلة ، وعندما استطاع باستيان أخيرا أن يرفع نظره رأى أنها انحنت مقتربة منه تماما . وكان وجهها جادا .

وقالت : «أريد أن أريك شيئا ، ياعزيزى باستيان ، انظر فى عينى !»

وفعل باستيان ذلك بالرغم من أن قلبه كان يدق وشعر بدوار بسيط .

والآن رأى فى مرآة عينيها الذهبية شكلا فى بادىء الأمر صغيرا وكما لو كان من مكان بعيد ، والذى ازداد باستمرار حجما ووضوحا شيئا فشيئا . لقد كان صبيا فى مثل عمره ، ولكنه كان رشيقا ذا حسن رائع . وكانت وقفته بها فخر واعتدال ووجهه نبيلا نحيلا وبه رجولة . وكان يبدو كأمير من الشرق . وكانت عمامته من الحرير الأزرق وكذلك سترته المطرزة بالفضة والتى كان يرتديها وهى تصل إلى ركبتيه . وكانت رجليه داخل حذاء ذى رقبة عالية أحمر اللون من الجلد الرقيق اللين والتى كانت أطرافه الأمامية منحنية إلى أعلى . وعلى ظهره كان يتدلى من كتفيه حتى الأرض معطف فضى لامع له ياقة مرفوعة إلى أعلى . وأجمل ما فى هذا الصبى كانت يديه التى كانت تعطى انطباعا بدقة أجزائها ، وبالنبل وفى نفس الوقت بالقوة غير العادية .

ونظر باستيان إلى هذه الصورة بكل إعجاب وهو مأخوذ . وكاد لا يستطيع أن يشبع نظره منها . وكان يريد أن يسأل عمن يكون ابن الملك الشاب الجميل هذا ، فى لحظة أن أسرع بخاطره كشعاع برق الإدراك بأنه كان هو نفسه . لقد كانت صورته الخاصة المنعكسة فى عينى طفلة الأقمار الذهبية !

من الصعب جدا وصف ما حدث له فى هذه اللحظة بكلمات . لقد كان سروراً حمله عن نفسه بعيدا ، كما فى حالة الإغماء ، وعندما حط به ثانية وعاد إلى نفسه تماما وجد نفسه مرة أخرى ذلك الصبى الجميل الذى رأى صورته .

ونظر إلى نفسه إلى أسفل وكل شىء كان مثلما هو فى عينىْ طفلة الأقمار ، الحذاء ذو الرقبة الرقيق اللين ، السترة الزرقاء المطرزة بالفضة ، العمامة ، المعطف الطويل اللامع ، وهيئته وكذلك وجهه ـ على قدر ما استطاع أن يحس به . ونظر إلى يديه بدهشة .

والتفت إلى طفلة الأقمار .

ولم تعد هناك .

وكان وحيدا فى المجال المستدير الذى كونته أحراش النباتات المتوهجة .

ونادى فى جميع الجهات : «طفلة الأقمار ! طفلة الأقمار !»

ولكنه لم يتلق جوابا .

وجلس وهو حيران . ماذا عليه أن يفعل الآن . لماذا تركته وحيدا ؟ إلى أين يذهب الآن ـ اذا كان فى استطاعته الذهاب إلى مكان ما ، وليس كالمسجون فى قفص ؟

بينما هو جالس هكذا ويحاول أن يفهم ماذا دعا طفلة الأقمار أن تتركه دون تفسير ودون كلمة وداع ، داعبت أصابعه حجابا ذهبيا يتدلى بسلسلة حول رقبته .

وتطلع إليه وأطلق صيحة المفاجأة .

لقد كان آورين الجوهرة ، البريق ، علامة الإمبراطورة الطفولية ، الذى يجعل حامله نائبا عنها . لقد تركت له طفلة الأقمار سلطتها فوق كل كائنات وأشياء فانتازين . وطالما هو يحمل هذه العلامة ، فسيكون الأمر كما لو كانت معه .

ونظر باستيان طويلا إلى الثعبانين ، الفاتح اللون والداكن اللون ، اللذين يعضان بعضيهما فى الذنب ويكوّنان شكلا بيضاويا . ثم أدار القلادة ولدهشته وجد

على ظهرها كتابة . لقد كانت أربع كلمات قصار فى حروف منحنية بشكل فريد :

افعل ما أنت

تريد

ولم يكن الحديث عن هذا من قبل فى قصّة بلا نهاية أبدا . ألم يلاحظ أتريو هذه الكتابة ؟ ولكن لم يكن هذا مهما الآن . والشىء الهام كان فقط أن الكلمات تعبر عن التصريح ، لا بل المطالبة بعمل كل ما لديه رغبة فيه .

واقترب باستيان من الجدار الذى يتكون من أحراش النباتات المتوهجة الألوان ، لكى يرى إذا كان أو من أين يستطيع المرور ، ولكنه تأكد وهو مسرور أنه يمكن إزاحته جانبا بدون عناء كالستار . وخرج .

النمو الناعم ، ذو القوة الفطرية فى نفس الوقت لنباتات الليل استمر فى تلك الأثناء فى سيره دون توقف وأصبحت بيريلين غابة لم ترعين بشر مثلها قبل باستيان أبدا .

وأصبح لأضخم الجذوع الآن إرتفاع وسمك أبراج الكنائس ــ وبالرغم من ذلك استمرت فى النمو ولم تكف عن النمو . وفى بعض المواضع وقفت تلك الأعمدة العملاقة اللامعة بلون أبيض لبنى ملاصقة لبعضها لدرجة استحالة الانزلاج من بينها . وما زالت تتساقط إلى أسفل باستمرار بذور حبوب جديدة كأمطار من الشرر .

وبينما كان باستيان يتنزّه خلال كاتيدرائية نور هذه الغابة ، بذل جهده كيلا يدوس على إحدى البذور المتوهجة على الأرض ، ولكن سرعان ما اتضح استحالة ذلك . فلم يعد هناك ولا عرض قدم من الأرض حيث لا ينبت شىء . وهكذا فقد واصل سيره أخيرا بلا انشغال بال حيثما سمحت له الجذوع العملاقة بالطريق .

وكان باستيان يتمتع بكونه جميلا . ولم يزعجه أبدا عدم وجود أحد كى يعجب به ، بالعكس فقد كان سعيدا أن يكون هذا السرور له وحده تماما . ولم يكن يهمه على الإطلاق إعجاب هؤلاء الذين كانوا يسخرون منه من قبل . لم يعد ذلك الآن . كان تفكيره فيهم يكاد يكون إشفاقا عليهم .

وفى هذه الغابة التى لم توجد بها فصول سنة ولا حتى اختلاف الليل والنهار ، كانت خبرة الزمن أيضا شيئا مختلفا تماما عما كان يفهم باستيان من قبل . وهكذا لم يعرف منذ كم من الوقت وهو يتنزه . ولكن شيئا فشيئا تحولت فرحته بكونه جميلا ، إلى شىء آخر : لقد أصبح بديهيا بالنسبة له . ليس لأنَّ سعادته لذلك قد قلت ، فقط بدا له كما لو لم يكن يعرف أبداً شيئا آخر .

وكان لهذا سببٌ سيعرفه باستيان فيما بعد بوقت كثير كثير ، والذى لم تكن لديه الآن أدنى فكرة عنه . وبالنسبة للجَمال الذى منح له ، فقد نسى شيئا فشيئا أنه فى يوم ما كان بدينا وذا أرجل مقوسة إلى الداخل .

حتى وإنْ لاحظ شيئا من ذلك فمن المؤكد أنه لم يكن سيهتم كثيرا جدا بهذه الذكرى . ولكن النسيان تم دون أن يلاحظ تماما . وعندما انمحت الذاكرة تماما ، تهيأ له كما لو كان الأمر دائما على ما هو الآن . وبسبب ذلك بالضبط فقد سكنت أمنيته فى أن يكون جميلا ، لأن الفرد لايتمنى لنفسه شيئاً كان عليه دائماً .

وما كاد يصل إلى هذه النقطة ، حتى أنه أحس بعدم القناعة واستيقظت فيه رغبة جديدة . ففى الحقيقة لم يكن جديراً بالاستحسان أن يكون المرء جميلاً فقط . لقد أراد أن يكون قويا ، أقوى من الجميع ، أقوى شخص موجود على الإطلاق !

وبينما هو يواصل التنزه عبر غابة الليل بيريلين بدأ يشعر بالجوع . وقطف من هنا وهناك بعض الثمار ذات الأشكال الغريبة والمضيئة ، وجرّب بحذر إمكانية أكلها . ولم يكن هذا فحسب هو ما اتضح له وهو مسرور ، ولكن كان مذاقها رائعا جدا أيضا ، بعضها حمضى ، وبعضها حلو ، بعضها مر قليل ، ولكنها كلها شهية للغايه . وأكل وهو يواصل السير واحدة بعد الأخرى وأحس أثناء ذلك كيف تسرى قوة رائعة فى أعضائه .

وفى تلك الأثناء أصبحت الشجيرات المنخفضة المتوهجة للغابة كثيفة من حوله لدرجة أنها حجبت عنه النظر إلى جميع الجهات . وفوق ذلك فقد بدأت نباتات اللیانا المتسلقة والعروق الهوائية تنمو من أعلى إلى أسفل وتتشابك مع الأحراش مكوّنة أدغالا لا يمكن اختراقها . وفتح باستيان لنفسه ممرا بضربات بحافة يده ، وتجزأت

الأحراش كما لو أنه استعمل سكينا من سكاكين قطع الأحراش . والتأمت الثغرة من ورائه مباشرة كاملة كما لو لم تكن أبدا .

وواصل سيره ، ولكن سور من عمالقة الأشجار سد عليه الطريق ، وكانت جذوعها ملاصقة لبعضها دون فراغ بينها . ومد باستيان كلتا يديه ـ وأمال جذعين عن بعضهما . ومرة أخرى انقفل الشق من ورائه بلا صوت .

وأطلق باستيان صيحة تهليل شديدة .

لقد كان سيد الغابة !

وتسلى فترة بفتح ممر له من خلال الأحراش ، مثل فيل سمع النداء العظيم . ولم تهبط قواه ، ولم يضطر للوقوف لحظة ليلتقط أنفاسه ، ولم يكن هناك وخز فى جنبه ولا خفقان فى قلبه ، ولا حتى عرق .

ولكنه أخيرا سأم العبث ، واعترته رغبة أن يلقى نظرة شاملة من علٍ على بيريلين مملكته ، لكى يرى إلى أى مدى قد توسعت .

ونظر متفحصا إلى أعلى ، وبصق فى يديه وأمسك بنباتات الليانا المتسلقة وبدأ يشد نفسه إلى أعلى ، مجرد يد فوق الأخرى ، وبدون أن يستعمل رجليه فى ذلك مثلما كان يرى لاعبى السيرك . ورأى نفسه للحظة واحدة كصورة باهتة من الذاكرة لأيام مضت منذ وقت طويل ، أثناء حصص التربية البدنية ، حيث كان يتأرجح مثل جوال الدقيق عند الطرف الأسفل لحبل التسلق وهو ما كان مدعاة للسرور المكتوم للفصل كله . واضطر أن يبتسم . أكيد أنهم سيفتحون أفواههم وأنوفهم إذا استطاعوا أن يروه الآن . إنهم سيكونون فخورين بمعرفته . ولكنه لم يكن ليعيرهم مجرد الانتباه .

وبدون أن يتوقف مرة واحدة وصل أخيرا إلى الفرع الذى يتدلى منه نبات الليانا المتسلق ، وجلس فوقه جلسة راكب الدابة . وكان الفرع سميكا كالبرميل ويشع ضوءاً فسفوريا من الداخل إلى الخارج بلون مائل للحمرة . وانتصب باستيان بحذر وحافظ على توازنه متجهاً إلى جذع الشجرة . وهنا أيضا سدت عليه الطريق أحراش كثيفة من العيدان المتسلقة ولكنه هيأ لنفسه طريقا دون مجهود .

والجذع هناك بأعلى كان لا يزال سميكا لدرجة أن خمسة من الرجال لا يستطيعون تطويقه . ولم يكن فى استطاعة باستيان أن يصل من مكانه إلى فرع جانبى آخر ، يبرز من الجذع إلى أعلى بقليل وفى اتجاه آخر . ولذا ألقى بنفسه فى قفزة واحدة إلى عرق هوائى بالناحية الأخرى وتأرجح هنا وهناك إلى أن استطاع الإمساك بالفرع الأعلى عن طريق قفزة جريئة كذلك . ومن هناك استطاع أن يشد نفسه إلى فرع آخر أعلى . والآن كان مرتفعا جدا وسط الأغصان ، على الأقل مائة متر ، ولكن الفروع والأوراق المتوهجة لم تسمح بالرؤية إلى أسفل .

فقط عندما وصل إلى ضعف الارتفاع تقريبا كانت توجد هنا وهناك مواضع خالية سمحت بالنظر فيما حولها . ولكن الأمر بدأ حينئذ يصبح صعبا ، وبالذات لأن الأغصان والفروع تناقصت باستمرار . وأخيرا عندما كاد أن يكون بأعلى تماما ، اضطر أن يتوقف لأنه لم يعد يجد شيئا يستطيع أن يتشبث به سوى الجذع العارى الأملس الذى كان له سمك عمود البرق على الأقل .

ونظر باستيان إلى أعلى ورأى أن هذا الجذع أو الساق ينتهى على ارتفاع عشرين متر تقريبا بزهرة هائلة الحجم مضيئة بلون أحمر داكن . ولم يكن واضحا لديه كيف سينزل من هناك إلى أسفل ؟ . ولكن كان عليه الصعود ، لأنه لم يكن يريد البقاء هناك حيث كان وأمسك بالجذع وتسلق العشرين مترا الأخيرة إلى أعلى كلاعب الأكروبات . وتأرجح الجذع هنا وهناك وانحنى مع الرياح كعود الحشائش . وأخيرا تعلق بأسفل الزهرة مباشرة التى كانت تتفتح إلى أعلى كزهرة التيوليب . ونجح فى أن يزج يده بين أوراق الزهرة وهكذا وجد شيئا يستند عليه ، وأزاح الأوراق بعيدا عن بعضها ثم جذب نفسه إلى أعلى وظل راقدا للحظة لأنه الآن كان مقطوع الأنفاس قليلا . ولكنه نهض على الفور ونظر إلى جميع الجهات من فوق حافة الزهرة العملاقة المتوهجة بلون أحمر كما لو كان فى منصة بأعلى عامود الصارية .

وكان المنظر رائعا فوق كل الكلمات .

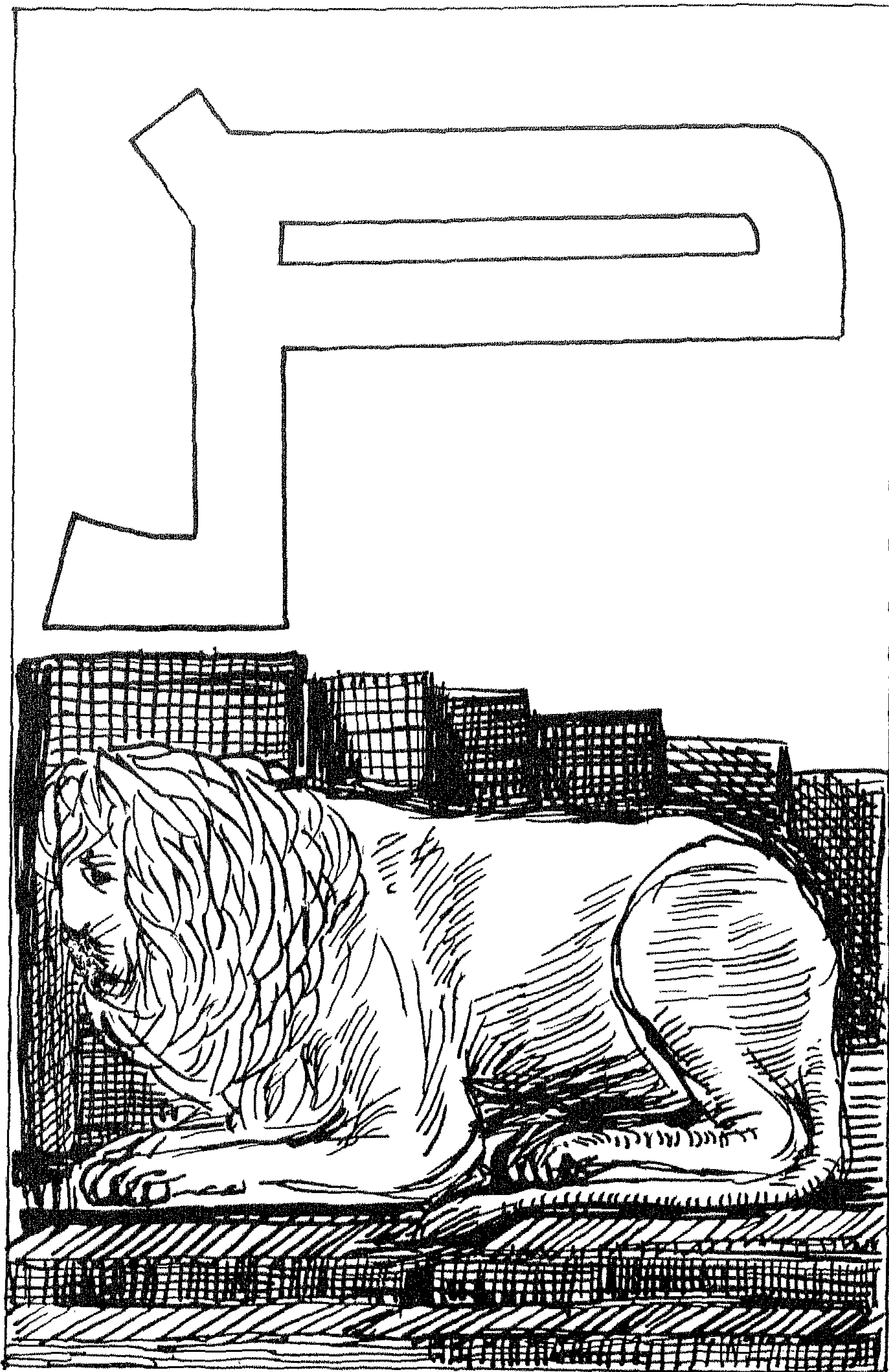
والنبات الذى كان يقف فى زهرته كان أحد أعلى نباتات الأدغال كلها ولذلك وصل نظره إلى بعيد جدا . ومن فوقه كان لايزال الظلام المخملى كسماء ليلة خالية

النجوم ، ولكن من تحته امتدت اللانهاية لقمم أشجار بيريلين فى تنوع لونى لدرجة أن عينيه سرعان ما فاضت بالدموع .

ووقف باستيان طويلا ، ورشف الصورة إلى داخله . هذه كانت مملكته ! لقد خلقها ! لقد كان سيد بيريلين .

ومرة أخرى طارت صيحة تهليله الشديدة إلى بعيد فوق الغابة المضيئة ولكن نمو نباتات الليل استمر فى صمت ونعومة وبلا توقف .

١٤
جواب صحراء الألوان


ק



صار باستيان يتمطى وقد شعر بسرور بالقوة العظيمة فى أعضائه بعد ما نام بعمق ولفترة طويلة فى الزهرة العملاقة ذات الوهج الأحمر ، وفتح عينيه فرأى أن سماء الليل المخملية السوداء مازالت تمتد قبتها من فوقه .

ومرة أخرى حدث تغير به دون أن يلاحظ من ذلك شيئا . إن أمنيته بأن يكون قويا قد تحققت . وعندما نهض الآن وتطلع فيما حوله فوق حافة الزهرة العملاقة وجد أن بيريلين على ما يبدو قد توقفت عن النمو شيئا فشيئا . ولم تعد غابة الليل تتغير كثيرا . ولم يعرف باستيان أن هذا أيضا يرتبط بتحقيق أمنيته ، وأن تذكره لضعفه وعدم مهارته قد انمحى فى نفس الوقت . لقد كان جميلا وقويا ، ولكن هذا لم يكن يكفيه بشكل ما . وفوق هذا فقد بدا له الآن أن فى ذلك قليلا من الطراوة . الجمال والقوة لا يساويان شيئا إلا إذا كان الانسان خشنا ، صلبا وقادرا على التقشف . كأتريو مثلا . ولكن لم تكن هناك فرصة لذلك من بين هذه الزهور المضيئة ، حيث لا يحتاج المرء إلاّ أن يمد يده إلى الثمار .

وفى الشرق بدأت تتلاعب بوادر درجات اللون الصدفى الناعم للفجر . وكلما ازداد الضوء ، زاد شحوب الوميض الفسفورى لنباتات الليل .

وقال باستيان لنفسه : « جيد ، لقد ظننت أن النهار لن يطلع هنا أبدا . » وجلس على أرضية الزهرة وفكر فيما يريد عمله . أيتسلق عائدا للنزول ويستمر فى التنزه ؟ بالتأكيد ، فهو كسيد بيريلين يستطيع أن يشق لنفسه طرقا حيثما يحلُ له . وكان فى استطاعته أن يسير فيها أياما وشهورا ، وربما لسنوات . وكانت الغابة أكبر من أن يعثر على مخرج منها . ومهما كانت نباتات الليل جميلة ، فلم يكن هذا هو

الشيء الصحيح بالنسبة لباستيان على الدوام . شيء آخر مثلا أن يجوب صحراء - أكبر صحراء لفانتازين نعم ، إنه لشيء يمكن التفاخر به حقا !

وفي هذه اللحظة شعر بهزة شديدة تخللت النبات العملاق كله . وانحنى الجذع وسمع صوت طقطقة وخرير . وكان على باستيان أن يمسك نفسه لكيلا يتدحرج خارج الزهرة التي استمرت في الانخفاض ووقفت الآن في وضع أفقي . وكان منظر بيريلين الذي سنح له عن طريق ذلك مفزعا .

وكانت الشمس في تلك الأثناء قد أشرقت وأضاءت على صورة للدمار . فلم يعد متبقيا من نباتات الليل الهائلة شيء تقريبا . وبأسرع بكثير من نشأتها تحللت الآن في ضوء الشمس الساطع إلى تراب ورمل ناعم ملون . ولم يظهر بأعلى إلا جذوع متبقية هنا وهناك لبعض عمالقة الأشجار ، وتفتّت كأبراج حصون رمال الشواطىء عندما تجف . وبدا أنّ آخر النباتات التي مازالت صامدة هي تلك التي كان باستيان يجلس فيها . ولكنه عندما حاول الآن أن يتشبث بأوراق الزهرة تناثرت تحت قبضته وطارت كسحابة رمل مع الرياح . والآن حيث لم يعد هناك شيء يحجب النظر إلى أسفل رأى أيضا في أي ارتفاع يصيب بالدوار كان موجودا . وإذا لم يكن يريد أن يعرض نفسه لخطر السقوط ، فإن عليه أن يحاول بأسرع ما يمكن التسلق إلى أسفل .

ونزل من الزهرة بحذر لكيلا يتسبب في إحداث اهتزاز غير ضروري ، وجلس راكبا على الساق الذي انحنى الآن كصنارة الصيد . وما كاد ينتهي من ذلك ، حتى تهاوت الزهرة أيضا من ورائه وتطايرت في سقوطها إلى سحابة من الرمل الأحمر .

وواصل باستيان تحركه بحرص كبير.البعض كان لن يتحمل النظر إلى العمق المخيف الذي هو محلق فوقه ، وكان قد سقط وقد تملكه الرعب ، ولكن باستيان كان خاليا من الدوار تماما واحتفظ بأعصاب من حديد . وكان يعرف أن حركة واحدة متهورة يمكنها أن تتسبب في كسر النبات . ولم يكن يجوز له أن يدفعه الخطر إلى عدم التروي . واستمر يتقدم ببطء ووصل أخيرا إلى الموضع الذي أصبح الجذع عنده منحدرا وفي النهاية رأسيا . وتشبث به وانزلق بنفسه سنتيمتر بسنتيمتر . ولأكثر من

مرة انهالت عليه سحابات ضخمة من الأتربة الملونة من أعلى . ولم تعد توجد أغصان جانبية ، وأينما كان هناك جذع متبق بارز ، فقد كان يتفتت على الفور عندما يحاول باستيان أن يستخدمه مسندا له وكان الجذع يزداد سمكا على الدوام إلى أسفل ولم يعد من الممكن التشبث به ، وكان باستيان لا يزال مرتفعاً عن الأرض بارتفاع البرج . وتوقف لكى يفكر فى كيفية التمكن من مواصلة السير .

ولكن هزة جديدة سرت خلال الجذع العملاق نزعت عنه كل تفكير آخر . وما تبقى من الجذع انزلق داخل نفسه وكون جبلا ذا قمع مدبب تدحرج باستيان منه إلى أسفل فى دوران شديد بينما هو يتقلب عدة مرات وأخيرا ظل راقدا عند سفح الجبل . وبدأ التراب الملون المنزلق خلفه يردمه . ولكنه كافح مخلصا نفسه ، ونفض الرمل من أذنيه وملابسه وبصق عدة مرات بقوة . ثم نظر حوله .

وكان المشهد الذى رآه خارقا : فقد كان الرمل فى كل مكان فى حركة بطيئة جارية . وفى دوامات وتيارات غريبة كان يسرى إلى هنا وإلى هناك ويتجمع إلى هضاب وكثبان مختلفة الارتفاع والاتساع . ولكنها دائما ذات لون محدد تماما . فقد كان الرمل الأزرق الفاتح ينساب مع بعضه مكونا كوما أزرق فاتح اللون ، والأخضر إلى أخضر والبنفسجى إلى بنفسجى . لقد تحللت بيريلين وتحولت إلى صحراء ، ولكن أى صحراء .

وتسلق باستيان فوق كُثّيب من الرمل الأحمر الأرجوانى ، ولم ير من حوله شيئا سوى هضاب من وراء هضاب بجميع الألوان الممكن تخيلها ، لأن كل هضبة كانت تظهر درجة من اللون لا تتكرر مع أخرى . وأقرب هضبة كانت زرقاء مثل الكوبالت ، وأخرى صفراء كالزعفران وورائها هضبة بلون أحمر قرمزى ، وبلون أزرق غامق ، وأخضر بلون التفاح ، وأزرق بلون السماء ، وبرتقالى ، ووردى بلون الخوخ ، وبلون البنفسج الفاتح ، والأزرق الفيروزى والبنفسجى بلون الليلك ، وأخضر بلون الطحالب ، وأحمر بلون الياقوت ، وبنى بلون مصفر ، وأصفر هندى ، وأحمر بلون برتقالى وأزرق بلون اللازورد . وهكذا دائما من أفق إلى آخر إلى أن لا تستطيع العين إدراكه . وامتدت جداول من الرمال الذهبية والفضية بين الهضاب وفصلت الألوان عن بعضها .

وقال باستيان بصوت عال : « هذه هى جُوآب صحراء الألوان ! »

وارتفعت الشمس إلى أعلى أكثر وأكثر وأصبحت الحرارة قاتلة . وبدأ الهواء يتوهج فوق الكثبان الرملية الملونة وأدرك باستيان أن موقفه الآن قد أصبح صعباً فعلا . ففى هذه الصحراء لم يكن فى إمكانه البقاء ، لقد كان هذا مؤكدا . وإذا لم يفلح فى الخروج منها فلابد أن يقضى نحبه بعد وقت قصير .

ومد يده بلا قصد إلى علامة الإمبراطورة الطفولية على صدره راجيا أن ترشده . ثم اتخذ طريقه وهو رابط الجأش .

وتسلق كُثيّب بعد الآخر ، وخاض إلى أسفل واحد بعد الآخر ، وكافح متقدما على هذه الحال دون أن يرى شيئا غير هضاب من وراء هضاب . والألوان فقط هى التى كانت تختلف باستمرار . ولم تعد قواه الجسدية الخرافية تفيده . لأن المساحات الشاسعة للصحراء لم يكن من الممكن قهرها بالقوة . وكان الهواء لفحة وهج متأججة من الجحيم لا يكاد يمكن تنفسه . والتصق لسانه فى سقف حلقه وسال العرق على وجهه .

وتحولت الشمس إلى دوامة نيران فى كبد السماء . وهناك بقيت لوقت طويل وبدت أنها لم تعد تواصل التحرك . واستمر ذلك النهار الصحراوى لنفس مدة الليل فى بيريلين .

واستمر باستيان يواصل المسير . والتهبت عيناه وأحس بلسانه كأنه قطعة من الجلد . ولكنه لم ييأس . وجف جسده وأصبح الدم سميكا فى عروقه لدرجة أنه كاد يمتنع عن الجريان . ولكن باستيان واصل المسير على مهل ، خطوة خطوة دون أن يسرع ودون أن يتوقف كما يفعل جميع جوالي الصحراء ذوى الخبرة . ولم يعر اهتماما لآلام العطش التى كان يعانى منها جسده . فقد استيقظت به عزيمة ذات صلابة حديدية لدرجة أن لا التعب ولا الحرمان استطاع أن يقهره .

وفكر فى كيف أنه كان يفقد الشجاعة بسرعة . لقد كان يبدأ مئات الأشياء ويتركها ثانية عند أقل صعوبة . وكان يشغل باله دائما بالتغذية ويشعر بخوف

مضحك أن يصبح مريضا أو أن يضطر لاحتمال الآلام . كل هذا خلّفه الآن بعيدا من ورائه .

وهذا الطريق خلال صحراء الألوان جُوآب الذى قطعه الآن لم يجرؤ عليه أحد آخر أبدا من قبل ، ولن يجرؤ أبدا أحد آخر من بعده أن يمشيه .

وربما لن يعرف أحد بذلك على الاطلاق .

وهذه الفكرة الأخيرة ملأت باستيان بالأسف ، ولكن لم يكن ممكنا رفضها . وكل شىء كان يؤكد أن جوآب ضخمة بشكل لا يمكن تخيله لدرجة أنه لن يصل أبدا إلى طرف الصحراء ولم يخفه التصور بأنه حتما سيقضى نحبه إن آجلا أو عاجلا برغم كل قدرة على التحمل . إنه سيتحمل الموت بهدوء وكرامة كما هى عادة الصيادين من قوم أتريو أن يفعلوا . ولكن لأنه لن يجرؤ أحد على القدوم إلى الصحراء ، فلن ينشر أحد أبدا نبأ نهاية باستيان كذلك . لا فى فانتازين ولا فى وطنه . وسوف يعتبر من المفقودين ، وسيكون كما لو لم يأت مطلقا إلى فانتازين وإلى صحراء جُوآب .

وبينما كان يفكر فى ذلك وهو يواصل السير أتت إليه فكرة فجأة . فقال لنفسه : إن كل فانتازين كان يتضمنها الكتاب الذى يكتب فيه عجوز الجبل المتجول . وهذا الكتاب هو قِصَّةٌ بلا نِهايةَ الذى قرأ فيها بنفسه وهو بالمخزن . وربما يوجد فى هذا الكتاب كل ما عايشه الآن أيضاً . ومن المحتمل جداً أن شخصاً آخر سيقرأه فى يوم من الأيام ــ أو حتى يقرأه فى هذا الحين وفى هذه اللحظة . ولذلك لابد أن يكون من الممكن أيضا إعطاء ذلك الشخص إشارة .

الكُثيب الرملى الذى كان يقف عليه باستيان فى تلك اللحظة كان أزرق بلون اللازورد . وكان هناك كُثيب رملى أحمر نارى يفصله عنه واد صغير . وذهب باستيان إلى هناك وغرف بكلتا يديه من الرمل الأحمر وحمله إلى الهضبة الزرقاء ثم نثر خطا طويلا على المنحدر الجانبى . ورجع عائدا مرة أخرى وأحضر رملا أحمر جديدا . واستمر يكرر ذلك وبعد فترة كان قد نثر ثلاثة أحرف عملاقة حمراء على الأرضية الزرقاء :

ب ب ب

وتطلع إلى عمله بسرور . فهذه العلامة لن يستطيع أحد ممن سيقرأ قِصَّة بلا نِهايَة أن يغفلها . ومهما سيصير إليه مصيره الآن ، فسوف يُعرف أين كان موجودا .

وجلس على قمة الجبل الأحمر النارى واستراح قليلا . وأضاءت الثلاثة أحرف بوضوح فى شمس الصحراء الساطعة . ومرة أخرى انمحى جزء من ذاكرته عن باستيان عالم البشر . ولم يعد يعرف شيئا من أنه كان يوما ما فيها مضى حساسا ، بل ربما أحيانا كثير الشكوى . إن صلابته وشدة بأسه ملأته بالفخر . ولكن سرعان ما أعلنت أمنية جديدة عن نفسها . وقال لنفسه ، كما كانت عادته : « صحيح أننى لا أخاف ، ولكن ما ينقصنى هو الشجاعة الحقة . إن تحمل أنواع الحرمان واجتياز المصاعب أمر عظيم . ولكن الإقدام والشجاعة أمر آخر ! أود أن أجابه مغامرة حقة تتطلب شجاعة هائلة . هنا فى الصحراء لا يمكن مجابهة أحد . ولكن لقاء كائن خطير ، لابد وأن يكون أمرا عظيما ـ فقط لا ينبغى أن يكون فى مثل فظاعة إجرامول بالذات ، ولكن أكثر خطورة . ينبغى أن يكون جميلا وفى نفس الوقت أخطر مخلوق لفانتازين . ولسوف أواجهه و . . . »

ولم يتقدم باستيان أكثر من ذلك ، لأنه فى نفس اللحظة شعر بأن أرض الصحراء تتزلزل من تحته . لقد كان مثل دوى عميق لدرجة أن الانسان يحس به أكثر من أن يسمعه .

والتفت باستيان ورأى فى أفق الصحراء البعيد خيالا لم يستطع أن يتبينه فى بادىء الأمر . فقد كان هناك شىء يسرع مثل كرة من النار . وبسرعة هائلة اتخذ دائرة واسعة حول المكان الذى يجلس به باسيتان ثم اتجه فجأة ناحيته مباشرة . وبدا الكائن فى الهواء الحار المتوهج الذى جعل كل المعالم تتأجج كاللهيب ، مثل شيطان راقص من النار .

وتملك باستيان الخوف ، وقبل أن يفكر ، كان قد جرى إلى أسفل إلى الوادى ما بين الكثيب الأحمر والأزرق ، لكى يختبىء من كائن النار المقترب بسرعة . ولكنه ما كاد يقف بأسفل حتى خجل من هذا الخوف وكتمه فى نفسه .

ومد يده إلى آورينْ على صدره وأحس أن الشجاعة كلها التى تمناها لنفسه حالا

قد سرت إلى داخل قلبه وملأته تماما .

ثم سمع مرة أخرى هذا الدوى العميق الذى اهتزت منه أرض الصحراء ولكن هذه المرة من أقرب مكان . ونظر إلى اعلى .

وعلى قمة الكثيب الأحمر النارى وقف أسد عملاق . وكان يقف أمام الشمس بالضبط لدرجة أن لبدته الهائلة أحاطت وجه الأسد بالوهج كإكليل من اللهب . ولكن هذه اللبدة وكذلك باقى جلده لم تكن صفراء كما هو الحال لدى غيره من الأسود ، ولكنها حمراء نارية مثل الرمال التى كان يقف عليها .

وبدا أن الأسد لم يلحظ الصبى الذى كان يقف فى الوادى بين كلا الكثيبين ضئيل الحجم بالنسبة له ، ولكنه نظر إلى الحروف الحمراء التى تغطى منحدر الهضبة المقابلة .

ثم أطلق مرة أخرى هذا الصوت المدوى الهائل :

ــ « من فعل هذا ؟ »

فقال باستيان : « أنا » .

ــ « وماذا يعنى هذا ؟ » .

فأجاب باستيان : « إنه اسمى . فأنا أُدعى باستيان بلتازاربوكس . »

وحينئذ فقط التفت الأسد بنظره إليه ، وانتاب باستيان شعور كما لو أن رداء من اللهب يحيط به وأنه سوف يحترق فيه على الفور ويتحول إلى رماد . ولكن هذا الاحساس مر على الفور وصمد أمام نظرة الأسد . وقال الحيوان الهائل : « أنا جرأوجر مان سيد صحراء الألوان الذى يسمى أيضا بالموت الملون . »

وكانا لا يزالان ينظران إلى بعضهما الآخر وأحس باستيان بالقوة المميتة التى تخرج من هذه العيون . لقد كان ذلك كقياس غير مرئى للقوى . وأخيرا أخفض الأسد بصره ونزل من الكثيب الرملى بحركات وئيدة ذات جلال . وعندما وطأ الرمل الأزرق اللازوردى تغير لونه أيضا بحيث كانت لبدته وجلده الآن أزرقا أيضا . وظل الحيوان العملاق واقفا لحظة أمام باستيان الذى اضطر إلى التطلع إليه كالفأر إلى

القطة ، وفجأة رقد جرأوجرمان وأخفض رأسه أمام الصبى إلى الأرض .

وقال : « سيدى ، أنا خادمك وأنتظر أوامرك ! »

فقال باستيان موضحا : « إننى أود الخروج من هذه الصحراء ، أتستطيع أن تخرجنى ؟ »

وهز جرأوجرمان لبدته بالنفى : « هذا يا سيدى ، مستحيل بالنسبة لى . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لاننى أحمل الصحراء معى . »

ولم يستطع باستيان أن يفهم ما يقصده الأسد بذلك .

ولذلك سأل قائلا : «ألا يوجد مخلوق آخر يستطيع أن يبعدنى من هنا ؟ »

فأجاب جرأوجرمان : « كيف يمكن هذا يا سيدى ، فهناك حيثما أكن لا يستطع كائن حى آخر أن يتواجد على المدى البعيد . فوجودى وحده يكفى لإحراق أقوى وأفظع الكائنات فى محيط قدره ألف ميل ، ويحوّلهم إلى كومة من الرماد . ولذلك يسموننى الموت الملون وملك صحراء الألوان . »

فقال باستيان : « أنت مخطىء ، فليس كل كائن يحترق فى مملكتك . أنا مثلا صامد لك كما ترى . »

ـ « لانك تحمل البريق يا سيدى . آورين يحميك ـ حتى من أكثر كائنات فانتازين كلها قتلا ، منّى . »

ـ « أتريد بذلك أن تقول إننى لو لم تكن معى الجوهرة ، لكان علىّ أنا أيضا أن أحترق وأتحول إلى كومة رماد ؟ »

ـ « هكذا يا سيدى ، ولكان ذلك سيحدث حتى وإن اضطرنى هذا للأسى . لأنك أنت الأول والوحيد الذى تحدّث معى على الاطلاق . »

وأمسك باستيان بالعلامة وقال بصوت منخفض : « شكرا يا طفلة الأقمار ! »

وانتصب جرأوجرمان إلى ارتفاعه الكامل مرة ثانية ونظر إلى باستيان إلى أسفل وقال :

ـ « أظن يا سيدى ، أننا لدينا أشياء نقولها لبعضنا . وربما أستطيع أن أكشف لك عن أسرار لا تعرفها . وربما تسطيع أن تفسر لى لغز وجودى الخافى علىّ . »

وهز باستيان رأسه بالإيجاب .

ـ « إذا أمكن ، فإننى أود أولا من فضلك أن أشرب الآن شيئا . فأنا ظمآن جدا . . »

فأجاب جرأوجرمان : « خادمك يسمع ويطيع ، أتريد أن تتعطف يا سيدى بالجلوس على ظهرى ؟ سوف أحملك إلى قصرى حيث تجد كل ما تحتاج إليه . »

وامتطى باستيان صهوة الأسد . وتشبث بكلتا يديه باللبدة التى كانت خصلاتها المنفردة تهتز كألسنة اللهب . ووجّه جرأوجرمان رأسه إليه وقال :

« إمسك نفسك جيدا ياسيدى ، لأننى عدّاء سريع ، وهناك شىء آخر أريد أن أرجوك من أجله يا سيدى : طالما أنت فى مملكتى أو حتى معى ـ عدنى ألا تخلع عنك الجوهرة الحامية لأى سبب ولو لأصغر لحظة . »

فقال باستيان : « أعدك هذا . »

ثم تحرك الأسد بطيئا فى بادىء الأمر وبعظمة ، ثم أكثر وأكثر سرعة على الدوام .

ولاحظ باستيان بدهشة كيف يتغير لون عرف وجلد الأسد عند كل هضبة رملية جديدة ، دائما حسب لون الكُثيّب الرملى . ولكن أخيرا قفز جرأوجرمان فى قفزات هائلة من قمة إلى أخرى وكان يسرع ولا تكاد مخالبه القوية تلمس الارض . وتتغير الألوان فى جلده بسرعة دائمة التزايد إلى أن تراقصت الأنوار أمام عينى باستيان ورأى جميع الألوان فى وقت واحد ، كما لو كان الحيوان العملاق كله قطعة واحدة من حجر الأوبال ذى الألوان القزحية . واضطر أن يغلق عينيه . والريح كالجحيم صفّر حول أذنيه وجذب فى معطفه الذى كان يهفهف من ورائه . وأحس بحركة العضلات فى

جسم الأسد وشم الخصل الكثة لعرفه الذى كان يبعث عطرا شديدا مثيرا . وأطلق صرخة انتصار مدوية ، رنت كصرخة طائر جارح ، ورد عليه جراوجرمان بزئير تزلزلت له الصحراء . وفى هذه اللحظة كانا شيئا واحداً مهما كان حجم الفارق بينهما . وكان باستيان فيما يشبه النشوة ، لم يفق منها إلا عندما سمع جرأوجرمان يقول :

ـ « لقد وصلنا يا سيدى . أتريد أن تتعطف بالنزول ؟ »

وبقفزة واحدة هبط باستيان على الأرض الرملية . ورأى أمامه جبلا مشققا من الصخور السوداء ـ أم كانت هذه أطلال أحد المبانى ؟ ولم يكن فى استطاعته أن يقول ذلك ، لأن الصخور التى كانت متناثرة نصف متآكلة بفعل الرمال الملونة أو التى كانت تشكل قباب أبواب متهالكة وأسوار أو أعمدة وشرفات ، كانت تتخللها فتحات وشقوق وقد تجوفت بطريقة كما لو كانت العاصفة الرملية قد صقلت جميع حوافها ونتوءاتها منذ أزمان سحيقة .

وسمع باستيان صوت الأسد يقول : «هذا يا سيدى هو قصرى ـ وقبرى . أدخل ، مرحبا بك كالضيف الأول والوحيد لجرأوجرمان . »

وكانت الشمس قد فقدت قوتها المحرقة ووقفت على الأفق كبيرة وشاحبة الاصفرار . وعلى ما يبدو أن الرحلة قد استغرقت أطول بكثير مما بدا لباستيان . بقايا الأعمدة أو الصخور الإبرية أو ما يحتمل أن تكون الآن ، ألقت ظلالا طويلة . وسريعا ما سيأتى المساء .

وعندما تبع باستيان الأسد عبر قبة بوابة مظلمة تؤدى إلى داخل قصر جرأوجرمان بدا له كأنما خطواته قد أصبحت أقل قوة عن ذى قبل ، بل متعبة ومتثاقلة .

ومن خلال ممر مظلم وعبر سلالم مختلفة تؤدى إلى أسفل ومرة أخرى إلى أعلى ، أتيا إلى باب كبير ، بدت ضلفه مصنوعة كذلك من الصخر الأسود . وعندما تقدم جرأوجرمان إليه ، فتح من تلقاء نفسه وعندما مر منه باستيان أيضا ، انقفل مرة أخرى من ورائه .

ووقفا الآن فى قاعة واسعة . أو بمعنى أصح ، فى كهف أضاءته مئات من المصابيح المعلقة . وكانت النار بها تشبه التنوع الملون من اللهب فى جلد جرأوجرمان . وفى الوسط ارتفعت الأرضية المغطاة بالبلاط الملون بشكل تدريجى مكونة مساحات مستديرة قبعت فيها كتلة صخرية سوداء . ووجّه جرأوجرمان إلى باستيان نظره ببطء والذى أعطى انطباعا كما لو كان قد انطفأ الآن .

وقال وصوته يرن كالهمس : « اقتربت ساعتى ، يا سيدى . ولن يبق لحديثنا وقت . ولكن لا تشغل بالك وانتظر النهار . وما حدث دائما ، سوف يحدث هذه المرة أيضا . وربما ستستطيع أن تقول لى لماذا .

ثم وجه رأسه إلى بوابة صغيرة عند الطرف الآخر من الكهف .

ــ « أُدخل هناك يا سيدى ، وستجد كل شىء معد لك . وهذا المخدع ينتظرك منذ زمن سحيق . »

واتجه باستيان إلى البوابة ، ولكن قبل أن يفتحها نظر مرة أخرى وراءه . وكان جرأوجرمان قد استقر فوق الكتلة الصخرية السوداء وكان هو نفسه الآن أسودا مثل الصخرة . **وقال بصوت كاد أن يكون همسا فقط** : « اسمع يا سيدى ، ربما ستسمع أصواتا تفزعك . ولكن لا تشغل بالك . فلا يمكن أن يحدث لك شىء طالما أنك تحمل العلامة . »

وهز باستيان رأسه ثم خطا خلال البوابة .

وكانت أمامه غرفة مزدانة بأروع ما يكون . الأرضية مغطاة بسجاجيد لينة بهيجة الألوان . الأعمدة النحيلة التى كانت تحمل قبة متعددة الانحناءات ، كانت مغطاة بفسيفساء ذهبية كانت تعكس بآلاف الانكسارات ضوء المصابيح المعلقة التى كانت تنير هنا أيضا بكل الألوان وفى أحد الأركان كانت أريكة عريضة ذات أغطية ووسائد لينة من كل نوع ، ومن فوقها شدت خيمة من الحرير الأزرق السماوى . وفى الركن الآخر نحتت الأرض الصخرية إلى حوض سباحة كبير ، تتصاعد فيه أبخرة من سائل يضىء بلون ذهبى . وعلى مائدة صغيرة منخفضة كانت أوان وصحاف بطعام ، وكذلك قنينة بمشروب بلون الياقوت وكأس ذهبى .

وجلس باستيان مربعا رجليه عند المائدة الصغيرة ومد يده . والمشروب كان طعمه حمضيا وشديدا وأطفأ الظمأ بشكل رائع . وكانت الأطعمة كلها غير معروفة لديه تماما . ولم يكن فى استطاعته حتى أن يقول إذا كانت فطائر أو قرون خضروات كبيرة أو مكسرات بعضها كان يبدو كالقرع أو البطيخ ، ولكن الطعم كان مختلفاً نهائيا ، حريفا وشديدا .

وبعد ذلك خلع ملابسه ـ العلامة فقط لم يخلعها ـ ونزل إلى الحمام . وسبح لاهيا فى تيار الماء النارى لفترة من الزمن . واغتسل وغطس ونفث الهواء مثل سبع البحر . ثم اكتشف زجاجات غريبة الشكل موجودة على حافة حوض السباحة . واعتبرها محاليل مركزة للاستحمام . فسكب من كل نوع شيئا فى الماء دون أن يبالى . فحدثت ألسنة لهب خضراء وحمراء وصفراء لعدة مرات طشّت على السطح هنا وهناك وتصاعد قليل من الدخان . وانبعثت رائحة صمغ وأعشاب مُرة .

وخرج أخيرا من الحمام وجفف نفسه بمناشف لينة كانت هناك جاهزة وارتدى ملابسه مرة ثانية . وأثناء ذلك بدا له كما لو كانت المصابيح المعلقة فى الغرفة تضىء أكثر عتامة فجأة ، وبعد ذلك اقتحم مسامعه صوت بعث فى بدنه رعدة باردة : خشخشة وطقطقة كما لو كان الجليد قد فجر صخرة ضخمة ، وتلاشى بأنين ازداد انخفاضا على الدوام .

واستمع باستيان وقلبه يخفق . وفكر فى كلمات جرأوجرمان ألا يضطرب . ولم يتكرر الصوت . ولكن السكون كاد أن يكون أكثر رعبا . وكان لابد له أن يعرف ماذا يحدث هناك ؟ وفتح باب مخدع النوم وأطل بنظره إلى الكهف الكبير . ولم يستطع فى بادىء الأمر أن يكتشف تغيرا ، خلاف أن المصابيح المعلقة كانت تضىء بعتامة أكثر ويبدأ ضوءها ينبض كضربات قلب متزايدة البطء . وكان الأسد لا يزال يجلس بنفس الوضع على الكتلة الصخرية السوداء ويبدا أنه ينظر إلى باستيان .

ونادى باستيان بصوت خافت : « جرأوجرمان . ماذا يحدث هنا ؟ ما كان هذا الصوت ؟ أكان هذا أنت؟ »

ولم يرد الأسد ولم يتحرك . ولكن عندما تقدم إليه باستيان تابعه بعينيه .

ومد باستيان يده مترددا لكى يمسح على لبدته ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى انتفض مذعورا . لقد كانت صلبه وباردة كالثلج مثل الصخرة السوداء . ونفس الإحساس أعطته مخالب ووجه جرأوجرمان . ولم يعرف باستيان ما يجب أن يفعله . ورأى أن ضلفتى الباب الضخم الحجريتين السوداوين تنفتح ببطء . فقط عندما كان فى الممر الطويل المظلم وصعد السلم إلى أعلى تساءل عما كان يريد بالخارج : فلم يكن ممكنا وجود أحد فى هذه الصحراء يستطيع إنقاذ جرأوجرمان .

ولكن لم تعد هناك صحراء .

فقد بدأ لمعان وتوهج فى كل مكان فى ظلمة الليل . ملايين من بذور النباتات الضئيلة نبتت من حبيبات الرمل التى كانت بدورها حبات بذور . لقد بدأت بيريلين غابة الليل تنمو من جديد !

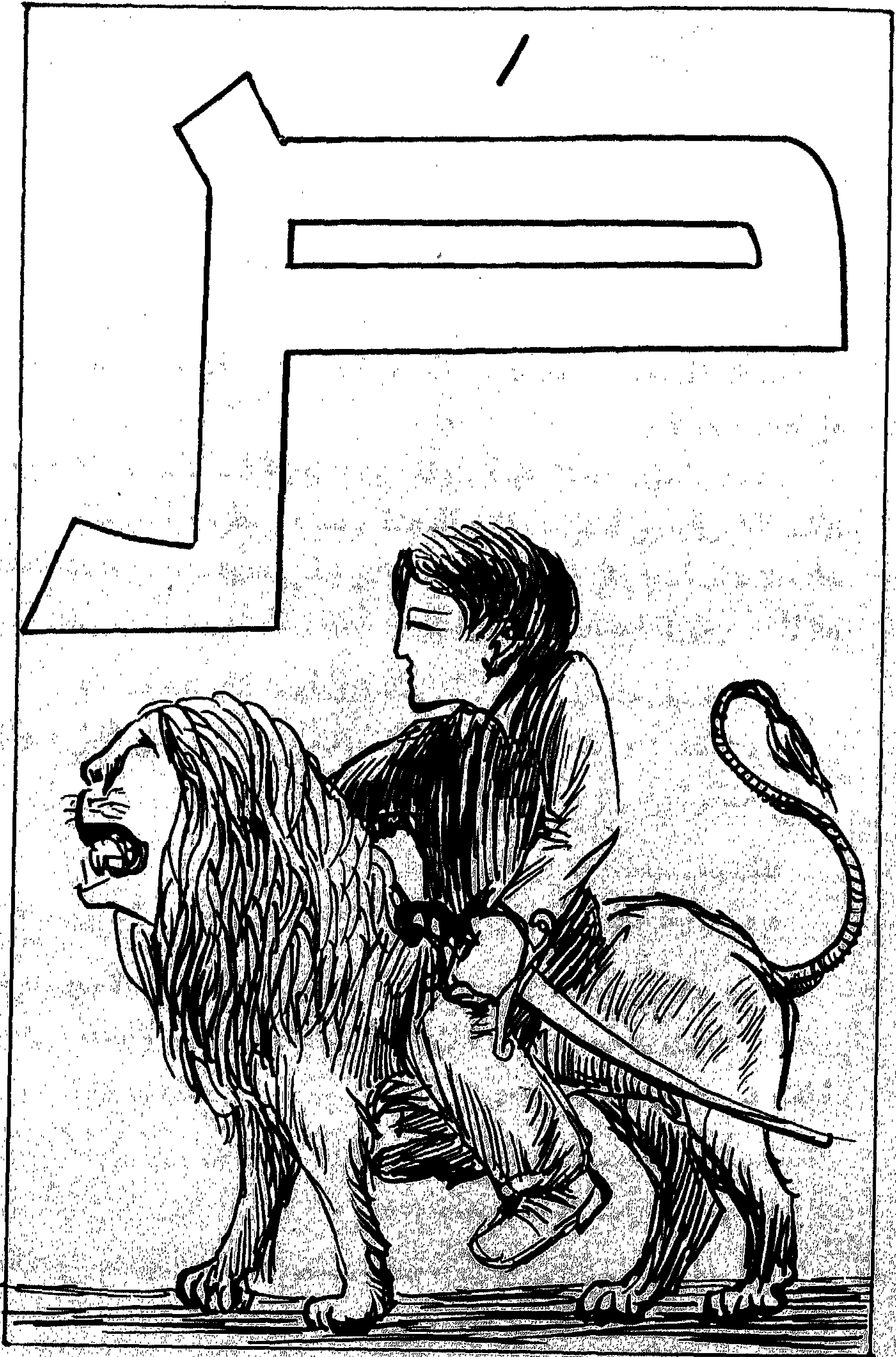
وشعر باستيان فجأة أن تصلب جرأوجرمان له علاقة بهذا بأى شكل من الأشكال .

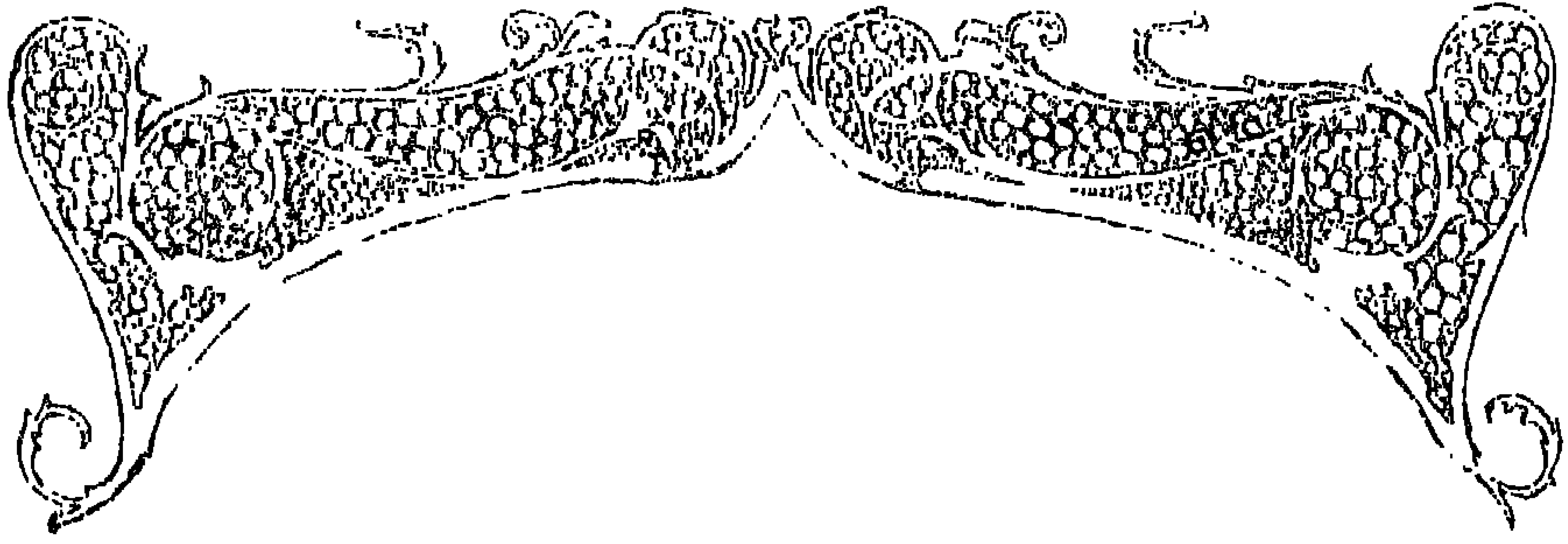
ورجع إلى الكهف . وكان الضوء فى المصابيح المعلقة لا يزال يومض ضعيفا جدا فقط . ووصل إلى الأسد ، واحتوى رقبته القوية بذراعيه وضغط وجهه على وجه الحيوان .

وكانت عينا الأسد الآن سوداء وميتة كالصخر . لقد كان جرأوجرمان متحجرا . وحدث وميض أخير للأضواء ثم عم الظلام كما فى القبر .

وبكى باستيان بمرارة وبللت دموعه الوجه الحجرى للأسد . وأخيرا تكور بين المخالب الهائلة وراح فى النوم .

١٥
جراوجرمان .. الموت الملون





ضرغام الصحراء ، قال بصوته المدوّى : « سيدى ، هل قضيت الليلة كلها على هذا النحو ؟ » .

فاعتدل باستيان ودعك عينيه . وكان يجلس بين مخالب الأسد ، وتطلع وجه الأسد الكبير إليه إلى أسفل ، وكانت الدهشة مرتسمة فى نظرة جرأ وجرمان . وكان جلده لا يزال أسود مثل الكتلة الصخرية التى يجلس عليها ، ولكن عيناه كانتا تتلألآن . وعادت المصابيح المعلقة تضىء فى الكهف .

فقال باستيان متلعثما : « آخ ، أنا ، أنا كنت أعتقد أنك تحجرت . »

فرد الأسد : « ولقد كنت ذلك . فأنا أموت يوميا عندما يقبل الليل ، وكل صباح أصحو ثانية . »

فقال باستيان شارحا : « ظننت أن ذلك للأبد . »

فرد جرأوجرمان فى غموض : « إن كل مرة تكون إلى الأبد . »

ونهض وتمطى وبعد ذلك جرى إلى هنا وهناك فى الكهف كعادة الأسود . وبدأ جلده ذو اللهب يتوهج فى ألوان البلاطات الملونة بشكل متزايد الإضاءة . وفجأة توقف عن الجرى ونظر إلى الصبى .

- « ترُى ، هل سكبت الدمع من أجلى ؟ »

فهز باستيان رأسه بالإيجاب صامتا .

فقال الأسد : « إذن فأنت لست فقط الشخص الوحيد الذى نام بين مخالب الموت الملون ، بل أيضا الوحيد الذى بكى على موته . »

ونظر باستيان إلى الأسد الذى عاد يتمشى جيئة وذهابا ، وأخيرا سأل بصوت منخفض :

- « هل أنت دائما وحيد ؟ »

وتوقف الأسد من جديد ، ولكنه هذه المرة لم ينظر إلى باستيان ، وظل مشيحا بوجهه وكرر القول بصوت مدو :

- « وحيد . . . »

ورن صدى الكلمة فى الكهف .

- « مملكتى هى الصحراء ــ وهى أيضا من صنعى . وأى مكان أتوجه إليه ، كل شىء من حولى لابد وأن يصبح صحراء . إننى أحملها معى . أنا من نار مميتة . فكيف إذن يمكن لشىء آخر أن يكون مُقّدرا لى غير الوحدة الدائمة ؟ »

وصمت باستيان مشدوها .

وواصل الأسد كلامه بينما هو يتقدم إلى الصبى وينظر إلى وجهه بعينين متوهجتين : « أنت ، ياسيدى يا من تحمل علامة الإمبراطورة الطفولية تستطيع أن تمنحنى إجابة : لماذا لابد لى أن أموت عندما يقبل الليل ؟ »

فقال باستيان : « لكى تستطيع بيريلين ، غابة الليل أن تنمو فى صحراء الألوان . »

فقال الأسد مكررا : « بيريلين ؟ ما هذا ؟ »

والآن قص باستيان عن عجائب الأدغال التى تتكون من النور الحى . وبينما جرأوجرمان يستمع بدهشة ودون أن يتحرك ، وصف له تنوع وروعة النباتات ذات الوهج والوميض الفوسفورى ، التى تتكاثر من نفسها ، ونموها الصامت الذى لا يتوقف ، وجمالها الحالم وعظمتها . وكان يتحدث بحماس ، وعينا جرأوجرمان تتوهج بضوء متزايد على الدوام .

وختم باستيان كلامه قائلا : « وكل هذا لا يمكن إلاّ بينما تكون أنت متحجرا ولكن بيريلين كانت ستبتلع كل شىء وتختنق بنفسها ، إذا لم يتحتم عليها أن تموت وتنذوى ، حينما تستيقظ أنت . بيريلين وأنت ، يا جرأوجرمان ، تنتميان إلى بعض . »

وصمت جرأوجرمان لوقت طويل .

ثم قال : « سيدى ، إننى أرى الآن أن موتى يمنح حياة ، وحياتى تمنح الموت ، وكلاهما حسن . الآن فهمت مغزى وجودى . أشكرك . »

وخطا ببطء ووقار إلى أظلم ركن بالكهف . ولم يستطع باستيان أن يرى ماذا يفعله هناك ولكنه سمع صليلاً معدنيا . وعندما رجع جرأوجرمان ، كان يحمل شيئا فى فمه وضعه أمام قدمى باستيان بانحناءة عميقة برأسه .

لقد كان سيفا .

وفى الحقيقة لم يكن يبدو عليه الفخامة . والجراب الذى كان بداخله ، كان صدئا ومقبضه يكاد يبدو كمقبض سيف الأطفال المصنوع من أى قطعة خشبية قديمة .

وسأل جرأوجرمان : « أتستطيع أن تمنحه اسما ؟ »

وتأمله باستيان بتفكير .

وقال : « سيكاندا ! »

وفى هذه اللحظة خرج السيف محدثا صفيرا من جرابه وطار بالفعل إلى يده . ورأى الآن أن صفحته تتكون من الضوء اللامع الذى يكاد المرء لا يستطيع النظر إليه . وكان ذا حدين وخفيف الوزن فى اليد كالريشة .

وقال جرأوجرمان : « إن هذا السيف كان منذ الأزل محددا لك . . ؛ لأن لا أحد يستطيع أن يلمسه بدون خطورة إلا من امتطى صهوتى . وأكل وشرب من نارى واستحم فيها مثلك . ولكن فقط لأنك استطعت أن تمنحه اسمه الصحيح فهو يخصك . » وهمس باستيان وتأمل الضوء اللامع وهو مأخوذ ، بينما هو يدير السيف فى الهواء ببطء : « سيكاندا ! ، إنه سيف سحرى ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب جرأوجرمان : « لا يوجد شىء فى فانتازين يصمد أمامه سواء كان صُلبا أو صخرا . ولكن لا يجوز لك أن تستعمل القوة معه . مسموح لك أن تستخدمه فقط عندما يقفز بنفسه إلى يدك مثل الآن ــ مهما كان ما يهددك . فإنه سوف يقود يدك ويفعل بقوته الخاصة ما يجب فعله . ولكن إذا أنت سحبته من جعبته

حسب رغبتك ، فإنك سوف تجلب شقاء عظيما عليك وعلى فانتازين . لا تنس هذا أبدا . »

فوعد باستيان قائلا : « لن أنسى هذا . »

وعاد السيف إلى جرابه ، وبدا منظره الآن قديما وعديم القيمة مرة ثانية . وربط باستيان السير الجلدى الذى يتدلى منه الجراب ، حول وسطه .

واقترح جرأوجرمان قائلا : « والآن ياسيدى دعنا نعدو سويا خلال الصحراء ، إذا أعجبك هذا اصعد على ظهرى ، لأننى لابد أن أخرج الآن ! »

وامتطى باستيان صهوته وسار الأسد متمهلا إلى الفلاة . وصعدت شمس الصباح فوق أفق الصحراء ، وكانت غابة الليل قد تناثرت إلى رمال ملونة مرة ثانية منذ وقت طويل . وهكذا انطلقا سويا فوق الكثبان كحريق من النيران المتراقصة كرياح عاصفة متوهجة . وشعر باستيان كما لو كان يمتطى نيزكا مشتعلا عبر الضياء والألوان . ومرة أخرى انتابه ما يشبه النشوة الهوجاء .

وفى وقت الظهيرة تقريباً توقف جرأوجرمان فجأة .

– « هذا ياسيدى ، هو الموضع الذى تقابلنا فيه أمس . »

وكان باستيان مخدرا قليلا من العدو الشديد . ونظر حوله ، ولكنه لم يكتشف لا الهضبة الرملية الزرقاء بلون اللازورد ولا الحمراء النارية . وكذلك لم يعد يرى شيئا من الحروف . وكانت الكثبان الرملية الآن خضراء بلون الزيتون ووردية .

فقال : « إن كل شىء مختلف تماما . »

فرد الأسد : « أجل ياسيدى ، هكذا الحال كل يوم ــ فى اختلاف دائم . لم أكن أعرف فيما مضى لماذا الأمر على هذا النحو . ولكننى الآن أستطيع أن أفهم هذا أيضا لأنك حكيت لى أن بيريلين تنشأ من الرمال . »

– « ولكن ممّ عرفت أنه موضع الأمس ؟ »

– « إننى أشعر به كما أشعر بموضع فى جسدى . الصحراء جزء منى . »

وترجل باستيان من على ظهر جرأوجرمان وجلس على القمة الخضراء بلون الزيتون . واتخذ الأسد عرينه إلى جانبه ، وكان هو الآن أخضر بلون الزيتون .

وسند باستيان ذقنه على يده ونظر إلى الأفق بتأمل .

وقال بعد صمت طويل : « هل أستطيع أن أسألك شيئا ياجرأوجرمان ؟ »

وأجاب الأسد قائلا : « خادمك يسمع . »

- « هل أنت فعلا منذ الأزل هنا ؟ »

فقال جرأوجرمان مقررا هذا : « منذ الأزل . »

- « وصحراء جوآب هل هي أيضا كانت موجودة منذ الأزل ؟ »

- « نعم ، الصحراء أيضا . لماذا تسأل ؟ »

وفكر باستيان برهه .

وأخيرا اعترف قائلا : «لست أفهم هذا . إنني كنت سأراهن أنها موجودة فقط منذ صباح أمس . »

- « ماذا تقصد بهذا ياسيدي ؟ »

وحكى له باستيان الآن كل ما عايشه منذ قابل طفلة الأقمار .

وأنهى حكايته قائلا : « إن كل شيء غريب ، تأتي إليّ أمنية ما وبعد ذلك يحدث دائما على الفور شيء يناسبها ويحقق الأمنية . إنني لا أختلق هذا ، أتعرف ؟ ليس هذا في استطاعتي . فإنني لن أستطيع أبدا أن أخترع كل نباتات الليل المختلفة في بيريلين . أو ألوان جوآب ـ أو أنت ! إن كل شيء أكثر روعة وواقعية من أن أستطيع تصوره . وبرغم ذلك فكل شيء دائما يتواجد فقط عندما أكون قد تمنيته . »

فقال الأسد : « هذا يحدث لأنك تحمل آوْرينْ ، البريق . »

وحاول باستيان الإيضاح بقوله : « إن مالا أفهمه شيء آخر . أكل هذا لا يكون إلا عندما أتمنى لنفسي شيئا ، أم كان موجودا فعلا من قبل ، وأنا خمنته فقط بشكل ما ؟ »

وقال جرأوجرمان : « كلاهما . »

فصاح باستيان وصبره يكاد ينفذ : « ولكن كيف يمكن لهذا أن يكون ؟ أنت هنا ، من يدري منذ متى ، في صحراء الألوان جُوآب . والعرفة في قصرك كانت تنتظرني منذ الأزل . والسيف سيكاندا كان مُقدّرا لي منذ قديم الزمن ـ لقد قلت هذا بنفسك ! »

– « الأمر هكذا ياسيدى . »

– « ولكنى ، أنا فى فانتازين منذ ليلة أمس فقط ! فإن كل هذا ليس له وجود فقط منذ وجودى هنا ! »

فرد الأسد بهدوء : « سيدى ، ألا تعلم أن فانتازين هى مملكة القصص ؟ يمكن لقصة أن تكون جديدة ولكنها تحكى عن أزمنة قديمة الأزل . الماضى ينشأ معها . »

فقال باستيان فى حيرة : « إذن لابد وأن بيريلين أيضا كانت موجودة دائما . »

فرد جرأوجرمان : « منذ اللحظة التى منحتها فيها اسمها ، ياسيدى ، وُجدت منذ الأزل . »

– « أتريد أن تقول بذلك اننى خلقتها ؟ »

وصمت الأسد برهة قبل أن يجيب قائلا : « هذا ما تستطيع أن تقوله لك الإمبراطورة الطفولية فقط . لقد تلقيتَ منها كل شىء . »

ونهض . ـ « حان الوقت ياسيدى ، أن نعود إلى قصرى . الشمس تميل والطريق بعيد . »

وفى هذا المساء بقى باستيان مع جرأوجرمان الذى استقر ثانية فوق الكتلة الصخرية السوداء . ولم يعودا للحديث كثيرا سويا . وأحضر باستيان لنفسه الطعام والشراب من مخدع النوم حيث كانت المائدة الصغيرة المنخفضة معدة مرة أخرى كما لو كانت بيد الأشباح . وتناول الوجبة وهو جالس على الدرجات المؤدية إلى الكتلة الصخرية بأعلى . وعندما ازدادت عتامة المصابيح المعلقة وبدأت تنبض كضربات قلب يتزايد بطئا باستمرار ، نهض ولف ذراعيه وهو صامت حول رقبة الأسد . وكانت اللبدة صلبة قد بدا منظرها مثل الحمم البركانية المتجمدة . وصدر مرة أخرى هذا الصوت المرعب ، ولكن باستيان لم يعد يعرف الخوف . إن ما دفع الدموع إلى عينيه مرة أخرى ، كان الحزن على حتمية آلام جرأوجرمان .

مرة أخرى تحسس باستيان طريقه فيما بعد من الليل خارجا إلى الخلاء وتفرج لوقت طويل على النمو الصامت لنباتات الليل المضيئة . ثم رجع إلى الكهف ورقد مرة أخرى بين مخالب الأسد المتحجر .

وظل ضيفا على الموت الملون لأيام وليال كثيرة وأصبحا أصدقاء . وكانا يقضيان بعض الساعات فى لهو صاخب . فكان باستيان يختبىء بين الكثبان الرملية ، ولكن جرأوجرمان كان يعثر عليه دائما . وكانا يتسابقان ولكن الأسد كان أسرع ألف مرة . بل انهما كانا يتقاتلان مع بعضهما مازحين ، يتصارعان ويتعاركان ـ وهنا كان باستيان نِدًّا . وبالرغم من أن ذلك لم يكن إلا لهوا ، فقد اضطر جرأوجرمان أن يبذل كل قواه لكى يظهر نفسه ندًّا للصبى . ولم يستطع واحد منهما أن يتغلب على الآخر . ذات مرة ، وبعد أن تصاحبا على هذا النحو ، جلس باستيان مقطوع الأنفاس قليلا وسأل قائلا : « ألا أستطيع أن أبقى معك إلى الأبد ؟ »

وهز الأسد لبدته بالنفى قائلا : « كلا ، ياسيدى . »

- « لِمَ لا ؟ »

- « هنا توجد فقط حياة وموت ، فقط بيريلين وجوآب ، ولكن لاتوجد قصة يجب أن تعايش قصتك . غير مسموح لك بالبقاء هنا . »

فقال باستيان : « ولكننى لا أستطيع الانصراف . الصحراء أكثر بكثير من أن يتمكن أى فرد من الخروج منها . وأنت لا تستطيع إخراجى لأنك تحمل الصحراء معك . »

فقال جرأوجرمان : « أنت لا تستطيع العثور على طرق فانتازين إلا بواسطة أمنياتك . وأنت دائما لا تستطيع إلا أن تسير من أمنية إلى أمنية تالية . ومالا تتمناه فهو بالنسبة لك لايمكن الوصول إليه ،هذه هى معانى كلمات « قريب » و « بعيد » هنا . ولا تكفى أيضا الرغبة فى الانصراف من أحد الأمكنة فقط . فعليك أن تسعى إلى مكان آخر . عليك أن تدع أمنياتك تقودك . »

فأجاب باستيان قائلا : « ولكننى لا أتمنى إبعاد نفسى على الإطلاق . »

فرد جرأوجرمان بما يكاد يكون صارما : « سوف يتحتم عليك أن تعثر على أمنيتك التالية . »

وسأل باستيان : « وإذا لم أعثر عليها ، كيف سأتمكن حينئذ من الانصراف من هنا ؟ »

وتحدث جرأوجرمان بصوت منخفض : « اسمع ياسيدى ، يوجد فى فانتازين مكان يؤدى إلى كل مكان ، ويمكن الوصول إليه من كل مكان . وهذا المكان يسمى معبد الألف باب . لا أحد رآه من الخارج من قبل ، لأنه ليس له مظهر خارجى . ولكن داخله يتكون من حديقة تيه ذات أبواب . من أراد التعرف عليه ، فيجب أن يجرؤ على الدخول فيه . »

ـ «كيف يمكن هذا ، إذا كان لا يمكن الاقتراب منه من الخارج على الإطلاق ؟ »

وأكمل الأسد كلامه قائلا : « كل باب ، كل باب فى فانتازين ، حتى باب عادى جدا لحظيرة أو لمطبخ ، وحتى باب الصوان يمكنه فى لحظة معينة أن يصبح بوابة الدخول إلى معبد الألف باب . وإذا مرت اللحظة ، فإنه يعود مرة أخرى إلى ما كان من قبل . ولذلك لا أحد يستطيع أن يمر من نفس الباب للمرة الثانية أبدا . ولا يؤدى واحد من الأبواب الألف ثانيةً إلى المكان الذى جىء منه . فلا توجد عودة . »

فسأل باستيان : « ولكن إذا ما كان الإنسان بالداخل مرة ، فهل يستطيع الخروج مرة أخرى من مكان ما ؟ »

فأجاب الأسد : « نعم ، ولكن الأمر ليس بالسهولة التامة كما هو الحال لدى المبانى العادية . لأن أمنية حقيقية فقط هى التى تستطيع أن تقودك خلال حديقة تيه الألف باب . ومن لا يمتلكها يتحتم عليه البقاء بالداخل إلى أن يعرف ما يتمناه لنفسه . وهذا يستغرق أحيانا وقتا طويلا جدا . »

– « وكيف يمكن العثور على بوابة الدخول ؟ »

– « يجب تمنيها . »

وفكر باستيان طويلا ثم قال :

– « عجيب ألا يستطيع الإنسان مجرد تمنى ما يريد . من أين تأتى الأمنيات إلينا ياترى ؟ وما تكون الأمنية ؟ »

ونظر جرأوجرمان إلى الصبى بدهشة ، ولكنه لم يجب .

وبعد ذلك بأيام كان لهما مرة أخرى حديث هام جدا .

باستيان أرى الأسد النقش المكتوب على ظهر الجوهرة . وسأل قائلا : « تُرى مامعنى هذا ؟ افْعَلْ ماأَنتَ تُرِيدْ ، هذا يعنى أنه مسموح لى أن أفعل كل ما يحلو لى ، ألست من هذا الرأى ؟ »

وبدا وجه جرأوجرمان فجأة جادا بشكل مفزع وبدأت عيناه تتوهجان .

وقال بذلك الصوت العميق المدوى : « كلا ، هذا يعنى أن عليك أن تفعل إرادتك الحقيقية . وليس هناك أصعب من ذلك . »

فكر باستيان القول متأثرا : « إرادتى الحقيقية ؟ وماهذه ؟»

- « إنها سرك الخاص الدفين الذى لا تعرفه . »

- « وكيف يمكننى التوصل إليه ؟ »

- « بأن تسير فى طريق الأمانى ، من أمنية إلى أخرى وحتى الأمنية الأخيرة . وهذه سوف تقودك إلى إرادتك الحقيقية . »

فقال باستيان : « إن هذا يبدو لى ليس صعبا فى الواقع . »

فقال الأسد : « إنه من ضمن كل الطرق أخطرها . »

فسأل باستيان : « لماذا ؟ إننى لست خائفا . »

فقال جرأوجرمان بصوته المدوى : « ليس هذا هو محور الأمر ، إنها تتطلب أعلى درجة من الصدق والاهتمام ، لأن الأمر فى أى طريق آخر ليس على نفس القدر من السهولة لكى يضل الإنسان نهائيا . »

فسأل باستيان متفحصا : « أتقصد ، ربما لأن الأمنيات التى لدى الإنسان ليست ، دائما طيبة ؟ »

وفرقع الأسد بذيله على الرمال التى يرقد عليها . ورفع أذنيه وتكشرت أشفاره وتطايرت النار من عينيه . واختبأ باستيان لا إراديا عندما قال جرأوجرمان بصوت زلزل الأرض مرة أخرى :

- « ماذا تعرف عما هى الأمانى ! ماذا تعرف عما هو طيب ! »

وفى الأيام التالية فكر باستيان كثيرا فى كل ما قاله الموت الملون له . ولكن بعض الأشياء لا يمكن تقصيها عن طريق التفكير ، يجب أن يعايشها الإنسان . وهكذا

حدث أنه بعد ذلك بوقت طويل وبعد أن خابر الكثير أن أعاد تفكيره فى كلمات جرأوجرمان وبدأ يفهمها .

وحدث لباستيان فى هذا الوقت تغير آخر . فقد أتت الآن الشجاعة أيضا إلى جانب كل المواهب التى تلقاها منذ التقائه بطفلة الأقمار . ومثل كل مرة أُخذ منه شىء هذه المرة أيضا فى مقابل ذلك ، وهو ذلك التذكر لشعوره السابق بالخوف .

وحيث إنه لم يعد الآن هناك شىء يخاف منه فقد أخذت تتشكل به أمنية جديدة غير ملحوظة فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك إزدادت دائما فى الوضوح . انه لم يعد يريد أن يكون وحيدا . وحتى مع الموت الملون كان وحيدا بشكل ما . لقد أراد أن يظهر قدراته أمام الآخرين ، أراد أن يكتسب الإعجاب والمجد .

وفى ليلة من الليالى ، عندما كان يشاهد نماء بيريلين مرة أخرى ، شعر فجأة أن هذه هى المرة الأخيرة وأنه يجب عليه أن يودع بهاء غابة الليل المنيرة . لقد نادى عليه صوت داخلى بالابتعاد .

وألقى نظرة أخيرة على روعة الألوان المتوهجة ، ثم نزل إلى كهف قبر جرأوجرمان وجلس على الدرجات فى الظلام . ولم يكن فى استطاعته أن يقول ماذا كان ينتظر ، ولكنه كان يعرف أنه غير مسموح له أن يخلد للنوم فى هذه الليلة . ولكنه ربما راح فى إغفاءة بسيطة وهو جالس ، لأنه استيقظ فجأة كما لو كان شخص ما قد ناداه بالاسم .

وكان الباب المؤدى إلى مخدع النوم قد فُتح . وسقط من الشق شريط طويل من الضوء المائل للحمرة خلال الكهف المظلم . ونهض باستيان . هل تحول الباب فى هذه اللحظة إلى مدخل لمعبد الألف باب ؟ واقترب من الشق فى تردد وحاول أن ينظر من خلاله . ولم يستطع أن يتعرف على شىء . ثم بدأ الشق ينغلق مرة ثانية ببطء ولسوف تمر الفرصة الوحيدة وتنقضى على الفور !

واستدار مرة أخرى إلى جرأوجرمان الجالس بلا حراك على قاعدته بعيون حجرية ميتة . وكان شريط الضوء الآتى من الباب يقع عليه بالذات .

وقال بصوت منخفض : « وداعا يا جرأوجرمان ، وشكرا على كل شيء . سوف أعود ، بالتأكيد التام سأعود . »

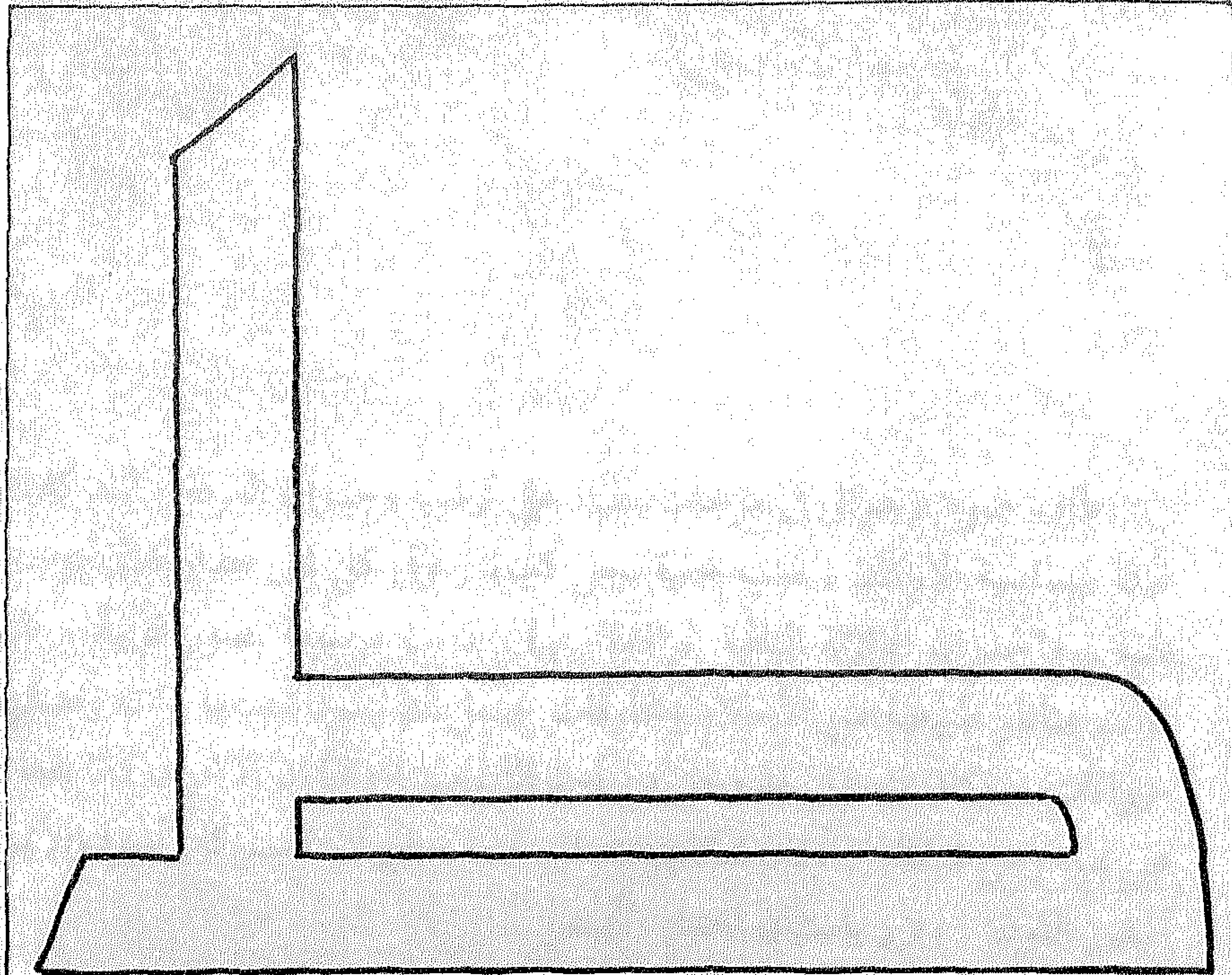
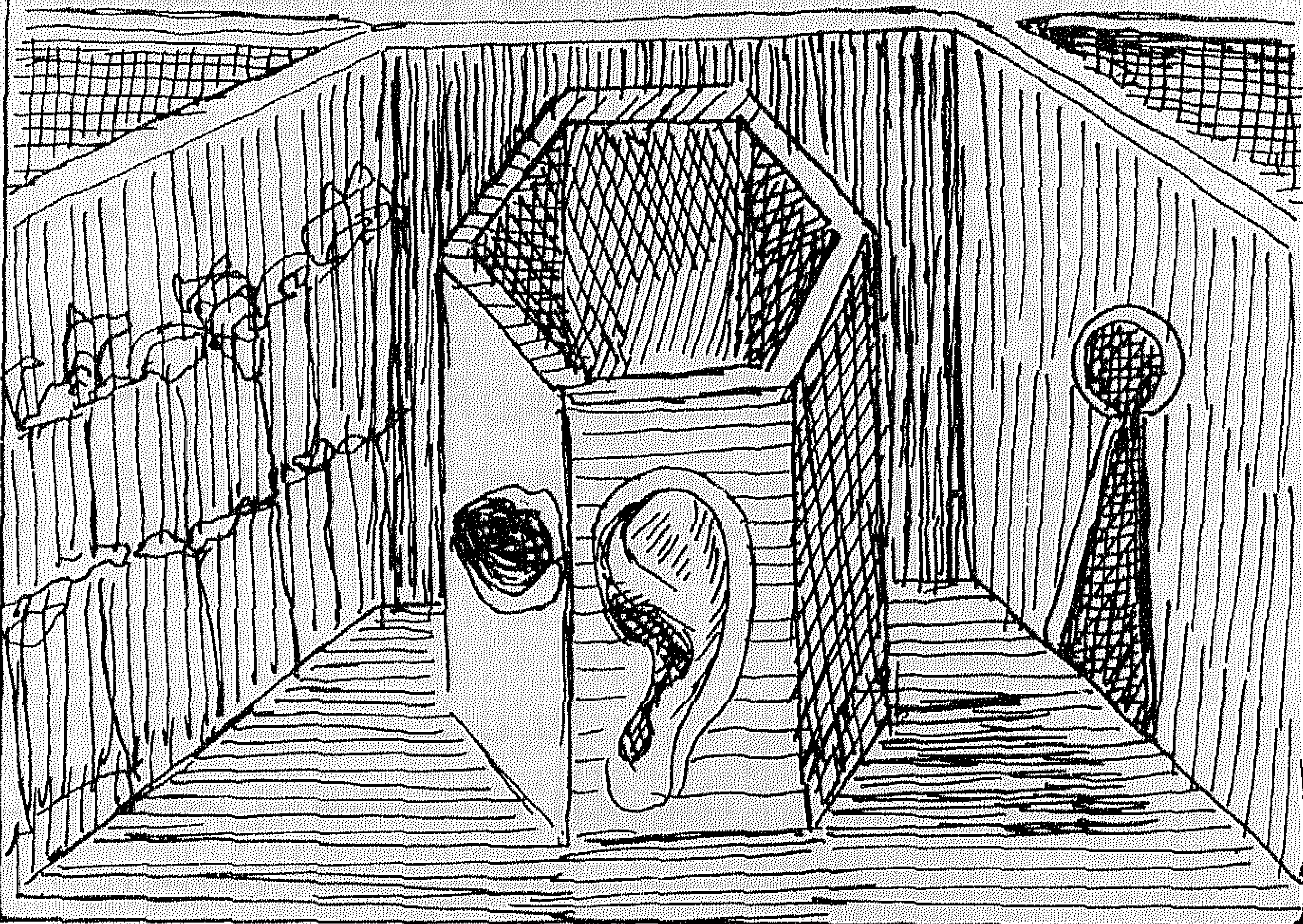
ثم دلف من خلال شق الباب الذى انقفل من ورائه مباشرة .

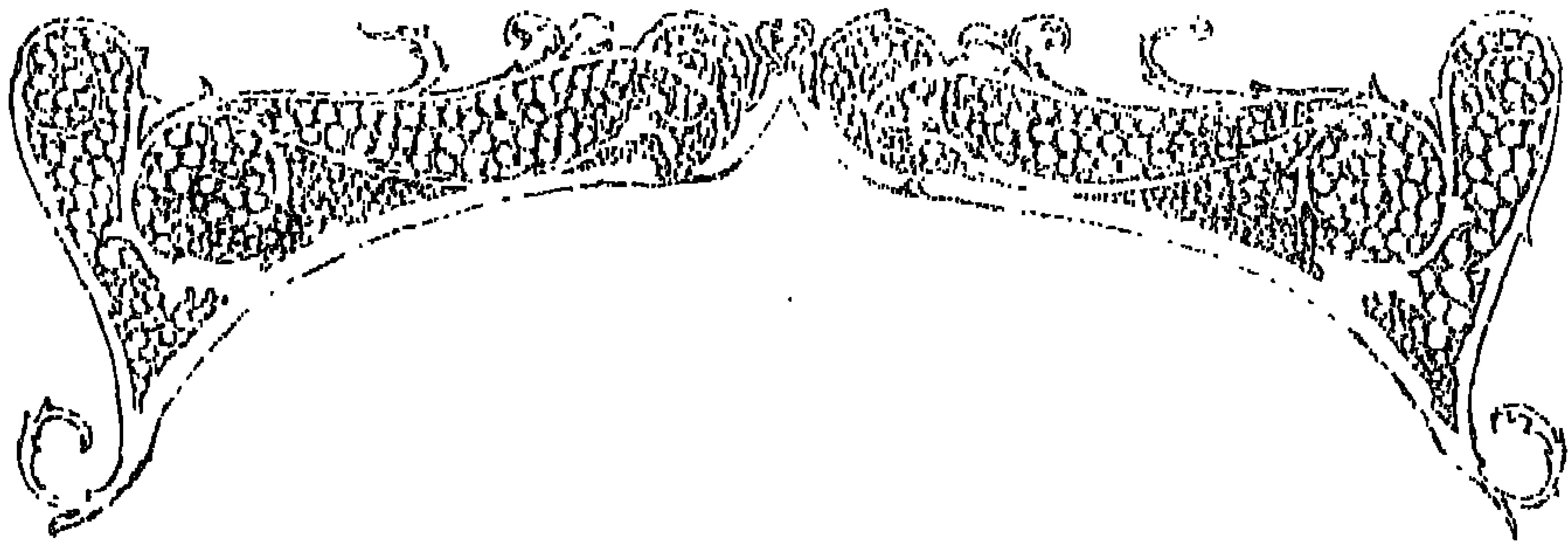
ولم يكن باستيان يعرف أنه لن يفى بوعده . وسوف يأتى شخص فيما بعد بوقت طويل طويل ويحققه بإسمه وبالنيابة عنه .

ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

١٦

أَمْجانت.. مدينة الفضة



طاف ضوء أرجوانى فى موجات بطيئة على أرضية وجدران الغرفة . لقد كانت غرفة سداسية الأركان ، تشبه خلية نحل كبيرة . وفى كل ثانى جدار كان يوجد باب ، والجدران الثلاثة الباقية الواقعة بينها ، كانت مرسومة بصور غريبة ، لقد كانت مناظر طبيعية من الأحلام ومخلوقات يحتمل أن يكون نصفها نبات ونصفها حيوانات . وكان باستيان قد دخل من أحد الأبواب ، والبابان الآخران كانا يقعان عن يمينه وعن شماله . وكان شكلهما متساويا تماما ، غير أن الأيسر كان أسود والأيمن أبيض اللون . وقرر باستيان اختيار الأبيض .

وكان ضوء أصفر اللون يسود الغرفة التالية . والجدران كانت بنفس النظام . والصور تعرض هنا أدوات مختلفة الأنواع لم يستطع باستيان أن يفهم منها شيئا . هل كانت أدوات أم أسلحة ؟ وكلا البابين المؤديين إلى اليسار وإلى اليمين كان لهما نفس اللون ، وكانا باللون الأصفر ، ولكن الباب الأيسر كان عاليا وضيقا ، أما اليمين فقد كان منخفضا وعريضا . ومشى باستيان من خلال الأيسر .

الغرفة التى دخلها الآن كانت مثل الاثنتين السابقتين ، ولكنها مضاءة بلون أزرق . وعرضت صور الجدران زخارف متعرجة أو كتابات لأبجدية غريبة . وهنا كان فعلا لكلا البابين نفس الشكل ولكن من مادة مختلفة ، واحد من الخشب والثانى من المعدن . وقرر باستيان اختيار الخشبى .

من المستحيل وصف جميع الأبواب والغرف التى سار باستيان من خلالها أثناء تجواله عبر معبد الألف باب . فكانت هناك بوابات منظرها مثل ثقوب الكوالين ، وأخرى تشبه مداخل الكهوف ، وكانت هناك أبواب ذهبية وصدئه ، مبطنة ،

ومزودة بالمسامير ، رقيقة مثل الورق ، وأخرى فى سمك أبواب الخزائن ، وكان هناك باب منظره كفم عملاق ، وآخر لابد أن يُفتح مثل الجسر الذى يُجذب بالسلاسل ، وباب يشبه أُذن كبيرة وآخر مصنوع من الكعك ، وباب مُشكل على هيئة غطاء المدفأة ، وآخر لابد أن يُفتح بالأزرار . ودائما كان لكلا البابين المؤديين إلى خارج الغرفة ، شىء ما مشترك بينهما : الشكل ، المادة ، الحجم ، اللون - ولكن أيضا شىء ما كان يفرق بينهما تفريقا أساسيا .

وكان باستيان قد دخل لمرات عديدة من غرفة سداسية إلى أخرى . وكل قرار اتخذه ، كان يقوده دائما إلى قرار جديد يجذب بدوره قرارا آخر من بعده . ولكن هذه القرارات لم تغير من أنه مازال فى معبد الألف باب - وأنه سوف يبقى . وبينما هو يواصل المسير باستمرار ، أخذ يفكر فيما يمكن أن يكون سببا لذلك . صحيح أن أمنيته كانت كافية لقيادته إلى حديقة التيه ، ولكنها على ما يبدو لم تكن كافية بالضبط ، لكى تجعله يعثر أيضا على الطريق إلى الخارج . وكان قد أعرب عن أمنيته فى رفقة الناس . ولكنه أدرك الآن ، أنه لم يكن لديه مطلقاً تصور دقيق عن ذلك . ولم يفده بأقل القليل أن يقرر اختيار باب من زجاج أو من جدائل الخوص . وحتى الآن كان يتخذ قراره لمجرد نزعة أو رغبة عنده ، دون أن يفكر كثيرا أثناء ذلك . وفى الواقع كان يستطيع كل مرة أن يتخذ الباب الآخر بنفس القدر . ولكنه بهذا الشكل لن يعثر على طريق الخروج أبدا .

وفى ذلك الوقت كان يقف فى غرفة ضوءها أخضر . ثلاثة من الجدران الستة كانت مرسومة بأشكال على هيئة السحاب . الباب الأيسر مصنوع من الصدف الأبيض . والباب الأيمن من الأبنوس الأسود . وفجأة عرف ما يتمناه لنفسه : أتريو .

لقد ذكّر الباب الصدفى باستيان بتنين الحظ فُخور الذى كانت قشوره تتلألأ كالصدف الأبيض ، ولهذا قرر اختيار هذا .

وفى الغرفة التالية كان هناك بابان ، أحدهما كان مصنوعا من جدائل الأعشاب لأنه كان يفكر فى بحر الأعشاب ، وطن أتريو .

وفى الغرفة التى بعدها وجد نفسه أمام بابين لم يكن هناك اختلاف بينهما سوى أن أحدهما مصنوع من الجلد والثانى من اللباد . ومشى باستيان طبعا عبر الباب الجلدى . ومرة أخرى وقف أمام بابين ، وهنا كان عليه أن يفكر مرة أخرى . أحدهما كان أحمر أرجوانيا والثانى أخضر زيتونيا . وكان أتريو من ذوى الجلد الأخضر ، وكان يرتدى معطفا من جلد الجاموس الأرجوانى . وكان مرسوما على الباب الأخضر الزيتونى بعض العلامات البسيطة بلون أبيض مثلما كان على جبهة وخدى أتريو عندما أتى إليه كايرون العجوز . ولكن نفس العلامات كانت أيضا على الباب الأحمر الأرجوانى ، ولم يكن باستيان يعرف اذا كانت مثل هذه العلامات على معطف أتريو . إذن لابد وأنه عبارة عن طريق يؤدى إلى شخص آخر ولكن ليس إلى أتريو .

وهكذا فتح باستيان الباب الأخضر الزيتونى ــ ووقف فى الخلاء . ولكنه لدهشته لم يأت إلى بحر الأعشاب ، ولكن إلى غابة غير كثيفة فى نضارة الربيع . وتخللت أشعة الشمس من بين الأوراق اليانعة ، لمعت تنوعات الضوء والظلال على الأرض المغطاة بالطحالب . وانبعث عطر الأرض ونبات عش الغراب ، والهواء العليل تملأه شقشقة الطيور .

واستدار باستيان ورأى أنه قد خرج على التو من مصلى صغير للغاية . لقد كان إذن فى هذه اللحظة هو مخرج معبد الألف باب . وفتحه باستيان مرة أخرى ، ولكنه لم ير أمامه سوى الغرفة الصغيرة الضيقة للمصلى . وكان السطح يتكون فقط من عدة دعامات خشبية متداعية تبرز فى الهواء بالغابة وكانت جدرانه مكسوة بالطحالب .

ومشى باستيان دون أن يدرى فى بادىء الأمر إلى أين . ولم يشك فى أنه إن آجلا أو عاجلا سيلتقى بأتريو . وابتهج غاية الابتهاج التام للقاء . وكان يصفر للطيور . التى ردت عليه وكاد يغنى بصوت عال وسعادة بما يخطر على باله فى ذلك الوقت .

وبعد وقت قصير من التجول شاهد فى مكان خال من الأشجار مجموعة من الأشخاص قد نصبت خيامها هناك . وعند اقترابه اتضح له أنها عبارة عن عدة رجال فى دروع ضخمة . وكذلك كانت لديهم سيدة جميلة . وكانت تجلس على الحشائش

وتداعب أوتار عود موسيقى . وفى الخلفية كانت تقف بعض الأحصنة المطهمة وقات السروج الغالية . وكانت ملاءة بيضاء مفرودة أمام الرجال الراقدين على الحشائش يتسامرون ، وعليها مختلف أنواع المأكولات وكئوس الشراب .

واقترب باستيان من المجموعة ، ولكنه خبأ قبلها حجاب الامبراطورة الطفولية تحت قميصه ، لأنه كان يرغب فى التعرف على الجماعة فى بادىء الأمر وهو مجهول ودون أن يلفت النظر .

وعندما رأوه قادما نهض الرجال وحيوه بأدب وهم ينحنون . على ما يبدو أنهم اعتقدوا أنه أمير شرقى أو ما شابه ذلك . وكذلك السيدة الجميلة أحنت رأسها أمامه وهى تبتسم واستمرت فى مداعبة آلتها . ومن بين الرجال كان رجل ذا ضخامة خاصة ، وملابس فخمة جدا ، وكان لايزال شابا وله شعر أشقر ينسدل على كتفيه

وقال : « أنا البطل هينريك ، وهذه السيدة هى الأميرة أوجلمار ، ابنة ملك لُنْ . هؤلاء الرجال أصدقائى وهم هيكريون وهيزبالد وهيدورن . وما هو اسمكم أيها الصديق الشاب ؟ »

فأجاب باستيان : « لايجوز لى أن أذكر اسمى ـ ليس بعد . »

فسألت الأميرة أوجلمار بشىء من التهكم :« أهو نذر ؟ بهذا السن الصغير وتهب نذراً ؟ »

فقال البطل هينريك راغبا المعرفة : « أنتم قادمون بالتأكيد من مكان بعيد ؟»

فرد باستيان : « نعم ، من بعيد جدا . »

فاستفسرت الأميرة وهى تنظر إليه بإعجاب : « هل أنتم أمير ؟»

فأجاب باستيان : « إننى لاأبوح بذلك . »

فصاح البطل هينريك : « على كل حال مرحبا بكم لدى مائدتنا المستديرة . أتريدون أن تشرفونا بالجلوس معنا وتناول الطعام والشراب ، أيها السيد الشاب ؟ » وقبل باستيان الدعوة شاكرا وجلس ومد يده

وعلم من الحديث الذى أدارته السيدة والسادة الأربعة أن مدينة الفضة الكبيرة الرائعة أمرجانت تقع على مقربة شديدة . وهناك سيجرى نوع من المبارزة . وقد أتى من كل صوب وحدب أشجع الأبطال وأحسن المطاردين ، وأكثر المقاتلين إقداما ، ولكن أيضا شتى المغامرين والجسورين لكى يشتركوا فى الاحتفال . فقط أفضل وأشجع ثلاثة يهزمون الآخرين كلهم ، سوف ينالون شرف الاشتراك فى نوع من بعثات البحث . وهى على ما يبدو عبارة عن رحلة طويلة جدا ومليئة بالمغامرات ، هدفها العثور على شخصية معينة تقيم فى مكان ما من بلاد فانتازين التى لاتحصى والذى يسمى فقط « المنقذ » ولم يكن أحد بعد يعرف الاسم . وعلى كل حال فإن مملكة فانتازين كلها تدين له بالعرفان على أنها عادت إلى الوجود أو مازالت موجودة . ففى وقت ما من الأزمنة السالفة فاجأت فانتازين كارثة مروعة كادت أن تدمرها عن آخرها ، وهذا ما صنعه « المنقذ » المذكور فى آخر لحظة بأن جاء ومنح الإمبراطورة الطفولية اسم طفلة الأقمار الذى تُعرف به اليوم لدى كل كائن فى فانتازين . وهو يهيم مجهولا منذ ذلك الوقت من خلال البلاد ، وستكون مهمة بعثة البحث هى العثور عليه ثم مرافقته بما يشبه الحرس الخاص لكيلا يحدث له شىء . ولذلك تم اختيار أمهر وأشجع الرجال فقط ، لأنه من المحتمل ضرورة اجتياز مخاطر لايمكن تصورها .

صحيح أن المبارزة التى سيتم فيها هذا الاختيار قد نظمها العجوز الفضى كفير كفوباد ـ ففى مدنية أمرجانت كان يحكم أكبر الرجال أو النساء سنا دائما وكفير كفوباد كان عمره مائة وسبع سنوات ـ ولكنه لن يجرى هو الاختيار من بين المتبارزين ، ولكن صياد شاب اسمه أتريو ، صبى من شعب أصحاب الجلود الخضراء ، الذى هو ضيف على كفير كفوباد . وأتريو هذا سوف يقود فيما بعد بعثة البحث . فقد كان هو الوحيد الذى يستطيع التعرف على « المنقذ » لأنه رآه مرة فى مرآة سحرية .

وصمت باستيان واستمع فقط . ولم يكن الأمر سهلا عليه ، لأنه أدرك بسرعة جدا ، أن موضوع « المنقذ » يدور حوله هو نفسه . وعندما أتى اسم أتريو ضحك قلبه فى جسده ، وبذل أعظم الجهد لكيلا يكشف أمره . ولكنه كان عازما على الحفاظ مؤقتا على سريّته .

وبالمناسبة فلم يكن يهم البطل هينريك من المسألة كلها حول بعثة البحث وأهدافها أكثر من كسب قلب الأميرة أوجلمار . فقد لاحظ باستيان على الفور أن البطل هينريك غارقا لأذنيه فى حب السيدة الشابة . فقد كان يتنهد بين الحين والآخر فى أوقات لم تكن تدعو بأى حال إلى التنهد ، وكان ينظر إلى معبودته دائما بعينين حزينتين وهى كانت تتصرف كما لو لم تكن تلاحظ ذلك . وكما اتضح فقد نذرت فى مناسبة ما ألا تتزوج إلا أعظم الأبطال ، ذلك الذى يستطيع أن يهزم الآخرين جميعا . ولم تكن تريد أن تقنع بأقل من ذلك .

وكانت هذه هى مشكلة هينريك ، لأنه كيف يبرهن لها أنه هو الأعظم . فلم يكن فى استطاعته أن يقتل شخصا لم يفعل به شيئا . ولم تعد هناك حروب منذ وقت طويل . وكان يود أن يصارع وحوشا وجنًا ، وكان يود ، لو أن الأمر بيده ، أن يضع لها كل صباح ذيل تنين دام على مائدة الإفطار ، ولكن لم تكن هناك على المدى البعيد أية وحوش ولاتنين . وعندما أتى إليه رسول العجوز الفضى كفير كفوباد ليدعوه للمبارزة وافق بالطبع على الفور . وصممت الأميرة أوجلمار على المجىء معه لأنها كانت تريد أن تقتنع بعينيها بمقدرته .

وقالت لباستيان وهى تبتسم : « من المعروف أن الإنسان لا يمكنه تصديق أقاصيص الأبطال . إنهم يميلون للتنميق . »

فقال البطل هينريك معترضا : « بتنميق أو بدون تنميق فأنا على كل حال أكثر قدرا مائة مرة من المنقذ الأسطورى . »

فسأل باستيان : « من أين عرفتم ذلك ؟ »

فقال البطل هينريك : « لو أن الفتى لديه نصف شجاعتى لمااحتاج إلى حراسة خاصة يجب أن تحميه وترعاه مثل الطفل الرضيع . يبدو لى أن هذا المنقذ شخص يدعو للأسى الشديد . »

فصاحت أوجلمار باستنكار : « كيف يمكنكم قول مثل هذا ! إنه على الأقل قد حافظ على فانتازين من الدمار » .

فرد البطل هينريك باحتقار : « ولو ! إنه لم يكن ليحتاج إلى بطولة خاصة لذلك . » وقرر باستيان أن يلقنه درسا صغيرا فى الوقت المناسب . السادة الثلاثة

الآخرون كانوا قد التقوا صدفة بالشخصين أثناء الطريق فقط وانضموا إليهما . وزعم هيكريون الذى كان له شارب أسود غير عادى ، أنه أقوى وأضخم محارب لفانتازين . هيزبالد ذو الشعر الأحمر الذى يعطى انطباعا أنه رقيق بالمقارنة بالآخرين ، ادعى أن لا أحد يتعامل بالسيف أمهر وأسرع منه . وهيدورن أخيرا كان مقتنعا أن لاأحد يدانيه صلابة وصبرا فى النزال . وكان مظهره يؤيد هذا الإدعاء لأنه كان طويلا ونحيفا ويبدو أنه لا يتكون إلا من العظام والأوتار .

وبعد أن انفضت المائدة بُدىء المسير . الأوانى والملاءة ومئونة الطعام خُزِّنت فى جرابات سرج دابة للنقل . وركبت الأميرة أوجلمار حصانها الأبيض وأسرعت دون أن تلتفت إلى الآخرين . وامتطى البطل هينريك فرسه الأسود الفحمى وهرول وراءها . واقترح السادة الآخرون على باستيان أن يتخذ مكانه على دابة النقل بين جرابات المئونة . فاعتلى ظهرها وركبوا هم أيضا أحصنتهم الفخمة المطهمة ، ثم أسرع الركب من خلال الغابة وباستيان آخرهم . وظلت دابة النقل ، وكانت بغلة عجوز ، متأخرة على الدوام وحاول باستيان أن يحثها ، ولكنها بدلا من أن تجرى بسرعة أكثر ، ظلت البغلة واقفة وأدارت رأسها وقالت :

« لست فى حاجة إلى أن تحثنى ، فقد ظللت متأخرة عن عمد ياسيدى . »

فسأل باستيان : « لماذا ؟»

ــ « أنا أعرف من أنت ياسيدى . »

ــ« من أين تزعمين معرفة ذلك ؟»

ــ « إذا كان المرء نصف حمار فقط مثلى وليس حمارا كاملا فهو يشعر بمثل هذا . وحتى الأحصنة لاحظت شيئا . فلست فى حاجة أن تقول لى شيئا يا سيدى . كنت أود التمكن من أن أحكى لأولادى وأحفادى أننى حملت المنقذ وأننى أول من حيّاه . للأسف ليس لأمثرنا أولاد » .

فسأل باستيان : « ماهو اسمك ؟»

ــ « إيجا ياسيدى . »

ــ « اسمعى يا إيجا ، لا تفسدى علىّ مزاحى ، واحتفظى بما تعرفينه مؤقتا . أتريدين هذا ؟ » .

ـ « بسرور ياسيدى . »

وهرولت البغلة بعد ذلك لكى تلحق بالآخرين ثانية .

وانتظرت المجموعة عند طرف الغابة . ونظر الجميع إلى أسفل بإعجاب إلى مدنية أمْرجانْت التى كانت تتلألأ أمامهم فى ضوء الشمس . وكان طرف الغابة يقع على مرتفع ، يُرى منه منظر شامل بعيد فوق بحيرة كبيرة تكاد تكون بنفسجية اللون ويحيط بها من كل جانب هضاب تكسوها غابات مشابهة . وفى وسط هذه البحيرة تقع مدنية الفضة أمْرجانْت . جميع البيوت كانت فوق سفن والقصور الكبيرة فوق قوارب نقل عريضة ، والقصور الأصغر فوق فلك ومراكب . وكل بيت وكل سفينة كانت مصنوعة من الفضة ، من فضة مصاغة صياغة دقيقة ذات زخارف فنية . وكانت أبواب ونوافذ القصور الصغيرة والكبيرة والأبراج الصغيرة والشرفات ، مصنوعة من زخارف من خيوط الفضة بشكل رائع لايوجد مثلها فى كل فانتازين . وكانت تُرى فى مكان فوق البحيرة مراكب وزوارق تجلب الزائرين من الشواطىء إلى المدينة . وهكذا أسرع الآن البطل هينريك أيضا وصحبته للوصول إلى الشاطىء حيث كانت فى الانتظار معدية فضية لها مقدمة ذات انحناءات رائعة . ووجدت الجماعة كلها بالأحصنة ودابة النقل مكانا فوقها .

وأثناء الطريق عرف باستيان من المراكبى ، الذى كان بالمناسبة يرتدى رداء من نسيج الفضة ، أن ماء البحيرة البنفسجى مالح ومُرّ لدرجة أن لاشىء يستطيع أن يقاوم تأثيره التحليلى على المدى الطويل ، لا شىء إلا الفضة . وكانت البحيرة تدعى مورهو أو بحيرة الدموع . ففى الأزمنة السحيقة الماضية أُخرجت مدينة أمرجانت إلى وسط البحيرة لتأمينها ضد الغارات ، لأنه مهما حاول أحد الوصول إليها على سفن خشبية أو زوارق حديدية ، كان يغرق ويُفقد لأنّ الماء كان يحلل المركب وطاقمه فى وقت قصير . ولكن الآن هناك سبب آخر لترك أمْرجانْت فوق الماء . فالسكان يحبون بين الحين والآخر أن يغيروا تجمعات المنازل ويجددوا تنظيم الشوارع والميادين . فمثلا إذا كانت أسرتان تسكنان على الطرفين المقابلين ، تصادقتا أو ارتبطتا برباط القرابة لأن الشباب منهما تزاوج ، فهما يغادران مكانهما السابق ويضعان سفنهما الفضية إلى جوار بعض بحيث يصبحان جيرانا . وبالمناسبة ، الفضة كانت من نوع خاص ، فريدة فى

نوعها مثل جمال تصنيعها الذى لايقارن .

وكان باستيان يود أن يسمع المزيد من ذلك ، ولكن المعدية كانت قد وصلت المدينة ، وكان عليه أن ينزل مع رفقائه فى السفر .

وبحثوا أولا عن مَضْيفة لينزلوا بها هم وحيواناتهم . ولم يكن هذا بالأمر السهل تماما ، لأن أمرْجانت قد غزاها المسافرون تماما ، القادمون إلى المبارزات من قريب وبعيد . ولكنهم وجدوا أخيرا مكانا فى أحد الفنادق . وعندما قاد باستيان البغلة إلى الحظيرة ، همس فى أذنها :

ـــ « لا تنسى ما وعدتيه ، يا إيخا ، سنلتقى قريبا » .

وهزت إيخا رأسها فقط .

وبعد ذلك شرح باستيان لرفقائه فى السفر أنه لا يريد أن يقع عبئا عليهم لفترة أطول من ذلك ، بل إنه سيود أن يشاهد المدينة معتمدا على نفسه . وشكرهم على لطفهم وودعهم . وفى الحقيقة كان يتحرق شوقا بالطبع إلى العثور على أتريو .

وكانت المراكب الكبيرة والصغيرة متصلة ببعضها عن طريق الجسور ، بعضها ضيق وصغير لدرجة أن شخصا واحدا كان يستطيع السير على كل منها ، وأخرى عريضة ضخمة مثل الشوارع التى تتزاحم فيها كثرة من الناس . وكانت هناك أيضا كبارى منحنية ومسقوفة ، وفى القنوات ما بين سفن القصور كانت تسير مئات من الزوارق الفضية الصغيرة هنا وهناك . ولكن أينما ذهب أو وقف الإنسان ، فهو يشعر على الدوام تحت قدميه بارتفاع وهبوط بسيط للأرض يذكر الانسان بأن المدينة كلها تسبح فوق الماء .

وكانت جمهرة الزائرين التى تكاد المدينة أن تفيض بهم ، كانت متنوعة ومتعددة الأشكال لدرجة أن وصفهم يملأ كتابا خاصا به . وكان من السهل التعرف على أهل مدينة أَمرْجانْت لأنهم جميعا كانوا يرتدون ملابس من نسيج الفضة الذى كاد أن يكون فى جمال معطف باستيان . وحتى شعورهم كانت فضية ، وكانوا ضخام البنية وحسنوا الهيئة ولديهم عيون بلون البنفسج مثل مورهو ، بحيرة الدموع . ولم يكن الجزء الأعظم من الزائرين بنفس القدر من الجمال تماما . وكانت هناك عمالقة

مشحونة بالعضلات ولهم رؤوس تبدو صغيرة مثل التفاح بين أكتافهم الهائلة . وأجلاف يتسكعون بالليل ومنظرهم عابس وجرىء ، وأشخاص لهم شخصيات فريدة يُرى فيهم أنه لا تفاهم معهم . وكان هناك حمقى لهم أياد وعيون سريعة الحركة ، ومقاتلون شرساء يأتون متكبرين ويتصاعد الدخان من أفواههم وأنوفهم . ودار المتبارزون الاستعراضيون حول أنفسهم كلعبة حية من لعب النحلة الدوارة ، وتسكع عفاريت الغابة بأرجلهم الغليظة وعلى أكتافهم هراوات سميكة . ورأى باستيان مرة أحد قاضمى الصخور أيضا الذى كانت أسنانه تبرز من فمه مثل أزاميل الحديد الصلب . وقد تقوس الجسر الفضى تحت وطأة ثقله عندما اتخذ طريقه دابًا بقدميه . ولكن قبل أن يستطيع باستيان أن يسأله إذا كان ربما يدعى بيور نراخ تسارك ، كان قد اختفى فى الزحام .

وأخيراً وصل باستيان إلى وسط المدينة . حيث جرت هناك المبارزات . وكانت على أشدها . ففى ميدان كبير مستدير يبدو كحلبة سيرك ضخمة ، كان المتبارزون يجرّبون قواهم ، ويعرضون مقدرتهم . وحول الدائرة الواسعة تزاحمت جمهرة من المتفرجين التى كانت تحفّز المتبارزين بنداءاتهم ، وكذلك كادت نوافذ وشرفات قصور السفن المحيطة تفيض بالمتفرجين ، وقد نجح بعضهم حتى فى تسلق الأسطح ذات الزخارف الفضية .

ولكن باتسيان لم يكن فى بادىء الأمر مهتما بالمشهد الذى يقدمه المتبارزون . كان يريد العثور على أتريو الذى من المؤكد أنه كان يشاهد المباريات من نقطة ما . وبعد ذلك لاحظ أن الجمهور ينظر باستمرار إلى قصر معين بتشوق ــ وخاصة على ما يبدو عندما ينجح فى حركة ذات تأثير خاص . ولكن كان على باستيان أن يتزاحم أولا عبر أحد الكبارى المتعرجة ثم يتسلق فوق نوع من أعمدة المصابيح ، وذلك قبل أن يتمكن من إلقاء نظرة على ذلك القصر .

وفى أحد الشرفات وُضع كرسيان عاليان من الفضة هناك . وجلس على أحدهما رجل عجوز جدا ، كان الشعر الفضى للحيته ورأسه ينسدل حتى نطاقه . لابد وأنه كفير كفُوياذ ، العجوز الفضى . وجلس إلى جواره صبى فى عمر باستيان تقريبا . وكان يرتدى سروالا طويلا من الجلد اللين ونصف جسمه الأعلى عاريا بحيث أمكن

رؤ ية بشرته الخضراء بلون الزيتون . وكان تعبير الوجه النحيل جادا ، بـل يكاد يكون صارما . وكان شعره الطويل الأزرق بسواد ملموما فى خصلة خلف رأسـه مربوطة بشرائط من الجلد . وحول كتفيه كان معطف أرجوانى . وكان ينـظر إلى أسفل إلى حلبة النزال هادئا ولكن بتشوق فى الحقيقة . ويبدو أن عينيه لم يكن تفوتهما شىء . أتريو .

وفى هذه اللحظة ظهر بباب الشرفة المفتوح من وراء أتريو وجه آخر ضخم جدا بدا يشبه الأسد ، غير أن لديه قشور صدفية بيضاء بدلا من الجلد ، ويتدلى من عند فمه شعر لحى طويلة بيضاء . وكانت كُريات عينيه حمراء بلون الياقوت ، وتتلألأ ، وعندما ارتفع الرأس عاليا فوق أتريو ، شوهد أنه يقبع على رقبة طويلة مرنة تغطيها القشور الصدفية أيضا ، وكان يتدلى منها عرف كالنار البيضاء . لقد كان فُخُور ، تنين الحظ . ويبدو أنه قال شيئا فى أذن أتريو لأن هذا هز رأسه بالإيجاب .

وانزلق باستيان مرة أخـرى نازلا من عمـود المصابيـح . لقد شـاهد بمـا فيه الكفاية . ووجّه انتباهه الآن إلى المبارزات .

وفى الواقع لم تكن صـراعات حقيقيـة وفعلية إلى حـد كبير ، بـل إنها كانت بالأحْرى نوعا من عروض السيرك بمقياس كبير . فصحيح كان فى ذلك الحين تصارع بين عملاقين تلاحم جسدهما إلى عقدة واحدة هـائلة تتدحـرج إلى هنا وهنـاك ، وصحيح كانت عدة أزواج هنا وهناك من نفس النوع أو من نوع مختلف تمامـا ، تعرض فنّها فى المبارزة بالسيوف أو فى استعمال الهراوة أو الحربة ، ولكنها بالطبع لم تكن جديا من أجل الجسد والحياة . وكان من ضمن قواعد التبارى إظهار مـدى العدالة والخلق فى تصـارع الفرد وكيف يتحكم فى نفسـه جيدا فى حـالة القـوة . المتصارع الذى يندفع من الغضب أو الطموح ويجرح شريكه فى التصارع جـرحا خطيرا ، تُعلن على الفور عدم صلاحيته على شتى الأحوال . وكانت الغالبية مشغولة بالبرهنة على مهارتها فى رمى النبال أو اظهار قواها لرفع أثقـال هائلة ، وآخـرون يعرضون مواهبهم بالقيام بألعاب بهلوانية أو اجتياز شتى أنواع اختبارات الشجاعة . فعلى قدر اختلاف أنواع المتنافسين ، كان ما يعرضوه أيضا متنوعا .

وكان على الدوام يضطر البعض الذين انهزموا أن يغادروا الميدان وهكذا قل العدد باستمرار شيئا فشيئا . ثم رأى باستيان هيكريون القوى ، وهيزبالد السريع وهيدورن العنيد يدخلون الحلبة . ولم يكن البطل هينريك ومعبودته الأميرة أُوجلمار معهم .

وفى ذلك الوقت كان لا يزال فى الميدان حوالى مائة متصارع . ونظراً لأنهم كانوا صفوة الأفاضل فلم يكن سهلا على هيكريون وهيزبالد وهيدورن أن يثبتوا أمام خصومهم كما كانوا ربما يعتقدون . وقد استغرق الأمر طيلة العصر حتى أثبت هيكريون على أنه أقوى الأقوياء ، وهيزبالد على أنه أمهر خُفاف الحركة ، وهيدورن على أنه أكثر العنيدين مثابرة . وهلل وصفق لهم الجمهور بحماس وانحنى الثلاثة تجاه الشرفة حيث كان يجلس العجوز الفضى كفْير كفُوباد وأتريو . ونهض أتريو ليقول شيئا ، فدخل منازل آخر فجأة إلى الميدان . لقد كان هينريك . وعم صمت متوتر ، وجلس أتريو مرة أخرى . ولأنه لا ينبغى إلا لثلاث رجال أن ترافقه فقد كان هناك بأسفل شخص زائد . ولابد لواحد منهم من الانسحاب .

وقال هينريك بصوت عال لدرجة أن كل فرد استطاع أن يسمعه : « أيها السادة إننى أُرجح أن هذا العرض الصغير لمهاراتكم والذى أنهيتموه حالا ، قد نال من قواكم . وبالرغم من ذلك فإنه لن يكون جديرا بى أن أتحداكم للنزال فرداً فرداً تحت هذه الظروف . ونظرا لأننى لم أرحتى ذلك الوقت خصما مناسبا لى من بين كل هؤلاء المتصارعين ، فإننى لم اشترك معهم ولذلك مازلت منتعشا . فإذا كان واحد منكم يشعر بالإرهاق الزائد فعليه الخروج بمحض إرادته . وإلا فإننى مستعد لمصارعتكم أنتم الثلاثة جميعا فى وقت واحد . هل لديكم اعتراض على ذلك ؟»

فأجاب الثلاثة كما كانوا من فم واحد : « لا »

وبعد ذلك كانت هناك مبارزة تطاير فيها الشرر . ولم تفقد ضربات هيكريون أقل القليل من قوتها ولكن البطل هينريك كان أقوى . وهوى عليه هيزبالد كالبرق من كل جانب ولكن البطل هينريك كان أسرع . وحاول هيدورن أن يهشمه ولكن البطل هينريك كان أكثر جَلَدا . ولم تكد المبارزة تستغرق عشر دقائق حتى كان السادة الثلاثة منزوعى السلاح وركعوا أمام البطل هينريك ونظر حوله مفتخرا ،

وبحث ــ على ما يبدو ــ عن نظرة إعجاب سيدته التى ربما تقف فى مكـان ما من الجمهور . وهدر تهليل وإعجاب المشاهدين كالعاصفة فوق الميدان . وربما كـان يمكن سماعه عند أبعد شواطىء بحيرة الدموع مورهو .

وعندما عمّ السكون نهض العجوز الفضى كڤير كڤوباد وسأل بصوت عال :

ــ « هل هناك شخص يود أن يجرؤ على التقدم ضد البطل هينريك ؟»

وفى وسط الصمت العام سُمع صوت صبى يجيب : « نعم ، أنا !»

لقد كان باستيان .

وتوجهت جميع الوجوه إليه ، وأفسح الجمهور له طريقا ، وتقدم خارجـا إلى الميدان .

وسُمعت صيحـات الـدهشـة والقلق : « انـظروا ، كم هـو جميـل !» ــ « يا خسارته !»

ــ « لا تسمحوا بهذا !»

وسأل العجوز الفضى كڤير كڤوباد : « من أنت ؟»

فأجاب باستيان : « إننى لا أريد أن أقول اسمى إلا فيما بعد ».

ورأى أن عينى أتريو أصبحت ضيقة وأنها نظرت إليه فاحصة ولكنها مازالت مليئة بالشك .

وقال البطل هنيريك : « أيها الصديق الشاب ، لقد أكلنا وشربنا سويا . لماذا تريدنى الآن أن ألحق بك العار ؟ أرجوك أن تسحب كلمتك وتنصرف ».

فرد باستيان : « كلا ، إن ما قلته سيكون ».

وتردد البطل هنيـريك لحـظة . ثم اقترح قـائلا : « إننى لن أكـون محقا إذا ما قستُ نفسى بك فى النزال . نود أن نرى أولا من منا يستطيع أن يطلق السهم إلى ارتفاع أكثر » .

فرد باستيان : « موافق !»

وأُحضر لكل منهما قوس قوى وسهم . وشد هينريك الوتر وأطلق السهم إلى أعلى ، أعلى من أن يستطيع أحد أن يتابعه بعينيه . وفى نفس اللحظة تقريبا شد باستيان قوسه وأرسل سهمه من خلفه .

ومرت فترة صغيرة قبل أن يعود كلا السهمين ويسقطا على الأرض بين كلا الراميين . واتضح الآن أن سهم باستيان ، ذا الريش الأحمر قد أصاب السهم البطل هينريك ذا الريش الأزرق على ما يبدو فى أعلى مكان وبقوة لدرجة أنه فلقه من الخلف . وحملق البطل هينريك فى السهمين المتداخلين فى بعضهما . وكان قد أصبح شاحب اللون قليلا ، وبدت على وجنتيه فقط بقع حمراء .

وتمتم قائلا : « يمكن أن يكون هذا مجرد صدفة . نريد أن نرى من هو الأمهر بالسيف » . وطلب سيفين ومجموعتين من أوراق اللعب . وأُحضر كلاهما . وخلط كلا المجموعتين بعناية . ثم قذف الآن مجموعة من أوراق اللعب إلى أعلى فى الهواء وأخرج السلاح بسرعة البرق وطعن به . وعندما سقطت الأوراق الباقية على الأرض شوهد أنه قد أصاب قلب ورق الآس ، وفى وسط القلب الوحيد الذى تبينه الورقة . ونظر مرة أخرى حوله باحثا عن سيدته ، بينما يدور عارضا السيف بالورقة .

وألقى باستيان الآن المجموعة الأخرى من الورق إلى أعلى وجعل سلاحه يصفر فى الهواء . ولم تسقط ولا ورقة على الأرض . لقد خرق بسيفه جميع أوراق اللعب الاثنين والثلاثين وفى الوسط بالضبط ، وفوق ذلك بالترتيب الصحيح أيضا ــ بالرغم من أن البطل هينريك كان قد خلطها جيدا .

ونظر البطل هينريك إلى الشىء ، ولم يقل شيئاً . ارتعشت شفتاه قليلا فقط . وأخيرا نطق قائلا بصوت مبحوح : « ولكنك لا تفوقنى قوة . » ومد يده إلى أثقل الأحمال جميعا التى كانت موجودة فى الميدان ورفعها ببطء إلى أعلى . ولكنه قبل أن يستطيع أن يعيد إنزالها ، كان باستيان قد أمسك به ورفعه إلى أعلى . وأظهر البطل هينريك وجها مندهشا لدرجة أن بعض المشاهدين لم يستطع كتمان الضحك .

فقال باستيان : « حتى الآن قررتم أنتم فى أى شىء نريد أن نتبارى . فهل أنتم توافقون أن أقترح أنا شيئا ؟» وهز البطل هينريك رأسه بالإيجاب صامتا .

فواصل باستيان كلامه : « إنه اختبار للشجاعة . »

واستجمع البطل هينريك قواه مرة أخرى وقال : « لا يوجد شىء تتقهقر أمامه شجاعتى ! »

فرد باستيان : « إذن فانى أقترح أن نتسابق للسباحة عبر بحيرة الدموع . فمن يصل إلى الشاطىء أولا ، يكون هو الفائز . »

وعم الميدان كله سكون كاتم للأنفاس .

وتغير لون البطل هينريك بالتناوب بين الحمرة والشحوب .

وصاح قائلا : « إن هذا ليس اختبارا للشجاعة . إنه جنون . »

فرد باستيان : « إننى مستعد لذلك ، إذن هيا ! »

وفقد البطل هينريك الآن السيطرة على نفسه .

وصاح وهو يدب بقدمه : « كلا ! أنتم تعرفون جيدا مثلى أن ماء مورهو يحلل كل شىء . وهذا يعنى الذهاب إلى الموت الأكيد . »

فرد باستيان بهدوء : « إنى لست خائفا . لقد جُبتُ صحراء الألوان وأكلت وشربت من نار الموت الملون واستحممت فيها . ولم يعد لدى خوف من هذه المياه » .

فزأر البطل هينريك بوجه أرجوانى من الغضب : « هذا افتراء منكم ! فلا أحد فى فانتازين يستطيع الحياة بعد الموت الملون . وهذا يفهمه كل طفل ! »

فقال باساتيان ببطء : « أيها البطل هينريك ، بدلا من أن تتهمنى بالكذب كان من الأفضل أن تعترفوا بأنكم فى منتهى البساطة خائفون » .

وكان ذلك أكثر من اللازم على البطل هينريك . فنزع سيفه الكبير من مغمده دون وعى من الغضب واندفع إلى باستيان . وتراجع هذا وأراد أن يصرح بكلمة تحذير ولكن البطل هينريك لم يدع له فرصة لذلك . وانهال على باستيان وكان الأمر بالنسبة له جادا حقا . وفى نفس اللحظة انطلق السيف سيكاندا كشعاع البرق من مغمده الصدىء إلى يد باستيان وبدأ يتراقص .

وما حدث الآن كان أمرا فظيعا لدرجة أنه لم ينسه أحد من المشاهدين فى حياته مرة أخرى . فلحسن الحظ لم يستطع باستيان أن يترك مقبض السيف فى يده ، وهكذا كان عليه أن يتابع كل حركة يقوم بها سيكاندا بنفسه . ففى بادىء الأمر مزق السيف الدّرع الفاخر للبطل هينريك قطعة قطعة . وتطايرت الهلاهيل فى كل جانب

ولكن جلده لم يصب حتى بخدش . ودافع البطل هينريك عن نفسه يائسا وانهال بالضربات حول نفسه كالمجنون ولكن بريق سيكاندا كان يلمع من حوله كدوامة من النار يعميه بحيث لا تصيب ضربة من ضرباته . وعندما وقف أخيرا بملابسه الداخلية فقط وما زال لا يكف عن توجيه الضربات إلى باستيان ، حطم سيكاندا سيفه تماما إلى قطع صغيرة ، وذلك بسرعة لدرجة أن سلاحه طار كاملاً للحظة فى الهواء قبل أن يقع على الأرض ككومة من النقود ذات صليل . وحملق البطل هينريك بعينين مشدوهتين فى المقبض عديم الفائدة الذى بقى فى يده . وتركه يسقط وأخفض رأسه . وعاد سيكاندا إلى مغمده الصدىء واستطاع باستيان أن يتركه .

وتعالت صيحات الحماس والإعجاب بآلاف الأصوات من جمهور المشاهدين واندفعوا إلى الميدان وأمسكوا باستيان ورفعوه عاليا وداروا به فرحين بالنصر . ولم يكن التهليل يريد أن ينتهى . والتفت باستيان من مكانه المرتفع إلى البطل هينريك . وكان يريد أن يصيح له بكلمة مصالحة لأنه فى الحقيقة كان يأسف للمسكين ، ولم يكن فى نيته أن يسخر منه بهذا الشكل . ولكن البطل هينريك لم يعد يُرى فى أى مكان .

وبعد ذلك عم الصمت فجأة . وتراجع الجمهور وأفسح مكانا . فوقف أتريو ونظر مبتسما إلى باستيان ، وكذلك باستيان ابتسم . وأُنزل من على الأكتاف ، ووقف كلا الصبيين الآن أمام بعضهما ونظرا إلى بعض صامتين لوقت طويل . وأخيرا بدأ أتريو الحديث :

ـ « إذا كنت فى حاجة إلى مرافق للذهاب باحثا عن منقذ فانتازين ، فسوف أكتفى بهذا الفرد ، لأنه يُعد أكثر من مائة آخرين مجتمعين . ولكننى لم أعد فى حاجة إلى مرافق لأن بعثة البحث لن تتم » .

وسمعت همهمة من التعجب وخيبة الأمل .

واستمر أتريو يقول بصوت مرتفع : « إن منقذ فانتازين لا يحتاج إلى حمايتنا ، لأنه يستطيع أن يحمى نفسه أفضل من استطاعتنا نحن جميعا . ولم يعد هناك داع لنا أن نبحث عنه لأنه عثر علينا . إننى لم أتعرف عليه على الفور ، لأننى عندما رأيته فى بوابة المرآة السحرية فى أرض التنبوءات الجنوبية ، كان منظره مختلفا عن الآن ـ

مختلفا تماما . ولكن نظرة عينيه لم أنسها . إنها هى نفسها التى تصيبنى الآن . لا يمكن أن أكون مخطئاً . »

وهز باستيان رأسه مبتسما وقال :

ــ « أنت لست مخطئا يا أتريو . لقد كنت أنت الذى أحضرتنى للإمبراطورة الطفولية لكى أمنحها اسما جديدا . وأنا أشكرك على ذلك » .

وسرت همهمة ملؤها التبجيل كالرياح المندفعة خلال جمهور المشاهدين .

فرد أتريو قائلا : « لقد وعدتنا أن تذكر لنا الآن أيضا اسمك ، الذى لا يعرفه أحد فى فانتازين غير سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية . أتنوى أن تفعل ذلك الآن ؟ »

ــ « اسمى باستيان بلتازار بوكس »

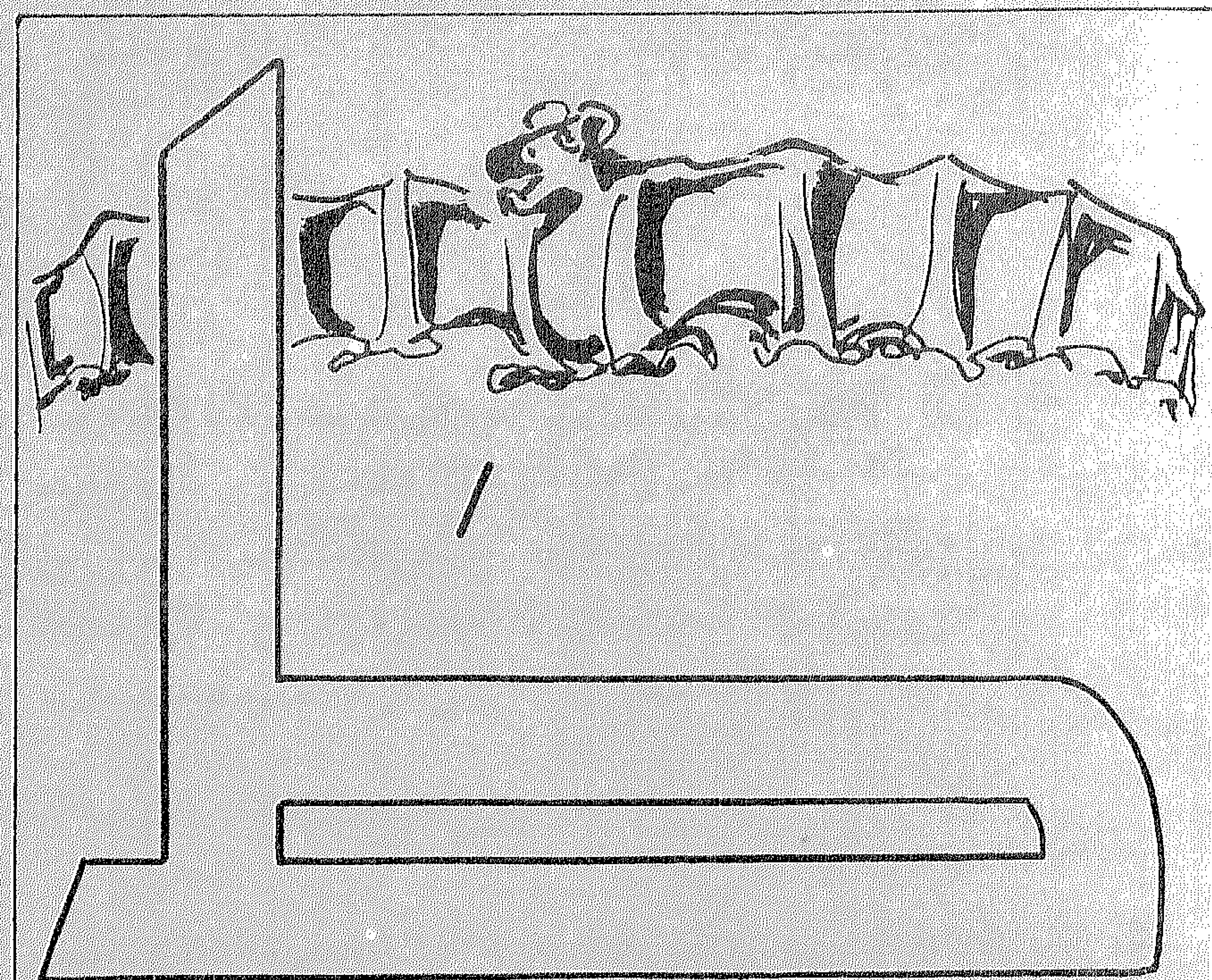
ولم يستطع المشاهدون الآن أن يتمالكوا لفترة أطول ، وانفجر تهليلهم فى آلاف من صيحات الهتاف . وراح الكثير يرقصون من الحماس لدرجة أن الجسور والكبارى ، بل والميدان كله أخذ فى الاهتزاز ، ومد أتريو يده ضاحكا وصافحها باستيان ، وهكذا ــ يدا بيد ــ مشيا إلى القصر حيث كان ينتظرهما على درجات مدخله العجوز الفضى كڤير كڤوباد وفُخور تنين الحظ .

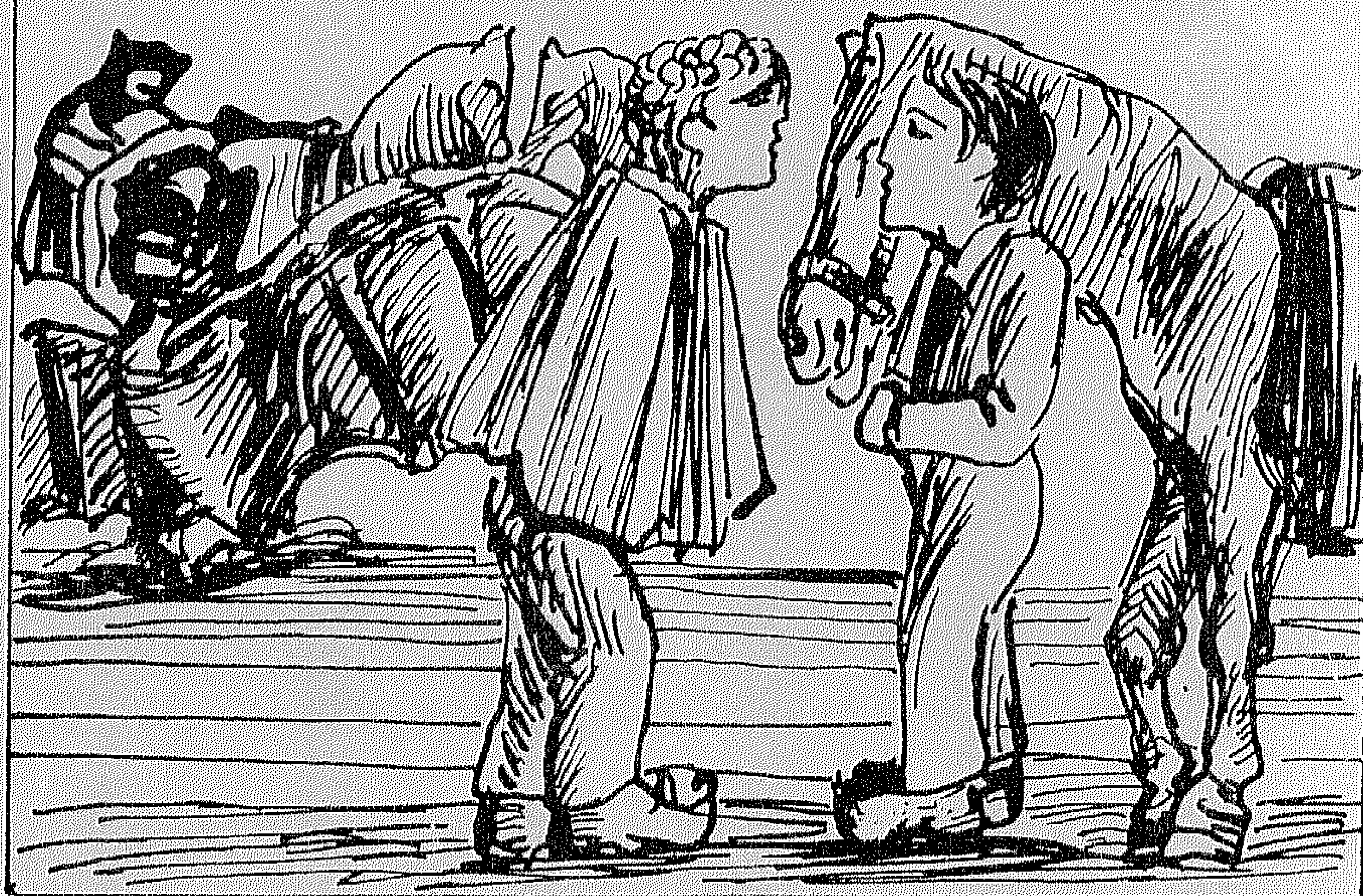
وأقامت مدينة أَمرْجانت فى هذا المساء أجمل احتفال احتفلت به من قبل . وكل ما كانت له أرجل ، سواء كانت قصيرة أو طويلة ، مقوسة أو معتدلة ، رقص ، وكل ما كان له صوت جميل أو قبيح ، عميق أو عال غنى وضحك .

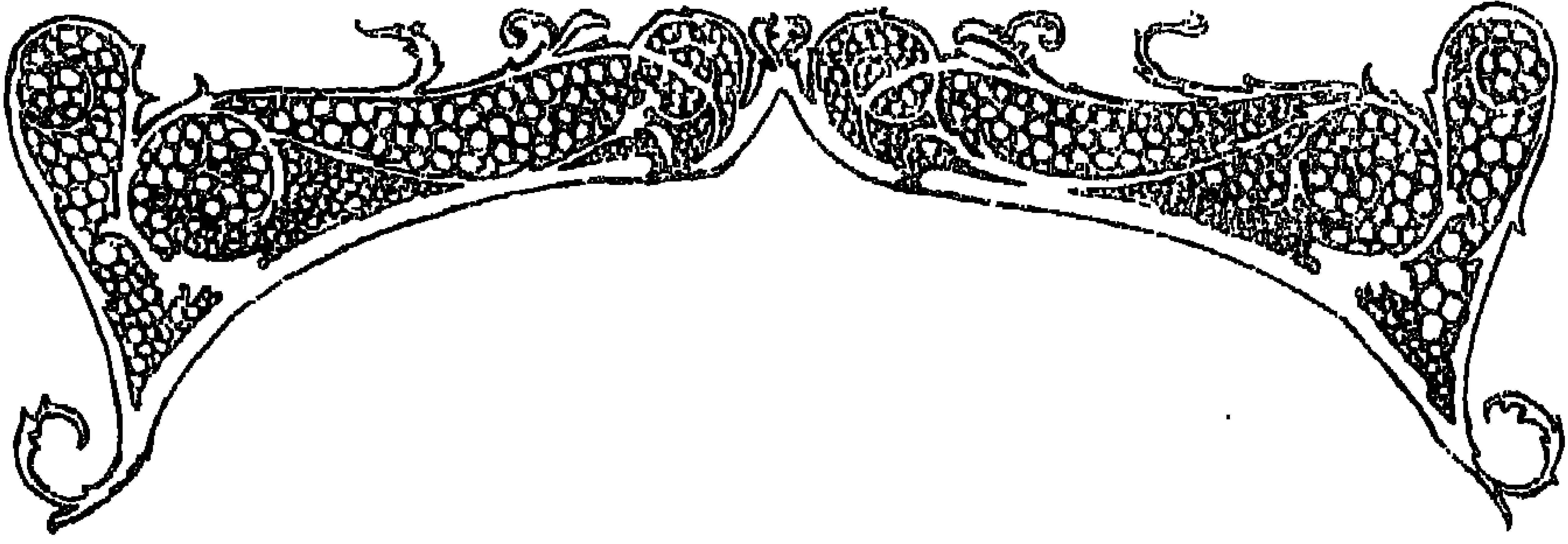
وعندما حل الظلام أشعل أهل أمرجانت آلافاً من الأنوار الملونة فى مراكبهم وقصورهم الفضية . وأُشعلت الألعاب النارية فى منتصف الليل بمثل ما لم يشاهد حتى الآن فى فانتازين من قبل مطلقا . ووقف باستيان مع أتريو فى الشرفة وعلى يسارهما ويمينهما وقف فُخور والعجوز الفضى كڤير كڤوباد وشاهدوا كيف تنعكس حزم النيران الملونة فى السماء وآلاف الأنوار للمدينة فى المياه الداكنة لبحيرة الدموع مورهو .

١٧

تنين.. من أجل البطل هينريك







ظلّ كڤير كڤوباذ العجوز الفضى غارقا فى النوم على كرسيه ، لأن الوقت كان متأخراً من الليل . وهكذا فاتته أعظم وأجمل خبرة كان يمكنه المرور بها أثناء وجوده البالغ مائة وسبع سنوات . ولم يحدث أمر مختلف لكثير من الأشخاص الآخرين من أمرجانْت ، من وطنيين وضيوف ، خلدوا للراحة مجهدين من الحفل . قليلون فقط كانوا لا يزالون متيقظين ، وهؤلاء سمعوا شيئا فاق كل شىء سمعوه أو سيسمعونه جمالاً .

لقد كان فُخورتنين الحظ الأبيض يغنى .

فقد طار عالياً ودائراً فى سماء الليل فوق مدينة الفضة وبحيرة الدموع وأطلق صوته الجرسى . وكانت أغنية بلا كلمات ، اللحن العظيم البسيط للسعادة الصافية ، ومن سمعها انفتح قلبه أوسع انفتاح .

وهذا ما حدث أيضاً لباستيان وأتريو اللذين جلسا جنباً إلى جنب فى الشرفة العريضة لقصر كڤير كڤوباد . فقد كانت أول مرة بالنسبة لهما أن يسمعا تنين حظ يغنى . وأمسكا بأيدى بعض دون أن يلاحظا ذلك ، واستمعا فى سعادة صامتة . وكل منهما كان يعرف أن الآخر يشعر بنفس ما يشعر هو : سعادة مَنْ عثر على صديق . وتفاديا التشويش عليها بالحديث .

وانقضت الساعة العظيمة ، فقد إنخفض غناء فخور شيئاً فشيئاً وتلاشى أخيراً .

وعندما عم السكون تماما ، استيقظ كڤير كڤوباد ، ونهض وقال معتذراً :

ــ « إن العجائز الفضيين مثلى يحتاجون إلى النوم . والأمر يختلف لديكم أيها

الشباب . لا تؤاخذونى ولكن يجب أن أذهب إلى الفراش الآن » .

وتمنيا له ليلة سعيدة وانصرف كڤير كڤوباد .

وجلس كلا الصديقين مرة أخرى صامتين لفترة طويلة ونظرا إلى أعلى إلى سماء الليل ، حيث كان تنين الحظ ما يزال يطير دائراً فى حركات متموجة بطيئة وهادئة . وكان يحوم بين الحين والآخر أمام قرص البدر كشريط أبيض من السحاب .

وأخيراً سأل باستيان : « ألا يذهب فخور للنوم ؟ » .

فقال أتريو بصوت منخفض : « إنه نائم فعلاً » .

ـ « أثناء الطيران ؟ » .

ـ « نعم . إنه لا يحب الإقامة فى المنازل ، حتى وإن كانت فى ضخامة قصر كڤير كڤوباد . فهو يشعر بالضيق والانحصار ويحاول التحرك بحرص على قدر المستطاع لكيلا يسقط أو يَقْلب شيئاً . إنه فقط ضخم زيادة عن اللزوم . ولذلك فهو ينام غالباً بأعلى فى الهواء » .

ـ « أترى أنه سيدعنى مرة أركب عليه أيضاً ؟ » .

فقال أتريو : « بالتأكيد . ولكن الأمر ليس سهلاً تماماً . فلابد من التعود على ذلك » .

فقال باستيان مذكّرا : « لقد ركبت فوق جرأ وجرمان » .

وهز أتريو رأسه ونظر إليه وهو ملىء بالإعجاب .

ـ « لقد قلت ذلك للبطل هينريك عند إختبار الشجاعة ، كيف تغلبت على الموت الملون ؟ » .

فقال باستيان : « إننى أحمل آورين » .

فقال أتريو : « آخ ؟ » . وبدت عليه المفاجأة الشديدة ، ولكنه لم يقل شيئاً بعد ذلك . وأخرج باستيان علامة الإمبراطورة الطفولية من تحت قميصه وأراها لأتريو . **وتأملها أتريو لفترة ثم تمتم قائلا :** « إذن الآن تحمل أنت البريق » .

وبدا لباستيان أن وجهه عابس قليلاً ، ولذلك قال بحماس :

ـ « أتريد أن تعلقها حول عنقك مرة أخرى ؟ » .

وتهيأ لخلع القلادة .

ـ « كلا ! » .

وكاد رنين صوت أتريو أن يكون حادا ، وتوقف باستيان عن الكلام مرتبكا . وابتسم أتريو معتذراً وكرر قوله برفق : « كلا يا باستيان ، لقد حملتها بما فيه الكفاية » .

فقال باستيان : « كما تريد . » ثم أدار العلامة وقال : « انظر . هل قرأت النقش المكتوب ؟ » .

فأجاب أتريو : « ربما رأيته ،ولكننى لا أعرف ما عليها » .

ـ « كيف ذلك » .

ـ « نحن ذوى البشرة الخضراء نقرأ الأثر ، وليس الحروف » .

وهذه المرة كان باستيان الذى صاح قائلاً : « آخ » .

وقال أتريو وهو يريد المعرفة : « ماذا يقول النقش ؟ » .

فقرأ باستيان : « افعَلْ ما أنتَ تُريد » .

ونظر أتريو إلى العلامة دون أن يحيد عنها بصره .

وتمتم قائلا : « إذن هكذا تعنى ؟ » ولم يكشف وجهه أى انفعال ، ولم يستطع باستيان أن يخمن ما فى فكره . ولذلك سأل قائلا :

ـ « إذا كنت عرفت ذلك ، فهل كان شيئا ما قد اختلف بالنسبة لك ؟ » .

فقال أتريو : « كلا ، لقد فعلتُ ما أردت » .

فقال باستيان وهز رأسه : « هذا صحيح » .

ومرة أخرى صمت كلاهما برهة .

وأخيرا فتح باستيان الحديث ثانية : « لابد أن أسألك شَيئاً آخر يا أتريو . لقد قلت إن منظرى كان مختلفا عندما رأيتنى فى بوابة المرآة السحرية » .

ـ « نعم ، مختلف تماما » .

ـ « كيف إذن ؟ » .

ـ « لقد كنت بدينا جدا وشاحبا وكنت ترتدى ملابس مختلفة تماما » .

فسأل باستيان وابتسم غير مصدق : « بدين وشاحب ؟ هل أنت متأكد حقا أننى كنت ذلك » ؟ .

ـ « ألم تكن أنت ؟ » .
وفكر باستيان .

ـ « لقد رأيتنى ، أنا أعرف ذلك ، ولكننى كنت دائماً كما أنا الآن » .

ـ « حقا ؟ » .

فصاح باستيان : « وإلا لتذكرت ذلك بالتأكيد ! » .

وقال أتريو ونظر إليه متأملاً : « أجل ، لابد لك » .

ـ « ربما كانت مرآة مشوهة ؟ » .

وهز أتريو رأسه بالنفى . ـ « لا أعتقد ذلك » .

ـ « كيف تفسر لنفسك إذن أنك رأيتنى على ذلك النحو ؟ » .

فاعترف أتريو قائلا : « لست أدرى . أعرف فقط أننى لم أخطىء » .

وبعد ذلك صمتا مرة أخرى لفترة طويلة وأخيراً ذهبا للنوم .

وعندما رقد باستيان فى فراشه المصنوعة عوارضه الأمامية والخلفية بالطبع من أدق النقوش الفضية ، لم يغادر خاطره الحديث مع أتريو . لقد بدا له بشكل ما كما لو كان انتصاره على البطل هينريك وحتى إقامته لدى جرا وجرمان قد قل إنطباعها على أتريو منذ أن عرف أن باستيان كان يحمل البريق . ربما اعتقد أن الأمر لم يكن

بالشىء الخاص فى هذه الظروف . ولكن باستيان كان يريد أن يكتسب احترام أتريو الذى لا حدود له .

وفكر طويلا . لابد وأن يكون شيئاً لا يستطيع عليه أحد فى فانتازين ، ولا بواسطة العلامة . شىء لا يقدر عليه إلا هو ، باستيان .

وأخيرا خطر بباله : وهو أن يختلق قصصاً ! .

لقد قيل دائماً أن لا أحد فى فانتازين يستطيع إبداع شىء جديد . وحتى صوت أُيولالا تحدّث عن ذلك . وكان هذا الشىء بعينه هو الذى يتقنه اتقانا تاما .

ولابد لأ تريو أن يرى أنه ، أى باستيان ، أديب عظيم !

وتمنى لنفسه أن تتاح بأسرع وقت ممكن فرصة لكى يبرهن ذلك لصديقه . ربما غدا .

ومن المحتمل مثلاً أن يكون هناك احتفال أدبى فى أمر جانت حيث يتفوق باستيان على الجميع بخواطره . أو أنه من الأفضل إذا ما أصبح كل ما يريد أن يحكيه ، حقيقة واقعة . ألم يقل جرأ وجرمان أن فانتازين هى بلد القصص ولذلك من الممكن أن ينشأ شىء مضى منذ وقت طويل إذا ما أتى ذكره فى إحدى القصص ؟ .

لابد لأتريو أن يندهش ! .

وبينما باستيان يتخيل الإعجاب المندهش لأتريو، راح فى النوم .

وعندما جلسوا فى الصباح التالى فى قاعة التشريفات للقصر على طعام إفطار فاخر ، قال العجوز الفضى كڤير كڤوباد : « لقد قررنا أن نقيم احتفالاً خاصاً جداً من أجل ضيفنا منقذ فانتازين وصديقه الذى أحضره إلينا . لعلك لا تعلم ، ياباستيان بلتازار بوكس ، أننا نحن أهل أمر جانت منشدو الأغانى والقصاصون فى فانتازين تبعا لتقليد عريق القدم ، فأولادنا يُعلَّمون هذا الفن منذ الوقت المبكر . وعندما يكبرون عليهم أن يرحلوا لسنوات طويلة عبر كل البلاد وأن يمارسوا هذه الوظيفة لنفع وخير الجميع . ولذلك نحن نُسْتَقْبَل فى كل مكان بالإحترام والسرور .

ولكننا قلقون : فمخزوننا من الأغانى والقصص ــ بأمانة ــ ليس كبيراً جداً . وكثير منا يضطرون إلى تقسيم هذا القليل . ولكن هناك قول يشيع ــ لست أدرى إذا كان صحيحاً ــ أنك معروف فى عالمك بأنك تستطيع اختلاق القصص .

هل هذا صحيح ؟ » .

فقال باستيان : « نعم ، لقد سخروا منى أيضا من أجل ذلك » .

فرفع العجوز الفضى كفير كفوباد حاجبيه إلى أعلى مندهشا وقال : « يسخرون منك لأنك تستطيع أن تحكى قصصاً لم يسمعها أحد أبدا ؟ كيف يمكن ذلك ! لا أحد منا يستطيع ذلك ، ولسوف نكون جميعا ، أنا ومواطنىّ ، غاية الامتنان لك إذا ما أردت أن تحكى لنا بعض القصص الجديدة . هل ستعيننا بعبقريتك ؟ » .

فأجاب باستيان : « بسرور ! » .

وبعد الإفطار خرجوا إلى سلالم قصر كفير كفوباد ، حيث كان فخور فى انتظارهم .

وفى تلك الأثناء كانت جمهرة كبيرة قد تجمعت فى الميدان ، ولكن هذه المرة كان من بينهم ضيوف قليلون أتوا إلى المدينة من أجل المبارزات . فقد كانوا فى الأساس يتكونون من أهالى أمر جانت ، رجالا ونساء وأطفالاً ، وجميعهم حسنو الهيئة وزرق العيون وجميعهم فى زى فضى جميل . وكان مع معظمهم آلات وترية فضية ، هارب ، أرغن ، قيثارات أو آلات عود ، كانوا يريدون أن يصاحبوا بها إلقاءهم ، لأن كل واحد منهم كان يأمل أن يُسمح له بإنتاج فنه أمام باستيان وأتريو .

ومرة أخرى وُضعت مقاعد واتخذ باستيان مجلسه فى الوسط ما بين كفّير كفوباد وأتريو .

ووقف فخور خلفهم .

ثم صفق كفير كفوباد بيديه وقال فى السكون المنتشر :

« إن الأديب العظيم يريد أن يحقق رغبتنا . إنه سيهدينا قصصا جديدة . لذلك ابذلوا أفضل ما عندكم ، أيها الأصدقاء لكى تهيئوه للصفاء ! » .

وانحنى جميع أهالى أمرْ جانْت بعمق وهم صامتون . ثم تقدم الأول وبدأ فى الإلقاء . وبعده أتى آخرون ، وآخرون باستمرار . وكلهم كان لديهم أصوات جميلة رنانة ، وكانوا يقومون بعملهم على وجه حسن جدا .

القصص والأشعار والأغانى التى ألقوها كانت حسب المقام ، مشوقة أو مرحة أو أيضاً محزنة ، ولكنها ستحتل هنا مكانا بكثرة زائدة . ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى ، وجميعها كانت حوالى مائة قطعة مختلفة فقط . وبعد ذلك راحوا يعيدون أنفسهم . ولم يستطع أهالى أمرْ جانْت المتقدمون مؤخرا أن يلقوا شيئاً آخرا غير ما أسمعه من سبقوهم .

وبرغم ذلك فقد تزايد توتر باستيان باستمرار ، لأنه كان ينتظر اللحظة التى يأتى فيها دوره هو نفسه . لقد تحققت أمنيته فى مساء البارحة بحذافيرها . وكاد من تشوقه ألا يقدر على الصبر بأن كل شىء آخر سوف يتحقق أيضاً . ونظر إلى أتريـو من الجانب ، ولكنه كان يجلس بسحنة غير متأثرة ويستمع . ولم يكن يلاحظ عليه أىّ إنفعال .

وأخيرا أمر العجوز الفضى كفْير كفْوباد مواطنيه بالتوقف . واتجه متنهدا إلى باستيان وقال :

« لقد قلتُ لك يا باستيان بلتازار بوكس ، إن مخزوننا للأسف صغير جدا . ليس ذنبنا أنه لم تعد هناك قصص جديدة . وكما ترى ، نحن نفعل ما فى وسعنا . هل سوف تمنحنا الآن إحدى قصصك ؟ » .

وقال باستيان بسخاء : « سوف أهبكم جميع القصص التى اختلقتها ، لأن فى استطاعتى أن اختلق أية كمية جديـدة . كثيراً منهـا حكيتها لفتـاة صغيرة اسمهـا كريس تا ، ولكنى حكيت معظمها لنفسى فقط . وبالتالى لا أحد آخر يعـرفها . ولكن الأمر سيستغرق أسابيع وشهورا لقص كل منها على حدة ، وليس فى استطاعتنا أن نبقى لديكم هذا الوقت الطويل . ولذلك أريد أن أحكى لكم قصة كل القصص الأخرى متضمنة فيها . واسمها قصة مكتبة أمرْ جانْت . وهى قصيرة جدا » .

وفكر قليلا وبدأ مُجرّباً حظه :

« فى الزمان القديم الغابر كانت تعيش فى أمرْ جانْت أمرأة فضية عجوز اسمها كفوانا كانت تحكم المدينة ، وفى تلك الأيام الماضية منذ قديم الزمان لم تكن هناك لا بحيرة الدموع مورهو ، ولم تكن أمر جانت مصنوعة من الفضة الخاصة التى تقاوم المياه . لقد كانت مدينة عادية تماما ببيوت من الحجارة والخشب . وكانت تقع فى واد بين هضاب تكسوها الغابات .

وكان لكفوانا ابن اسمه كفين وكان صيادا عظيما . وفى يوم من الأيام رأى كفين فى الغابات حيوان وحيد القرن كان يحمل حجرا مضيئا على طرف قرنـه . وقتل الحيوان وأخذ الحجر إلى المنزل . ولكنه جلب شقاء كبيرا على مدينة أمرْ جانْت . فقدقل باستمرار الأطفال التى يلدها السكان . وإذا لم يعثروا على النجدة فقد حكم عليهم بالانقراض . ولكنه لم يكن ممكنا إعادة الحياة إلى وحيد القرن ، ولم يعرف أحد المشورة .

فأرسلت العجوز الفضية كفوانا رسولا إلى أرض التنبـوءات الجنوبيـة . التى كانت لا تزال موجودة فى ذلك الوقت ، لكى يتلقى من أُيـولالا قولهـا فيما ينبغى عمله . ولكن أرض التنبوءات الجنوبية كانت بعيدة جدا . وقد بدأ الرسول رحلته وهو شاب ، وعندما رجع كان طاعنا فى السن . وكانت العجوز الفضية قد ماتت منذ وقت طويل ، وقد حل ابنها كفين محلها فى تلك الأثناء . وهو أيضا كـان بالـطبع عجوزا جدا ، وكذلك جميع أهالى أمرْ جانْت الآخرين . ولم يكن هناك سوى زوج واحد من الأطفال ، صبى وفتاة . وكان اسمه أكفيل وهى موكفوا .

وأعلن الرسول الآن ما صرح له به بصوت أُيولالا : إن أمر جانت لن تتمكن أن تستمر فى وجودها إلا إذا جُعلت أجمل مدن فانتازين . وبهذه الطريقة فقط يمكن إعادة إصلاح خطيئة كفين . ولكن أهالى أمرْ جانْت لم يكن بوسعهم إحداث ذلك إلا بمعونة الـ أخاراىْ ، وهم أقبح مخلوقات فانتازين . وهم يدعون أيضا بـ « دائمى البكاء » ، لأنهم يذرفون الدمع دون انقطاع حزنا على قبح خلقتهم . وبتيـارات الدموع هذه يحللون تلك الفضة الخاصة من أعماق الأرض ويستطيعون أن يصنعوا منها أكثر النقوش روعة .

فذهبت أهالى أمر جانت حينئذ للبحث عن الـ أخاراىْ ، ولكن لم يوفق أحد فى العثور عليهم ، لأنهم يعيشون تحت الأرض بعمق . وأخيراً لم يتبق سوى أكڤيل وموكڤوا وجميع الآخرين كانوا قد ماتوا ، وكلاهما كبر فى تلك الأثناء . ولقد نجح كلاهما فى العثور على الأخاراىْ وإقناعهم أن يجعلوا من أمرْ جانْت أجمل مدينة لفانتازين .

وهكذا صنع الأخاراىْ أولاً زورقا فضياً وفوقه قصر صغير من الزخارف ووضعوه فى ميدان السوق للمدينة الميتة . وبعد ذلك وجهوا تيار دموعهم تحت الأرض بحيث خرج إلى النور كنبع فى الوادى بين الهضاب التى تكسوها الغابات . وامتلأ الوادى بالمياه المرة وتحول إلى بحيرة الدموع مورهو التى يسبح فوقها أول قصر فضى . وعاش فيه أكڤيل وموكڤوا .

وكان الأخاراىْ قد وضعوا شرطا على الزوجين الشابين وهو أنهم وجميع خلفتهم يكرسوا أنفسهم لإنشاد الأغانى وحكاية القصص . وطالما هم يفعلون ذلك فان الأخاراى يريدون أن يساعدوهم حيث إنهم سيكونون بهذه الطريقة مشتركين فى ذلك ويساهم قبحهم فى شىء جميل .

وهكذا أسس أكڤيل وموكڤوا مكتبة ــ وهى مكتبة أمر جانت المشهورة ــ حيث جمعوا فيها كل قصص . وقد بدأوا بقصتى هذه التى سمعتموها حالاً ، ولكن أضيف إليها جميع القصص الأخرى شيئا فشيئا والتى حكيتها من قبل ، وهكذا أصبحت فى آخر الأمر من الكثرة لدرجة أن لا هما ولا سلالتهم العديدة التى تسكن اليوم فى المدينة سينتهون منها .

وكوْن أمر جانْت ، أجمل مدينة لفانتازين ، ما زالت موجودة حتى اليوم ، يرجع إلى أن الأخاراىْ وأهل أمر جانت قدأوفوا بعهدهم تجاه بعضهم الآخر ــ بالرغم من أنهما لم يعودا يعرفان شيئا عن بعضهما . لا شىء سوى اسم بحيرة الدموع هو الذى يذكر بهذا الحدث فى الزمان القديم الغابر » .

بعد أن انتهى باستيان ، نهض العجوز الفضى كڤير كڤوباد من مقعده ببطء .

وأظهر وجهه ابتسامة تشع الصفاء . وقال : « باستيان بلتازار بوكس لقد وهبتنا أكثر من قصة ، وأكثر من جميع القصص . لقد وهبت لنا أصلنا نحن . والآن نعرف من أين تأتى مورهو ومراكبنا الفضية وقصورنا التى تحملها البحيرة . الآن نعرف لماذا نحن شعب من منشدى الأغانى والقصاصين منذ قديم الزمن . نحن نعرف الآن قبل كل شىء ماذا يحتوى عليه ذلك المبنى المستدير لمدينتنا والذى لم يدخله أحدنا من قبل أبدا ، لأنه مغلق منذ أزمان غابرة . إنه يحتوى على أعظم كنوزنا ، ولم نكن نعرف ذلك من قبل . إنه يحتوى على دار كتب أمرْ جانْت ! » .

وكان باستيان نفسه مأخوذاً من أن كل ما حكى عنه حالا ، قد أصبح حقيقة (أم أنه كان من الأزل ؟ ربما أن جرأوجرومان كان سيقول : « كلاهما !) . وعلى كل فقد أراد أن يقتنع بذلك بعينيه هو ، فسأل قائلا : « أين هو هذا المبنى ؟ » .

فقال كفير كفوباد : « أريد أن أريك إياه » ، وصاح متجها إلى الجمهور : « تعالوا جميعا معنا . ربما نحصل على معجزات أخرى اليوم ! » .

وتحرك موكب طويل فى مقدمته العجوز الفضى إلى جوار أتريو وباستيان ، فوق الجسور التى تربط المراكب الفضية ببعضها ، وتوقف أخيرا أمام مبنى كبير جدا فوق سفينة مستديرة ، وكان هو نفسه له شكل علبة فضية عملاقة . وكانت الجدران الخارجية ملساء وبلا زخاف ولم تكن لها نوافذ أيضا . ولم يكن هناك سوى باب واحد كبير ، ولكنه كان مغلقا .

وفى وسط ضلفة الباب الملساء الفضية كان حجر فى إطار على شكل حلقة ، وكان يبدو كقطعة من الزجاج الصافى . وكان عليه النقش التالى :

« بعد ما أن أُخذْتُ من قرن وحيد القرن ، انطفأ نورى .
ولسوف أُبقى على الباب مغلقا ، إلى أن يوقظ نورى ،
من يذكرنى باسمى .
ولسوف أضىء له طيلة مائة عام
وأرشده فى الأعماق المظلمة
لمينرود يور

ولكن إذا ذكر اسمى مرة ثانية
من النهاية إلى البداية
فإننى أشع بمصابيح مائة عام
فى لحظة واحدة » .

وقال كفير كفوباد : « لا أحد منا يستطيع تفسير هذا النقش . لا أحد منا يعرف معنى كلمات مينرود يور . ولم يعثر أحد حتى الآن على اسم الحجر بالرغم من أننا جميعاً عاودنا المحاولة باستمرار . ولكننا جميعاً لا نستطيع أن نستخدم إلا الأسماء الموجودة فعلاً فى فانتازين . ونظراً لأنها أسماء لأشياء أخرى فلم يجعل أحد الحجر يضىء وبالتالى يفتح الباب . أتستطيع أن تعثر عليه يا باستيان بلتازار بوكس ؟ » وعم سكون عميق ملىء بالتوتر . وتوقف جميع أهالى أمر جانت وغير أمر جانت عن التنفس .

وصاح باستيان : « التساهير ! »

وفى نفس اللحظة أشع الحجر منيراً وقفز من إطاره إلى يد باستيان مباشرة . وانفتح الباب . وخرجت آهة الدهشة من آلاف الحناجر .

ودخل باستيان والحجر المضىء فى يده من الباب يتبعه أتريو وكفير كفوباد . وتدافع الجمهور من ورائهم .

وكانت الغرفة الكبيرة المستديرة مظلمة ، ورفع باستيان الحجر عالياً .

وصحيح أن ضوءه كان أكثر نوراً من نور الشمعة ولكنه لم يكن كافياً لإنارة الغرفة تماماً . وشوهد فقط أن هناك كتباً فوق كتب على الجدران بطولها ، ولعدة أدوار .

وأُحضرت مصابيح وسرعان ما أنيرت الغرفة الكبيرة كلها . وشوهد الآن أن حائط الكتب كان مقسماً على مدى الدائرة إلى أقسام كثيرة مختلفة تحمل ألواحاً إرشادية . فكان هناك مثلاً : « قصص مرحة ، أو قصص مشوّقة » أو « قصص جادة » أو « قصص قصيرة » وهكذا دائماً .

وفى وسط القاعة المستديرة كانت كتابة كبيرة لا يمكن إغفالها منقوشة ومضغوطة على الأرض :

مَكْتَبَـــةُ

الأعمـــالِ الكاملِـةِ

لباستيـــان بلتازار بوكـــس

ووقف أتريو ونظر حوله بعينين مشدوهتين . وقد تملك عليه الإعجاب والدهشة لدرجة أن انفعاله رؤى بأكثر من الوضوح . وابتهج باستيان لذلك .

وسأل أتريو وهو يشير بأصبعه من حوله : « كل هذا ، كل هذه قصص ألفتها ؟ »

ـ « نعم » ، قال ذلك باستيان وأدخل التساهير فى جيبه .

ونظر إليه أتريو بدهشة بالغة . وقال معترفاً : « إن هذا يفوق عقلى . »

وكان أهالى أمرجانت قد انهالوا منذ وقت طويل طبعاً على الكتب بحماس مشتعل ، يقلبون صفحاتها ، ويقرأون لبعضهم ، منهم من جلس ببساطة على الأرض ، وبدأوا فعلاً فى حفظ مواضع معينة عن ظهر قلب .

وبالطبع كان نبأ الحدث العظيم قد انتشر فى كل المدينة الفضية فى سرعة النيران ، سواء بين المواطنين أو الضيوف .

وكان باستيان وأتريو فى اللحظة يخرجان من المكتبة إلى الخلاء ، عندما أتى ناحيتهم السادة هيكريون وهيزبالد وهيدورن .

وقال هيزبالد الذى على ما يبدو ليس فقط الأعظم مهارة بالسلاح ولكن باللسان أيضاً : « ياسيدى باستيان لقد سمعنا أية مهارات لا تقارن قد أظهرتموها ، ولذلك نريد أن نرجوكم أن تأخذونا فى خدمتكم ، وأن تدعونا نسير معكم فى مواصلة رحلتكم . إن كل فرد منا نحن الثلاثة يشتاق إلى أن يحصل على قصة خاصة به . وإذا لم تكونوا بالتأكيد التام فى غير حاجة إلى حمايتنا ، فمن المحتمل أن يكون من المفيد لكم أن يكون لديكم ثلاثة فرسان ماهرين حاذقين مثلنا فى خدمتكم . أترغبون فى هذا ؟ »

فأجاب باستيان : « بسرور ، إن كل فرد ليفخر بمثل هؤلاء الرفقاء . »

وأراد السادة الثلاثة الآن من كل بد فى الحال أن يقسموا قسم الإخلاص على سيف باستيان ولكنه منعهم .

وقال مفسراً لهم : « إن سيكاندا سيف مسحور . ولا يجوز لأحد لم يأكل ويشرب من نار الموت الملون ويستحم فيها ، أن يمسه ، دون أن يكون هناك خطر على جسده وحياته . » وهكذا اضطروا أن يقنعوا بمصافحة صداقة باليد .

وسأل باستيان مستفسراً : « وماذا عن أمر البطل هينريك ؟»

فقال هيكريون : «إنه محطم تماماً . »

وأضاف هيدورن : « الأمر بسبب سيدته . »

وختم هيزبالد قائلاً : « ينبغى عليكم أن تهتموا بأمره . »

وهكذا بدأوا السير ـ وهم الآن خمسة ـ إلى الفندق الذى نزلت فيه الجماعة فى البداية ، وحيث أقام فيه باستيان إيخا فى حظيرته .

وعندما دخلوا إلى القاعة لم يجدوا هناك سوى رجل واحد . وقد انكفأ على المنضدة ودس يديه فى شعره الأشقر . لقد كان البطل هينريك .

وعلى ما يبدو كان لديه درع احتياطى فى أمتعة سفره ، لأنه كان يرتدى الآن زيا أكثر بساطة من الذى تمزق إرباً فى اليوم السابق أثناء قتاله مع باستيان .

وعندما تمنى له باستيان نهاراً سعيداً ، هب واقفاً وحملق فى كلا الصبيين . وكانت عيناه محمرتين . وسأل باستيان إذا كان يسمح لهما بالجلوس إليه ، فهز كتفيه ورأسه بالإيجاب وهَوى ثانيةً على مكانه ، وكانت أمامه على المنضدة ورقة تبدو كما لو كانت قد كُورت لمرات عديدة وأعيد فردها .

وبادره باستيان قائلاً : « أود أن أسأل عن أحوالكم ، يؤسفنى إذا كنت قد أهنتكم . » وهز البطل هينريك رأسه بالنفى .

وقال بصوت خشن : « لقد انتهى أمرى، ها كم ، اقرأوا بأنفسكم . »

وجذب باستيان الورقة ، وكان مكتوباً عليها : « إننى لا أرغب إلا فى الأعظم وهذا ليس أنت ، لذلك وداعاً ! »

وسأل باستيان : « من الأميرة أوجلمار ؟ »

وهز البطل هينريك رأسه بالإيجاب . ــ « لقد جَعَلْتُهم يحملونها إلى الشاطىء بعد صراعنا مباشرة ، مع خيامها . من يدرى أين هى الآن ؟ إننى لن ألقاها بعد اليوم . ماذا أفعله فى هذه الدنيا ! »

ــ « ألا تستطيعون اللحاق بها ؟ »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « ربما لكى تغيرون رأيها . »

وأطلق البطل هينريك ضحكة مريرة .

ــ « إذن أنتم لا تعرفون الأميرة أوجلمار . لقد تمرّنتُ أكثر من عشر سنوات لكى أتمكن من كل ما أستطيعه ، وأعرضت عن كل ما هو غير مفيد لحالتى الجسمانية . وتعلمت بنظام حديدى المبارزة لدى أعظم أبطال المبارزة ، وجميع أنواع المصارعة لدى أقوى المصارعين إلى أن تغلبت عليهم جميعاً . إننى أستطيع الجرى أسرع من حصان والقفز أعلى من غزال ، إننى أستطيع كل شىء بأفضل ما يكون ، أو بمعنى أصح ، ــ كنت أستطيع حتى أمس . من قبل لم تكن تجدنى جديراً بنظرة أبداً ، ولكن بعد ذلك ازداد اهتمامها بى شيئاً فشيئاً لمهارتى . وجاز لى أن آمل فى اختيارها لى ــ والآن كل شىء بلا جدوى إلى الأبد . كيف لى أن أعيش بلا أمل ؟ »

فقال باستيان : « ربما ينبغى عليك ألا تهتم كثيراً بالأميرة أوجلمار . فمن المؤكد أن هناك أخريات سينلن إعجابك بنفس القدر . »

فرد البطل هينريك : « كلا ، إن الأميرة أوجلمار تعجبنى بالذات لأنها لا ترضى إلاّ بالأعظم » .

فقال باستيان حائرا : « هكذا ، إن هذا بالطبع أمر صعب . ماذا يمكن إذن فعله وماذا إذا ما حاولت معها بشكل آخر ؟ كمنشد مثلا أو كشاعر ؟ »

فأجاب هينريك وقد أثيرت أعصابه قليلا : « إننى بطل ، ولا أستطيع ولا أريد أية مهنة أخرى . أنا كما أكون . »

فقال باستيان : « نعم ، إننى أفهم ذلك . »

وصمت الجميع . وألقى السادة الثلاثةنظرات مشفقة على البطل هينريك . لقد استطاعوا أن يفهموا ما يجرى بداخله . وأخيرا تنحنح هيزبالد وقال بصوت منخفض ، متجها إلى باستيان :

- « بالنسبة لكم ، ياسيد باستيان ، لن يكون أمر مساعدته أمرا كبيرا فى الحقيقة . »

ونظر باستيان إلى أتريو ، ولكنه اتخذ وجها لا يبوح بأى انفعال مرة أخرى .

وأضاف الآن هيدورن قائلا : « إن شخصاً كالبطل هينريك يكون فى وضع سيء فعلا ، إذا لم تكن هناك أية مَرَدة على المدى البعيد . أتفهمون ذلك ؟ »

وكان باستيان لا يزال غير فاهم .

فقال هيكريون وهو يمسح شاربه الأسود الهائل : « إن المردة ضرورية لكى يستطيع البطل أن يكون بطلا . » وأثناء ذلك غمز بعينيه لباستيان .

وأخيرا فهم باستيان الآن .

وقال : « اسمع أيها البطل هينريك ، إننى باقتراحى أن تهبوا قلبكم لسيدة أخرى ، قد اختبرت فقط مدى ثباتكم . ففى الحقيقة إن الأميرة أوجلمار تحتاج الآن لمساعدتكم ، ولا أحد غيركم يستطيع إنقاذها . »

وأنصت البطل هينريك باهتمام .

- « أتتكلمون جدية ياسيد باستيان ؟»

- « بكل الجدية ، سيكون بإمكانكم حالا الاقتناع بذلك . فقد هوجمت الأميرة أوجلمار منذ بضع دقائق وتم اختطافها . »

- « ممن ؟ »

- « من أحد أكثر المَرَدة رعبا الذين تواجدوا فى فانتازين من قبل . إنه المارد سميرج ، ففى لحظة ما كانت تمر بمنطقة كثيفة بالغابة رآها الشرير واندفع إليها من الهواء ورفعها من ظهر فرسها وانتزعها معه . »

وهب هينريك واقفا . وبدأت عيناه تتلألأ ووجنتاه تتوهج . وصفق بيديه من السرور . ولكن انطفأ لمعان عينيه مرة أخرى وجلس .

وقال وهو مهموم : « للأسف هذا لا يمكن ، فلم تعد هناك مردة على المدى البعيد . »

فقال باستيان مفسرا : « إنكم تنسون أيها البطل هينريك ، اننى قادم من بعيد جدا ــ أبعد جدا من أى مكان كنتم فيه . »

وقال أتريو مؤيدا ، وهو يتدخل لأول مرة : « هذا حقيقى . »

وصاح البطل هينريك : « وهى فعلا اختطفها هذا المارد ؟ »

وبعد ذلك ضغط بكلتا يديه على قلبه وتنهد قائلا : « آه ، يا معبودتى أوجلمار ، كم تقاسين الآن ؟ ولكن لا تخافى ، منقذك قريب ، إنه فعلا فى الطريق . قولوا لى ، ماذا علىّ أن أفعله ؟ إلى أين يجب أن أذهب ؟ ماهو الأمر ؟ »

وبدأ باستيان يقول : « فى مكان بعيد جدا عن هنا يوجد بلد اسمه مورجول أَوْبلد النار الباردة ، لأن اللهب هناك أبرد من الثلج . وأنا لا أستطيع أن أقول لكم ، كيف تعثرون على هذا البلد ، وعليكم أن تعثروا عليه بأنفسكم . وفى وسط هذا البلد توجد غابة متحجرة اسمها ڤود جاباى ، ومرة أخرى فى وسط هذه الغابة المتحجرة يوجد حصن الرصاص رَجار ، وتحيط به ثلاثة خنادق . فى الأول يسرى سم أخضر ، وفى الثانى حامض النتريك أو ملح البارود يتصاعد منه الدخان ، والثالث يعج بالعقارب كبيرة فى حجم أقدامكم . ولا توجد كبارى ولا جسور فوقها ، لأن السيد المسيطر على حصن الرصاص رجار هو ذلك المارد ذو الأجنحة المسمى سميرج . أجنحته من الجلد اللزج ويبلغ طول امتدادها اثنين وثلاثين مترا . وعندما لا يطير فهو يقف منتصبا كحيوان كنغر عملاق . وجسمه يشبه فأرا أجرب ، ولكن ذنبه ذنب عقرب . وحتى أخف لمسة بالشوكة السامة تجلب الموت المحتم . وأرجله الخلفية أرجل جرادة عملاقة ، ولكن أرجله الأمامية التى تبدو ضئيلة وضامرة ، تشبه أيادى طفل صغير . ولكن لا يجوز الانخداع بذلك ، لأن فى هاتين اليدين الصغيرتين بالذات توجد قوة مخيفة . وهو يستطيع أن يكمش رقبته الطويلة كما تفعل القوقعة بقرون استشعارها ، وفوقها تقبع ثلاثة رؤوس . أحدهم كبير ويشبه رأس تمساح ، ومن هذا الفم يستطيع أن يقذف نيران الجليد ، ولكن هناك حيث يكون للتمساح عينان ، له عضوان ناميان ، وهما رأسان مرة أخرى . الأيمن يبدو كرأس رجل عجوز ، وهو يستطيع أن يسمع ويرى به . وللكلام لديه الرأس الأيسر الذى يبدو كوجه مجعد لامرأة عجوز . »

وأثناء هذا الوصف أصبح البطل هينريك شاحب الوجه قليلا .
وسأل قائلا : « كيف كان الاسم ؟ »

فقال باستيان مكررا : « سميرج ، إنه يعيث فى الأرض فسادا منذ ألف سنة ، لأن هذا هو عمره . فهو يعاود دائما اختطاف عذراء جميلة يجب أن تدير شئون المنزل حتى نهاية أيامها . وعندما تموت يختطف واحدة جديدة . »

- « كيف أننى لم أسمع بذلك أبدا ؟ »

- « إن سميرج يستطيع الطيران سريعا وبعيدا بشكل لا يمكن تصوره . فى الماضى كان يختار دائما بلادا أخرى لفانتازين من أجل حملات سطوه . وهذا يحدث مرة واحدة فقط فى كل نصف قرن . »

- « ولم يطلق أحد من قبل سراح إحدى السجينات ؟ »

- « كلا ، فالأمر يحتاج إلى بطل فريد جدا . »

وعند هذه الكلمات عاد الاحمرار إلى وجنتى البطل هينريك .

وسأل سؤال الخبير : « هل لدى سميرج موضع يمكن جرحه فيه ؟ »

فأجاب باستيان : « آه . كدت أن أنسى أهم شىء . يوجد فى أكثر الأقبية عمقا للحصن رجار بلطة من الرصاص . ربما تستطيعون تصور أن سميرج يحرس هذه البلطة مثل مُقلة عينيه عندما أقول لكم إنها هى السلاح الوحيد الذى يمكن أن يُقتل به . فلابد أن تقطع بها الرأسين الصغيرين . »

وسأل البطل هينريك : « من أين تعرفون كل هذا ؟ »

ولم يكن هناك ما يدعو باستيان إلى الإجابة لأن فى هذه اللحظة تعالت صيحات فزع على الطريق :

- « تنين ! ـ مارد ! ـ انظروا ، هناك بأعلى فى السماء ! ـ فظيع ـ إنه يتجه إلى المدينة . ـ فلينج بنفسه من يستطيع ! لا ، لا ، إن معه فعلا ضحية ! »

وانطلق هينريك إلى الطريق ، وتبعه الآخرون كلهم ، وآخرهم أتريو وباستيان .

وفى السماء رفرف بجناحيه شىء يشبه وطواط عملاق . وعندما اقترب كان كما لو أن ظلا بارداً قد حط على المدينة الفضية كلها للحظة . لقد كان سميرج ، وبدا

مظهره بالضبط كما اختلقه باستيان منذ قليل . وكان يمسك بيديه الضامرتين ولكن الخطيرتين جدا سيدة شابة كانت تصرخ بأعلى صوت وترفس بأرجلها .

وسُمع من البعد المتزايد على الدوام : « هينريك . النجدة يا هينريك . إنقذنى يابطلى ! » ثم انتهى .

وكان هينريك قد أحضر فعلا فرسه الأسود من الحظيـرة ، ووقف فى إحدى المعديات الفضية التى تسير إلى اليابسة .

وسُمع وهو يصيح على المراكبى قائلا : « أكثر سرعة ! سأعطيك ما تريد ، ولكن أسرع . »

وتابعه باستيان بنظره وتمتم قائلا : « أرجو ألا أكون قد جعلت الأمر أصعب من اللازم عليه . »

ونظر أتريو إليه من طرف عينيه . ثم قال بصوت منخفض :

- «ربما من الأفضل لنا أن نبدأ الرحيل أيضا . »
- « إلى أين ؟ »

فقال أتريو : « لقد أتيت إلى فانتازين عن طريقى ، وأعتقد أنه ينبغى علىّ أيضا أن أساعدك فى العثور على طريق العودة . من المؤكد أنك فى وقت ما ستريد العودة ثانية إلى عالمك ، أليس كذلك ؟ »

فقال باستيان : « أوه ، إننى لم أفكر فى ذلك حتى الآن مطلقا . ولكن معك حق ياأتريو . نعم ، بالطبع أنت معك حق تماما . »

وواصل أتريو قوله : « لقد أنقذت فانتازين ، ويبدو لى أنك تلقيت الكثير فى مقابل ذلـك . ويمكننى الاعتقاد أنـك تود الآن العـودة لكى تجعل عـالمك مُعـافَى الصحة . أم لا يزال هناك شىء يمنعك ؟ »

باستيان الذى نسى أنه لم يكن دائما قويا وجميلا وشجاعا وذا نفوذ ، أجاب :

- « كلا ، ليس فى علمى شىء من ذلك . »

ونظر أتريو إلى الطريق بتأمل مرة أخرى وأضاف قائلا :

- « وربما يكون طريقا طويلا وصعبا ، من يدرى ؟ »

وقال باستيان مؤيدا : « نعم ، من يدرى ؟ إذا أردت ، دعنا إذن نبدأ الرحيل فورا . »

ثم كان هناك نزاع صداقة قصير بين السادة الثلاثة الذين لم يستطيعوا الاتفاق على من منهم يجوز له وضع حصانه تحت أمر باستيان . ولكن باستيان إختصر الموضوع بأن رجاهم أن يهبوا له البغلة إيخا . وكان من رأيهم أن دابة نقل مثل هذه أقل من درجة باستيان ، ولكن نظرا لتمسكه بذلك فقد انصاعوا فى آخر الأمر .

وبينما كان السادة يعدون كل شىء لبدء الرحيل ، عاد باستيان وأتريو إلى قصر كفير كفوباد لكى يشكروا العجوز الفضى على كرم ضيافته ويودعوه . وكان فخور ، تنين الحظ ينتظر أتريو أمام القصر . وكان مسرورا جدا عندما سمع بالرغبة فى بداية الرحيل . فالمدن لم تكن بالشىء الصحيح بالنسبة لـه ، حتى وإن كانت بجمـال أمرجانْت .

وكان العجوز الفضى كفيركفوباد مستغرقا فى قراءة أحد الكتب الذى أخذه معه من مكتبة باستيان بلتازار بوكس .

وقال بشىء من السرور : « كنت أود أن تكونوا ضيوفا عندى لوقت طويل . فالمرء لا يستضيف أديبا عظيما مثل هذا فى جميع الأيام . ولكننا الآن لدينا مؤلفاته سلوى عنه . » وودعوا بعضهم بعضا وخرجوا .

وعندما جلس أتريو على ظهر فخور ، وسأل باستيان :

- « ألم تكن تريد أن تركب أيضا على فخور ؟ »

فأجاب باستيان : « قريبا ، فالآن تنتظرنى إيخا ، وقد وعدتها بذلك . »

فصاح أتريو : « إذن نحن فى انتظاركم على اليابسة . »

وارتفع تنين الحظ فى الهواء وفى اللحظة التالية كان خارج مرمى البصر .

وعندما عاد باستيان إلى الفندق ، كان السادة الثلاثة ينتظرون جاهزين للرحيل بالأحصنة والبغلة فى إحدى المعديات . وقد نزعوا عن إيخا بردعة الأحمال وبدلوها بسرج فرسان ملىء بالزينة . ولكنها لم تعرف لماذا إلا عندما تقدم إليها باستيان وهمس فى أذنها :

- « أنت الآن تخصينى يا إيخا . »

وأثناء إقلاع الزورق وابتعاده عن المدينة الفضية كانت صيحة الفرح للبغلة العجوز مازالت تسمع لوقت طويل عند المياه المرة لبحيرة الدموع مورهو .

وأما فيما يتعلق بالبطل هينريك ، بالمناسبة ، فقد نجح فعلا فى الوصول إلى مورجول بلاد النار الباردة . واقتحم كذلك الغابة المتحجرة قود جاباى واجتاز الخنادق الثلاثة من حول حصن رجار . وعثر على البلطة الرصاص وهزم التنين سميرج . ثم أعاد أوجلمار إلى أبيها بالرغم من أنها كانت الان مستعدة أن تتزوجه . ولكنه الآن لم تعد لديه الرغبة . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكى فى مناسبة أخرى .

١٨
الأخــاركْ


ع



على رؤوس الفرسان كادت تمرق السحب التى انهمر منها المطر كثيفا وثقيلا . ثم بدأت تثلج فى نُدف كبيرة لزجة ، وفى النهاية أثلجت وأمطرت فى نفس الوقت . وكانت العاصفة من الشدة بحيث اضطرت حتى الأحصنة أن تقاومها وهى مائلة . وثقلت معاطف الفرسان من البلل وكانت تضرب مصفقةً على ظهور الدواب .

وكانوا الآن على سفرهم منذ أيام كثيرة ، والثلاثة الأخيرة منها ساروا عبر هذا السّهل المرتفع . وقد ازداد الطقس سوءا يوما عن يوم وأصبحت الأرض خليطا من الطين وكبسور الصخور حادة الأطراف والتى جعلت التقدم أمرا متزايد الارهاق . وفى مواضع متفرقة كانت توجد مجموعات من الأحراش أو الشجيرات التى أمالها عصف الرياح ، وخلاف ذلك لم يعرض للعين أى تنويع .

باستيان الذى تقدم ممتطيا البغلة إيخا ، كان فى وضع حسن بمعطفه الفضى اللامع بالمقارنة بغيره . فلقد اتضح أن هذا برغم أنه خفيف ورقيق ، كان يبعث الدفء بشكل رائع ، وكان الماء ينزلق من عليه . وكاد الجسم المربوع لهيكريون القوى أن يختفى فى معطف صوفى أزرق سميك . وكان هيزبالد رقيق الأعضاء ، قد شد القلنسوة الكبيرة لعباءته الجوخ البنية اللون فوق شعره الأحمر . والتصقت عباءة هيدورن ذات قماش قلع المراكب الرمادى بأعضاء جسمه النحيلة .

وبالرغم من ذلك فقد كان السادة الثلاثة فى روح معنوية جيدة بطريقتهم الخشنة قليلا . ولم يكن فى توقعهم أن رحلة المغامرات مع السيد باستيان ستكون نوعا من نزهات أيام الأحد . وبين الحين والآخر كانوا يغنون فى مواجهة العاصفة بأصوات عالية قوية أكثر منها جميلة ، تارة فرادى وتارة فى مجموعة . وكانت أغنيتهم المفضلة

على ما يبدو أغنية تبدأ بالكلمات التالية :

« عندما كنت صبيا صغيرا ،
ترا الّلا لاّ أثناء المطر والرياح . . . »

وكما شرحوا قائلين بأن أصلها يرجع إلى رحّالة فانتازى من أيام مضت منذ وقت طويل ، وكان يدعى شيكس بير أو ما شابه ذلك .

والشخص الوحيد فى المجموعة الذى كان يبدو لا يتأثر أى تأثير بالبلل أو البرودة ، كان أتريو . فكما هو الحال فى أغلب الأوقات منذ بداية الرحلة ، فقد انطلق على ظهر فخور بين نتف السحاب وفوقها ، وكان يسرع متقدماً إلى بعيد ليستكشف البلاد ويعود ثانية ليعطى التقرير .

وكان الجميع ، وحتى تنين الحظ ، يعتقدون أنهم يبحثون عن الطريق الذى سيقود باستيان للعودة إلى عالمه . وأيضا باستيان كان يعتقد ذلك . وهو نفسه لم يعرف أنه أيد اقتراح أتريو فى الحقيقة فقط من أجل الصداقة ومن حسن النية ، وأنه فى الواقع لم يكن يتمنى ذلك على الإطلاق . ولكن جغرافية فانتازين تحددها الأمانى سواء كان يدركها الشخص أم لا . ونظرا لأن باستيان كان ذلك الشخص الذى لديه قرار تحديد الاتجاه الذى يواصلون السير فيه ، فقد حدث أن طريقهم كان يقودهم دائما أكثر عمقا إلى داخل فانتازين ـ وهو لن يعرف ما أهمية ذلك بالنسبة له إلا فيما بعد . فمؤقتا لم يكن لا هو يشعر بشىء من ذلك ولا أحد من مرافقى رحلته .

لقد كانت أفكار باستيان مشغولة بشىء آخر .

وفى اليوم الثانى مباشرة ، بعد بدء رحيلهم من أمر جانت عثروا فى الغابات المحيطة بمورهو على أثر واضح للتنين سميرج . وكان جزء من الأشجار الموجودة هناك قد تحجر . فعلى ما يبدو أن المارد قد حط هناك ومس الأشجار بنار حلقة الباردة برودة الثلج . وكان من السهل التعرف على آثار أقدامه العملاقة كهيئة أقدام الجراد . وعثر أتريو الذى كان خبيرا بذلك ، على آثار أخرى ، ألا وهى آثار حصان البطل هينريك . إذن لقد كان هينريك فى أعقاب التنين .

وقال فُخور فيما يشبه المزاح وهو يدير كريّات عينيه الحمراوين كحمرة الياقوت :
« إننى لست راضيا تماما عن ذلك . لأنه سواء كان سميرج شريرا أم لا ، فهو برغم

كل شىء أحد أقربائى ـ وإن كان ذلك من بعيد . »

ولم يتبعوا أثر البطل هينريك ، ولكنهم اتخذوا اتجاها آخرا ، لأن هدفهم كان البحث عن طريق عودة باستيان للوطن .

ومنذ ذلك الوقت فكر فيما فعله فى الحقيقة عندما اختلق تنينا للبطل هينريك . من المؤكد أن البطل هنيريك كان يحتاج إلى شىء يبرهن به جدا رته ويقاتل ضده . ولكن لم يذُكر أبدا أنه سوف ينتصر . ماذا ، لو أن سميرج قد قتله ؟ وإلى جانب ذلك فقد كانت الأميرة أو جلمار أيضا فى موقف مخيف . أكيد كانت متكبرة بعض الشىء ، ولكن هل كان لباستيان الحق أن يأتى بها إلى التعاسة بهذا الشكل ؟ وبصرف النظر عن كل ذلك ، من يدرى ماذا كان سميرج سيقترفه فى فانتازين غير ذلك . لقد خلق باستيان دون أن يفكر كثيرا فى تلك الأثناء خطرا لا يدرك مداه والذى كان سيستمر وجوده بدونه وربما كان سيجلب دمارا لا يوصف على كثير من الأبرياء . لقد كان يعرف أن طفلة الأقمار لا تفرق فى مملكتها بين الشرير والطيب ، بين الجميل والقبيح . فبالنسبة لها كان كل مخلوق فى فانتازين متساويا فى الأهمية والحقوق . ولكن هل كان مسموحاً له ، أى لباستيان ـ أن يتصرف مثلها ؟ وقبل كل شىء هل كان يرغب فى ذلك على الإطلاق ؟

وقال باستيان لنفسه ، لا إنه لم يرد أبداً أن يدخل تاريخ فانتازين كخالق للمَرَدة والأشرار . من الأجمل كثيرا لو أنه اشتهر بالطيبة وإنكار الذات ، لو أنه كان المثل الأعلى المضىء للجميع ، لو أنه سُمى بالرجل الطيب ، أو كُرِّم على أنه « رجل الخير العظيم » أجل ، لقد كان هذا هو ما يتمناه لنفسه .

وفى تلك الأثناء أصبحت الأرض صخرية ، وأعلن أتريو الذى عاد من رحلة طيران استطلاعية على ظهر فُخور ، أنه رصد على مسافة بضعة أميال إلى الأمام واد عميق يتيح حماية جيدة نسبيا ضد الرياح . ولو كان ما رآه صائبا ، فإن هناك أيضا عديد من الكهوف يمكن للمرء أن يجد بها مأوى من المطر والثلج .

وكان الوقت قد تخطى العصر ، وآن الأوان أن يبحثوا عن مكان يعسكرون فيه لليل . وهكذا ابتهج الجميع بنبأ أتريو وحثوا دوابهم على المسير . وامتد الطريق على

قاع وادٍ تحيط به صخور يتزايد ارتفاعها على الدوام ، وربما كان مجرى أحد الأنهار التى جفت . وبعد حوالى ساعتين وصلوا إلى الوادى العميق ، وفعلا كانت هناك كهوف عديدة فى الحوائط فيما حولهم . واختاروا أرحبها وهيأوه لراحتهم بالداخل على قدر المستطاع . وجمع السادة الثلاثة من المكان المحيط بهم حطبا جافا وفروع أشجار كسرتها العاصفة ، وسرعان ما اشتعلت فى الكهف نار عظيمة . ونُشرت المعاطف المبللة لتجف وأُدخلت الأحصنة والبغلة ونُزعت عنهاالسروج ، وحتى فخور الذى كان يفضل دائما المبيت فى العراء ، تكوّر فى خلفية الكهف . ولم يكن المكان أساسا غير مريح بالمرة .

وبينما كان هيدورن شديد المراس ، يحاول أن يشوى قطعة كبيرة من اللحم من مؤونته فى سيفه الطويل على النار ، وينظر إليه الجميع بتشوق ، إتجه أتريو إلى باستيان راجيا :

ـ « احك لنا المزيد عن كريس تا ! »

فسأل باستيان دون إدراك : « عن من ؟ » .

ـ « عن صديقتك كريس تا ، الفتاة الصغيرة التى كنت تحكى لها قصصك . »

فأجاب باستيان : « إننى لاأعرف فتاة صغيرة تدعى هكذا ، وكيف خطرلك أننى حكيت لها قصصا ؟ »

ونظر إليه أتريو ثانية بتلك النظرة المتأملة .

وقال ببطء : « فى عالمك حكيت قصصا كثيرة ـ لها ولنفسك أنت أيضا . »

ـ « من أين تدعى معرفة ذلك ، ياأتريو ؟ »

ـ « لقد قلت ذلك . فى أمرْ جانْت . وقلت أيضا ، أنه كثيراً ما سُخر منك لذلك . » وحملق باستيان فى النار .

وتمتم قائلا : « هذا صحيح . لقد قلت هذا . ولكننى لا أدرى لماذا . لا أستطيع تذكر ذلك . »

وبدا الأمر له هو ذاته غريبا .

وتبادل أتريو نظرة مع فُخور وهز رأسه بجدية ، كما لو كانا قد تحدثا عن شيء تحقق الآن . ولم يقل شيئا بعد ذلك . وعلى ما يبدو لم يكن يريد أن يتحدث عن ذلك أمام السادة الثلاثة .

وأعلن هيدورن : « اللحم جاهز »

وقطع لكل واحد قطعة بالسكين وأكل الجميع . وصحيح أنه لم يكن بالإمكان الإدعاء بخالص النية أنه كان جاهزا ـ فقد كان متفحما قليلا من الخارج ومازال نيئا من الداخل ـ ، ولكن فى الظروف المتاحة لم يكن من غير اللائق أن يكون المرء أنوفاً .

ومضغ الجميع فترة من الزمن ، ثم قال أتريو راجيا مرة أخرى :

ـ « احك لنا كيف أتيتَ إلينا . »

فأجاب باستيان : « إنك تعرف هذا . لقد أتيت بى إلى الإمبراطورة الطفولية . »

فقال أتريو : « أقصد ، قبل ذلك ، فى عالمك ، أين كنت حينئذ ، وكيف حدث كل شىء ؟ »

وحكى باستيان الآن كيف أنه سرق الكتاب من السيد كورياندر ، وكيف هرب به إلى مبنى مخزن المدرسة ، وبدأ القراءة هناك . وعندما أراد أن يحكى عن مهمة البحث الكبرى لأتريو ، أشاح هذا بيده . ويبدو أنه لم يكن يهمه ما قرأه باستيان عنه . وبدلا من ذلك فقد أهمه للغاية معرفة معلومات أدق عن كيفية وسبب زيارة باستيان لدى كورياندر وهروبه إلى مبنى مخزن المدرسة .

وأجهد باستيان نفسه بالتفكير ولكنه لم يعثر على شىء من ذلك فى ذاكراته . ونسى كل ما كان يتعلق به ، وهو أنه كان خائفا وبدينا وحساسا . ذاكرته كانت بقايا محطمة وهذه الكسور بدت بعيدة ومُبهمة كما لو لم تكن تعنيه هو ، بل تعنى شخصا آخر .

وسأله أتريو عن ذكريات أخرى ، وحكى باستيان عن أزمنة كانت فيها أمُه لا تزال على قيد الحياة ، وعن أبيه وعن منزله وعن المدرسة وعن مدينته ـ ما كان لا يزال يعرفه ، واستغرق السادة الثلاثة فى النوم ، وكان باستيان لا يزال يحكى .

وأدهشه أن يكون لدى أتريو اهتمام كبير خصوصا بالأمور اليومية المعتادة . ربما كان السبب يرجع إلى الطريقة التى استمع بها أتريو إليه ، بحيث لم تعد تبدو أكثر الأمور سطحية واعتيادية له هو نفسه غير يومية وعادية شيئا فشيئا ، ولكن أصبح لها كلها سر لم يكن يلاحظه أبدا .

وتمدد باستيان والتف بمعطفه الفضى ، وكان سيغط فى نومه فى لحظة أن قال أتريو بصوت منخفض : « السبب يرجع « إلى آورين . »

واتكأ باستيان برأسه على يده ونظر إلى صديقه بعينين ناعستين :

ـ « ماذا تقصد بذلك ؟ »

وواصل أتريو كلامه ، كما لو كان يتحدث إلى نفسه ، « البريق يحدث تأثيرا مختلفا على أمثالنا عنه على طفل من البشر . »

ـ « وكيف توصلت إلى هذا ؟ »

ـ « إن العلامة تعطيك نفوذا كبيرا ، وتحقق جميع أمانيك ، ولكنها فى نفس الوقت تأخذ منك شيئا : ألا وهو تذكّر عالمك . »

وفكر باستيان ولم يشعر أن شيئا ينقصه .

ـ « لقد قال لى جراوجرمان أن علىّ أن أسير فى طريق الأمانى إذا انبغى علىّ العثور على إرادتى الحقيقية . وهذا ما تعنيه الكتابة المنقوشة على آورِيْن . ولكن علىّ فوق ذلك أن أسير من أمنية إلى أخرى . وليس فى إمكانى تخطى واحدة . وقال إننى لا أستطيع مواصلة السير فى فانتازين على نحو آخر على الإطلاق . وأنا فى ذلك مُحتاج إلى الجوهرة . »

فقال أتريو : « نعم ، إنها تمنحك الطريق وتأخذ منك الهدف فى نفس الوقت . »

فقال باستيان وهو مطمئن البال : « كلا ، من المرجح أن طفلة الأقمار كانت تعرف ما تفعله عندما أعطتنى العلامة . إنك تشغل بالك بأفكار ليس لها داع يا أتريو . من المؤكد تماما أن آورِيْن ليس بفخ . »

فتمتم أتريو قائلا : « لا ، أنا لا أعتقد ذلك أيضا . »

وأضاف بعد برهة من الزمن : « وعلى كل حال فإنه لأمر طيب أننا بصدد البحث عن الطريق إلى عالمك . نحن بصدد هذا ، أليس كذلك ؟ »

وأجاب باستيان وهو نصف نائم : « نعم ، نعم . »

وفى وسط الليل استيقظ على صوت غريب . ولم يستطع أن يفسر كنهه لنفسه . وكانت النار قد انطفأت وأحاط به ظلام تام . ثم أحس بيد أتريو على كتفه وسمعه يهمس قائلا :

ـ « ما هذا ؟ »

ورد هامسا : « لست أدرى أيضا . »

وزحفا إلى مدخل الكهف من حيث أتى الصوت واستمعا بإمعان أكثر .

وكان رنيناً كالنحيب والبكاء المكتوم من حناجر لا تحصى ، ولكنه لم يكن بشريا ، ولا حتى له شبه بأصوات النحيب الحيوانية . لقد كان هديرا عاما أحيانا ما يعلو إلى التنهيد مثل الموجة المزبدة ثم يخف ثانية لكى يعلو بعد وقت قليل من جديد . لقد كان أكثر صوت سمعه باستيان من قبل باعثا على الأسى .

وهمس أتريو قائلا : « لو يستطيع المرء أن يرى على الأقل شيئا :

فرد باستيان : « انتظر . إن معى التساهير . »

وسحب الحجر المضىء من جيبه ورفعه عاليا .

وكان الضوء ناعما كضوء شمعة وأنار قاع الوادى بشكل ضعيف فقط ، ولكن هذا الشعاع كان كافيا لكى يظهر للصديقين صورة اقشعرت لها أبدانهما من الاشمئزاز .

وكان قاع الوادى كله ممتلئا بديدان بطول الذراع غير متناسقة الشكل ، وبدا جلدها كما لو كان ملفوفا فى خرق بالية وقطعة قماش قذرة . ومن بين ثناياها كان يمكنها أن تُخرج شيئا كأعضاء مخاطية تبدو كأذرع الأخطبوط . وفى طرف أجسادها أطلت من الخرق عينان من كل منها ، عينان بلا أجفان تجرى منها الدموع على الدوام . وكانت هى نفسها وقاع الوادى كله مبللاً منها .

وفى لحظة أن وقع عليهم ضوء التساهير ، تصلبت ، وهكذا أمكن مشاهدة ما كانوا يشتغلون به فى ذلك الحين . فقد ارتفع فى وسطهم برج يتكون من أدق المشغولات الفضية ـ أجمل وأعظم قيمة من كل مارأى باستيان . وكان كثير من الكائنات الدودية على ما يبدو على وشك التسلق فوق هذا البرج ويركبونه من أجزاء منفردة . ولكنهم الآن كانوا جميعا بلا حراك ويحملقون فى ضوء التساهير .

ورن صوت كالهمس المخيف من خلال قاع الوادى : « الويل ! الويل ! الويل ! لقد بان الآن قبحنا ! الويل ! الويل ! عين من رأتنا ؟ الويل ! الويل ! أن يتحتم علينا أن نرى أنفسنا ! ومهما كنت ، أيها الدخيل القاسى ، فكن عطوفا ورحيما ، وخذ هذا الضوء عنا مرة ثانية ! »

ونهض باستيان .

وقال : « أنا باستيان بلتازاربوكس ، ومن أنتم ؟ »

ودوى صوت ناحيته يقول : « نحن الأخارائْ ، الأخارائْ ، الأخارائْ ، نحن أكثر مخلوقات فانتازين تعاسة . »

وصمت باستيان ونظر إلى أتريو مذهولا ، والذى نهض كذلك الآن وتقدم إلى جواره .

وسأل قائلا : « إذن فأنتم من بنيتم أمر جانت ، أجمل مدن فانتازين ؟ »

فصاحت الكائنات : « هو ذلك ، آخ ، ولكن خُذْ عنّا هذا الضوء ولا تنظر إلينا . كن رحيما ! »

ـ « وبكيتم مكوِّنين بحيرة الدموع مورهو ؟ »

وتأوه الأخارائْ قائلين : « أيها السيد ، الأمر كما تقول . ولكننا سنموت خجلا ورعبا من أنفسنا إذا ما استمررت على إجبارنا الوقوف فى نورك . لماذا تزيد من ألمنا بهذه القسوة ؟ آخ ، إننا لم نفعل بك شيئا ، ولم نُلحق الإهانة بأحد عن طريق مرآنا . »

وأدخل باستيان الحجر فى جيبه ثانية ، وعم ظلام حالك .

وصاحت الأصوات المنتحبة : « شكرا . شكرا على عطفك ورحمتك ياسيدى ! »

فقال باستيان : « أود أن أتحدث معكم ، أريد مساعدتكم . »

وكاد يشعر بالغثيان من التقزز والشفقة على مخلوقات اليأس هذه . وكان واضحا له أنها هى تلك المخلوقات التى تحدث عنها فى قصته عن نشأة أمر جانت . ولكن مثل كل مرة لم يكن غير متأكد فى هذه المرة أيضا إذا كانوا منذ الأزل موجودين ، أم أنهم نشأوا فقط عن طريقه وفى الحالة الأخيرة هذه سيكون بشكل ما مسئولا عن كل هذا الألم .

ولكن مهما كان الأمر ، فقد كان عاقد العزم أن يغير هذا الشىء الفظيع .

وانتحبت الأصوات الشاكية قائلة : « آخ ، من يستطيع مساعدتنا ؟ »

فصاح باستيان : « أنا ، أنا أحمل آورين . »

الآن عم الصمت فجأة . وتلاشى البكاء تماما .

وطرح باستيان سؤالا فى الظلام «من أين تأتون هكذا فجأة ؟ »

ورد همس كمجموعة متعددة الأصوات : « نحن نسكن فى الأعماق المظلمة من الأرض ، لكى نخفى منظرنا عن الشمس . وهناك نبكى على وجودنا بلا انقطاع ، ونحلل بدموعنا الفضة التى لا يمكن تحطيمها من الصخور العتيقة ، ومنها ننسج بعدئذ تلك الزخارف التى رأيتها . ولا نجرؤ على الخروج إلى السطح إلا فى أحلك الليالى ظلاما ، وهذه الكهوف هى مخرجنا . وهنا بأعلى نركّب ما أعددناه بأسفل . وهذه الليلة بالذات كانت كافية الظلمة لكى توفر علينا النظر إلى أنفسنا . ولهذا نحن هنا . وعن طريق عملنا نحاول أن نعوّض عن قبحنا للعالم ، ونحن نجد قليلا من العزاء فى ذلك . »

فقال باستيان : « ولكن ليس لكم يد فى كونكم هكذا ! »

فأجاب الأخاراىْ : «هناك أنواع من الذنب ، ذنب الفعل ، وذنب الفكر - وذنبنا هو ذنب وجودنا . »

فسأل باستيان الذى كاد يبكى من الشفقة : « كيف أستطيع مساعدتكم ؟ »

فصاح الأخاراىْ : «آخ ، أيها المحسن الكبير ، يا من تحمل آورين ولديك السلطة فى إنقاذنا ـ نرجوك شيئا واحد فقط : امنحنا هيئة أخرى !» .

فقال باستيان : «إننى أنوى فعل هذا ، ولكن كونوا على ثقة تامة أيتها الديدان المسكينة . إننى أتمنى أن تناموا الآن وعندما تستيقظون غدا باكرا تزحفون خارجين من ردائكم وقد أصبحتم فراشات . لابد أن تكونوا متعددى الألوان ومرحين وتضحكون فقط ولديكم السرور . ابتداء من الغد لن يكون اسمكم الأخاراىْ ، دائمى البكاء ، بل الشّلاموفن ، دائمى الضحك !» وأنصت باستيان فى الظلام ، ولكن لم يكن من المستطاع سماع شىء .

وهمس أتريو : «لقد راحوا فى النوم فعلا» .

وعاد كلا الصديقين إلى الكهف . وكان السادة هيزبالد وهيدورن وهيكريون لا يزالون يشخرونِ بصوت منخفض ولم يلاحظوا شيئا من كل ما حدث .

ورقد باستيان .

وأحس بغاية الرضا عن نفسه .

قريبا ستعرف كل فانتازين عن هذا العمل الطيب الذى أتمه منذ حين . ولقد كان فى الحقيقة عملا منكرا للذات ، لأن لا أحد يستطيع أن يزعم أنه أثناء ذلك قد تمنى لنفسه أى شىء . إن مجد كرمه سوف يشع بكامل البهاء .

وهمس قائلا : «ما قولك فى هذا يا أتريو ؟»

وصمت أتريو برهة قبل أن يجيب قائلا :

- «تُرى ماذا كلفك ذلك ؟» .

ولم يدرك باستيان إلا بعد ذلك بوقت قصير ، عندما استغرق أتريو فى النوم ، أن الصديق كان يلمّح بذلك إلى النسيان . وليس إلى إنكار باستيان لذاته . ولكنه لم يستمر فى تفكيره فى ذلك وراح فى النوم وبه إحساس مسبق بالسعادة .

وفى الصباح التالى استيقظ على صيحات ضوضائية متعجبة للفرسان الثلاثة :

- «انظروا إلى هذا ! بشرفى إنِ مهرق العجوز تكركر ضاحكة أيضا !»

ورأى باستيان أنهم يقفون فى مدخل الكهف وأتريو معهم . وكان هو الوحيد الذى لا يضحك . ونهض باستيان وتقدم إليهم .

وفى قاع الوادى كله كانت أكثر الأشكال الصغيرة غرابة رآها من قبل ، تزحف وتتدحرج وترفرف بأجنحتها . وكانت لجميعها أجنحة فراشات العثة على ظهورها ، وكانت ترتدى مختلف أنواع الملابس القديمة ذات المربعات أو الخطوط أو الحلقات أو النقط . ولكن كل قطعة ملابس بدت إما ضيقة أو واسعة أو كبيرة أو صغيرة أكثر من اللازم ، وحياكتها تمت بطريقة عشوائية على نحو ما . لا شىء كان مضبوطا ، وفى كل مكان ، حتى فوق الأجنحة وضعت رقع . ولم يكن أى من هذه الكائنات يشبه الآخر ، وكانت وجوهها ملونة مثل وجوه المهرجين . وكانت لها أنوف مستديرة حمراء أو مناخير مضحكة وأفواه مبالغ فى حجمها . بعضها يضع على رأسه قبعات أسطوانية بجميع الألوان ، وأخرى قلنسوات ذات طرف مدبب ، ولدى البعض لم يكن هناك سوى ثلاث خصلات من الشعر الأحمر الفاقع تقف إلى أعلى ، وبعضها لها صلعة لامعة . والجزء الأعظم منها كان يجلس ويتعلق بالبرج الرقيق من الزخارف الفضية الثمينة ، ويقوم بألعاب رياضية عليه ، ويثب عليه ويحاول تحطيمه .

وصرخ إلى أعلى قائلا : «أنتم ، هناك ! كفوا عن هذا فورا ! لا يمكنكم أن تفعلوا ذلك !» .

وكفت الكائنات ونظرت جميعها إليه بأسفل .

وسأل واحد منها بأعلى تماما : «ماذا قال ؟» .

وصاح واحد آخر من أسفل إلى أعلى : «ذلك الشخص هناك يقول إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك» .

وسأل ثالث : «لماذا يقول إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك ؟» .

فصرخ باستيان : «لأنه غير مسموح لكم أن تفعلوا هذا . انكم لا تستطيعون أن تحطموا كل شىء ببساطة !» .

وأخبرت فراشة العثة الأولى المهرجة الآخرين قائلة : «ذلك الشخص هناك يقول إننا لا نستطيع أن نحطم كل شىء» .

فأجابت أخرى ونزعت قطعة كبيرة من البرج : «بلى ، إننا نستطيع ذلك» .

وصاحت الأولى مرة أخرى إلى باستيان بأسفل ، بينما هى تقفز كالمجنونة : «بلى إننا نستطيع ذلك» .

وتأرجح البرج وبدأ يطقطق بشكل خطير .

وصرخ باستيان قائلا : «ماذا تفعلون !» وكان غاضبا وفزعا ، ولكنه لم يعرف كيف يتصرف ، لأن هذه الكائنات كانت مضحكة فعلا .

واتجهت الفراشة الأولى مرة أخرى إلى رفقائها قائلة : «ذلك الشخص هناك يسأل عما نفعل» .

وأرادت أخرى أن تعرف : «ماذا نفعل حقيقة ؟» .

فشرحت ثالثة قائلة : «إننا نمزح» .

وبعد ذلك انفجر كل من حولها فى كركرة وعطس هائل .

وصاحت الفراشة الأولى إلى باستيان بأسفل وكادت أن تشرق من الضحك : «إننا نمزح» .

فصرخ باستيان : «ولكن البرج سينهار إذا لم تكفوا !» .

وأخبرت الفراشة الأولى الأخريات قائلة : «ذلك الشخص هناك يقول ، البرج سينهار» .

وقالت أخرى : «وماذا فى ذلك ؟» .

وصاحت الأولى إلى أسفل : «وماذا فى ذلك ؟» .

وعجز باستيان عن الكلام ، وقبل أن يعثر على رد مناسب ، بدأت جميع الفراشات المهرجة المتعلقة بالبرج ، فجأة بأداء نوع من الرقص الدائرى فى الهواء ، بينما هى لا تمسك بأيدى بعضها ، بل بعضها بأرجلها ، وبعضها من الياقة ، وبعضها كان يدور وهو مقلوب على رأسه والجميع يصرخون ويضحكون .

وكان ما تفعله تلك المخلوقات الصغيرة ذات الأجنحة ، يبدو مضحكا ومرحا لدرجة أن باستيان اضطر أن يشاركهم الضحك ضد إرادته .

وصاح قائلا : «ولكن هذا غير مسموح لكم ! إنه من صنع الأخاراىْ !» .

واتجهت الفراشة الأولى المهرجة مرة أخرى إلى رفقائها : «ذلك الشخص هناك يقول إن هذا غير مسموح لنا» .

فصرخت أخرى وتقلبت فى الهواء : «كل شىء مسموح لنا كل شىء غير ممنوع علينا . ومن يمنع علينا شيئا ؟ إننا نحن الشّلاموفن !» .

وصاحت جميع الفراشات المهرجة فى صوت واحد : «من يمنع علينا شيئا ؟ إننا نحن الشّلاموفن !» .

فأجاب باستيان : «أنا !» .

فقالت الفراشة الأولى للأخريات : «ذلك الشخص هناك يقول ، أنا» .

فسألت الأخريات : ولماذا أنتِ ؟ ليس لكِ أن تقولى لنا شيئا على الاطلاق » .

فشرحت الأولى قائلة : «ليس أنا . ذلك الشخص هناك يقول هو» .

فقال الآخرون وهم يريدون المعرفة : «لماذا يقول ذلك الشخص هناك «هو» ؟ ولمن يقول هو «هو» ؟ .

فصاحت الفراشة الأولى إلى أسفل : «لمن تقول هو ؟» .

فصرخ باستيان إلى أعلى وهو نصف غاضب ونصف ضاحك : «إننى لم أقل «هو» ، إننى أقول أننى أمنع عليكم تحطيم البرج» .

فشرحت الفراشة الأولى للأخريات قائلة : «إنه يمنع علينا تحطيم البرج» .

فسألت واحدة جديدة انضمت إليهم : «من ؟» .

فردت الأخريات : «ذلك الشخص هناك» .

وقالت القادمة مؤخرا : «إننى لا أعرف ذلك الشخص هناك . من يكون على الاطلاق ؟» .

فصاحت الأولى : «أيها الشخص الذى هناك ، من تكون على الاطلاق ؟» .

فصرخ باستيان الآن وهو غاضب نوعا ما : «إننى لست الشخص الذى هناك ، إننى باستيان بلتازار بوكس ، ولقد جعلت منكم الشّلاموفن لكى تكفّوا عن البكاء والعويل . ولقد كنتم اليوم ليلا لا تزالون الأخاراىْ التعساء . وكان يمكنكم

أن تجيبوا على وليّ نعمتكم بمزيد من الاحترام» .

وكفت جميع الفراشات المهرجة فى وقت واحد عن القفز والرقص ووجهوا أبصارهم إلى باستيان . وفجأة عم صمت بلا نفس .

وهمست فراشة كانت تجلس أكثر بعدا : «ماذا قال ذلك الشخص هناك ؟» ولكن الجالسات إلى جوارها أعطوها ضربة على قبعتها لدرجة أنها انزلقت فوق عينيها وأذنيها . وقالت الأخريات جميعا : «بِسْت !» .

ورجَت الفراشة الأولى بأدب متعمد : «هل لك أن تقول ذلك من فضلك مرة أخرى ببطء تام وبالتفصيل ؟» .

فصاح باستيان : «إننى ولىُّ نعمتكم !» .

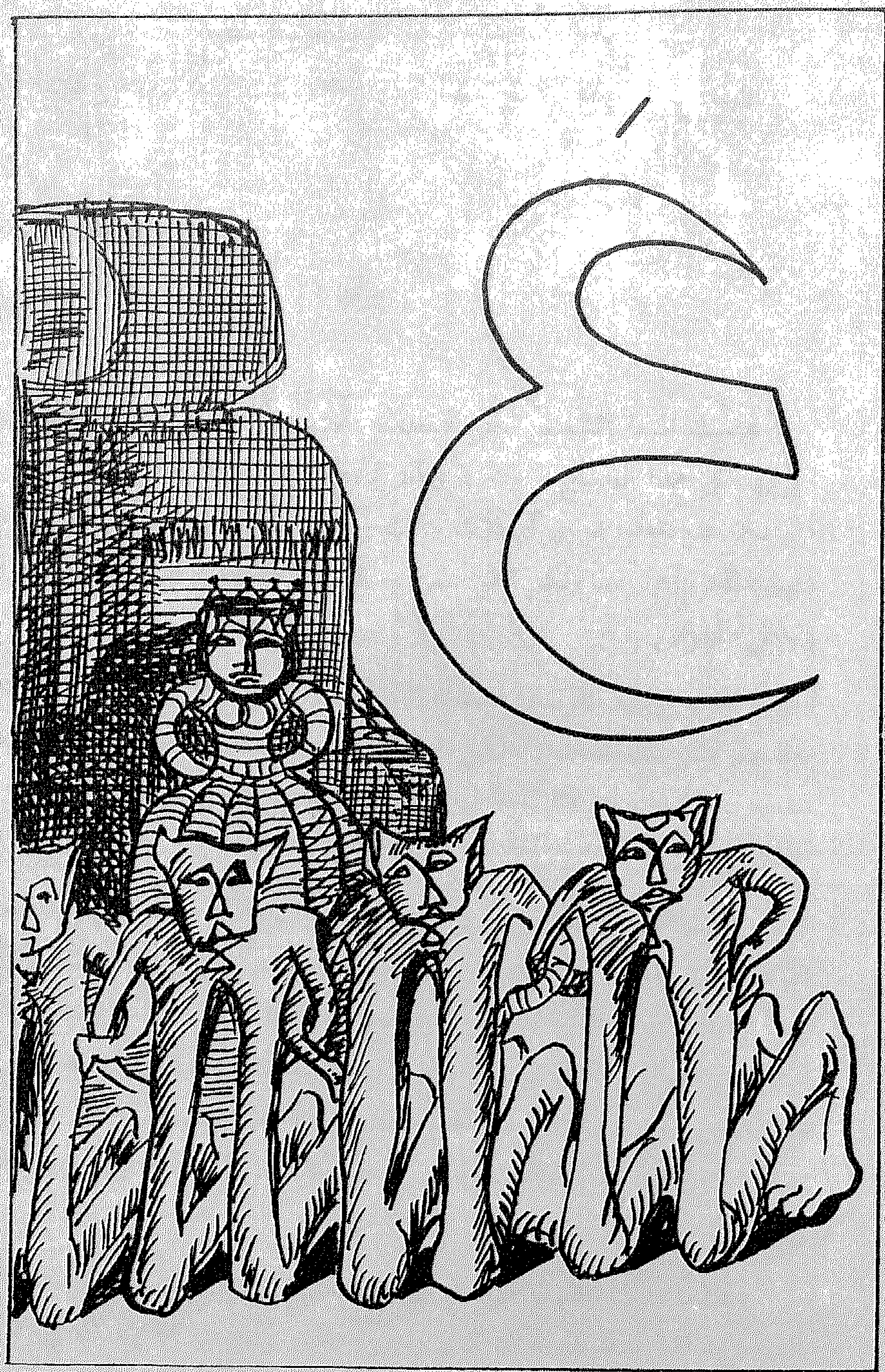
وبعد ذلك اندلع هرج مضحك فعلا بين الفراشات المهرجة ، ونقلت الواحدة القول للأخرى ، وأخيرا زحفت ورفرفت جميع الأشكال التى لا تحصى التى كانت حتى ذلك الوقت موزعة على قاع الوادى كله ، حول باستيان فى تكتل غير منتظم ، بينما هى تصرخ فى أُذن بعضها .

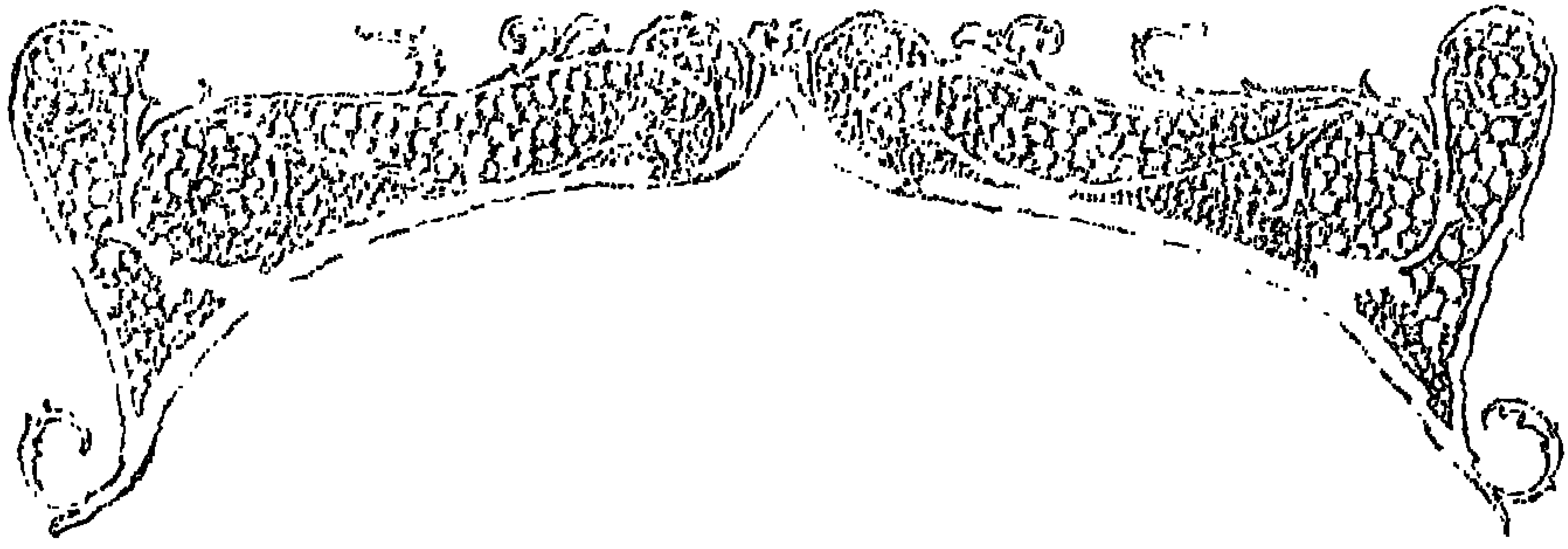
– «أسمعتم هذا ؟ أفهمتم هذا ؟ إنه ولىُّ نعمتنا . إنه يدعى ناستيبان بلتيبوكس ! لا ، إنه يدعى بوكسيان ميت نولّع . كلام فارغ ، إنه يدعى زاراولىّ بوكسينعمة ! لا ، بالدريان هيكس ! شلوكس ! بابلتران ميت نُوّلع ! نيكس ! فلاكس ! تريكس !» وبدت الجماعة كلها قد فقدت السيطرة على نفسها من السرور . وشبدوا على أيادى بعضهم البعض ، ورفعت قبعاتها عاليا وضربت بعضها على الأكتاف والبطون ، إلى أن ارتفعت سحابات كبيرة من التراب .

وصاحت : «يالنا من سعيدات الحظ . فليعيش بوكسولىّ زانز بار باستيلنعمة !» وتطاير السرب الهائل كله إلى أعلى مستمرا فى الصراخ والضحك ودار مبتعدا . وتلاشت الضوضاء فى المسافة البعيدة .

ووقف باستيان وهو لا يكاد يعرف بعد اسمه الصحيح .
ولم يعد متأكدا إذا كان قد فعل حقا شيئا حسنا .

١٩
رفقاء الطريق


ع



غشيت أشعة الشمس ساتر السحاب المعتم وهى تتخلله بميل ، عندما بدأوا رحيلهم فى هذا الصباح . وكانت وطأة الأمطار والرياح قد خفّت أخيرا . وكان الفرسان قد دخلوا مرتين أو ثلاث مرات فى فترة الضحى فى منطقة أمطار شديدة منهمرة لفترة قصيرة ، ولكن الجو تحسن بعد ذلك بشكل ملحوظ . وأصبح الجو دافئا بشكل ملموس .

وكانت نفسية الفرسان منبسطة تماما ، فكانوا يمزحون ويضحكون ويداعبون بعضهم بشتى المداعبات . ولكن باستيان كان يركب البغلة صامتا منهمكا عنهم بنفسه . وكان السادة الثلاثة بالطبع يكنّون له احتراما أكثر بكثير من أن يشوشوا عليه أفكاره .

وكانت الأرض التى يسيرون من خلالها ، ما زالت ذلك السهل الصخرى المرتفع والتى بدت أنها لا تنتهى . ليس إلاّ الأشجار هى التى ازدادت كثافة وارتفاعا شيئا فشيئا . أتريو الذى كان يطير فوق فخور متقدما حسب عادته ويستطلع المنطقة أيضا من الجوانب الأخرى ، كان قد لاحظ عند بداية رحيلهم نفسيته الشاردة . وسأل تنين الحظ عما يمكنه عمله لكى يدخل البهجة على صديقه . وأدار فخور كريتا عينيه الحمراوين بلون الياقوت وقال : « هذا أمر سهل تماما ــ ألم يكن يريد دائما أن يمتطينى ؟ »

وعندما دارت مجموعة الرحالة الصغيرة بعد ذلك بوقت قصير حول إحدى الزوايا الصخرية كان ينتظرهم هناك أتريو وتنين الحظ . وكان كلاهما يرقدان فى راحة فى الشمس ويختلسان النظر إلى القادمين .

وتوقف باستيان وتطلع إليهم .

وسأل قائلا : « هل أنتما متعبان ؟ »

فأجاب أتريو : « ولا النذر اليسير ، كنت أرغب فقط أن أسألك إذا كنت تدعني أركب إيخا فترة من الزمن . فإننى لم أركب أبدا على بغلة . لابد أن يكون هذا شيئا رائعا تماما ، لأنك لم تضجر من ذلك على الإطلاق . بإمكانك أن تجود علّى بهذا السرور يا باستيان . وأنا أعيرك فخُور العجوز فى تلك الأثناء . »

واحمرت وجنتا باستيان من الفرح .

وسأل قائلا : « هل هذا حق يا فخور ؟ أتريد أن تحملنى ؟ »

فزأر تنين الحظ قائلا وهو يغمز بإحدى عينيه : « بسرور ، أيها السلطان صاحب النفوذ العظيم . اركب وامسك نفسك ! »

وقفز باستيان من البغلة واعتلى ظهر فخور بقفزة واحدة . وتشبث بالعرف الأبيض الفضى وصعد التنين إلى الأجواء .

وكان باستيان لا يزال يتذكر جيدا ركوبه لجرأ وجرمان عبر صحراء الألوان ، ولكن ركوب تنين حظ أبيض كان شيئا آخر . فإذا كان الانطلاق فوق الأسد النارى الهائل كالصرخة أو الهدير ، فان الارتفاع والانخفاض الناعم لجسد التنين اللولبى كان يشبه أنشودة تارة حالمة ورقيقة وتارة قوية ومتألقة . وخاصة عندما كان فخور يسرى فى خطوط منحنية فى سرعة البرق ، تتلاعب أثناءها الشعيرات على فمه والأهداب الطويلة على أجزاء جسمه كألسنة لهب بيضاء ، كان طيرانه يشبه غناء أجواء السماء . وهفهف معطف باستيان الفضى من ورائه فى رياح الطيران ، وتلألأ فى ضوء الشمس كأثر ألف شرارة .

وفى وقت الظهر تقريبا هبطا عند الآخرين الذين كانوا قد نصبوا خيامهم فوق هضبة صخرية تسطع عليها الشمس ويجرى من خلالها جدول ماء صغير . وكان البخار يتصاعد فعلا من قدر به حساء فوق النار ، وإلى جانب ذلك كانت توجد أرغفة من الخبز ، وكانت الأحصنة والبغلة تقف بعيدا فى أحد المروج وهى ترعى .

وقرر السادة الثلاثة بعد تناول الطعام أن يذهبوا للصيد وقربت مئوونة السفر على الانتهاء ، وخاصة اللحم ، وكانوا قد سمعوا صراخ الديوك البرية فى الغابة أثناء الطريق . وكان يبدو أن هناك أرانب أيضا . وسألوا أتريو إذا كان لا يريد أن يذهب معهم لأنه لابد وأن يكون صيادا متحمسا بصفته من ذوى البشرة الخضراء . ولكن أتريو رفض الدعوة شاكرا . ولذلك فقد أمسك السادة الثلاثة أقواسهم القوية وربطوا الجعبات بالسهام على ظهورهم ومشوا إلى الغابة الصغيرة القريبة .

وبقى أتريو وفخور وباستيان وحدهم .

وبعد فترة صمت قصيرة اقترح أتريو قائلا : « ما رأيك يا باستيان إذا ما حكيت لنا مرة أخرى قليلا عن عالمك » ؟

وسأل باستيان : « وماذا سيثير اهتمامكم ؟ »

وتوجه أتريو إلى تنين الحظ قائلا : « ما رأيك يا فخور ؟»

فأجاب هذا : «سوف يسرنى سماع شىء عن الأطفال بمدرستك . »

فقال باستيان مندهشاً : « أى أطفال ؟ »

فشرح فخور بقوله : « هؤلاء الذين سخروا منك . »

فكر باستيان أكثر دهشة : « أطفال سخروا مني ؟ لا أعرف شيئا عن الأطفال ــ وبالتأكيد التام لم يكن أحدهم يجرؤ أن يسخر منى » .

فاعترض أتريو قائلا : « ولكنك ما زلت تعرف أنك كنت تذهب الى المدرسة ؟»

فقال باستيان مفكرا : « نعم ، إننى أتذكر مدرسة ، هذا صحيح . »

وتبادل أتريو وفخور نظرة

وتمتم أتريو قائلا : « هذا ما كنت أخشاه . »

ــ « ماذا ؟»

فأجاب أتريو بجدية : « لقد فقدت مرة أخرى جزءا من ذاكرتك . وهذه المرة ترتبط بتحويل الأخاراىْ إلى الشّلاموفن . لم يكن ينبغى عليك أن تفعلَ ذلك » .

وسمع الآن صوت تنين الحظ الذى كاد رنينه أن يكون مهيبا عندما قال :

« باستيان بلتازار بوكس ، إذا كنت تقدّر نصيحتى ، فلا تستخدم ابتداء من الآن القوة التى منحها لك آورين . وإلا تعرضت لخطر أن تنسى أيضا آخر ذكرياتك ــ ، وكيف ستنجح حينئذ فى العودة الى هناك من حيث أتيت ؟»

وقال باستيان معترفا بعد قليل من التفكير : « فى الحقيقة لا أرغب مطلقا فى العودة إلى هناك » .

فصاح أتريو فزعا : « ولكن يجب عليك ذلك ! عليك أن تعـود وتحاول أن تصلح من شأن عالمك ، لكى يأتى بشر مرة أخرى إلينا إلى فانتازين . وإلاّ ستهلك فانتازين من جديد إن عاجلا أو آجلا ، ولكان كل شىء بلا فائدة !»

فقال باستيان وقد شعر قليلا بالإهانة : « ولكننى ما زلت هنـا . إننى منحت طفلة الأقمار الاسم الجديد منذ وقت قصير فقط » .

وتدخل فخور مرة أخرى فى الحديث قائلا : « وعلى كل حال يتضح الآن لماذا لم نعثر حتى ذلك الوقت على أصغر إشارة لكيفية تمكن باستيان من العودة . إذا لم يكن يتمناها على الإطلاق . . . ! »

وقال أتريو فيما يكاد أن يكون رجاء : « باستيان ، ألا يوجد شىء يجذبك إلى العودة ؟ ألا يوجد شىء تحبه هناك ؟ ألا تفكر فى أبيك الذى من المؤكـد ينتظرك وينشغل عليك ؟ » وهز باستيان رأسه بالنفى .

ــ « لا أظن ذلك . ربما هو حتى سعيد بالتخلص منى . »

ونظر أتريو إلى الصديق بذهول .

فقال باستيـان بمرارة : « إذا سمعكم أحـد تتحدثـون هكذا ، لـربما أتى إلى ما يشبه الظن فى أنكما لا تريدان إلا التخلص منى أيضاً » .

فسأل أتريو بصوت ضعيف : « كيف تقصد هذا ؟»

فأجاب باستيان : « أعنى ، إن كليكما مشغول بأمر واحد فقط وهو كيف أختفى بأسرع ما يمكن من فانتازين مرة أخرى » .

ونظر أتريو إلى باستيان وهز رأسه ببطء . ولم يقل واحد من الثلاثة كلمة لوقت طويل . وبدأ باستيان يندم على ما اتهم به كليهما . وكان هو نفسه يعرف أن هذا ليس صحيحا .

وقال أتريو بعد برهة بصوت خافت : « كنت أظن أننا أصدقاء . »

فصاح باستيان : « نعم ، هذا ما نحن عليه أيضا ، وما سوف نكونه دائما سامحنى ، لقد تفوهت بكلام فارغ » .

وابتسم أتريو . وقال : « يجب أيضا أن تسامحنا إذا كنا قد أهنّاك . فلم يكن ذلك عن قصد . »

فقال باستيان متصالحا : « وعلى كل حال سوف أتبع نصيحتك . »

وعاد السادة الثلاثة فيما بعد . وقد أسقطوا بعض أفراخ الحجل وديك برى وأرنب . ورفع المخيم واستكمل الرحيل . وعاد باستيان إلى ركوب إيخا .

وبعد الظهر أتوا إلى غابة تتكون فقط من جذوع عالية جدا . وكانت أشجارها إبرية تكوّن على الارتفاع الكبير سقفا كثيفا أخضر ، لدرجة أنه كاد ألاّ يسقط شعاع من الضوء على الأرض . ربما لهذا لم تكن هناك أية أحراش منخفضة .

وكان السير على هذه الأرض اللينة الملساء ممتعا . ولقد تنازل فخور بالسير مع مجموعة الرحلة لأنه لو طار بأتريو فوق قمم الأشجار لفقد الآخرين حتما .

ولقد ساروا طيلة العصر كله فى دغشة الضوء الأخضر المعتم من بين الجذوع العالية . وفى المساء تقريبا عثروا على أطلال حصن فوق أحد الهضاب واكتشفوا من بين جميع الأبراج والأسوار المتهالكة والجسور والغرف قبوا لا يزال فى حالة متوسطة جيدة . وهناك هيأوا أنفسهم لقضاء الليل . وكان الدور هذه المرة على هيزبالد ذى الشعر الأحمر كطباخ ، وقد اتضح أنه كان يفهم فى هذا المجال أفضل بكثير جدا . وكان طعم الديك الذى شواه فوق النار ممتازا .

وواصلوا الرحلة فى الصباح التالى . وساروا طيلة اليوم كله من خلال الغابة التى كانت تبدو متشابهة من جميع الجوانب . فقط عندما أتى المساء لاحظوا أنهم ساروا على

ما يبدو فى دائرة كبيرة ، لأنهم صادفوا أطلال الحصن مرة أخرى الذى بـدأوا منه رحيلهم . غير أنهم اقتربوا منها هذه المرة من جانب آخر .

فقال هيكريون وهو يبرم شاربه الأسود : « إن هذا لم يحدث لى أبدا من قبل . »
وقال هيزبالد وهو يهز رأسه الأحمر : « إننى لا أصدق عيناى ! »
ودمدم هيدورن وهو يدب برجليه الطويلتين العجفاوين إلى داخل أطلال الحصن :
« هذا لا يمكن على الاطلاق . »

ولكن الأمر كان هكذا ، وقد أثبت ذلك بقايا طعام اليوم السابق .
وحتى أتريو وفخور لم يستطيعا أن يفسرا لأنفسهما كيف يمكن أن يضلا الطريق على هذا النحو . ولكنهما صمتا .

وفى طعام العشاء ــ وهذه المرة كان شواء الأرانب أعده هيكريون بشكل قابل للأكل نوعا ــ سأل الفرسان الثلاثة إذا كان باستيان لديه الرغبة فى أن يحكى قليلا من ذخيرة ذكرياته عن العالم الذى أتى منه . ولكن باستيان اعتذر بأن لديه ألم فى الزور . ونظرا لأنه كان صامتا طيلة اليوم كله فقد اعتقد الفرسان أن هذه الحجة حقيقية . وأعطوه بعض النصائح الجيدة فيما ينبغى عليه أن يفعله تجاه ذلك ، ثم خلدوا إلى النوم .

أتريو وفخور فقط كانا يشعران بما يجرى داخل باستيان .

وبدأوا الرحلة مرة أخرى فى الصباح الباكر ، وساروا طيلة اليوم كله من خلال الغابة وراعوا بعناية أن يحافظوا على جهة معينة من الجهات الأصلية ــ وعندما أتى المساء ، وقفوا ثانية أمام أطلال الحصن .
وبرطم هيكريون قائلا : « فليأخذنى هذا أو ذلك الشيطان ! »
وتأوه هيزبالد قائلا : « إننى سأجن ! »
فقال هيدرون بجفاف : « أيها الاصدقاء ، يمكننا أن نتخلى عن وظيفتنا . إننا لا نصلح أن نكون فرسانا جوالين . »

وكان باستيان قد عثر فى أول مساء على ركن خاص من أجل إيخا لأنها كانت

تحب من بين الحين والآخر أن تنفرد بنفسها تماما لوقت طويل وتسترسل فى أفكارها . ومجموعة الأحصنة التى لم يكن لها حديث فيما بينها إلّا عن أصلها العريق وأشجار عائلتها النبيلة ، كانت تزعجها فى تلك الأثناء . وعندما أتى باستيان بالبغلة فى هذا المساء إلى مكانها ، قالت : « سيدى ، إننى أعرف لماذا لم نعد نتقدم . »

ـ « من أين تدعين معرفة ذلك يا إيخا ؟ »

ـ « لأننى أحملك يا سيدى . وعندما يكون المرء نصف حمار فقط ، فإن كافة المشاعر الممكنة تنتابه . »

ـ « وما هو السبب فى رأيك ؟ »

ـ « أنت لا تتمنى التقدم يا سيدى . لقد كففت عن أن تتمنى لنفسك شيئا . »

ونظر إليها باستيان فى ذهول .

ـ «إنك فعلا حيوانة حكيمة يا إيخا . »

وهزت البغلة أذنيها الطويلتين فى حرج .

ـ « أتعرف فى أى اتجاه كنا نتحرك دائما حتى ذلك الوقت ؟ »

فقال باستيان : « كلا ، أتعرفين أنت ؟ »

وهزت إيخا رأسها بالإيجاب .

ـ « حتى الآن كنا نتجه دائما بالسير إلى وسط فانتازين . لقد كان هذا هو اتجاهنا . »

ـ « إلى ناحية برج العاج ؟ »

ـ « نعم يا سيدى . وكنا نتقدم جيدا طالما أننا كنا نحافظ عليه . »

فقال باستيان متشككا : « لا يمكن . أتريو وفخور كانا سيلاحظان هذا جيدا . ولكنهما لا يعرفان شيئا عن ذلك . »

فقالت إيخا : « نحن البغال ، حيوانات ساذجة ولا يمكن بكل تأكيد أن نقارن بحيوانات تنين الحظ . ولكن هناك عدة أشياء نعرفها ، يا سيدى . ومنها الاتجاه دائما . وهذه طبيعة موروثة فينا . ونحن لا نخطىء أبدا . ولذلك كنت متأكدة أنك تريد الذهاب إلى الإمبراطورة الطفولية . »

فتمتم باستيان قائلا : « إلى طفلة الأقمار . . . ، نعم إننى أود أن أراها مرة أخرى . وهى سوف تقول لى ما علىّ أن أفعله . »

ثم ربت على فم البغلة الطرى وهمس قائلا : « شكرا إيخا ، شكرا ! »

وفى الصباح التالى جذب أتريو باستيان جانبا .

ـ « اسمع يا باستيان ، فخُور وأنا يجب أن نعتذر لك . النصيحة التى أعطيناها لك كان قصدنا بها حسنا ـ ولكنها حمقاء . فمنذ اتباعك لها لم تعد رحلتنا تتقدم . لقد تحدثنا ليلة اليوم طويلا عن ذلك ، فخُور وأنا . إنك لن تنصرف من هنا ، ونحن معك ، طالما أنك لا تتمنى لنفسك شيئا مرة أخرى . ولا يمكن تفادى أنك لهذا السبب ستنسى المزيد ، ومع ذلك ليس هناك اختيار آخر . لا نستطيع إلا أن نأمل أن تعثر على طريق العودة فى الوقت المناسب . ولن يساعدك أيضا إذا ما بقينا هنا . فلابد أن تستخدم سلطة آورين وأن تعثر على أمنيتك التالية . »

فقال باستيان : « نعم ، إيخا قالت لى نفس الشىء . وإننى أعرف فعلا أمنيتى التالية . تعال معى ، لأننى أريد أن يسمعها الجميع . »

وعاد إلى الآخرين .

وقال باستيان بصوت عال : « أيها الأصدقاء ، حتى الآن كنا نبحث دون جدوى عن الطريق الذى يمكن أن يرجعنى إلى عالمى . وأخشى إذا ما استمررنا على هذا النحو ، ألاّ نعثر عليه أبدا ، ولذلك قررت أن أزور الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يعطينى معلومات عن ذلك ، إنها الإمبراطورة الطفولية . إن هدفنا ابتداء من اليوم هو برج العاج . » فصاح السادة الثلاثة كما لو كانوا يصيحون من فم واحد : « مرحى ! »

ولكن صوت فخور البرونزى زأر من بينها قائلا :

« دع هذا يا باستيان بلتازار بوكس ! إن ما تريده مستحيل ! ألا تعرف أن المرء لا يقابل سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية إلا مرة واحدة ؟ إنك لن تلقاها مرة ثانية ! » وانتصب باستيان .

وقال بعصبية : « إن طفلة الأقمار مدانة لى بالكثير جدا . إننى لا أستطيع الاعتقاد أنها سترفض استقبالى . »

فرد فخُور : « سوف تتعلم أيضا أن قراراتها من الصعب إدراكها أحيانا . »

فأجاب باستيان وهو يشعر كيف يعلو الغضب جبينه : « أنت وأتريو تريدان دائما إعطائى النصائح ، إنكما تريان بأنفسكما أين أدى بنا اتباعى لنصيحتكما . الآن سوف اتخذ القرار بنفسى . لقد قررت فعلا ، وسيظل الأمر على ذلك الآن . »

وتنفس بعمق وواصل كلامه بشيء من الاسترخاء :

« إلى جانب ذلك فانكم تتحدثون من منطلقكم دائما . ولكنكم مخلوقات فانتازين ، وأنا بشر . من أين تريدون أن تدعوا أن نفس ما يسرى عليكم يسرى علىّ ؟ وعندما كان أتريو يحمل آورين كان الأمر عنده مختلف عما لدىّ . ومن سيعيد الجوهرة إلى طفلة الأقمار إذا لم أكن أنا ؟ أتقول أن المرء لا يقابلها مرة ثانية ؟ ولكننى قابلتها فعلا مرتين . المرة الأولى رأينا بعضنا للحظة عندما دخل إليها أتريو ، والمرة الثانية عندما انفجرت البيضة الكبيرة . بالنسبة لى كل شيء يختلف تماما عنه بالنسبة لكم . وأنا سوف أراها للمرة الثالثة »

وصمت الجميع ساكنين . السادة ، لأنهم لم يفهموا عما يدور حوله النزاع فى الواقع ، وأتريو وفخور لأنهما فعلا أصبحا غير متأكدين .

وأخيرا قال أتريو بصوت منخفض : « نعم ، ربما يكون الأمر هكذا كما تقول ياباستيان . لا يمكننا أن نعرف كيف ستتصرف الامبراطورية الطفولية تجاهك . »

وبعد ذلك بدأوا الرحيل ، وبعد ساعات قليلة ، وقبل أن يأتى الظهر ، كانوا قد وصلوا إلى طرف الغابة .

وكانت أمامهم أرضا واسعة هضبية قليلا وتغطيها الحشائش ، ويجرى من خلالها نهر . وعندما وصلوا إليه اتبعوا مجراه .

وطار أتريو مرة أخرى مثل ذى قبل على فخور متقدما مجموعة الفرسان ، ودار حولها فى قوس واسع لكى يستطلع الطريق . ولكنهما كانا مشغولى البال وكان طيرانهما أقل يسرا عن ذى قبل .

وعندما صعدا إلى أعلى جدا وتقدما فى طيرانهما لمسافة بعيدة ، شاهدا أن الأرض تبدو على البعد كما لو كانت منعزلة . منحدر صخرى عميق كان يؤدى إلى سبيل أكثر عمقا تغطيه الغابات الكثيفة ـ على مدى إمكانية الرؤية . وكان النهر يندفع إلى مسقط مائى هائل هناك إلى أسفل . ولكن هذا الموضع كان بالنسبة للفرسان يمكن الوصول إليه فى اليوم التالى على الأقل .

وعادا أدراجهما .

وسأل أتريو : « أتعتقد يا فخور أن الامبراطورية الطفولية لا تكترث بمصير باستيان ؟»

فأجاب فخُور : « من يدرى ؟ فهى لا تحدث أية تفرقة . »

واستطرد أتريو قائلا : « ولكنها إذن ستكون فعلا . . . »

فقاطعه فخور قائلا : « لا تنطق به . أنا أعرف ما تقصده ، ولكن لا تنطق به . »

وصمت أتريو برهة قبل أن يقول : « إنه صديقى يا فخور . ويجب علينا أن نساعده ، حتى ضد إرادة الامبراطورة الطفولية إذا لزم الأمر . ولكن كيف ؟»

فأجاب التنين : « بالحظ » ولأول مرة سُمع كما لو كان جرس صوته البرونزى به تصدع .

وفى هذا المساء تم اختيار كوخ خال مصنوع من جذوع الأشجار موجود على شاطىء النهر ، مكانا يستريحون فيه بالليل . وكان بالطبع ضيقا على فُخور وظل كما كان يفعل غالبا فيما مضى ، أن ينام فى الأجواء العالية . الأحصنة أيضا وإنما كان عليها أن تظل بالخارج .

وأثناء تناول طعام العَشاء حكى أتريو عن مسقط الماء وعن التدرج الغريب فى طبيعة الأرض التى رآها . ثم قال كما لو كان الأمر عارضا :

- « بالمناسبة ، هناك مقتفون لأثرنا . »

ونظر السادة الثلاثة إلى بعضهم .

وصاح هيكريون وبرم شاربه الأسود وهو متشوق للعمل : « هيا بنا ! كم عددهم ؟ »

فأجاب أتريو : « لقد عددت سبعة من ورائنا ، ولكن لا يمكنهم أن يكونوا هنا قبل غد باكرا ، إذا ما واصلوا السير طوال الليل . »

فقال هيزبالد راغبا فى المعرفة : « هل هم مسلحون ؟ »

فقال أتريو : « لم أستطع التأكد من ذلك . ولكن هناك المزيد من يأتى من اتجاهات أخرى . فلقد رأيت ستة فى الغرب ، وتسعة فى الشرق واثنا عشر أو ثلاثة عشر فى مواجهتنا . »

فقال هيدورن : « سوف ننتظر ما يريدون . خمسة وثلاثون أو ستة وثلاثون من الناس ليسوا خطرين علينا نحن الثلاثة ، وأقل عدة مرات على السيد باستيان وأتريو . »

وفى هذه الليلة لم يخلع باستيان السيف سيكاندا عنه مثلما كان يفعل غالبا حتى ذلك الوقت . ونام ومقبضه فى يده . ورأى فى الحلم وجه طفلة الأقمار أمامه . وابتسمت له ابتسامة واعدة . ولم يعرف أكثر من ذلك عندما استيقظ ، ولكن الحلم قوّى فيه الأمل فى أن يلقاها ثانية .

وعندما ألقى نظرة من باب كوخ جذوع الشجر ، رأى بالخارج فى ضباب الصباح الذى تصاعد من النهر ، سبعة أشكال بغير وضوح . اثنان منهم كانا مترجلين والآخرون يجلسون فوق دواب ركوب مختلفة الأنواع . وأيقظ باستيان رفقاءه بصوت خافت .

وتمنطق السادة بسيوفهم ثم خرجوا كلهم سويا من الكوخ . وعندما رأت الأشكال المنتظرة بالخارج باستيان ، ترجل الفرسان وركع السبعة أجمعين فى نفس الوقت على ركبتهم اليسرى . وأحنوا رؤوسهم وصاحوا قائلين : « السلام والتحية على منقذ فانتازين باستيان بلتازاربوكس ! »

وكان منظر الوافدين عجيبا بما فيه الكفاية . أحد المترجلين كانت له رقبة طويلة بشكل غير عادى ، وعليها رأس ذو أربعة وجوه ، واحد لكل اتجاه . الأول له تعبير مرح ، الثانى غاضب والثالث حزين والرابع له تعبير ناعس . وكل وجه من الوجوه كان جامدا ولا يتغير ، ولكنه كان يستطيع أن يدير إلى الأمام الوجه الذى يتناسب

وحالته المزاجية فى لحظتها . لقد كان عبارة عن عفريت أربعة أربع ، ويسمى فى بعض المناطق تِمبيرا مِنْتِينك[١٣]

والشخص السائر الآخر كان ما يسمى فى فانتازين كيفالوبود أو الرأس ذات الأرجل ، وهو كائن ، له رأس فقط تحمله أرجل طويلة جدا ونحيلة ، بدون جسم ولا يدين . والرؤ وس ذات الأرجل دائمى التجول وليس لهم مقر سكنى ثابت . وغالبا ما يسيرون فى مجموعات بعدة مئات ، ونادرا ما يقابل المرء واحدا سائرا بمفرده . وهم يتغذون على الأعشاب . وهذا هنا ، الراكع أمام باستيان الآن كان يبدو يافعا وأحمر الوجنتين . ثلاثة أشخاص آخرين جالسين على أحصنة لا تكاد تزيد حجما عن حجم الماعز ، كانوا عفريت قزمى ، ومهرج ظلى وأُنثى صغيرة حاملة للدروع . كان العفريت القزمى يحمل على جبهته طوقا ذهبيا وكان على ما يبدو أميرا ، والمهرج الظلى كان من الصعب التعرف عليه ، لأنه كان يتكون فى الحقيقة فقط من ظل لم يُلقه أحد . والأنثى الصغيرة حاملة الدروع كان لها وجه يشبه القطة وخصلات شعر طويلة شقراء ذهبية تلفها كالمعطف . وكان جسمها كله مغطى بجلد له خصلات شعر شقراء ذهبية أيضا . ولم تكن أكبر من طفل عمره خمس سنوات .

زائر آخر كان يركب فوق ثور ، كان أصله من بلاد السسافرة الذين يولدون عجائز ويموتون عندما يصبحون رضعا . وهذا هنا كانت له لحية طويلة بيضاء وصلعة ووجه ملىء بالتجاعيد ، لقد كان إذن ـ طبقا لمعايير أحوال السّسافرة ـ صغير السن جدا ، فى حوالى عمر باستيان .

وكان جنى أزرق قد أتى على جمل . وكان طويلا ونحيلا وكان يلبس عمامة عملاقة . وكانت هيأته بشرية وإن بدا جسمه العلوى العارى الملىء بالعضلات كما لو كان يتكون من معدن لامع أزرق . وبدلا من الأنف والفم كان له فى وجهه منقار نسر قوى معقوف .

---

(١٣) يشتق المؤلف هذه التسمية من كلمة Temperament ومعناها المزاج أو الحالة النفسية ، ويقال إن هناك أربعة أنماط للأمزجة ، ولعل المؤلف قد اختار الأربعة وجوه رمزا لذلك .

وسأل هبكريون بقليل من الخشونة : « من أنتم وماذا تريدون ؟ » وبدا له أنه غير مقتنع تماما بعدم خطورة هؤلاء الزائرين برغم مراسم تحيتهم ، وكان هو الوحيد الذى لم يترك مقبض سيفه .

عفريت الأربعة أربع الذى كان يُظهر وجهه الناعس حتى ذلك الوقت ، أدارالآن وجهه البشوش إلى الأمام ، وقال متجها إلى باستيان بينما هو لا يعير هيكريون اهتماما على الإطلاق :

- « سيدى ، إننا أربعة أمراء من بلاد شديدة الاختلاف لفانتازين ، وكل منا اتخذ طريقه لتحيتك وليرجو معونتك . لقد طار نبأ حضورك من بلد إلى بلد ، الريح والسحاب تذكر اسمك ، أمواج البحار تخبر عن مجدك بهديرها ، وكل جدول ماء صغير يحكى عن سلطانك . »

وألقى باستيان نظرة إلى أتريو ، ولكنه كان ينظر إلى العفريت نظرة جامدة وتكاد تكون صارمة . ولم ترتسم أصغر ابتسامة على شفتيه .

وتناول الكلمة الآن الجني الأزرق ورن صوته كالصرخة الحادة للنسر : « إننا نعلم أنك أبدعت غابة الليل بيريلين وصحراء الألوان جواب . نحن نعلم أنك أكلت وشربت من نار الموت الملون واستحممت فيها ، وهذا مالم يجتزه أحد حيًا غيرك في فانتازين . نحن نعلم أنك جُبت معبد الألف باب ، ونحن نعلم ما حدث فى مدينة الفضة أمرْجانْت . نحن نعلم ياسيدي أنك قادر على كل شيء . إذا ما لفظت كلمة فإن ما تريده يكون . ولذلك نحن ندعوك للمجيء إلينا وأن تتعطف بمنحنا قصة خاصة بنا . لأننا جميعا ليس لنا قصة بعد . »

وفكر باستيان ثم هز رأسه قائلا : « إن ما تنتظرونه مني لا أستطيع الآن عمله . فيما بعد سوف أساعدكم جميعا . ولكننى أولا لابد أن أقابل الإمبراطورة الطفولية . ولذلك ساعدونى فى العثور على برج العاج . »

ولم تبد خيبة الأمل على الكائنات بأى حال من الأحوال . وبعد مشاورة قصيرة فيما بينهم ، أعلنوا جميعا عن سرورهم البالغ لاقتراح باستيان أن يرافقوه . وبعد ذلك بوقت قصير تحرك الركب الذى أشبه الآن قافلة صغيرة . وقابلهم طوال اليوم كله

وافدون جدد . ليس فقط الرسل الذين أخبر عنهم أتريو فى اليوم السابق هم الذين ظهروا من جميع الجهات ولكن أكثر من ذلك بكثير . فقد شوهدت عفاريت لها أرجل كباش ، وأشباح ليل عملاقة وجنيات وعفاريت وفرسان على جعارين ذات ثلاثة أرجل ، وديك فى حجم الإنسان مرتديا حذاء طويلا ذا ثنية فى رقبته ، وأيْل يسير منتصب القامة وله قرون ذهبية ويرتدى بدلة رسمية كهيئة الفراك[١٤] . وبوجه عام كان من بين الوافدين الجدد مجموعة من الكائنات ليس لها شبه بالصور البشرية . فقد كان هناك على سبيل المثال نمل نحاسى له خوذات ، صخور متحركة ذات أشكال غريبة ، حيوانات مُصفِّرة تعزف على مناقيرها الطويلة ، وكذلك ثلاثة من الحيوانات البِرَكية ، التى تتحرك للأمام بطريقة عجيبة جدا ، بأن تذوب عند كل خطوة ــ إذا ما استطعنا أن نقول ذلك ــ وتتحول إلى بِرْكة وتلم جسمها من جديد متقدمة قليلا إلى الأمام . ولكن أغرب كائن من الوافدين الجدد ربما كان حيوان ثنائى ، يستطيع جزؤه الأمامى أن يسير مستقلا عن جزؤه الخلفى . وكان له شبه بعيد بفرس النهر ، غير أنه كان مخططا بخطوط حمراء وبيضاء .

وفى تلك الأثناء كانوا ما يقارب المائة . والجميع حضروا لتحية باستيان ، منقذ فانتازين ، وليرجوه من أجل قصة خاصة بهم . ولكن السبعة الأوائل شرحوا للوافدين الجدد أن الرحلة ستسير أولا إلى برج العاج ، وكان الجميع مستعدين للمشاركة فى الركب .

وركب هيكريون وهيزبالد وهيدورن مع باستيان فى مقدمة الموكب الذى أصبح الآن طويلا نوعا .

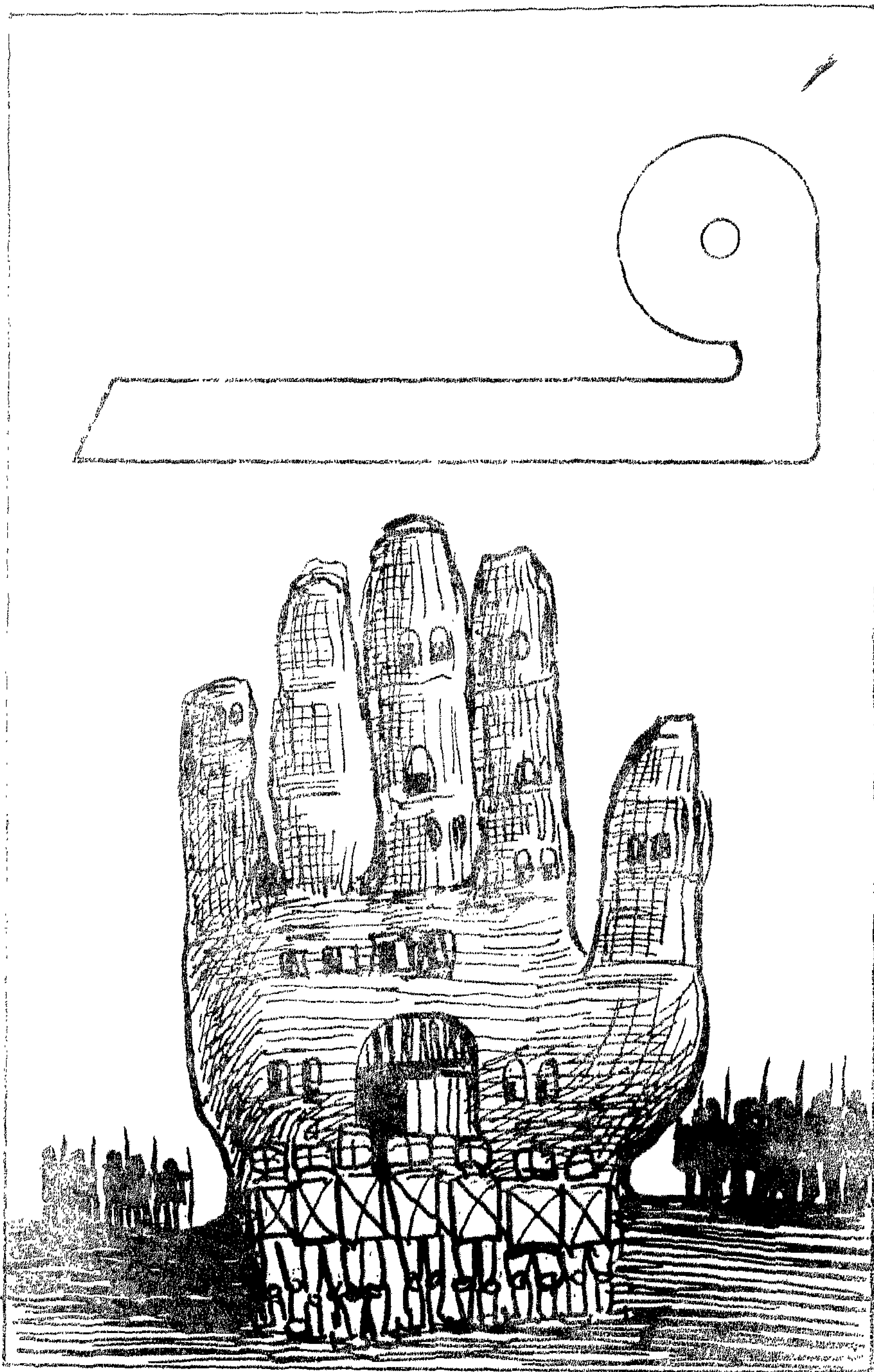
وفى حوالى المساء وصلوا إلى مسقط الماء . وعند حلول الليل كان الموكب قد غادر السهل الأكثر ارتفاعا وتخطى ممرا جبليا متعرجا إلى أسفل ، وتواجد الآن فى غابة من زهور الأوركيدية الكبيرة فى حجم الأشجار . لقد كانت زهورا عملاقة رقطاء منظرها يبعث قليلا على القلق . ولذلك تقرر تعيين حراس على شتى الأحوال طوال الليل عندما أقيم المخيم .

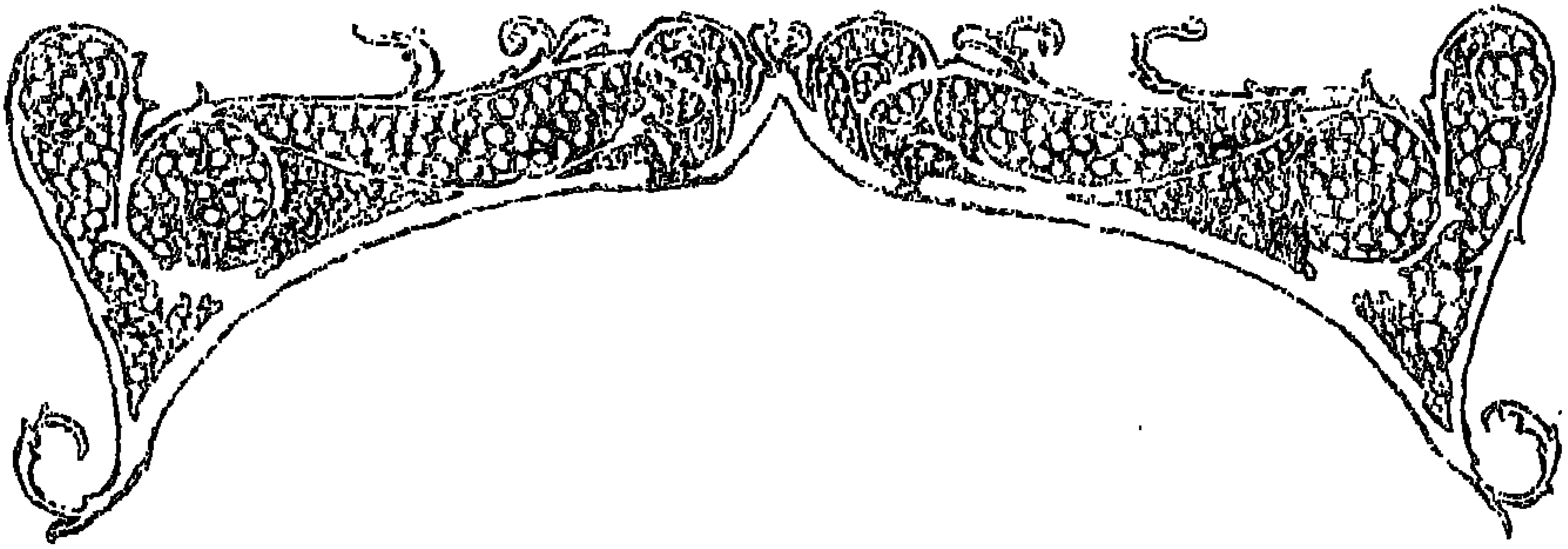
(١٤) Frack بدلة يرتديها الرجال فى الحفلات الرسمية لها سترة قصيرة من الأمام وطويلة من الخلف .

وكان باستيان وأتريو قد جمعا أعشابا تنمو فى كل مكان بكثرة وجعلوا منها مخدعا لينا . ورقد فُخور ملتفا على شكل حلقة حول كلا الصديقين ، ورأسه إلى الداخل بحيث يكونان منعزلين ومحميين كما فى داخل حصن كبير على أحد الشطئان . وكان الهواء دافئا ومفعما بعطر غريب ينساب من زهور الأوركيدية ، والذى لم يكن مريحا جدا . لقد كان به شىء ينذر بالشر .

٢٠

اليد المبصرة


وَ



فى أول طلوع شمس الصباح تلألأت قطرات الندى على الأزهار وأوارق زهور الأوركيديه ، عندما تحركت القافلة من جديد . ولم تحدث أية أحداث عارضة فى الليل خلاف أن انضم مرة أخرى رسل جدد إلى الموجودين من قبل ، لدرجة أن المجموعة كلها قد قارب عددها على الثلاث مائة . ومشاهدة هذه الكائنات مختلفة الأنواع ، كان حقا منظرا جديرا بالرؤ ية .

وكلما توغلوا فى غابة زهور الأوركيديه ، اتخذت الزهور أشكالا وألوانا أكثر غرابة . وسرعان ما تأكد السادة هيكريون وهيزبالد وهيدورن أن الانطباع المقلق الذى دعاهم إلى تعيين الحرس ، لم يكن بدون سبب تماما . فكثير من هذه النباتات كانت من آكلة اللحوم ، وكان حجمها كافيا لابتلاع عجل كامل . صحيح أنها لم تكن تتحرك من نفسها ـ وفى هذا كان الحراس لا لزوم لهم ـ ولكن إذا لمسها المرء فإنها تنغلق كمضارب من الحديد . واضطر السادة عدة مرات أن يستخدموا سيوفهم لكى يخلصوا ذراع أو رجل أحد رفقاء السفر أو دابته ، وذلك بأن يحطموا الزهرة كلها ويقطعوها إربا .

باستيان الذى كان يركب على إيخا ، كانت تتزاحم حوله دائما شتى أنواع الكائنات الفانتازية الممكنة ، التى كانت تحاول أن تلفت نظره إليها أو على الأقل كانت تريد أن تلقى عليه نظرة . ولكن باستيان سار صامتا وبوجه جامد . لقد استيقظت به أمنية جديدة ، ولأول مرة تجعله إحدى الأماني يبدو منغلقاً على نفسه بل وعبوسا أيضا .

وكان ما ينفره من سلوك أتريو وفخور ، برغم المصالحة ، الحقيقة غير المشكوك فيها أنهما كانا يعاملانه كطفل غير مستقل بذاته ، ويشعران نحوه بالمسئولية ، وأن عليهم أن يأخذا بيده ويرشداه . وإذا فكر فى الأمر جيدا فإن الأمر كان على هذا النحو ابتداء من اليوم الأول للقائهم . كيف توصلا إلى هذا ؟ ربما كانا يشعران أنهما يتفوقان عليه لسبب من الأسباب ــ وإن كان قصدهما به حسنا أثناء ذلك . وبلا شك كان أتريو وفخور يعتبرانه صبيا طيبا يحتاج للحماية . وهذا لم يكن يوافقه ، كلا لم يكن يوافقه على الإطلاق .

انه لم يكن طيبا ! وعليهم أن يروا ذلك ، لقد أراد أن يكون خطيرا ، خطيرا ، ومُهابا ! شخص يجب على كل فرد أن يأخذ حذره منه ــ حتى فخور وأتريو .

الجنى الأزرق ــ وكان اسمه بالمناسبة علوان ــ أفسح لنفسه طريقا من خلال التزاحم من حول باستيان وانحنى وذراعيه متقاطعه على صدره .

وتوقف باستيان .

- «ماذا هناك ياعلوان ، تكلم !»

وقال الجنّى بصوته كصوت النسر : «سيدى ، لقد سمعت شيئا يدور بين رفقاء طريقنا الوافدين حديثا . بعضهم يدعى علمه ومعرفته لهذه المنطقة التى نتحرك إليها . إنهم جميعا يرتعدون من الخوف ، يا سيدى .»

- «لماذا ؟ ما كنه هذه المنطقة ؟»

- «غابة زهور الأوركيديه آكلة اللحوم هذه ، ياسيدى ، تدعى حديقة أوجلايس وتنتمى إلى القصر المسحور هوروك ، الذى يسمى أيضا باليد المبصرة . وهناك تسكن أكثر ساحرات فانتازين قوة وشرا . واسمها كسايده .»

فرد باستيان قائلا : «هذا حسن ، قل للخائفين أن يهدئوا أنفسهم ، إننى معهم» وانحنى علوان مرة أخرى وابتعد .

وبعد ذلك بقليل هبط إلى جانب باستيان فخور وأتريو اللذين كانا قد طارا متقدمين إلى مسافة بعيدة . وكان موكب الجيش يقوم فى ذلك الحين براحة الظهيرة .

وبدأ أتريو بقوله : «لست أدرى ما ينبغى علىّ اعتبار ذلك الشىء . فبعد ثلاث أو أربع ساعات من التقدم فى الطريق رأينا وسط غابة زهور الأوركيديه مبنى منظره كاليد الكبيرة التى تبرز من الأرض ويحدث انطباعا مخيفا جدا . وإذا ما حافظنا على اتجاهنا الحالى فإننا نسير إليه بالضبط» .

وحكى باستيان ما علمه فى تلك الأثناء عن طريق علوان .

فقال أتريو : «فى هذه الحالة ، من الأرجح أن نغير الإتجاه ، أليس هذا من رأيك ؟»

فقال باستيان : « لا »

- «ولكن لا يوجد سبب يجبرنا على الالتقاء بكسايده . من الأفضل أن نتفادى المجابهة . »

فقال باستيان : «يوجد سبب»

- «وهو ؟»

فقال باستيان : «لأننى أود ذلك»

وصمت أتريو ونظر إليه بدهشة . ونظرا لتزاحم أهالى فانتازين مرة أخرى من جميع الجوانب لكى يخطفوا نظرة على باستيان ، فلم يكملا الحديث .

ولكن بعد طعام الغداء عاد أتريو واقترح على باستيان بنبرة تبدو غير مبالية :

- « أليست لديك الرغبة أن تطير معى سويا على فخور ؟ »

وفهم باستيان أن أتريو لديه طلب ما . وامتطيا صهوة تنين الحظ ، أتريو للأمام وباستيان خلفه وصعدا عاليا فى الهواء . وكانت أول مرة يطيران فيها سويا .

وما كادا يبتعدان عن مدى السمع حتى قال أتريو :

- «من الصعب الآن التحدث معك وحدك . ولكن يجب حتما أن نتحدث سويا ، يا باستيان »

فرد باستيان مبتسما : «لقد ظننت ذلك . ماذا هناك ؟»

وبدأ أتريو حديثه مترددا : «ماوصلنا إليه ، وما نحن متجهين إليه ــ هل هذا يرتبط بأمنية جديدة لك ؟»

ورد باستيان بقليل من البرود : «من المحتمل» .

واستطرد أتريو قائلا : «نعم ، هذا ما اعتقدناه ، فخور وأنا ، أية أمنية يمكن أن تكون ؟»

وصمت باستيان .

فأضاف أتريو : «لا تفهمني خطأ ، ليس الأمر أننا خائفون من أى شىء أو من أى شخص ولكننا مشغولون عليك بصفتنا أصدقاؤك .»

ورد باستيان أكثر برودا : «هذا ليس ضرورياً .»

«وأخيرا وجه فخور رأسه إليهما وقال :

- « أتريو لديه اقتراح راجح جدا ، ينبغى أن تسمعه ، ياباستيان بلتازار بوكس»

فسأل باستيان بابتسامه ساخرة : «ألديكم نصيحة جيدة مرة أخرى ؟»

فأجاب اتريو : «لا ، ليست نصيحة ، اقتراح ربما لن يعجبك فى اللحظة الأولى . ولكن عليك أن تفكر فيه أولا قبل أن ترفضه ، لقد أنهكنا فكرنا طيلة الوقت كله بكيفية إمكانية مساعدتك . السبب يرجع إلى التأثير الذى تحدثه عليك علامة الإمبراطورة الطفولية . بدون قوة آورين لن تستطيع التقدم عن طريق الأمانى . ولكن بقوة آورين ستفقد نفسك وسيقل تذكرك على الدوام لما تريد أن تذهب إليه على الإطلاق . وإذا لم تفعل شيئا فسوف تأتى اللحظة التى لا تعلم فيها شيئا على الإطلاق» .

فقال باستيان : «لقد تحدثنا عن ذلك فعلا ، وماذا أيضا ؟»

واستطرد أتريو قائلا : «عندما كنت أنا أحمل الجوهرة فى ذلك الوقت ، كان كل شىء مختلفا . لقد كانت تقودنى ولم تكن تأخذ منى شيئا . ربما لأننى لست بشرا ولذلك ليس عندى ما أفقده من تذكر لعالم البشر . أريد أن أقول ، إنها لم تضرنى ،

على العكس تماما . ولذلك أردت أن أقترح عليك أن تعطينى آورين وأن تعهد نفسك لقيادتى . وسوف أبحث لك عن طريقك . ما رأيك فى هذا ؟»

فقال باستيان ببرود : «مرفوض»

ووجه فخور رأسه لوراء مرة أخرى .

- «ألا تريد على الأقل أن تفكر فى الأمر لحظة ؟»

فأجاب باستيان : «كلا ، لماذا ؟»

والآن أصبح أتريو لأول مرة غاضبا .

«باستيان ، حكّم العقل . يجب أن تفهم أنك لن تستطيع أن تواصل الفعل على هذا النحو . ألا تلاحظ أنك تغيرت تماما ؟ ما هى العلاقة التى مازالت تربطك بنفسك ؟ وماذا سيؤ ول إليه مصيرك ؟»

فقال باستيان : «جزيل الشكر ، شكرا كثيرا لاهتمامكم بلا انقطاع بشئونى . ولكن بأمانة من الأفضل كثيرا لى ، إذا ما أرحتمونى من ذلك ــ إننى ــ إذا ما كنتم قد نسيتم هذا ــ أنا ذلك الذى أنقذ فانتازين ، وأنا ذلك الذى عهدت إليه طفلة الأقمار بسلطتها ولابد وأن يكون لديها سبب ما لذلك ، وإلا لأمكنها أن تترك لك آوْرين ياأتريو . ولكنها أخذت منك العلامة وأعطتها لى . أتقول أننى تغيرت ؟ نعم ، ياعزيزى أتريو ، يمكن أن يكون معك حق فى ذلك . إننى لم أعد ذلك الساذج الطيب الذى لا يعرف شيئا ، والذى ترونه فى شخصى . أتريد أن أقول لك لماذا تريد أن تأخذ منى آوْرين فى الحقيقة ؟ لأنك بكل بساطة غيْران منّى ، لا شيء سوى الغيرة ، أنتم لا زلتم لا تعرفوننى ، ولكن إذا ما استمررتم على هذا النحو ــ إننى أقولها مرة أخرى بالحسنى ــ فلسوف تعرفوننى !»

ولم يرد أتريو . وفقد طيران فخور فجأة كل قوته ، وجر نفسه بصعوبة عبر الهواء وانخفض أكثر وأكثر عمقا كطائر مجروح .

وأخيرا نطق أتريو بمجهود : «باستيان ، إن ما قلته منذ حين لايمكن أن تعتقد فيه جدية . نريد أن ننساه إنه لم يُقل أبدا» .

فرد باستيان : «حسن ، كما تريد ، إننى لم أبدأ بذلك . ولكن ليكن . فلننسى هذا» ولم يقل أحد كلمة واحدة لفترة من الزمن .

وبزغ أمامهم على البعد من غابة زهور الأوركيديه قصر هوروك . وبدا فعلا مثل يد عملاقة ذات خمسة أصابع مستقيمة مفرودة إلى أعلى .

وقال باستيان فجأة : «ولكننى أود أن أوضح أمرا واحدا للمرة الأخيرة ، لقد قررت ألاّ أعود على الإطلاق . سوف أبقى فى فانتازين إلى الأبد . فالحال يعجبنى جدا . ولذلك يمكننى بسهولة التنازل عن ذكرياتى . وفيما يتعلق بمستقبل فانتازين : فإننى أستطيع أن أمنح الإمبراطورة الطفولية ألف اسم جديد . نحن لم نعد فى حاجة إلى عالم البشر !»

وفجأة قام فخور بتغيير حاد لا تجاهه وطار عائدا .

فصاح باستيان : «يا هذا ، ماذا تفعل ؟ استمر فى الطيران . أريد أن أرى هوروك عن قرب !»

فرد فخور بصوت متصدع : «لم أعد أستطيع ، لم أعد أستطيع حقا !»

وعندما هبطوا فيما بعد عند القافلة وجدوا رفقاء الطريق فى اضطراب شديد . واتضح أن هجوما وقع على الركب ، وذلك من عصابة تتكون من حوالى خمسين شخصا ، داخل تسليحات أود روع سوداء على هيئة الحشرات . وكان كثير من رفقاء الطريق قد هربوا وعادوا الآن فقط فرادى أو فى جماعات ، وآخرون دافعوا عن أنفسهم بجسارة ولكن دون أن يحرزوا حتى أقل القليل . وكان هؤلاء العمالقة المدرعون قد قضوا على كل دفاع مضاد ، وكان الأمر بالنسبة لهم لعبة من لعب الأطفال . ولقد قاتل السادة الثلاثة هيكريون وهيزبالد وهيدورن قتال الأبطال ، ولكن أيضا دون أن يتغلبوا حتى على فرد واحد من الخصوم . وأخيرا نُزع سلاحهم . وقد قهرتهم الكثرة ووضعوا فى الأغلال وجرجروا إلى بعيد . **وكان أحد المدرعين بالدروع السود قد صاح بما يلى بصوت غريب له رنين الصفيح :**

«هذه رسالة كسايدة ، سيدة قصر هوروك إلى باستيان بلتازار بوكس . إنها تطالب المنقذ أن يخضع لها بلا قيد ولا شرط ، وأن يقسم على القيام بخدمتها بكل

ما هو عليه ، وما لديه وما يستطيع كخادم مخلص . واذا كان غير مستعد لذلك ، وفي حالة تفكيره في أية حيلة لكي يحبط من رغبة كسايدة ، فسوف يموت أصدقاؤه الثلاثة هيكريون وهيزبالد وهيدورن موتا بطيئا مشينا وقاسيا مع التعذيب . والمرجو منه أن يفكر بسرعة لأن المهلة ستنتهي غدا مع شروق الشمس . هذه هي رسالة كسايدة ، سيدة قصر هوروك إلى باستيان بلتازار بوكس . وقد بُلّغت . »

وعض باستيان على شفتيه . وحملق أتريو وفخور أمامهم في جمود ، ولكن باستيان عرف بالضبط مايفكران فيه . ولأنهما بالذات لم يظهرا شيئاً ملحوظا لديهما ، فقد أزاد ذلك من غضبه داخليا . ولكن الآن لم يكن الوقت الصحيح لمحاسبتهما على ذلك ، ولسوف تسنح فيما بعد الفرصة المناسبة .

وقال بصوت عال للمحيطين به : «إنني لن أخضع لا بتزاز كسايدة هذا بأي حال من الأحوال لعل هذا يكون واضحا . يجب علينا فورا أن نضع خطة لكيفية التمكن من تخليص الأسرى الثلاثة بسرعة . »

وقال علوان ، الجني الأزرق ذو منقار النسر : «لن يكون هذا أمراً سهلا ، إننا جميعا لن نستطيع التغلب على هؤلاء الغلمان السود ، لقد اتضح ذلك . وحتى وإن قاتلت أنت ياسيدي ، وأتريو وتنين الحظ على رأسنا فسوف يستغرق الأمر وقتا طويلا جدا إلى أن نستولي على قصر هوروك . إن حياة السادة الثلاثة في يد كسايدة ، وإذا ما لا حظت هجومنا ، فسوف تقتلهم جميعا . وهذا يبدو لي مؤكدا . »

فقال باستيان شارحا : «إذن لا يجوز لها أن تلاحظ ذلك . يجب علينا أن نفاجئها . » وسأل عفريت الأربعة أربع ، الذي أدار الآن وجهه الغاضب إلى الأمام ، وكان منظره مرعبا جدا : «وكيف نستطيع ذلك ؟ إن كسايدة لماكرة جدا وستكون متأهبة لكل احتمال» وقال أمير العفاريت القزمية : «وهذا ما أخشاه أيضا ، إننا أكثر من ألا تلاحظنا إذا ما تحركنا تجاه قصر هوروك . إن موكب جيش مثل هذا لا يمكن إخفاؤه ولا حتى في الليل . فمن المؤكد أنها وضعت رجالاً للاستطلاع . »

وفكر باستيان قائلا : «إذن يمكننا أن نستغل هذا بالذات لخداعها . »

- «كيف تقصد هذا ، ياسيدى ؟»

- عليكم أن تواصلوا المسير بالقافلة كلها فى اتجاه آخر ، بحيث يبدو كما لو كنتم تهربون ، وكما لو كنا قد تغاضينا عن تخليص الأسرى الثلاثة . »

- «وما هو مصير الأسرى ؟»
- «سوف أتولى أنا ذلك مع أتريو وفخور»
- «أنتم الثلاثة فقط ؟»

فقال باستيان : «نعم بالطبع فقط إذا ما وقف أتريو وفخور فى صفى . وإلّا أقوم أنا بكل شىء وحدى . »

ورمقته نظرات الإعجاب . وأخبر الواقفون بالقرب منه بالهمس الآخرين الذين لم يستطيعوا سماع ذلك . وأخيرا صاح الجنى الأزرق :« إن هذا يا سيدى سيدخل فى تاريخ فانتازين سواء ستنتصر أم ستنهزم . »

واتجه باستيان إلى أتريو وفخور قائلا : «هل ستأتيان معى ؟ أم أن لديكما مرة أخرى اقتراح من اقتراحاتكما ؟»

فقال أتريو بصوت منخفض : «لا ، سنأتى معك . »

فأصدر باستيان أمره : «إذن فليتحرك الركب الآن طالما أن الدنيا ما زالت منيرة يجب أن تثيروا الانطباع انكم هاربون . هيا أسرعوا ! وسوف ننتظر هنا حلول الظلام . وغدا باكرا نلتقى بكم مرة ثانية ــ مع السادة الثلاثة أو لا نلتقى على الإطلاق . اذهبوا الآن»

وانحنى رفقاء الرحلة صامتين أمام باستيان ثم بدأوا الرحيل . واختبأ باستيان وأتريو وفخور فى أحراش زهور الأوركيديه وانتظروا الليل بلا حركة صامتين .

وعندما حل الغسق سمعوا فجأة صليلا منخفضا ورأوا خمسة من الأشخاص العمالقة السود يدخلون مكان المخيم المهجور . وكانوا يتحركون بطريقة آلية غريبة . وهم جميعا متساوون تماما . وكل ما عليهم كان يبدو من المعدن الأسود ، وحتى وجوهم كانت كأقنعة من الحديد . ووقفوا فى نفس الوقت ، واستداروا إلى

الاتجاه الذى اختفت فيه القافلة ، واقتفوا أثرهم فى خطوة منتظمة دون أن يتحدثوا كلمة مع بعضهم . ثم عاد السكون مرة أخرى .

فهمس باستيان : «يبدو أن الخطة تسير على ما يرام .»

فرد أتريو : «لقد كانوا خمسة فقط ، أين الآخرون ؟»

فقال باستيان : «من المؤكد أن الخمسة سوف ينادون عليهم بطريقة ما .»

وعندما عم الظلام التام أخيرا زحفوا بحذر من مخبئهم وارتفع فخور بكلا راكبيه إلى الأجواء بلا صوت ، وطار بانخفاض على قدر الإمكان فوق هامات غابة زهور الأوركيديه لكيلا يُكتشف أمرهم . وكان الاتجاه فى بادىء الأمر محددا . لقد كان نفس الاتجاه الذى اتخذه فى عصر هذا اليوم . وبعد حوالى ربع ساعة من الطيران السريع المنزلق ، تبادر سؤال وهو إذا كانوا سيعثرون الآن على قصر هورروك وكيف سيتم ذلك . وكان الظلام مطبقا . ولكن بعد ذلك بدقائق قليلة شاهدوا القصر يبرز أمامهم . وكانت نوافذه الألف مضاءة إضاءة ساطعة . ويبدو أن كسايدة كانت مهتمة بأن يُرى هذا . وكان من السهل تفسير ذلك ، لأنها كانت تتوقع زيارة باستيان ، وإن كانت بمعنى آخر .

ولدواعى الحذر فقد انزلق فخور إلى الأرض من بين زهور الأوركيديه ، لأن رداءه القشرى فى بياض الصدف كان يلمع ويعكس الضوء . ولم يكن جائزا بعدُ رؤ يتهم فى بادىء الأمر .

واقتربوا من القصر مستترين بالنباتات . وأمام بوابة المدخل الكبيرة كان يقوم بالحراسة عشرة من العمالقة المدرعين . وعند كل نافذة من النوافذ المضاءة بنور ساطع كان يقف واحد منهم بلا حركة وبلون أسود كظل منذر بالخطر .

وكان قصر هورروك على مرتفع صغير خال من أحراش زهور الأوركيديه . وكان شكل المبنى فعلا كشكل يد عملاقة تبرز من الأرض . وكان كل أصبع يشكل برجا ، والإبهام كان مبنى جانبيا بارزا فوقه برج مرة أخرى . والجميع بارتفاع عدة طوابق ، وكل عقلة أصبع تكوّن طابقا وكان للنوافذ شكل عيون مضيئة تنظر إلى جميع الاتجاهات فى البلد . وكان يُسمى بحق اليد المبصرة .

وهمس باستيان فى آذانهما : «لابد أن نكتشف أين يقبع الأسرى» .

وهز أتريو رأسه بالايجاب وأفهم باستيان أن يصمت ويبقى مع فخور . ثم ابتعد زاحفا على بطنه دون أن يُحدث أدنى صوت . واستمر وقتا طويلا قبل أن يعود .

وهمس قائلا : « لقد تسللت من حول القصر كله . ولا يوجد سوى هذا المدخل وحده . ولكنه فى حراسة جيدة . ولكنى استطعت أن اكتشف فقط كُوّة فى سقف طرف الأصبع الوسطى بأعلى تماماً ، ويبدو أنه لا يقف أحد من العمالقة المدرعين عنده . ولكننا إذا حلقنا بفخور إلى أعلى فإنهم حتماً سوف يروننا . وعلى ما يبدو فإن الأسرى موجودون بالقبو ، وعلى كل حال فقد سمعت مرة صرخة ألم طويلة كما لو كانت آتية من العمق » .

وفكر باستيان بإمعان . ثم همس قائلا :

« سأحاول الوصول إلى هذه الكوّة . وعليك أنت وفخور أن تصرفا نظر الحراس فى تلك الأثناء . إفعلا أى شيء يجعلهم يعتقدون أننا سوف نهاجم بوابة المدخل . . عليكما أن تستدرجوهم جميعاً إلى هنا . تستدرجوهم فقط ، فاهم ، لا تنساق بأى حال إلى القتال . وفى تلك الأثناء سأحاول أن أتسلق اليد من الخلف . عطل الأشخاص على قدر الإمكان . ولكن لاتقدم على أية مخاطرة . أترك لى بضعة دقائق من الوقت قبل أن تبدأ » .

وهزأ تريو رأسه بالإيجاب وصافحه . ثم خلع باستيان معطفه الفضى . ودلف مبتعداً خلال الظلام وتسلل فى نصف دائرة كبيرة حول المبنى . وما كاد أن يصل إلى الناحية الخلفية ، حتى سمع أيضاً أتريو وهو يصيح بصوت عال :

« يا هذا . أتعرفون باستيان بلتازار بوكس ، منقذ فانتازين ؟ لقد حضر ، ولكن ليس من أجل أن يلتمس فضل كسايدة ، ولكن لكى يمنحها فرصة لاطلاق سراح الأسرى طواعية . وبهذا الشرط لها أن تحتفظ بحياتها المشينة » .

وكان باستيان قد استطاع فى ذلك الحين أن يستطلع بنظره من خلال الأحراش إلى ما حول إحدى زاويا القصر . وكان أتريو قد التف بالمعطف الفضى واستطاع أن يلف شعره الأزرق بسواد إلى أعلى كهيئة العمامة . وبالنسبة لشخص لا يعرفهما

جيداً ، فهناك فعلا احتمال لوجود شبه ما بينهما.

وبدا العمالقة المدرعون السود حيارى للحظة من الزمن . ولكن فقط للحظة واحدة . وبعدها اندفعوا إلى أتريـو ، وسُمع الـدبيب المعدنى لخـطواتهم . وحتى الظلال عند النوافذ تحركت الآن وتركوا أماكنهم ليروا ماذا هناك . وآخرون تزاحموا فى جمع كبير خارجين من بوابة المدخل . وعندما كاد أوائلهم أن يصلوا إلى أتريو فلت منهم كحيوان ابن عُرس ، وفى اللحظة التالية ارتفع فوق رؤ وسهم وهو جالس على فخور . ولوح العمالقة المـدرعون بسيـوفهم فى الهواء وقفـزوا عاليـاً ، ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق به .

ومرق باستيان بسرعة البرق إلى القصر وبدأ يتسلق واجهته إلى أعلى . وقـد ساعدته فى بعض المواضع إطارات النوافذ ونتـوءات الجدران ، ولكنـه فى أغلب الأوقات لم يستطع التشبث إلاّ بأطراف أصابعه . وتسلق إلى أعلى باستمرار ، ومرة تفتت قطعة من الجدار كانت قدمه ساندة عليها ، وظل متعلقاً طيلة عدة ثوان بيد واحدة ، ولكنه جذب نفسه إلى أعلى واستطاع العثـور على ممسـك لليد الأخـرى وواصل التسلق . وعندما وصل أخيراً للأبراج تقدم بسرعة أكبر ، لأن المسافة بينها كانت من الضآلة بحيث استطاع أن يضغط نفسه بينها ويسحب نفسه بهذا الشكل إلى أعلى .

وأخيراً وصل إلى الكُوة ودلف بداخلها . وفعلا لم يكن فى غرفة البرج هذه أحد من الحراس ، ومن يدرى لماذا ؟ وفتح الباب ، ورأى أمامه سلماً حلزونياً ملتوياً . وبدأ النزول بلا صوت . وعندما أتى طابقين إلى أسفل ، رأى حارسين سوداوين يقفان عند إحدى النوافذ ويراقبان بصمت ما يحدث هناك بأسفل . ونجح فى أن يمرق من خلفهما دون أن يلاحظا شيئا . وواصل التسلل عبر سلالم أخرى وطرق وممرات وكان هناك شيئاً مؤكداً ، وهو أن هؤلاء العمالقة المدرعون ربما هم فى القتال لا يُقهرون ، ولكنهم لم يكونوا يصلحون للحراسة كثيراً .

وأخيراً وصل إلى طابق القبو ، وأحس بذلك على الفور من الـرائحة العفنـة المكتومة والبرودة التى لفحته ، ولحسن الحظ كان كل الحراس هنا على ما يبدو قد أسرعوا إلى أعلى لكى يمسكوا بباستيان بلتازار بوكس المزعوم . وعلى كل حـال لم

يشاهد أحد منهم وكانت هناك شعلات مثبتة بالحوائط أنارت له الطريق . واستمر السير إلى أعمق وأعمق بأسفل . وبدا لباستيان كما لو كانت هناك أعداد من الطوابق تحت الأرض مماثلة لما فوقها . وأخيراً وصل إلى أعمقها ، ورأى الآن أيضاً السجن الذى يتعذب فيه هيكريون وهيزبالد وهيدورن . وكان المنظر يبعث على الأسى .

وكانوا يتدلون ، وهم معلقون من أرساغهم ، بسلاسل حديدية طويلة فى الهواء فوق حفرة يبدو أنها ثقب أسود بلا قرار . وكانت السلاسل تسير عبر بكرات فى سقف السجن إلى رافعة ، ولكن هذه كانت مغلقة بقفل كبير من الصلب ولا يمكن تحريكها . ووقف باستيان حائراً .

وكان الأسرى مغمضين أعينهم ، كما لو كان مغمى عليهم ، ولكن هيدورن شديد المراس ، فتح عينه اليسرى ثم تمتم قائلاً بشفتين جافتين :

« هيه ، أيها الأصدقاء ، انظروا من أتى إلى هنا ! » .

وفتح الآخران الآن أجفانهم بتعب أيضاً ، وعندما رأيا باستيان برقت ابتسامة على شفاههما .

وقال هيكريون بصوت متحشرج : « لقد كنا نعرف أنكم لن تتخلوا عنا ، يا سيدى » .

فسأل باستيان : « كيف أستطيع إنزالكم إلى أسفل ؟ إن الرافعة مغلقة ؟ » .

ونطق هيزبالد قائلا : « خذوا سيفكم وحطموا السلسلة ببساطة » .

فسأل هيكريون : « لكى نسقط فى الهاوية ؟ ان هذه ليست خطة جيدة تماماً » .

فقال باستيان : « إننى أيضاً لا أستطيع أن أسحبه ، سيكاندا يجب أن يقفز من نفسه إلى يدى » .

فدمدم هيدورن قائلا : « هِمْ ، هذا هو الشىء السخيف فى السيوف السحرية ، فعندما يكون المرء فى حاجة إليها تكون عنيدة » .

وفجأة همس هيزبالد : « هيه ! لقد كان هناك مفتاح للرافعة . تُرى أين وضعوه ؟ » .

فقال هيكريون : « لقد كان هناك فى مكان ما لوح حجرى غير ثابت . إننى لم أكن أستطيع الرؤية جيداً ، عندما جذبونى ها هنا إلى أعلى » .

وأجهد باستيان عينيه . وكان الضوء معتماً ومرتعشاً ، ولكنه اكتشف بعد المشى عدة مرات إلى هنا وهناك لوحاً حجرياً على الأرض كان بارزاً قليلا . ورفعه بحذر عالياً ، وفعلاً كان المفتاح هناك .

واستطاع الآن أن يفتح القفل من الرافعة وينزعه . وبدأ يلفها ببطء ، وأحدثت قعقعة وأنيناً عالياً لدرجة أنه لابد بالتأكيد كان مسموعاً فى طوابق القبو الأخرى التى فوقهم . وإذا لم يكن العمالقة المدرعون صماً تماماً ، فلابد وأن يكونوا الآن فى حالة تأهب . ولكن لم تكن هناك فائدة الآن من التوقف . واستمر باستيان فى التدوير ، إلى أن تعلق السادة الثلاثة على ارتفاع الحافة فوق الحفرة . وبدأوا يتأرجحون إلى هنا وهناك وأخيراً وصلوا بأقدامهم إلى أرض ثابتة . وعندما تم ذلك أنزلهم باستيان تماماً . وهبطوا إلى أسفل مُجهدين وظلوا راقدين حيث كانوا ، وكانت السلاسل السميكة مازالت عالقة بأرساغهم .

ولم يعد لدى باستيان وقت طويل للتفكير ، فقد سُمعت الآن خطوات ذات دبيب معدنى الصوت تهبط درجات القبو الحجرية إلى أسفل ، وكانت فرادى فى بادىء الأمر ثم ازدادت على الدوام . لقد أتى الحراس ، وكانت دروعهم تلمع فى ضوء الشعل كدروع حشرات عملاقة . وأخرجوا سيوفهم ، الجميع بنفس الحركة ، واتجهوا ناحية باستيان الذى كان لا يزال واقفاً خلف المدخل الضيق للسجن .

والآن قفز سيكاندا أخيراً من مغمده الصدىء وحط فى يده ، وانقضّت صفحة السيف اللامعة كالبرق على أول عملاق مدرع ، وقبل أن يدرك حتى باستيان نفسه ماذا يحدث ، كان قد مزقه إرباً . واتضح الآن ما هو كنه هؤلاء الغلمان : لقد كان داخلهم أجوفاً ، ولا يتكوّن إلاّ من الدروع التى تتحرك من نفسها ، ولم يكن بداخلهم شيئاً ، ليس إلاّ الفراغ .

وكان وضع باستيان حسناً ، لأنه لم يستطع الاقتراب منه من خلال البوابة الضيقة للسجن إلا واحدا بعد الآخر دائماً وسيكاندا حطم واحداً بعد الآخر إلى قطع صغيرة ، وسرعان ما رقدوا على الأرض مكومين كقشور بيض سوداء لطائر ما من الطيور العملاقة . وبعد أن مُزّق حوالى عشرون منهم إلى قطع صغيرة ، بدا أن الباقين قد اتخذوا خطة أخرى . وانسحبوا إلى الوراء ، على ما يبدو لكى ينتظروا باستيان فى موضع أفضل بالنسبة لهم .

وانتهز باستيان هذه الفرصة لكى يفصل بنصل سيكاندا السلاسل من حول أرساغ السادة الثلاثة . ونهض هيكريون وهيدورن بصعوبة وحاولوا أن يسحبوا سيوفهم الخاصة ، التى للغرابة لم تُنزع عنهم لكى يعضدوا باستيان ، ولكن أياديهم كانت قد فقدت الإحساس بسبب التعلق لوقت طويل ، لم تطاوعهم ، وهيزبالد ، أكثر الثلاثة رقة ، لم يكن لديه مجرد القدرة على الوقوف معتمداً على قواه الذاتية . واضطر الرفيقان أن يسنداه .

وقال باستيان : « لا تقلقوا فان سيكاندا لا يحتاج إلى مساعدة . قفوا ورائى ولا تسببوا لى أية صعوبات زائدة بمحاولتكم مساعدتى » .

وغادروا السجن ، وصعدوا السلم ببطء ، ووصلوا إلى غرفة كبيرة كهيئة البهو ـ وهنا انطفأت جميع الشعل . ولكن سيكاندا سطع منيراً .

ومرة أخرى سمعوا الخطوة ذات الدبيب المعدنى لكثير من العمالقة المدرعين وهى تقترب . فقال باستيان : « بسرعة . ارجعوا إلى السلم . سأدافع عن نفسى هنا ! » . ولم يتمكن من رؤية ما إذا كان الثلاثة قد اتبعوا أمره ، ولم يبق له وقت أيضاً ليتأكد من ذلك ، لأن السيف سيكاندا بدأ يتراقص فى يده . والضوء الحاد الأبيض الخارج منه أنار القاعة كضوء النهار . وبالرغم من أن المهاجمين كانوا يرغموه على الابتعاد عن المدخل المؤدى للسلم ، لكى يستطيعوا أن يضيّقوا عليه الخناق من كل جانب ، فلم تمس باستيان ولا ضربة واحدة من ضرباتهم الهائلة . وكان سيكاندا يدور حوله بسرعة لدرجة أنه بدأ مثل مائه من السيوف التى لم يعد المرء يستطيع أن يفرق بينها . وأخيراً وقف فى جقل أطلال من الدروع المحطمة السوداء . ولم يعد شىء يتحرك .

ونادى باستيان على الرفقاء قائلا : « هيّا ! »

وأتى السادة الثلاثة من المدخل المؤدى للسلم ، وقد دهشوا .

وقال هيكريون مع اهتزاز شاربه : « إننى لم أر مثل هذا من قبل ، بشرفى ! »

وقال هيزبالد متلعثماً : « إننى سأقص عن ذلك حتى لأحفادى » .

وأضاف هيدورن آسفاً : « وهم لن يصدقوننا للأسف »

ووقف باستيان حائراً والسيف فى يده ، ولكنه عاد فجأة إلى مغمده .

فقال : « يبدو أن الخطر قد زال » .

فقال هيدورن : « على كل حال ذلك الذى يمكن التغلب عليه بالسيف . ماذا نفعل الآن ؟ »

فأجاب باستيان : « الآن أود التعرف على كسايده شخصياً . لدى كلمة أريد أن أقولها لها »

وصعدوا هم الأربعة سلالم طوابق القبو إلى أن وصلوا إلى الطابق الموجود بمحاذاة الأرض . وهناك فيما له هيئة بهو للمدخل ، كان فى انتظارهم أتريو وفخور . فقال باستيان وهو يربت على كتفى أتريو : « أحسنتما صنعاً » .

فقال أتريو راغباً المعرفة : « ماذا جرى مع العمالقة المدرعين ؟ » .

فأجاب باستيان بلا تفكير : « حبّات جوز جوفاء . أين كسايده ؟ »

فرد أتريو قائلا : « فوق فى قاعتها السحرية » .

فقال باستيان : « تعالوا معى ! » والتفّ مرة ثانية بمعطفه الفضى الذى فرده أتريو له . وبعد ذلك صعدوا جميعاً السلم الحجرى العريض معاً إلى الطوابق العليا . وحتى فخور ذهب معهم .

وعندما دخل باستيان ، يتبعه أنصاره ، القاعة السحرية الكبيرة ، نهضت كسايده من عرش مصنوع من المرجان الأحمر . وكانت أكبر حجماً بكثير من باستيان وجميلة جداً . وكانت تلبس رداء طويلا من الحرير البنفسجى ، وكان شعرها أحمر

كالنار ومرفوعاً إلى أعلى فى تسريحة عجيبة من الجدائل والضفائر وكان وجهها فى شحوب المرمر وكذلك يداها الطويلتان النحيلتان . وكانت نظرتها غريبة ومحيرة ، احتاج باستيان إلى برهة من الزمن قبل أن يكتشف من أين أتى ذلك : لقد كانت لها عينان مختلفتان ، واحدة خضراء وواحدة حمراء . وكانت تبدو خائفة من باستيان لأنها كانت ترتعش . وتحدى باستيان نظرتها ، وأخفضت من رموشها الطويلة .

وكانت الغرفة ممتلئة بكافة أنواع الأشياء الغريبة التى لم يكن بالإمكان تخمين غرضها ، كرات أرضية ضخمة عليها صور ، ساعات للنجوم وبندول يتدلّى من السقف . وكانت من بينها مباخر نفيسة ، تنبعث منها سحابات ثقيلة بألوان مختلفة ، كانت تزحف على الأرض كالضباب .

وكان باستيان لم يقل حتى الآن ولا كلمة . وبدا أن هذا قد أخرج كسايده عن طورها ، لأنها جرت إليه فجأة وألقت بنفسها على الأرض أمامه ، ثم تناولت إحدى قدميه ووضعتها بنفسها على رقبتها .

وقالت بصوت له رنين عميق ومخملى ، ومبهم بشكل غير محدد : « سيدى ومعلمى ، لا يستطيع أحد أن يقاومك فى فانتازين . أنت أقوى من جميع الأقوياء ، وأخطر من جميع الشياطين . إذا كانت لك الرغبة فى الانتقام منى لأننى كنت حمقاء بما فيه الكفاية ، لكيلا أعرف عظمتك ، فيمكنك أن تهرسنى بقدمك . فأنا أستحق غضبك . ولكن إذا أردت أن تظهر كرمك الذى تشتهر به ، نحوى أنا غير الجديرة ، فاسمح أن أخضع لك خادمة ومطيعة ، وأن أقوم على خدمتك بكل كيانى ، وكل ما أملك وما أستطيع . علمنى أن أفعل ما تعتبره مرغوبا فيه ، وأنا أريد أن أكون تلميذتك المتواضعة ، وأن أطيع كل إشارة لعينيك . إننى نادمة على ما أردت أن أفعله لك ، وأتوسل عفوك . »

فقال باستيان : « انهضى يا كسايده » .

لقد كان حانقا عليها ، ولكن حديث الساحرة أعجبه . فإذا كان سلوكها فى الحقيقة بسبب عدم معرفتها له فقط ، وإذا كانت فعلا نادمة على ذلك ندما شديدا ، فسيكون دون قدْره ، إذا ما عاقبها الآن . ونظراً لأنها كانت عاقدة النية كذلك على

أن تتعلم منه ما يعتبره مرغوبا فيه ، فلم يكن هناك فى الحقيقة سببا على الإطلاق لرفض رجائها .

ونهضت كسايدة ووقفت أمامه منكسة الرأس . وسأل قائلا : « أتريدين أن تطيعينى بلا قيد ولا شرط ، حتى وإن صَعُب عليك ما آمرك به ــ وبدون معارضة وتذمر ؟ »

فأجابت كسايدة : « إننى أريد ذلك ، سيدى ومعلمى ، ولسوف ترى أننا نستطيع أداء كل شىء إذا ما وحدنا فنونى مع قوتك » .

فرد باستيان : « حسن ، إذن إننى أقبلك فى خدمتى . إنك ستغادرين هذا القصر وترحلين معى إلى برج العاج ، حيث أنوى لقاء طفلة الأقمار » .

وتوهجت عينا كسايده لجزء من الثانية بلون أحمر وأخضر ، ولكنها أخفضت أهدابها الطويلة عليها على الفور وقالت :

ــ « إننى أطيع ، سيدى ومعلمى » .

ومشى الجميع إلى أسفل وتقدما خارجين أمام القصر .

وقرر باستيان قائلاً : « لابد أولاً أن نعثر على رفقاء طريقنا الآخرين مرة ثانية من يدرى أين هم الآن . »

فقالت كسايده : « ليس ببعيد جداً عن هنا . لقد توهتُهم قليلاً . »

فرد باستيان : « للمرة الأخيرة . »

فكررت قائلة : « للمرة الأخيرة ، يا سيدى ، ولكن كيف لنا الذهاب إلى هناك ؟ أينبغى أن أسير على الأقدام ليلاً ومن خلال هذه الغابة ؟ »

فأصدر باستيان أمره قائلاً : « فخور سوف يحملنا ، إنه قوى على قدر كاف للطيران بنا جميعاً . »

ورفع فخور رأسه ونظر إلى باستيان . ولمعت كريتا عينيه الحمراوين فى حمرة الياقوت .

ودوى صوته البرونزى قائلاً : « إننى قوى بما فيه الكفاية ، يا باستيان بلتازار بوكس ، ولكننى لا أريد حمل هذه المرأة . »

فقال باستيان : « ولكنك ستفعل ذلك ، لأننى آمرك به . »

ونظر تنين الحظ إلى أتريو ، وهذا هز له رأسه فى الخفاء . ولكن باستيان رأى ذلك . وجلس الجميع على ظهر فخور الذى ارتفع فى الأجواء على الفور .

وسأل قائلاً : « إلى أين ؟ »

فقالت كسايده : « إلى الأمام فقط . »

فسأل فخور مرة ثانية كما لو لم يسمع ذلك : « إلى أين ؟ »

فصاح عليه باستيان قائلاً : « إلى الأمام . لقد فهمت ذلك جيداً ! »

فقال أتريو بصوت منخفض : « افعل ذلك ! » وفعل فخور ذلك .

وبعد ذلك بنصف ساعة ــ وكان الصبح قد انبلج ــ شاهدوا أسفلهم نيران مخيم كثيرة وهبط تنين الحظ . وفى تلك الأثناء كان قد التقى بهم فانتازيون جدد ، وقد أحضر كثير منهم خياماً معهم . وكان المخيم يشبه مدينة حقيقية من الخيام التى انتشرت على طرف غابة زهور الأوركيديه فوق مرج واسع تغطيه الزهور .

وقال باستيان راغباً فى المعرفة : « كم عددهم الآن ؟ » . وشرح له علوان ، الجنى الأزرق الذى كان فى تلك الأثناء يقود الركب ، والذى ظهر الآن لأداء التحية ، إن المرء لم يستطع بعد احصاء المشتركين . ولكنهم من المؤكد يقتربون من الألف . وبالمناسبة هناك شىء آخر غريب نوعاً : فبعد أن أقيم المخيم بوقت قصير ، أى قبل منتصف الليل ، ظهر خمسة من هؤلاء العمالقة المدرعين . ولكن سلوكهم كان مسالماً ، ومكثوا مُنتحين جانباً . وبالطبع لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم . وأنهم كانوا يحملون معهم هودجاً كبيراً من المرجان الأحمر ، ولكنه كان فارغاً فقالت كسايده لباستيان بنبرة راجية : « إنهم حُمالى . لقد أرسلتهم مساء أمس ليسبقونى . فهى أفضل الطرق راحة فى السفر . إذا ما سمحت لى بها يا سيدى . »

فقال أتريو مقاطعاً لها : « إن هذا لا يعجبنى . »

فسأل باستيان : « لم لا ؟ ما هو اعتراضك على ذلك ؟ »

فأجاب أتريو بحدة : « لها أن تسافر كما تشاء ، ولكن كونها أرسلت الهودج مساء أمس فعلاً ، يعنى أنها كانت تعرف مسبقاً أنها ستأتى إلى هنا . وكل هذا كان من خطتها ، يا باستيان . إن نصرك فى الحقيقة هزيمة . لقد جعلتك تنتصر عن قصد

لكى تكتسبك لنفسها بطريقتها . »

فصرخ باستيان وعليه حمرة الغضب : « كفى . إننى لم أسألك إبداء رأيك . إن تعاليمك الأزلية تبعث السقم فى نفسى . إنك تريد الآن أن تنكر علىّ انتصارى أيضاً وأن تسخر من شهامتى ! »

وأراد أتريو أن يرد بشىء ولكن باستيان صرخ فيه قائلاً :

« اقفل فمك ودعنى فى سلام . إذا لم يكن يناسبكما ما أفعل وكيفما أكـون ، فاذهبا فى طريقكما . إننى لا أمنعكما .اذهبا حيثما تريدان . إننى مللتكما ! »

وعقد باستيان ذراعيه على صدره وأدار ظهره لأتريو . وكتمت الجمهرة الواقفة حولهم أنفاسها . ووقف أتريو برهة منتصباً وصامتاً . ولم يكن باستيان حتى هـذه اللحظة قد أنّبه أبداً أمام الآخرين . وضاق عليه حلقه لدرجة أنه لم يستطع التنفس إلاّ بجهد . وانتظر برهة ، ولكن نظراً لأن باستيان لم يلتفت إليه مرة أخرى ، فقد استدار ببطء وانصرف . وتبعه فخور .

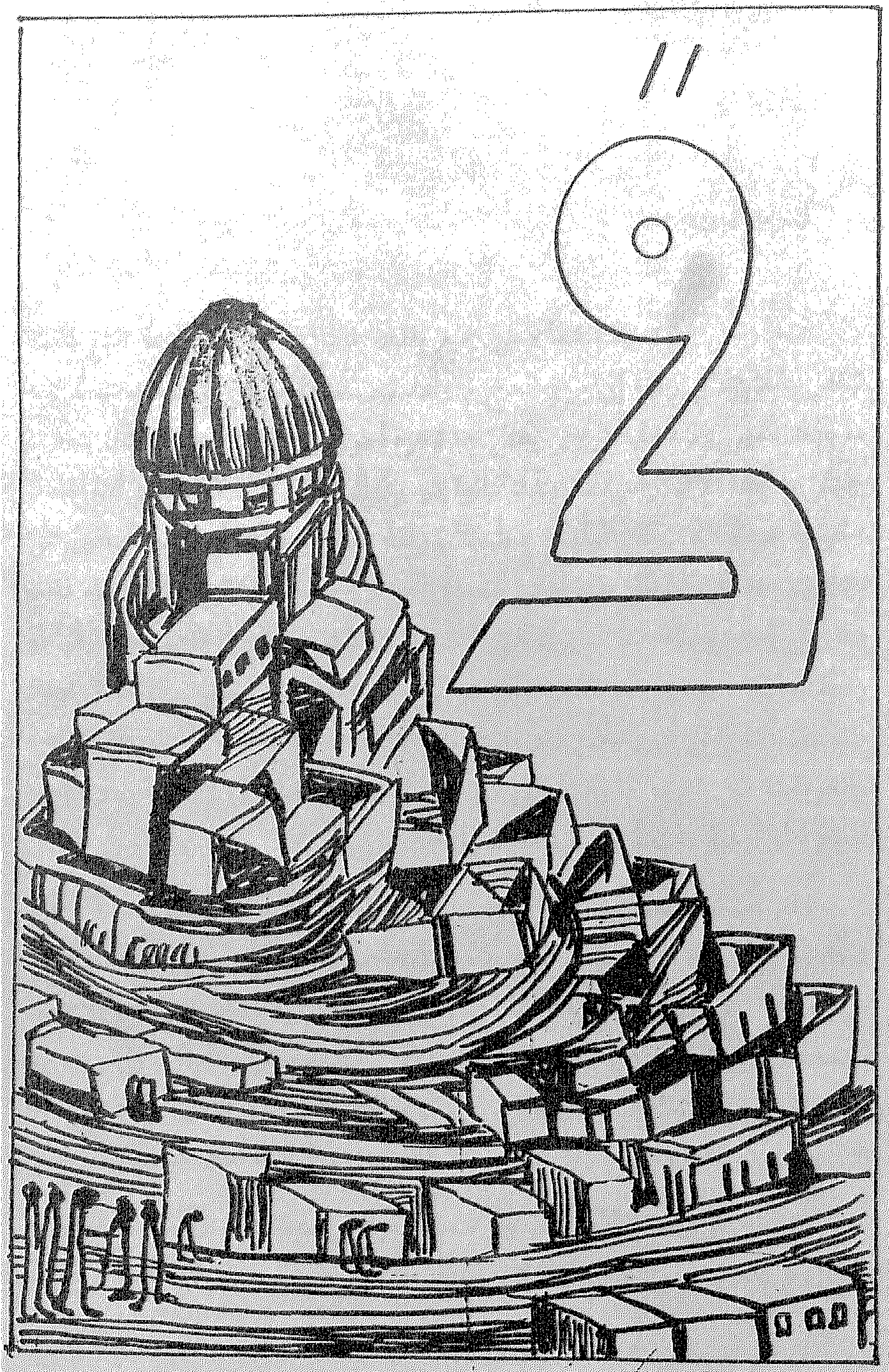
وابتسمت كسايده . ولم تكن ابتسامة طيبة .

ولكن فى هذه اللحظة كانت قد انطفأت فى باستيان الذاكرة بأنه كان فى عالمه طفلاً .

٢١

دير النجوم

قصة بلا نهاية





قدم رسل جدد بلا انقطاع من جميع بلدان فانتازين إلى المجموعة التى كانت ترافق باستيان فى ركبه إلى برج العاج . ولقد تبين عدم جدوى الإحصاءات ، لأنه ما يكاد ينتهى المرء منها ، حتى يصل جدد مرة أخرى ، وفى كل صباح كان يتحرك جيش به عدة آلاف رأس ، وعندما كانوا يقيمون للراحة ، كان المخيم هو أكثر المدن الخيمية غرابة التى يمكن تخيلها . فنظرا لأن رفقاء طريق باستيان لم يكونوا مختلفين عن بعضهم جدا فى الشكل فقط ولكن أيضا فى حجم الجسم ، فكانت هناك خيام ذات مقاييس إحدى ساحات السيرك حتى تلك التى لم تزد حجما عن حجم قمع الخياطة (الكستبان) . وحتى العربات والمركبات التى كان يسافر بها الرسل ، كانت فى تعدد أشكالها أكثر من أن يتمكن فرد وصفها ، ابتداء من العربات المسقوفة العادية والعربات التى تجرها الدواب حتى البراميل المتدحرجة غاية فى الغرابة ، والكور القافزة أو أوعية ذات أرجل تزحف ذاتيا .

وقد هُيئت خيمة فى تلك الأثناء من أجل باستيان كذلك ، وكانت أكثرها فخامة . وكان لها شكل بيت صغير ، ومصنوعة من حرير لامع بهى الألوان ، وكل موضع بها مطرز بصور ذهبية وفضية . وعلى سقفها ترفرف راية تبين شعارا مزينا بشمعدان ذى سبعة أذرع . وداخلها كان مزوداً بأغطية وحشيات لينة . وأينما نُصب مخيم الجيش ــ كانت هذه الخيمة فى المركز . والجنى الأزرق ، الذى أصبح فى تلك الأثناء بما يشبه الخادم والحارس الخاص ، كان يتولى الحراسة أمام مدخلها .

وكان أتريو وفُخور لا يزالان بين مجموعة مرافقى باستيان ، ولكنه منذ التأنيب العلنى لم يعد يتحدث معهما كلمة . وانتظر باستيان فى سِره أن يلين أتريو ويرجوه

الصفح . ولكن أتريو لم يفعل شيئا من ذلك . وحتى فخور بدا غير مستعد لاحترام باستيان . وهذا الشىء بعينه لابد وأن يتعلموه الآن ، قال ذلك باستيان لنفسه : وإذا كان الأمر يتوقف على من يستطيع أن يتحمل لوقت أطول ، فلابد أن يفهم كلاهما فى آخر الأمر ، أنّ عزيمته لا تلين . ولكن إذا ما استسلما ، فسوف يقابلهما بذراعين مفتوحين . وإذا ركع أتريو أمامه فسوف يرفعه ويقول : لا ينبغى لك أن تركع أمامى ، يا أتريو ، لأنك صديقى وستظل صديقى . . . .

ولكنهما سارا مؤقتا كآخر من فى الركب . وبدا فخور قد نسى الطيران وسار على رجليه ، ومشى أتريو إلى جواره ، مطأطأ الرأس فى أغلب الأحيان . وإذا كانا فيما سبق يسرعان سابقين الركب فى الأجواء كمقدمة له ، لكى يستطلعا المنطقة ، فهما الآن يمشيان فى الخلف كمؤخرة له . ولم يكن باستيان سعيدا بهذا ، ولكنه لم يستطع تغيير ذلك .

وإذا ما سار ركب الجيش فى طريقه ، كان باستيان غالبا ما يمتطى إيخا فى المقدمة . ولكن حدث أن تزايد باستمرار إحساس باستيان بعدم الميل لهذا وبدلا من ذلك كان يقوم بزيارة كسايده فى هودجها . وكانت تستقبله دائما بتبجيل عظيم ، وتختصه بأكثر الأماكن راحة وتجلس عند قدميه . وكانت تعرف دائما موضوعا مشوقا للحديث ، وتتحنب أن تسأله عن ماضيه فى عالم البشر ، بعد أن لاحظت أن الحديث عن ذلك غير مريح له . وكانت تدخن بلا انقطاع نارجيلة شرقية إلى جوارها . وكان الخرطوم فيها يبدو كحية خضراء زمردية ومبسمها الذى كانت تمسك به بين أصابعها الطويلة البيضاء المرمرية ، كان يشبه رأس الحية . وعندما كانت تشد النفس منها ، تبدو كما لو كانت تقبله . وسحيبات الدخان التى كان تخرجها بتلذذ من فمها وأنفها ، كان لها مع كل نفس لون مختلف ، مرة أزرق ومرة أصفر ، أحمر وردى ، أخضر أو بنفسجى .

- « كنت أريد أن أسألك عن شىء منذ وقت طويل ، يا كسايده » ، قال ذلك باستيان فى إحدى زياراته تلك ، بينما هو ينظر بتفكير إلى الأشخاص العمالقة فى دروع الحشرات السوداء ، الذين كانوا يحملون الهودج بخطوة منتظمة تماما .

فردت كسايده قائلة : « جاريتك تسمع . »

واستطرد باستيان قائلا : « عندما قاتلتُ عمالقتك المدرعين ، اتضح أنهم يتكونون فقط من الدروع وداخلهم أجوف . بأى شىء يتحركون فى الحقيقة ؟ »

وردت كسايده مبتسمة : « بإرادتى . وبسبب أنهم فارغون من الداخل ، فهم يطيعون إرادتى . وكل ماهو فارغ تستطيع إرادتى توجيهه . »

وتفحصت باستيان بعينيها ذات اللونين .

وأحس باستيان بالاضطراب بسبب هذه النظرة بشكل غير واضح ، ولكنها أخفضت أهدابها مرة أخرى .

وسأل قائلا : « أيمكننى أنا أيضا توجيههم بإرادتى ؟ »

فأجابت : « بالتأكيد ياسيدى ومعلمى ، ومائة مرة أفضل منى ، أنا التى أكون لا شىء بالمقارنة بك . أتريد أن تجرب هذا ؟ »

فرد باستيان الذى بدا له الأمر لا يبعث على الارتياح : « ليس الآن ، ربما مرة ثانية . »

واستطردت كسايده بقولها : « أتجد فعلا أنه من الأجمل الركوب فوق بغلة عجوز عن أن تحملك أشكال تحركها إرادتك الخاصة ؟ »

فقال باستيان بقليل من التذمر : « إنما تحب أن تحملنى . وهى تسعد بالسماح لها بحملى . »

– « إذن أنت تفعل ذلك من أجلها ؟ »

فرد باستيان قائلا : «ولم لا ؟ وما هو الردىء فى ذلك ؟ »

وجعلت كسايده دخانا أخضر يتصاعد من فمها .

– « أوه ، لا شىء ياسيدى . كيف يمكن لشىء تفعله أنت أن يكون رديئا . »

– « إلى ما ترمين ، ياكسايده ؟ »

وأحنت رأسها ذات الشعر النارى اللون .

وهمست قائلة : « إنك تفكر أكثر من اللازم فى الآخرين ، سيدى ومعلمى . ولكن لا أحد يستحق لفت انتباهك عن ارتقائك أنت الهام . وإذا لم تغضب منى لهذا السبب ياسيدى ، فإننى أجرؤ على إعطائك النصيحة : وهى فكّر أكثر فى كمالك ! »

- « وما علاقة ذلك بإيخا العجوز ؟ »
- « ليس الكثير ياسيدى ، يكاد لا يكون شيئا على الإطلاق . ليس إلاّ — انها ليست دابة الركوب الجديرة بشخص مثلك . إن رؤ يتى لك على ظهر حيوان عادى جدا — مثل هذا ، يهيننى . إن جميع رفقاء طريقك يدهشون لذلك . أنت فقط ، ياسيدى ومعلمى ، الوحيد الذى لا يدرى ماأنت مدان به لنفسك . »

ولم يقل باستيان شيئا . ولكن كلام كسايده أحدث تأثيرا عليه .

فعندما سار الجيش وعلى رأسه باستيان وإيخا فى اليوم التالى عبر طبيعة من المروج رائعة الجمال ، تتخللها بين الحين والآخر أحراش صغيرة من زهور الليلك العطرة ، استغل راحة وقت الظهيرة لكى ينفذ اقتراح كسايده .

فقال وهو يربت على رقبة البغلة : « اسمعى ياإيخا ، لقد حانت اللحظة التى يتحتم فيها فراقنا . »

وأطلقت إيخا صيحة ألم .

وقالت شاكية : « لماذا ، ياسيدى ، هل قمت بمهمتى على هذا القدر من السوء ؟ »

وجرت دموع من زوايا عيونها الحيوانية الداكنة .

وأسرع باستيان لمواساتها قائلا : « كلا ، بالعكس ، لقد حملتنى هذا الطريق الطويل كله بنعومة وكنت صابرة ومطيعة لدرجة أننى أريد الآن مكافأتك امتنانا . »

فردت إيخا : « أنا لا أرغب فى مكافأة أخرى . إننى أود أن أستمر على حملك . أى شىء أعظم من ذلك يمكننى تمنيه ؟ »

واستطرد باستيان قائلا : « ألم تقولى أنك حزينة من أن أمثالكن لا يستطعن إنجاب الصغار ؟ »

فقالت إيخا بأسى : « نعم ، لأننى سأحب أن أقص عليهم عن هذه الأيام ، عندما أكون عجوزة جدا . »

فقال باستيان : « حسن ، إذن أريد الآن أن أقص عليك قصة ستصبح حقيقة . وأريد أن أقصها عليك أنت فقط ، لك وحدك تماما ، لأنها تخصك . »

ثم أخذ أُذن إيخا الطويلة فى يده وهمس فيها :

« فى مكان ليس ببعيد عن هنا ، فى غابة صغيرة من زهور الليلك ، ينتظرك والد ابنك . إنه فرس أبيض له أجنحة من ريش البجع . عُرفه وذيله طويلان لدرجة أنهما يصلان إلى الأرض . لقد تبعنا فى السر منذ عدة أيام لأنه واقع فى حبك للغاية . »

فصاحت إيخا شبه فزعة : « فىّ أنا ؟ ولكننى لست إلا بغلة ، ولمْ أعد شابة كذلك ! »

فقال باستيان بصوت منخفض : « بالنسبه له أنت أجمل مخلوق لفانتازين ، بالذات لأنك هكذا على ما أنت عليه . وربما أيضا لأنك حملتنى . ولكنه خجول ولا يجرؤ على الاقتراب منك بين كل هذه الكائنات الكثيرة هنا . لابد أن تذهبى إليه ، وإلا مات اشتياقا إليك . »

فقالت إيخا حائرة : « ياخبر ! هل الأمر بهذا السوء ؟ »

فهمس باستيان فى أذنها : « نعم ، والآن وداعا ياإيخا . اجرى فقط بسرعة وسوف تعثرين عليه . »

ومشت إيخا بضعة خطوات ، ولكنها استدارت مرة أخرى إلى باستيان .

وقالت مفسرة ذلك : «بأمانة ، إننى خائفة قليلا» .

فقال باستيان : «تشجعى ! ولا تنسى أن تحكى عنى لأولادك وأحفادك» .

فردت ايخا بطريقتها البسيطة : «شكرا يا سيدى !» ومشت .

وتابعها باستيان بنظره وهى تتهادى مبتعدة ، ولم يشعر بأنه سعيد جدا لحثها على الانصراف . ودخل خيمته الفاخرة ، واستلقى على الحشيات اللينة وحملق عاليا إلى السقف . وقال لنفسه مراراً وتكراراً بأنه حقق لإيخا أعظم أمانيها . ولكن ذلك لم يطرد إحساسه المكتئب . فالأمر يرتبط جدا بمتى ولماذا يفعل المرء شيئا لأجل خاطر أحد الأشخاص ولكن هذا كان يخص باستيان فقط ، لأن إيخا عثرت فعلا على الفرس الأبيض كالثلج ذى الأجنحة واحتفلت بزفافها معه . وبعد ذلك خلّفت ابنا ، وهو بغل أبيض له أجنحة يدعى بتابلان . وكان مثاراً لأحاديث كثيرة فى فانتازين . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكى فى مناسبة أخرى .

وواصل باستيان من الآن فصاعدا رحيله فى هودج كسايده . ولقد عرضت عليه فوق ذلك أن تنزل وتمشى على أقدامها إلى جواره لكى تهيىء له فقط كل وسيلة راحة ممكنة ولكن باستيان لم يرغب فى قبول ذلك منها . وهكذا جلسا الآن سويا فى الهودج المرجانى الواسع الذى كان على رأس ركب الجيش .

وكان باستيان لا يزال معكر الصفو قليلا ، حتى تجاه كسايده التى أعطته النصيحة بالانفصال عن البغلة . ولقد استنتجت كسايده ذلك سريعا جدا . فإجاباته المقتضبة لم تدع أية محادثة فعلية تجرى معه .

ولكى تُدخل البهجة عليه قالت بمرح :
«أود أن أعطيك هدية ، سيدى ومعلمى ، إذا ما تكرمت وقبلتها منى» .

وسحبت من تحت حشيات الجلوس صندوقا صغيرا ذا زخارف غاية فى القيمة . واعتدل باستيان فى تشوق . وفتحته وأخرجت منه حزاما غير عريض يتكون من حلقات قابلة للحركة كنوع من السلاسل . وكل حلقة ، وكذلك الإبزيم كان من الزجاج الصافى .

فقال باستيان راغبا فى المعرفة : «ما هذا ؟» .
وأحدث الحزام صليلا خافتا فى يدها .
- «إنه حزام يجعل المرء يختفى عن النظر . ولكن ، سيدى ، عليك أن تعطيه اسمه لكى يكون ملْكا لك» .

وتأمله باستيان ، ثم قال : «الحزام جمال» .
فهزت كسايده رأسها مبتسمة : «والآن هو ملْك لك» .
وتسلم باستيان الحزام وأمسكه فى يده مترددا .
فسألت : «ألا تريد أن تجربه حالا لكى تقتنع بتأثيره ؟» .

ووضع باستيان الحزام حول وسطه وشعر كيف أنه يناسبه كما لو كان مصبوبا على قالبه . ولكنه شعر بذلك فقط ، لأنه لم يعد يستطيع أن يرى نفسه ، لا جسمه ولا أقدامه ولا يديه . لقد كان شعورا غاية فى عدم الراحة ، وحاول أن يفتح الإبزيم

على الفور مرة ثانية . ولكن نظراً لأنه لم يعد يستطيع أن يرى يديه ولا الحزام ، فلم يوفق فى ذلك .

فأطلق صوتا مختنقا : «النجدة !» لقد انتابه الخوف فجأة ألاّ يستطع خلع الحزام جمّال مرة ثانية أبدا ، وأن يتحتم عليه البقاء غير مرئى على الدوام .

فقالت كسايده : «لابد أن يتعلم المرء أولا التعامل معه ، لقد كان الأمر بالنسبة لى على هذا النحو أيضا ، سيدى ومعلمى ، اسمح لى بمساعدتك !» .

ومدت يديها فى الهواء الخالى وفى لمح البصر فتحت الحزام جمّال ، ورأى باستيان نفسه مرة ثانية . وأطلق تنهيدة بالارتياح . ثم ضحك ، وكذلك ابتسمت كسايده وامتصت دخانا من المبسم الثعبانى لنارجيلتها .

وعلى كل حال لقد ساقته إلى أفكار أخرى .

وقالت بنعومة : «الآن أنت محمىّ من كل ضرر بشكل أفضل ، وهذا يهمنى يا سيدى أكثر مما أستطيع أن أقوله لك» .

فقال باستيان مستفسرا ، وهو لايزال مضطربا قليلا :«ضرر ؟ أى ضرر ؟» .

فهمست كسايده : «آوه ، لا أحد يدانيك ، إذا ما كنت حكيما . الخطر يكمن داخلك أنت ، ولذلك يصعب حمايتك منه» .

فقال باستيان راغبا المعرفة : «ماذا تقصدين بذلك ــ فى داخلى أنا ؟» .

– «الحكمة أن تعلو فوق الأمور ، ألاّ تكره أحدا ولا تحب أحدا . ولكنك يا سيدى مازلت تُقدر الصداقة . إن قلبك ليس باردا وليس خاليا من الأحاسيس كإحدى قمم الجبال المغطاه بالثلج ــ وعلى ذلك يمكن لأحد أن يلحق بك الضرر» .

– «ومن يكون هذا ؟» .

– «ذلك ، الذى مازلت تميل إليه برغم كل تكبره ، يا سيدى» .

– «عبّرى عن نفسك بوضوح أكثر !» .

– «ذلك البّرى الوقح عديم الاحترام الصغير من قبيلة ذوى الجلود الخضراء ، يا سيدى» .

– «أتريو ؟» .

«نعم ، ومعه فخور عديم الحياء» .

وكاد باستيان أن يضطر للضحك : «وكلاهما يقصدان بي الضرر ؟» .

وجلست كسايده مطرقة الرأس .

واستطرد باستيان قائلا : «أنا لا ولن أعتقد ذلك أبدا . أنا لا أريد أن أسمع المزيد فى ذلك» .

وصمتت كسايده وأطرقت برأسها بمزيد من الانخفاض .

وسأل باستيان بعد صمت طويل :

– «وأى شىء فى ذلك الذى ينويه أتريو ضدى ؟» .

فهمست كسايده : «سيدى ، أتمنى لو أننى لم أقل شيئا» .

فصاح باستيان : «قولى إذن كل شىء أيضا ، ولا تقتصرى على التلميحات . ماذا تعرفين ؟» .

وتلعثمت كسايده وارتعدت فعلا بجسدها كله : «إننى أرتعد من غضبك ، يا سيدى ، ولكن وإن كان فى ذلك نهايتى ، فسوف أقوله لك : أتريو يخطط لأخذ علامة الإمبراطورة الطفولية منك ، خِفْية أو بالقوة» .

ولم يستطع باستيان التنفس للحظة .

فسأل بصوت متحشرج : «أتستطيعين برهنة ذلك ؟» .

فهزت كسايده رأسها بالنفى ودمدمت قائلة :

«إن نوع معرفتى ، يا سيدى ، لا ينتمى إلى ذلك الذى يمكن برهنته» .

فقال باستيان وقد تدفق الدم إلى وجهه : «إذن فلتحتفظى بذلك لنفسك ، ولا تغتابى أشرف وأشجع صبى يوجد فى كل فانتازين !» .

وبذلك اندفع خارج الهودج وذهب بعيدا .

وداعبت أصابع كسايده رأس الأفعى وهى مفعمة الفكر ، وتوهجت عيناها الخضراء ــ الحمراء .

وبعد برهة ابتسمت مرة ثانية ، **وهمست وهى تُخرج من فمها دخانا بنفسجيا** :

«سيتضح ذلك ، يا سيدى ومعلمى ، إن الحزام جِمال سيبرهنه لك» .

وعندما نُصب مخيم الليل ذهب باستيان إلى خيمته . وأمر علوان ، الجنى الأزرق بعدم استقبال أحد ، وكسايده بأى حال من الأحوال . لقد أراد أن يكون وحيدا وأن يتفكر .

إن ما قالته الساحرة له عن أتريو اعتبره لا يكاد يستحق التفكير . ولكن كان هناك شىء آخر يشغل أفكاره : الكلمات القليلة التى أضافتها عن الحكمة .

ولقد عايش الكثير حتى الآن ، مخاوفا وأفراحا ، أحزانا وانتصارات ، وأسرع من تحقيق أمنية إلى تحقيق آخر ، ولم يأت للراحة لحظة واحدة . ولا شىء من كل ذلك جعله هادئا وراضيا . ولكن أن تكون حكيما ، يعنى أن ترتفع فوق الفرح والأسى . فوق الخوف والشفقة فوق الطموح والإهانة . أن تكون حكيما ، يعنى أن تعلو فوق كل الأمور ، ولا تكره أو تحب شيئا أو أحدا ، ولكن أيضا أن تقبل بلا مبالاة تامة صدود أو ميل الآخرين . مَن كان حكيما حقيقيا ، لم يكن يهمه شىء . لم يكن ممكنا الوصول إليه ، ولم يكن فى إمكان شىء أن ينال منه شيئا . نعم ، إنه لأمر مرغوب فيه أن يكون المرء هكذا . وكان باستيان مقتنعا أنه بذلك قد أتى إلى آخر أمانيه ، تلك الأمنية الأخيرة التى ستقوده إلى إرادته الحقيقية ، كما قال جرأوجرمان . وأعتقد أنه فهم الآن المقصود من ذلك . وتمنى لنفسه أن يكون حكيما عظيما ، أحكم حكيم فى جميع فانتازين .

وبعد ذلك بوقت قليل خرج من خيمته .

وأضاء القمر الطبيعة التى لم يكن يعيرها اهتماما من قبل تقريبا . فقد امتدت مدينة الخيام فى قاع وادٍ تحيط به جبال ذات أشكال غريبة من كل جانب فى دائرة واسعة . وكان السكون كاملا ، وكانت لا تزال بالوادى غابات صغيرة وأحراش ، وعلى الامتداد بأعلى على منحدرات الجبال قلّت النباتات ، انعدمت تماما مع مواصلة الارتفاع . وكوّنت مجموعات الصخور التى ترتفع فوق ذلك ، مختلف أنواع الأشكال ، وكادت تحدث تأثيرا كما لو كانت أشكالا مقصودة من إبداع يد مثّال عملاق . وكانت الرياح ساكنة والسماء بلا سحاب .

وتلألأت النجوم وبدت أقرب عن ذى قبل .

وبأعلى تماما اكتشف باستيان فوق أحد أعلى قمم الجبال شيئا يبدو كمبنى قببى . ومن الظاهر أنه كان آهلا بالسكان ، حيث ان شعاع ضوء ضعيف كان يخرج منه .

وقال علوان بصوته المتحشرج ، وكان يقف فى موضع حراسته بجوار مدخل الخيمة : « لقد لاحظته أنا أيضا . ترى ماذا يكون ؟ »

وما كاد ينتهى من كلامه حتى سمع صياح غريب من مكان بعيد . وكان رنينه كصرخة بومة ممدودة « أهو هو هو ! » ولكنه أكثر عمقا وقوة ، ثم رن النداء مرة ثانية وثالثة ولكنه الآن بأصوات متعددة .

لقد كانت بالفعل بومات ، وعددها ست ، مثلما استطاع ان يتأكد باستيان من ذلك بعد وقت قليل وجاءت من اتجاه أعلى الجبل ذى البناء القببى على القمة . وكانت تحلق فى طيرانها بأجنحة لا تكاد تتحرك . وكلما ازداد اقترابها ، ازداد التعرف على حجمها المدهش وضوحا . وكانت تطير بسرعة لا يمكن تصديقها . وعيونها تشع بالضياء ، وعلى رؤ وسها آذان منتصبة وعليها خصلات من الريش الناعم . وكان طيرانها بلا صوت تماما . وعندما هبطت أمام خيمة باستيان سمع بالكاد صفير خافت لريش أجنحتها .

وها هى تجلس على الأرض ، كل منها أكبر من باستيان ، وتدير رؤ وسها ذات العيون الكبيرة المستديرة إلى جميع الجهات . وتقدم باستيان إليها .
ـ « من أنتم ، وعمن تبحثون ؟ »

فأجابت إحدى الست بومات : « أرسلتنا أوشتو ، أم التخمين ، إننا رسل الجو لدير النجوم جيجام . »

وسأل باستيان : « أى نوع من الأديرة هذا »
فأجابت بومة أخرى : « إنه موضع الحكمة ، حيث يسكن رهبان المعرفة . »
وواصل باستيان استفساره قائلا : « ومن هى أوشتو ؟ »

وشرحت بومة ثالثة قائلة : « واحدة من الثلاثة متفكرين بعمق الذين يرأسون الدير ويعلّمون الرهبان الحكمة . ونحن رسل الليل وننتمى إليها . »

وأضافت رابعة قائلة : « وإذا طلع النهار ، فان شيركرى ، أبا التأمل ، يبعث رسله وهم نسور . وفى ساعة الغسق ما بين النهار والليل يرسل يسيبو ، ابن الفطنة ، رسله وهم ثعالب » .

ـــ « من هم شيركرى ويسيبو ؟»

ـــ « إنهما المتفكران بعمق الأخريان ، كبراؤ نا . »

ـــ « وعما تبحثون هنا ؟»

فقالت البومة السادسة : « إننا نبحث عن العارف العظيم . إن الثلاثة متفكرين بعمق يعلمون أنه يقيم بمدينة الخيام هذه ، ويرجونه الإلهام . »

فسأل باستيان : « العارف العظيم ، من هذا ؟»

فأجابت الست بومات كلها فى نفس الوقت : « اسمه باستيان بلتازار بوكس . »

فرد قائلا : « لقد عثرتم عليه ، إنه أنا . »

وانحنت البومات بعمق فى اندفاع كاد أن يبدو مضحكا رغم حجمها المخيف .

وقالت البومة الأولى : « إن الثلاثة متفكرين بعمق يرجون فى خنوع ورهبة زيارتك ، لكى تحل لهم السؤ ال الذى لم يستطيعوا أن يحلوه فى حياتهم الطويلة . »

وحك باستيان ذقنه فى تأمل .

وأخيرا رد قائلا : « حسن . ولكننى أود اصطحاب تلميذىْ الاثنين معى . »

فأجابت البومة : « نحن ستة ، كل اثنتين منا تستطيعان أن تحملا واحدا منكم . »

واتجه باستيان إلى الجنى الأزرق :

ـــ « علوان ، أحضر أتريو وكسايده . »

وابتعد الجنى مسرعا .

وقال باستيان راغبا المعرفة : « أى سؤ ال ينبغى علىّ أن أجيب عليه ؟»

فشرحت إحدى البومات قائلة : « أيها العارف العظيم ، إننا لسنا سوى رسل جو مساكين جهلة ، ولا ننتمى حتى لأقل مرتبة من مراتب رهبان المعرفة . كيف لنا أن نخبر عن السؤ ال الذى لم يستطع الثلاثة متفكرين بعمق أن يحلوه فى حياتهم الطويلة . »

ويعد بضع دقائق عاد علوان ومعه أتريو وكسايده . وقد شرح لهم الأمر بسرعة أثناء الطريق .

وعندما وقف أتريو أمام باستيان ، سأل بصوت منخفض :

ـ « لماذا أنا ؟»

وقالت كسايده مستفسرة أيضا : « أجل ، لماذا هو ؟»

فرد باستيان : « سوف تعرفون ذلك . »

واتضح أن البومات كانت قد أحضرت معها بالتنبؤ ثلاث أراجيح . وأمسكت كل اثنتين منها بمخالبها الحبال التى تتعلق بها تلك الأراجيح ، وجلس باستيان وأتريو وكسايده على عوارض الجلوس وارتفعت بهم طيور الليل الضخمة فى الهواء .

وعندما وصلوا إلى دير النجوم جيجام ، اتضح أن القبة الكبيرة ليست إلا الجزء العلوى لمبنى شاسع جدا يتركب من أجنحة على هيئة المكعبات . وكانت له نوافذ لا تحصى ، ويقف بسور خارجى عال مباشرة عند هاوية صخرية . وكان من الصعب أو من غير الممكن الوصول إليه بالنسبة للزائرين المتطفلين .

وفى الأجنحة المكعبة كانت صوامع رهبان المعرفة ودور الكتب وغرف الخدمات ومساكن الرسل . وتحت القبة الكبيرة كانت قاعة الاجتماعات التى كان يلقى فيها الثلاثة متفكرون بعمق دروسهم .

ورهبان المعرفة كانوا فانتازيين من مختلف الأصول والأشكال . ولكن اذا أرادوا الالتحاق بهذا الدير كان عليهم أن يقطعوا كل صلة ببلدهم وأسرهم . وكانت حياة هؤلاء الرهبان قاسية وزاهدة ، ومكرسة فقط للحكمة لا غير . ولم يكن يقبل كل من يريد الانضمام للجماعة بأى حال من الأحوال فقد كانت الاختبارات صعبة والثلاثة متفكرون بعمق لا تلين عريكتم . ولذلك نادراً ما حدث أن عاش هناك أكثر من ثلاثمائة راهب ، ولكن هؤلاء كانوا يشكلون بذلك صفوة أذكى الأذكياء فى جميع فانتازين . وكانت هناك أوقات تقلصت فيها جماعة الاخوان والأخوات إلى سبعة أعضاء فقط . ولكن ذلك لم يغير شيئا من صرامة الاختبارات . وفى الوقت الحالى كان كل عدد الرهبان والراهبات أزيد بقليل عن المائتين .

وعندما أقتيد باستيان ، يتبعه أتريو وكسايده ، بعدئذ إلى قاعة التدريس الكبرى رأى أمامه مجموعة متنوعة الألوان من جميع كائنات فانتازين الممكنة ، والتى اختلفت عن أتباعه هو فقط فى أنها جميعا مهما كان شكلها ، ترتدى عباءات خشنة ذات الوان بُنية وسوداء ويمكن تخيل كيف يبدو هذا على سبيل المثال على أحد الصخور الجوالة المذكورة من قبل أو على مخلوق دقيق .

ولكن الكبراء الثلاثة ، المتفكرون بعمق ، كـانت لهم هيئة بشـرية . ولكن رؤ وسهم لم تكن على عكس ذلك بشرية . أوشتو ، أم التخمين كان لها وجه بومة . شيركرى ، أبو التأمل كان له رأس نسر . وأخيرا كان ليسبو ، إبن الفطنة ، له رأس ثعلب . وكانوا يجلسون على كراس من الحجر ، وأحدث هذا انطباعا بأنهم كبيرى الحجم جدا . وبدا أتريو ، وحتى كسايده قد أصابها الخوف عند رؤ يتهم . ولكن باستيان تقدم إليهم متمالكا . وساد القاعة الكبيرة صمت عميق .

شيركرى الذى يبدو أنه أكبر الثلاثة سنا ويجلس فى الوسط ، أشار بتؤ ده بيده إلى كرسى عرش خالٍ موجود فى مواجهتهم . وجلس باستيان عليه .

وبعـد فترة صمت طـويلة نوعـا بـدا شيـركـرى يتحـدث . وتكلم بصـوت منخفض ، وللمفاجأة رن صوته عميقا وممتلئا .

ــ « منذ قديم الزمان ونحن نتفكر فى لغز دنيانا ، يسيبو يفكر بشكل مختلف عما تخمنه أوشتو ، وتخمين أوشتو يبين شيئا مختلفا عما أشاهده ، وأنـا بدورى أشـاهد بشكل مختلف عما يفكر فيه يسيبو . ولا ينبغى ألا يطول الأمر أكثر على هذا الحال . ولذلك رجوناك ، أنت العـارف العظيم أن تـأتى إلينا وتعلمنا . أتريـد أن تحقق رجاءنا ؟»

فقال باستيان : « إنى أريد ذلك . »

« إذن استمع ، أيها العارف العظيم ، إلى سؤ النا : ما هى فانتازين ؟»

وصمت باستيان برهة ، ثم أجاب :

ــ « فانتازين هى قصة بلا نهاية . »

فقال شيركرى : « إعطنا وقتا لفهم إجابتك . نريد أن نتقابل مرة ثانية هنا فى نفس الساعة غدا . »

ونهض الجميع فى صمت ، الثلاثة متفكرون بعمق وكذلك جميع رهبان المعرفة وخرجوا . واقتيد باستيان وأتريو وكسايده إلى صوامع الضيوف حيث كانت فى انتظارهم وجبة طعام بسيطة . وكانت الأسرّة ألواحا خشبية بسيطة ذات أغطية صوفية خشنة . ولم يكن لذلك أهمية بالطبع لدى باستيان وأتريو ، غير أن كسايده كانت تود أن تسحر سريرا أكثر راحة ، ولكنه تحتم عليها أن تعرف أن قواها السحرية ليس لها تأثر فى هذا الدير .

وفى الليلة التالية والساعة المحددة اجتمع مرة أخرى جميع الرهبان والثلاثة متفكرين بعمق فى قاعة القبة الكبرى . وجلس باستيان مرة أخرى على كرسى العرش ووقفت كسايده وأتريو عن يساره ويمينه .

وكانت أوشتو ، أم التخمين ، هى التى نظرت إلى أتريو بدهشة بعيونها البومية وتكلمت : « لقد تفكرنا فى درسك ، أيها العارف العظيم ، ولكن نتج لنا سؤال جديد . إذا كانت فانتازين هى القصة بلا نهاية ، كما تقول ، فأين القصة بلا نهاية مكتوبة ؟»

ومرة أخرى صمت باستيان برهة ثم أجاب :

ــ « فى كتاب مجلد بحرير نحاسى اللون . »

فقالت أوشتو : « إعطنا وقتا لنفهم كلامك . ونريد أن نلتقى هنا مرة أخرى فى نفس الساعة غدا . »

وحدث كل شىء كما فى الليلة السابقة . وفى الليلة التالية ، وعندما اجتمعوا مرة أخرى فى قاعة التدريس ، تناول الكلمة يسيبو ، ابن الفطنة :

ــ « فى هذه المرة أيضا تفكرنا فى درسك ، أيها العارف العظيم . ومرة أخرى نقف حائرين أمام سؤال جديد . إذا كان عالمنا هو قصة بلا نهاية ، وإذا كانت القصة بلا نهاية هذه موجودة فى كتاب ذى لون نحاسى ــ فأين يوجد هذا الكتاب ؟»

وبعد فترة قصيرة أجاب باستيان :

ــ « فى مخزن أحد المبانى المدرسية . »

فرد يسيبو ذو رأس الثعلب ، قائلا : « أيها العارف العظيم ، إننا لا نشك فى

صدق ما تقوله لنا . ولكننا نريد أن نرجوك أن تجعلنا نرى هذه الحقيقة . هل تستطيع ذلك ؟»

وفكر باستيان ، ثم قال :

ـ « أعتقد أننى أستطيع ذلك . »

ونظر أتريو إلى باستيان وقد فوجىء ، وكذلك كسايده أبدت تعبيراً متسائلاً فى عينيها المختلفة الألوان .

وقال باستيان : « إننا نريد أن نلتقى ثانية غداً فى نفس الساعة . ولكن ليس هنا فى قاعة التدريس ، ولكن بالخارج على أسطح دير النجوم جيجام . ويجب أن تتطلعوا إلى السماء بانتباه وبلا انقطاع » .

وفى الليلة التالية ـ وكانت كذلك واضحة النجوم كالثلاث ليالى السابقة وقف جميع أعضاء جماعة الأخوة بما فيهم الثلاثة متفكرون بعمق . فى الساعة المحددة على أسطح الدير . وتطلعوا إلى أعلى فى سماء الليل ورؤوسهم منحنية إلى الوراء . وكذلك تواجد بينهم أتريو وكسايده وكلاهما لم يكن يعرف ما ينوى عليه باستيان .

ولكن باستيان تسلق إلى أعلى نقطة فى القبة الكبيرة . وعندما وقف بأعلى ، نظر إلى بعيد حوله ـ وفى هذه اللحظة رأى للمرة الأولى ، بعيدا ، بعيدا فى الأفق برج العاج يومض فى ضوء القمر وميضا ساحراً .

وأخذ من جيبه الحجر التساهير الذى أضاء ضوءا ناعما . واسترجع باستيان فى ذاكرته كلمات النقش التى كانت على باب مكتبة أمر جانت :

« . . . ولكن إذا ذُكر اسمى مرة ثانية
من النهاية إلى البداية
فإننى أشع بمصابيح مائة عام
فى لحظة واحدة » .

ورفع الحجر إلى أعلى وصاح :

« ريها ستلا ! »

وفى نفس اللحظة حدث برق من شدته أن شحب لون السماء ذات النجوم وأضىء الفضاء المظلم من خلفها . وهذا الفضاء كان مخزن مبنى المدرسة بدعاماته الخشبية الضخمة التى كساها القدم بلون أسود . ثم انتهى . فقد أنقضت أشعة ضوء مائة عام . واختفى التساهير عن آخره .

واحتاج الجميع ، حتى باستيان إلى برهة من الزمن إلى أن تعودت عيونهم مرة أخرى على الوميض الخافت للقمر والنجوم .

واجتمع الجميع فى صمت فى قاعة التدريس الكبرى وقد هزتهم الرؤ يا . ونهض رهبان المعرفة والثلاثة متفكرون بعمق من أماكنهم وانحنوا بعمق ولمدة طويلة أمامه .

وقال شيركرى : « لا توجد كلمات يمكننى أن أشكرك بها على برق الالهام ، أيها العارف العظيم ، لأننى لمحت بهذا المخزن الملىء بالأسرار كائنا من نوعى . نسرا » .

واعترضت أوشتو ذات وجه البومة بابتسامة ناعمة : « أنت مخطىء يا شيركرى ، لقد شاهدت بدقة أنها كانت بومة » .

وقاطعها يسيبو بعينين مشعتين : « كلاكما مخطىء . إن الكائن هناك قريب لى . فهو ثعلب » .

ورفع شيركرى يديه مشيحا بها ، وقال : « ها نحن الآن ثانية حيث كنا من قبل . أنت فقط أيها العارف العظيم . تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال أيضا . من منا نحن الثلاثة معه حق ؟ » .

وابتسم باستيان ببرود وقال : « الثلاثة جميعا » .

فقالت أوشتو راجية : « إعطنا وقتا لنفهم إجابتك » .

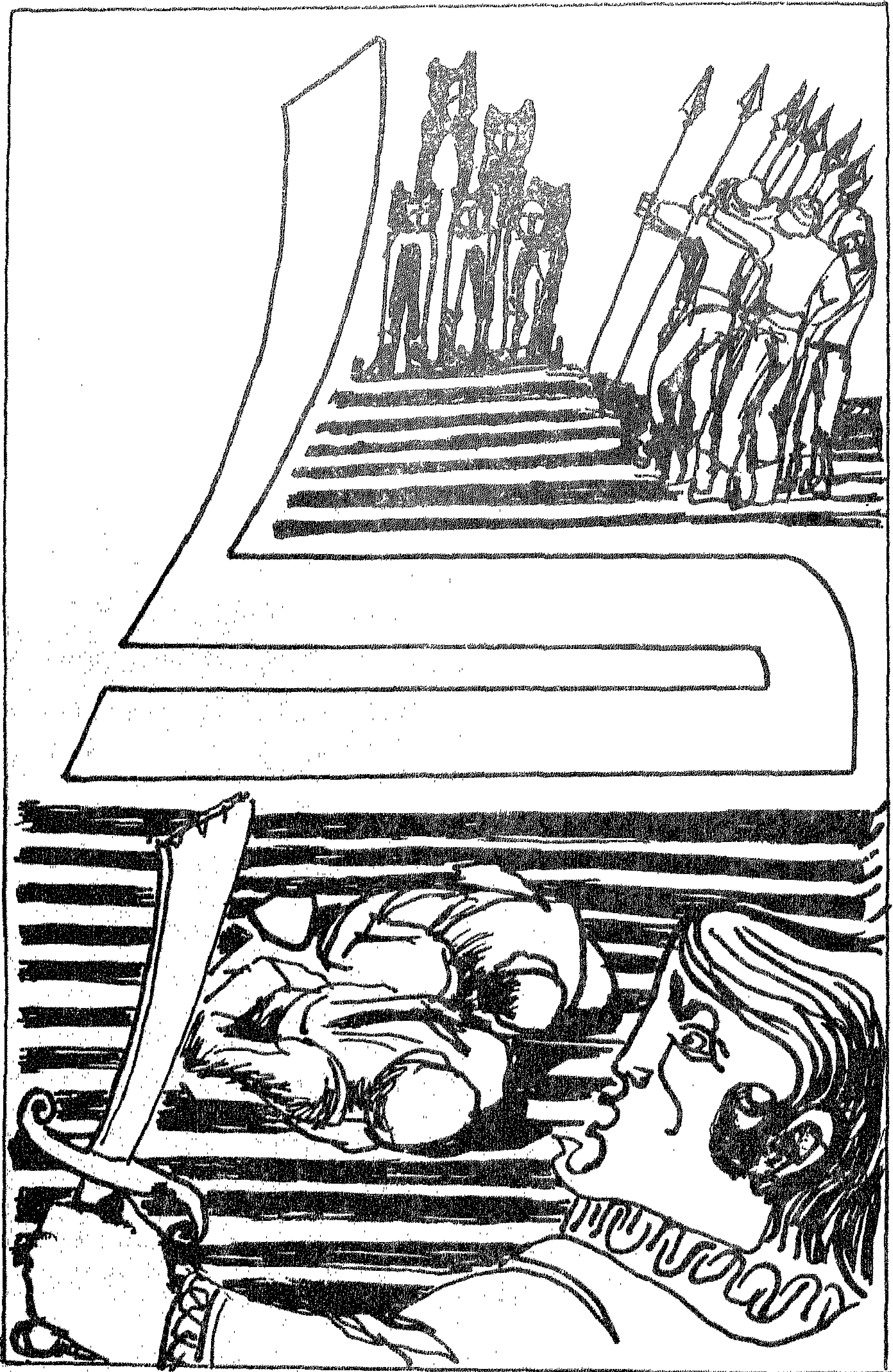
فرد باستيان : « نعم ، وقتا على قدر ما تريدون . لأننا سوف نترككم الآن » .

وارتسمت خيبة الأمل على وجوه رهبان المعرفة وكبرائهم أيضا ، ولكن باستيان رفض بلا اكتراث رجاءهم الحار أن يبقى لديهم مدة طويلة أو من الأفضل على

الدوام . وهكذا تمت مرافقته مع تلميذيه إلى الخارج ، وأعادوهم رسل الجو إلى مدينة الخيام . وبالمناسبة لقد بدأ فى تلك الليلة فى دير النجوم جيجام أول خلاف أساسى فى الرأى بين الثلاثة متفكرين بعمق ، والذى أدى بعد ذلك بسنوات كثيرة إلى حل جماعة الأخوة ، وأسست أوشتو ، أم التخمين ، وشيركرى أبو التأمل ، ويسيبو ابن الفطنة ، لكل منهم ديرا خاصا به . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكى فى مناسبة أخرى .

ولكن باستيان فقدابتداءً من هذه الليلة كل ذاكرة فى أنه كان يذهب يوما ما إلى المدرسة ، وكذلك المخزن وحتى الكتاب المسروق ذو الغلاف النحاسى اللون اختفى من ذاكرته . ولم يعد يتساءل عن كيفية مجيئة إلى فانتازين بالمرة .

٢٢
المعركة حول برج العاج





كرّ المستطلعون المرسلون مسبقا ، عائدين إلى المخيم وأعلنوا أن المرء قريب جدا الآن من برج العاج ، ويمكن الوصول إليه بعد يومين ، وعلى أقصى تقدير ثلاثة أيام من السير السريع .

ولكن باستيان بدا غير مستقر على رأى . فكان يدعو للراحة أكثر من ذى قبل . وفجأة يبدأ بعدها الرحيل متعجلاً . ولم يفهم أحد فى ركب جيش رفقائه السبب ، ولكن لم يجرؤ أحد بالطبع على سؤاله عنه . فمنذ عمله العظيم فى دير النجوم أصبح متباعدا ، وحتى بالنسبة لكسايده . وسرت فى مخيم الجيش شتى أنواع التكهنات ، ولكن معظم رفقاء الطريق انصاعوا طائعين لأوامره المتناقضة ، إن الحكام العظام ــ كان هذا رأيهم ــ كثيرا ما يبدون متقلبين بالنسبة للكائنات العادية . حتى أتريو وفخور لم يعودا يستطيعان تفسير سلوك باستيان . والأمر الحادث فى دير النجوم قد تخطى حدود إدراكهما . ولكن هذا لم يُزد إلاّ من انشغالهم عليه .

وبداخل باستيان كان يتصارع إحساسان ، ولم يستطع أحدهما أن يُسكت الآخر . فهو مشتاق للقاء طفلة الأقمار . وهو الآن موضع للشهرة والإعجاب فى كل فانتازين ، وفى إمكانه أن يتقدم نِدّاً لها . ولكن فى نفس الوقت ملأه القلق من أنها سوف تطلب منه إعادة آوْرِيْن . وماذا بعد ذلك ؟ هل ستحاول إعادته إلى العالم الذى لم يعد يعرف عنه الآن شيئاً تقريباً ؟ إنه لم يكن يريد العودة . وهو يريد أن يحتفظ بالجوهرة . ــ ثم ترد إليه الفكرة فى أنّه لم يُقل على الاطلاق أنها تريد استردادها . ربما تتركها له لوقت ما يريد . وربما كانت قد أهدتها له وأنها مِلْكه على الدوام . وفى مثل هذه اللحظات كاد لا يستطيع انتظار لقائها . فيحث ركب الجيش

لكى يكون عندها فى وقت أسرع . ولكن اليأس ينتابه مرة أخرى ويأمر بالتوقف والاستراحة لكى يستوضح ما يجب أن يضعه فى الحسبان .

وهكذا فى تناوب مع السير المسرع المتعجل والتباطؤ لساعات طوال ، تم الوصول أخيرا إلى الطرف الأقصى لحديقة التيه الشهيرة ، ذلك السهل المتسع الذى كان حديقة واحدة من الزهور مليئة بالممرات والطرق المتعرجة . وفى الأفق أضاء برج العاج بلون أبيض ساحر فى مواجهة سماء المساء المتلالئة بلون الذهب .

ووقفت المجموعة الفانتازية كلها وكذلك باستيان فى صمت مهيب . وتمتعوا بالجمال الذى لا يوصف لهذا المنظر . وحتى على وجه كسايده ارتسم تعبير عن الدهشة ، لم يسبق أن أظهره أبدا ، ولكنه سرعان ما اختفى مرة أخرى . أتريو وفخور اللذان كانا يقفان فى الخلفية تماما تذكرا كيف كانت تبدو حديقة التيه عندما كانا هنا فى المرة الأخيرة : وقد نهشها مرض العدم المميت . وبدت الآن أكثر ازدهاراً وجمالاً وضياء من أى وقت مضى .

وقرر باستيان عدم مواصلة السير هذا اليوم . وهكذا نُصب مخيم الليل . وبُعث بعض الرسل ليبلغوا طفلة الأقمار تحيته ويخبرونها أنه ينوى النزول ببرج العاج فى اليوم التالى . ثم رقد فى خيمته وحاول أن ينام . وتقلب على وسادته جيئة وذهابا . ولم تدعه همومه يهجع إلى الراحة . ولم يكن يدرى أن هذه الليلة ستكون أسوأ ليلة لوجوده حتى ذلك الوقت فى فانتازين لأسباب مختلفة تماماً .

وفى حوالى منتصف الليل راح أخيرا فى نوم خفيف قلق ، عندما أفزعه همس وهمهمة مضطربة أمام مدخل خيمته . فنهض وخرج .

وسأل فى صرامة : « ماذا هناك ؟ » .

فأجاب علوان ، الجنى الأزرق : « هذا الرسول هنا يزعم أنه لابد أن يبلغك خبراً من الأهمية لدرجة أنه لا يجوز له الانتظار حتى الصباح » .

الرسول الذى كان يرفعه علوان من خناقه ، كان أبا سريع صغير[١٥] ، وهو

(١٥) Hurtling = اسم من اختلاق المؤلف ومن خياله ، وقد اشتقه من كلمة hurtig وتعنى خفيف الحركة ، سريع .

كائن له شبه خاص بالأرنب غير أن له رداء من الريش الزاهى الألوان بدلا من الفرو ، وكائنات أبى سريع تنتمى إلى أسرع عدائى فانتازين ، وهى تستطيع أن تقطع مسافات هائلة بسرعة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يراها فعليا أثناء ذلك ، بل يلاحظ مروقها فقط من أثر سحيبات من التراب المثار ، ومن أجل هذه المقدرة بالذات جُعل أبو سريع هذا هنا رسولا . وكان قد قطع المسافة كلها إلى برج العاج ذهابا وعودة ثانية ، وكان يلهث مقطوع النفس ، عندما وضعه الجنى أمام باستيان .

وقال لاهثا وهو ينحنى عدة مرات بعمق : اعذرنى يا سيدى ، اعذرنى ، إذا ما تجاسرت أن أقلق راحتك ، ولكنك كنت ستصبح غير راضٍ بحق ، إذا لم أكن قد فعلت ذلك . الإمبراطورة الطفولية ليست فى برج العاج ، وهذا منذ أمد طويل ، ولا أحد يعرف أين تقيم » .

وأحس باستيان فجأة بأنه خالٍ وبارد بداخله ، وقال : « لابد وأنك مخطىء هذا غير ممكن » .

ـ « الرسل الآخرون سوف يشهدون لك بذلك عندما يفدون ، يا سيدى » .

وصمت باستيان برهة ، ثم قال بصوت خالى النبرات : « شكرا ، هذا طيب » . واستدار وذهب إلى خيمته .

وجلس على مخدعه وأسند رأسه على كلتا يديه . لقد كان من المستحيل تماما ، أن طفلة الأقمار لم تعلم منذ متى من الوقت وهو فى طريقه إليها ألم تكن تريد لقاءه ؟ أم أن شيئاً حدث لها ؟ كلا ، لم يكن من الممكن تماما تخيل احتمال أن يحدث لها شىء فى مملكتها الخاصة ، لها هى ، الإمبراطورة الطفولية .

ولكنها لم تكن موجودة ، وهذا يعنى أنه لم يكن عليه أن يعيد لها آوْرينْ . ومن ناحية أخرى شعر بخيبة أمل مريرة لأنه لن يلقاها . ومهما كان لها من سبب لهذا السلوك ، فقد اعتبره غير مفهوم ، لا ، لقد كان مهينا ! .

ثم خطرت له الملاحظة التى كان يكررها له أتريو وفخور كثيرا ، أن كل فرد يلقى الإمبراطورة الطفولية مرة واحدة فقط .

وقد جعله الحزن يشعر فجأة بالاشتياق إلى أتريو وفخور . لقد كان يريد أن ينفّس عن نفسه بالكلام مع أحد ، كان يريد أن يتحدث مع صديق .

وأتت إليه الفكرة أن يتمنطق بالحزام جمّال وأن يذهب إليهما وهو غير مرئى . وهكذا يستطيع أن يكون معهما وأن يتمتع بوجودهما الباعث على السلوى دون أن يفقد شيئا من ماء وجهه .

وبسرعة فتح الصندوق الصغير المزخرف ، وأخرج الحزام ، ولفه حول وسطه . ومرة أخرى اعتراه الإحساس غير المريح مثل كل مرة عندما لا يرى نفسه . وانتظر برهة إلى أن تعود على ذلك ثم خرج ويدأ يتجول فى مدينة الخيام باحثا عن أتريو وفخور .

وفى كل مكان كان يسمع همس وهمهمة مضطربة . وأشكال كالأشباح تمرق بين الخيام هنا وهناك . وفى أماكن متفرقة جلس العديد القرفصاء يتشاورون معا فى صوت خافت . وفى تلك الأثناء كان قد عاد كذلك الرسل الآخرون ، وخبر عدم وجود طفلة الأقمار فى برج العاج ، انتشر كالنيران السارية فى مخيم رفقاء الطريق . وسار باستيان من بين الخيام ، ولكنه لم يعثر فى بادىء الأمر على الاثنين اللذين يبحث عنهما .

وكان أتريو وفخور قد استقرا على طرف المخيم تحت شجرة بان مزدهرة . وجلس أتريو برجلين متربعتين وذراعيه متشابكين على صدره وينظر بوجه جامد ناحية برج العاج . وتنين الحظ يرقد إلى جواره ، واضعا رأسه عند رجليه على الأرض .

وقال أتريو : « لقد كان أملى الأخير أنها ستجعله استثناء لكى تستعيد منه العلامة ولكن الآن ضاع كل الأمل » .

فرد فخور : « من المرجح أنها تعلم ما تفعله » .

وفى هذه اللحظة كان باستيان قد عثر عليهما وتقدم إليهما وهو خفى .

وتمتم أتريو قائلا : « أتعلم هى حقا ؟ أنه لا يجوز له أن يحمل آورين لوقت أطول » .

فسأل فخور : « ماذا تنوى أن تفعل ؟ إنه لن يسلمه طواعية » .

فأجاب أتريو : « لابد أن آخذه منه » .

وأحس باستيان عند سماعه لهذه الكلمات أن الأرض تميد تحت أقدامه .

وسمع فخور يقول : « كيف تنوى فعل ذلك ؟ حقاً لو كان معك ، ما استطاع أن يجبرك على إعادته إليه » .

فقال أتريو : «أوه ، لست أدرى ، ستكون قوته وسيفه السحرى لا يزالان معه .»

فاعترض فخور قائلا : « ولكن العلامة ستحميك ، حتى منه » .

فقال أتريو : «كلا ، لا أعتقد . ليس منه . ليس على هذا النحو » .

واستطرد فخور قائلا وهو يضحك ضحكة خافتة مخيفة : « برغم أنه عرضها عليك بنفسه فى أول أمسية لكما فى أمر جانت . وأنت رفضتها » . وهز أتريو رأسه بالإيجاب . ــ « فى ذلك الوقت لم أكن أعرف ما سيكون عليه الأمر » .

فسأل فخور : «وماذا يبقى لك إذن ؟ ماذا يمكنك أن تفعله لكى تنزع منه العلامة ؟ » .

فأجاب اتريو : « يجب أن أسرقها منه . »

فحرك فخور رأسه بسرعة إلى أعلى . وحملق بكريتا عينيه المتوهجتين بحمرة الياقوت فى أتريو الذى خفض بصره إلى الأرض وقال مكررا بصوت خافت :

ــ « لابد أن أسرقها منه . لا توجد أية إمكانية أخرى .»

وبعد صمت مخيف سأل فخور قائلا : « ومتى ؟»

فرد أتريو : « هذه الليلة ، لأن غدا يمكن أن يكون الأوان قد فات . »

ولم يرغب باستيان فى سماع المزيد . وابتعد ببطء . ولم يعد يشعر إلا بفراغ بارد لا حدود له . لقد أصبح كل شىء عنده سيان ــ كما قالت كسايده .

وعاد الى خيمته وخلع الحزام جمّال . ثم أرسل علوان لينادى على السادة الثلاثة هيزبالد وهيكريون وهيدورن . وبينما هو يمشى منتظرا جيئة وذهابا ، خطر بباله أن كسايده قد تنبأت بكل شىء . ولم يكن يريد أن يصدق ذلك ، ولكنه الآن تحتم عليه

أن يفعل . لقد كانت كسايده تقصد الأمانة معه ، فقد أدرك ذلك الآن . وهى وحدها كانت المطيعة له حقا . ولكن لم يُقل بعد إن أتريو سوف ينفذ حقا خطته . وربما كان مجرد خاطر قد خجل منه فعلا . وفى هذه الحالة ينوى باستيان ألاّ يعلق بكلمة واحدة على الأمر ــ بالرغم من أنه الآن لم يعد يضع اعتبارا للصداقة . لقد انتهى ذلك إلى الأبد .

وعندما جاء السادة الثلاثة شرح لهم أن لديه أسبابا لتوقع مجىء لص إلى خيمته هذه الليلة . ولذلك فهو يرجو السادة الثلاثة أن يقيموا الحراسة بداخل الخيمة ، وأن يقبضوا على اللص مهما كان هو . ووافق هيزبالد وهيدورن وهيكريون وأخذوا براحتهم . وابتعد باستيان .

وتوجه إلى هودج كسايده المرجانى . وكانت تغط فى نوم عميق ، غير أن الخمسة عمالقة كانوا يقفون حولها فى اعتدال وبلا حركة داخل دروعهم الحشرية السوداء . وكانوا يبدون فى الظلام كخمسة كتل صخرية .

وقال باستيان بصوت خافت : « أتمنى أن تطيعونى . »

وعلى الفور وجه الخمسة كلهم وجوههم الحديدية السوداء إليه .

وأجاب واحد بصوت له رنين الصفيح : « مُرنا ، يا سيد سيدتنا . »

وقال باستيان راغبا فى المعرفة : « أتعتقدون أنكم ستتغلبون على تنين الحظ فخور ؟ »

فرد الصوت الصفيحى : « هذا يتوقف على الإرادة التى توجهنا . »

فقال باستيان : « إنها إرادتى . »

فكان الرد هو : « إذن سنتغلب على كل شىء . »

فأشار بيده إلى الاتجاه قائلا : « حسن ، سيروا إذن الآن إلى المقربة منه ! وعندما يتركه أتريو ، اقبضوا عليه . ولكن ابقوا معه هناك . وسوف أستدعيكم عندما ينبغى عليكم إحضاره . »

فرد الصوت الصفيحى : « يسرنا أن نفعل ذلك ، يا سيد سيدتنا . »

وتحرك الخمسة السود بلا صوت فى خطوة منتظمة . وابتسمت كسايده فى

نومها . وعاد باستيان إلى خيمته ، ولكنه عندما رآها أمامه تردد . إذا كان أتـريو سيحاول حقا سرقته فهو لا يريد أن يكون موجودا عندما يقبضون عليه .

وصعد الشعاع الأول للفجر إلى السماء ، وجلس باستيان ، ليس ببعيـد عن خيمته ، تحت شجرة وانتظر ، وقد التف بمعطفه الفضى . وكان الزمن يمر ببطء لا نهائى ، وطلع ضوء صباح شاحب ، وازداد النور ، وعقد باستيان الأمل أن يكون أتريو قد تنازل عن خطته ، وذلك عندما اخترقت فجأة ضوضاء وخليط مضطرب من الأصوات من داخل الخيمة الفاخرة .

ولم يستغرق الأمر إلا وقت قصير ، وبعدها اقتاد هيكريون أتريو من الخيمة وهو مقيد الذراعين وراء ظهره . وتبعهما كلا السيدين . ونهض باستيان متعبا واستند على الشجرة .

وتمتم لنفسه قائلا : « إذن ، لقد فعلا ! »

ثم مشى إلى خيمته . ولم يكن يُحب أن يرى أتريو ، وأيضا هذا أطرق برأسه . وقال باستيان إلى الجنى الأزرق بجوار مدخـل الخيمة : « علوان . أيقظ المخيم كله . وعلى الجميع أن يجتمعوا هنا . وعلى العمالقة السود المدرعين أن يُحضروا فخور . » وأطلق الجنى صرخة نسر حادة وأسرع مبتعدا . وفى كل مكان مر به بدأت الحركة فى الخيام الكبيرة والصغيرة والمخيمات الأخرى .

ودمدم هيكريون قائلا وهو يشير بحركة من رأسه على أتريو الذى وقف بلا حراك مطرقا برأسه : « إنه لم يدافع عن نفسه إطلاقا . » فانصرف باستيان وجلس عـلى صخرة .

وعندما أحضر العمالقة السود فخور كان قد تجمع جمهور كبير حـول الخيمة الفاخرة . وعند اقتراب الخطوة المنتظمة ذات الدبيب المعدنى ابتعد المتفرجون عن بعضهم وأفسحوا طريقا . ولم يكن فخور مقيدا ولم يمسه العمالقة المدرعون ، وكانوا يسيرون فقط عن يساره وعن يمينه شاهرين السيوف .

وقال أحد الأصوات الصفيحية الرنين عندما توقف الموكب أمامه : « إنه لم يدافع عن نفسه إطلاقا ، يا سيد سيدتنا . »

ورقد فخور على الأرض أمام أتريو وأغلق عينيه .

وعم صمت طويل . وأسرع آخر المتأخرين من مخيم الجيش ، ومدوا رقابهم ليروا ماذا هناك . والشخص الوحيد الذى لم يكن حاضرا ، كانت كسايده . وتلاشى الهمس والهمهمة شيئا فشيئا . وتناقل الجميع بنظراتهم بين أتريو وباستيان . وفى دغشة الضوء المعتم كانت لأشكالهم التى لا تتحرك انطباع كصورة جامدة إلى الأبد .

وأخيرا نهض باستيان .

وقال : « أتريو ، لقد كنت تنوى سرقة علامة الامبراطورة الطفولية منى ، لكى تستحوذ عليها لنفسك وأنت يا فخور كنت تعلم ذلك وقمت بالتخطيط معه . وأنتما الاثنان لم تدنسا الصداقة فقط التى كانت يوما ما بيننا ، لقد أذنبتما كذلك بارتكابكما أشنع جريمة ضد إرادة طفلة الأقمار التى منحتنى الجوهرة . أتعترفان بأنكما مذنبان ؟ »

وألقى أتريو نظرة طويلة إلى باستيان ، ثم هز رأسه بالإيجاب .

واحتبس صوت باستيان . واضطر إلى أن يحاول مرتين قبل أن يستطيع مواصلة الحديث . ــ « إننى أفكر ، يا أتريو ، أنك أنت الذى أحضرتنى إلى الإمبراطورة الطفولية . وأنا أفكر فى غناء فخور فى أمْرجانْت . ولذلك أريد أن أهبكما حياتكما ، حياة لص ، ومساعده ، افعلا ما تريدان بها . ولكن أُغربا عنى أبعد ما تستطيعان ، ولا تتجاسرا مرة أخرى أبدا على المثول أمام عينى . إننى أنبذكما إلى الأبد . إننى لم أعرفكما أبدا ! » وأشار لهيكريون برأسه أن يفك قيود أتريو ، ثم استدار وجلس مرة أخرى . ووقف أتريو فترة طويلة دون أن يتحرك ، ثم ألقى نظرة على باستيان ، وكان يبدو أنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه غير فكره بعد ذلك . وانحنى إلى فخور وهمس له شيئا . وفتح تنين الحظ عينه وانتصب . وقفز أتريو على ظهره ، وارتفع فخور فى الهواء . وطارا مباشرة إلى سماء الصباح المتزايد الضياء باستمرار ، وبرغم أن حركاته كانت ثقيلة ومتعبة ، فقد اختفى فى البعد فى لحظات قليلة .

ونهض باستيان وذهب إلى خيمته . وألقى بنفسه على المخدع .

وقال صوت ناعم خفى : « لقد حققت الآن عظمة حقيقية ، والآن لم يعد هناك شىء له اعتبار لديك ، ولم يعد أى شىء يستطيع اللحاق بك . »

واعتدل باستيان . لقد كانت كسايده هى التى تكلمت . وكانت تقبع فى أظلم ركن من الخيمة . وسأل باستيان : « أهذا أنت ؟ كيف دخلت إلى هنا ؟» وابتسمت كسايده .

ـ بالنسبة لى ، يا سيدى ومعلمى ، لا يوجد حراس يستطيعون منعى . أمرك فقط يستطيع ذلك . أتأمرنى بالانصراف ؟»

ورقد باستيان ثانية وأغلق عينيه مرة أخرى . وبعد برهة تمتم قائلا :

ـ « سيان عندى . ابقى أو اذهبى . »
وتطلعت إليه وقتا طويلا من تحت جفون مسدلة . ثم استفهمت قائلة :
ـ « وفيم تفكر ، سيدى ومعلمى ؟»
واستدار باستيان بعيدا عنها ولم يجب .

وكان واضحا لكسايده أنه لا يجوز لها الآن أن تتركه لنفسه بأى حال من الأحوال . لقد كان قريبا من أن يفلت من يديها . وكان عليها أن تواسيه وتسرى عنه ـ بطريقتها . لقد كان عليها أن تجعله يواصل الطريق الذى رسمته له ـ ولنفسها . وهذه المرة لن يمكن للأمر أن يتم بهدية سحرية أو بخدعة بسيطة . كان عليها أن تلجأ إلى وسائل أشد قوة . إلى أقوى ما بيدها ، وإلى أكثر أمانى باستيان خفية .
فجلست إلى جواره وهمست فى أذنه :
ـ « متى ، سيدى ومعلمى ، تنوى الرحيل إلى برج العاج ؟»

فقال باستيان ووجهه فى وسائده : « لست أدرى ، ماذا بقى لى هناك ، اذا لم تكن طفلة الاقمار هناك ، لست أدرى على الاطلاق ماذا ينبغى على أن أفعله الآن . »

ـ « بإمكانك أن ترحل إليه لكى تكون فى انتظار الإمبراطورة الطفولية هناك . »
واتجه باستيان إلى كسايده .

ـ «أتعتقدين أنها ستعود ؟» واضطر أن يكرر سؤاله مرة أخرى بإلحاح أكثر قبل أن تجيبه كسايدة بتردد

ـ « لا أعتقد ، أظن أنها غادرت فانتازين إلى الأبد وأنك خليفتها ، سيدى ومعلمى . » وانتصب باستيان ببطء . ونظر فى عينى كسايده ذات اللونين ،

واستغرق الأمر برهة من الزمن إلى أن أدرك تماما ، ما قالته له .

واندفع قائلا : « أنا ؟» وظهرت على خديه بقع حمراء .

فهمست كسايده : « أتفزعك هذه الفكرة حدا هكذا ؟ لقد منحتك علامة تفويضها . لقد عهدت إليك بمملكتها . وسوف تكون من الآن الإمبراطور الطفولى ، يا سيدى ومعلمى . وهذا هو حقك السليم . فأنت لم تنقذ فانتازين فقط التى أتيت اليها ، بل إنك أبدعتها منذ ذلك الوقت . نحن جميعا ــ وأنا نفسى أيضا ــ لسنا سوى خلائقك . أنت العارف العظيم ، فلماذا يفزعك اذن أن تتولى السلطة العليا الجديرة بك بعد كل هذا ؟»

وبينما أخذت عينا باستيان تلمع فى حمى باردة متزايدة ، قصت له كسايده عن فانتازين جديدة ، عن عالم يمكن تشكيله حتى جميع تفاصيله طبقا لهوى باستيان . وفيه يستطيع أن يخلق ويبيد طبقا لمطلق إرادته ، وحيث ينبع كل مخلوق من إرادته وحدها . سواء كان طيبا أم شريرا ، جميلا أم قبيحا ، أبلها أم حكيما ، وهو معتلٍ عرشه مترفعا فوق كل شىء ولا يمكن سبر أغواره ، ويقود المصائر فى حركة أزلية .

وأخيرا ختمت قولها : « حينئذ فقط تكون حرا حقا ، حرا من كل ما يضيق عليك ، حرا فى أن تفعل ما تريد . ألم تكن تريد أن تعثر على رغبتك الحقيقية ؟ ها هى ذى !» وفى نفس الصباح فُك المخيم ، وارتحل الركب المكون من عدة آلاف رأس ، بقيادة باستيان وكسايده فى الهودج المرجانى إلى برج العاج . وسار موكب يكاد لا ينتهى عبر الطرق الملتوية لحديقة التيه . وعندما وصلت مقدمته إلى برج العاج فى المساء تقريبا ، كان آخر من بالمؤخرة قد تخطى بالكاد الحد الأقصى لحديقة الزهور

وكان الاستقبال الذى أعد لباستيان من الحفاوة بقدر ما كان يستطيع أن يتمناه لنفسه . وخرج كل من ينتمى إلى حاشية الإمبراطورة الطفولية . وعلى جميع أطراف الأسوار والأسطح وقف حراس من الجن بأبواق لامعة وينفخون بما تسمح به رئاتهم . وعرض الحواة فنونهم وأنبأ المنجمون بحظ باستيان السعيد وعظمته ، وخبز الخبازون التورتات عالية كالجبال ، وسار الوزراء ، والأكابر إلى جوار الهودج المرجانى ورافقوه من خلال زحمة الجمهور إلى أعلى الشارع الرئيسى الذى يمتد فى شكل حلزونى يزداد ضيقا على الدوام من حول برج العاج ذى الشكل المخروطى ،

وحتى هناك حيث تؤدى البوابة الكبيرة إلى داخل الجزء الفعلى للقصر . وصعد باستيان ، تتبعه كسايده وجميع الأكابر ، درجات السلم العريض البيضاء كالثلج ، واستمر يسير من خلال جميع القاعات والممرات ، ومن خلال البوابة الثانية ، مستمرا فى الارتفاع إلى أعلى ، من خلال الحديقة التى بها حيوانات وزهور وأشجار من العاج ، عبر الجسور الملتوية ومن خلال البوابة الأخيرة . لقد كان يريد الذهاب إلى ذلك الكشك الذى يكوّن قمة البرج العملاق والذى كان له شكل إحدى زهور المانوليا . ولكن اتضح أن الزهرة مغلقة ، وأن جزءاً من الطريق ، المؤدى اليها بأعلى ، أملس ومنحدراً لدرجة أنه لم يكن بإمكان أحد الصعود إلى أعلى .

وتذكر باستيان أن حتى أتريو الذى كان مصابا بجروح بالغة لم يستطع فى ذلك الوقت الوصول إلى أعلى ، وعلى كلٍ ليس بقوته الذاتية ــ لأن لا أحد جاء مرة إلى أعلى ، يعرف كيف نجح فى ذلك ، فلابد أن يوهب ذلك للمرء . ولكن باستيان لم يكن أتريو . إذا كان لفرد أن يهَب كتفضل منه هذا الجزء الأخير من الطريق ابتداء من الآن ، فهو هذا الفرد . ولم يكن فى نيته أن يسمح باعاقته الآن على طريقة .

وأصدر أمره قائلا : « احضروا عمالا . عليهم أن يحفروا درجات فى السطح الأملس أو أن يبنوا سلما أو أن يختلقوا أى شىء آخر . لأننى أرغب اتخاذ مقر سكنى هناك بأعلى . »

وتجاسر أحد أكبر المستشارين سنا على الاعتراض قائلا : « هناك بأعلى تسكن سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية عندما تكون بيننا . »

فصرخ به باستيان آمرا : « افعلوا ما آمركم به ! »

وشحبت وجوه الأكابر وتراجعوا من أمامه . ولكنهم أزعنوا . واستُدعى الحرفيون ، الذين توجهوا للعمل بمطارق وأزاميل ثقيلة . ولكن على قدر ما أنهكوا أنفسهم فلم ينجحوا فى كسر حتى أصغر قطعة من قمة الجبل . وكانت الأزاميل تقفز من أياديهم ولم يُخلِّف ولو خدش فى السطح الأملس .

فقال باستيان وهو ينصرف غاضبا : « اخترعوا أى شىء اخر . لأننى أريد الصعود إلى هناك بأعلى . ولكن فكروا فى أن صبرى يمكن أن ينفذ قريبا . »

ثم عاد ووضع يده مؤقتا على الغرف الباقية لدائرة القصر ، ومعه حاشيته التى كانت تنتمى إليها كسايده بوجه خاص والسادة الثلاثة هيزبالد وهيكريون وهيدورن وكذلك علوان ، الجنى الأزرق .

وفى نفس الليلة أيضا إستدعى جميع الأكابر والوزراء والمستشارين الذين كانوا فيما مضى يخدمون الإمبراطورة الطفولية ، إلى اجتماع عُقد فى تلك القاعة المستديرة الكبيرة التى انعقد بها مؤتمر الأطباء فى الماضى القديم . وأخبرهم أن سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية قد تركت له ، هو باستيان بلتازار بوكس ، كل السلطة على المملكة الفانتازية اللآنهائية وأنه سيأخذ مكانها ابتداء من الآن . وطالبهم أن يبايعوه على الخضوع الكامل تحت إرادته .

قال : « وكذلك وبالذات إذا ما كانت قراراتى غير مفهومة أحيانا بالنسبة لكم . لأننى لست كواحد منكم »

ثم أكد أنه ينوى تتويج نفسه بعد ذلك بسبع وسبعين يوم بالضبط إمبراطورا طفوليا لفانتازين . وسيكون احتفال بفخامة لم يكن له مثيل فى فانتازين نفسها من قبل أبدا . ولابد من إيفاد الرسل فورا إلى جميع البلدان ، لأنه يرغب فى أن يبعث كل شعب من المملكة الفانتازية ممثلا عنه لاحتفال التتويج .

وبذلك انسحب باستيان وترك المستشارين والأكابر الحيارى وحدهم . ولم يعرفوا كيف يتصرفون . وكل ما سمعوه كان له وقع كريه ، لدرجة أنهم وقفوا صامتين لوقت طويل وقد كمشوا رؤوسهم . ثم بدأوا يتباحثون بصوت خافت . وبعد مشاورة استغرقت ساعات اتفقوا على أن يذعنوا لتعليمات باستيان ، لأنه على كل يحمل علامة الإمبراطورة الطفولية ، وهذا يوجب عليهم الطاعة ـ وإذا كانوا يعتقدون الآن أن طفلة الأقمار قد تنازلت فعلا لباستيان عن جميع السلطات أو إذا كان هذا الأمر كله ليس إلا أحد قراراتها غير المفهومة مرة أخرى . وهكذا بُعث الرسل ، وكذلك نُفّذ كل شىء آخر أمر به باستيان .

ولكنه هو نفسه لم يعد يهتم بذلك . فقد عهد لكسايده بجميع تفاصيل تجهيز حفل التتويج . وقد استطاعت أن تشغل الحاشية ببرج العاج ـ لدرجة أن أحداً لم يتمكن من التفكير تقريبا .

وجلس باستيان نفسه أثناء الأيام والأسابيع التالية غالبا بلا حراك فى مخدعه الذى اختاره . وكان يحملق فى الفضاء ولا يفعل شيئا . وكان يود أن يتمنى لنفسه أى شىء أو أن يختلق قصة تسليه ، ولكن لم يعد يخطر بباله شىء . فقد أحس أنه فارغا وأجوفا .

وهكذا فقد خطر أخيرا بباله فكرة أنه يستطيع أن يستدعى طفلة الأقمار بالأمانى . وإذا كان هو حقا قادرا على كل شىء ، وإذا كانت كل أمانيه تصبح حقيقة واقعة فلابد وأن تطيعه هى أيضا . وجلس لمنتصف عدة ليال ويهمس لنفسه : « طفلة الأقمار ، احضرى . يجب أن تحضرى . » وفكر فى نظرتها التى كَمِنَت فى قلبه ككنز منير . ولكنها لم تأت . وكلما أزاد من محاولته إرغامها على الحضور كلما ازداد انمحاء تذكّره لذلك النور فى قلبه ، إلى أن عم الظلام التام فيه .

وأقنع نفسه أنه سيعثر على كل شىء مرة أخرى عندما يجلس فى كشك زهرة المانوليا .

وكان يذهب باستمرار إلى العمال ويحثهم . تارة بالتهديدات وتارة بالوعود ، ولكن كل ما فعلوه أثبت عدم جدواه . فقد تحطمت السلالم وانثنت المسامير الصلب وتكسرت الأزاميل .

السادة هيكريون وهيزبالدو هيدورن الذين كان باستيان يحب أن يتسامر معهم أحيانا أو أن يمارس معهم ألعابا ما ، لم يعودوا يصلحون لشىء إلا نادرا . فقد اكتشفوا فى أسفل طوابق برج العاج قبوا للنبيذ . فكانوا يجلسون هناك بالنهار والليل ويشربون ويلعبون النرد ويجأرون بأغان سخيفة أو يتشاجرون ، ولم يكن نادراً أنهم سحبوا السيوف ضد بعضهم أيضا أثناء ذلك . وأحيانا ما كانوا يجوبون الشارع الرئيسى مترنحين كذلك ويعاكسون الجنيات والعفاريت وحاملات الدروع وكائنات نسائية أخرى بالبرج .

وكانوا يقولون عندما يحاسبهم باستيان : « ماذا تريد ياسيدى . لابد أن تعطينا شيئا نفعله . » ولكن لم يخطر ببال باستيان شىء ، وعشّمهم فيها بعد التتويج بالرغم من أنه هو نفسه لم يكن يعرف ما سوف يتغير عن طريقه .

وتزايد الطقس كآبة باستمرار أيضا شيئا فشيئا . وتزايدت على الدوام نـدرة مرات غروب الشمس التى كانت تبدو كالذهب المنساب . وغالبا ما كانت السماء معتمة ومغطاة بالسحب ، وأصبح الهواء خانقا . ولم يعد أى ريح يتحرك .

وهكذا اقترب ببطء اليوم المحدد للتويج .

وعاد الرسل المبعوثون . كثير منهم أحضر معه مندوبين من شتى بلاد فانتازين .

ولكن بعضهم عادوا كذلك خائبين ، وأخبروا أن الأقوام الذين أُرسلوا إليهم ، قد رفضوا دون تردد الاشتراك فى المراسم . وأن هناك بوجه عام فى بعض المناطق ثورات سرية أو علنية تماما .

ونظر باستيان بجمود إلى الفضاء أمامه .

وقالت كسايده : « سوف تقضى نهائيا على كل ذلك عندما تكون إمبراطـور فانتازين . »

فقال باستيان : « أرغب فى أن يريدوا ما أريد . »

ولكن كسايدة كانت قد أسرعت بالابتعاد لكى تعطى تعليمات جديدة .

وبعد ذلك جاء يوم التتويج الذى لن يتم ، بل الذى دخل تاريخ فانتازين كيوم المعركة الدامية حول برج العاج .

ففى الصباح غطت السماء طبقة سميكة رمادية بلون الرصاص من السحاب ، التى لم تجعل ضوء النهار يبدو بالفعل . وقبع ضوء أغبش مخيف فوق كل شىء . والهواء كان ساكنا تماما وثقيلا ومقبضا لدرجة لا يمكن استنشاقه تقريبا .

وأعدت كسايده بالتعاون مع الأربعة عشر رئيسا لتشريفات برج العاج برنامج حفل غاية فى الثراء كان سيفوق فى الفخامة والتكاليف الباهظة كل ما كان موجودا فى فانتازين من قبل .

وعزفت الموسيقى منذ ساعات الصباح المبكرة فى كل الشوارع والميادين ، ولكنها كانت موسيقى لم تُسمع أبدا حتى هذا اليوم فى برج العاج : صاخبة وصارخة وعلى

وتيرة واحدة برغم ذلك . وكل من سمعها راح يهز أقدامه ، وتحتم عليه أراد أو لم يرد ، أن يرقص ويقفز . ولم يكن أحد يعرف العازفين ، الذين كانوا يرتدون أقنعة سوداء ولم يعرف أحد من أين أحضرتهم كسايده .

وازدانت جميع المبانى وواجهات المنازل بأعلام ورايات صغيرة زاهية الألوان ، كانت تتدلى مرتخية لعدم هبوب الرياح . وعلى طول الشارع الرئيسى وحول السور العالى لدائرة القصر وُضعت صور لا تحصى ، صغيرة وهائلة الحجم ، وكلها تبين نفس الوجه ، وجه باستيان ، مراراً وتكراراً ، مراراً وتكراراً .

ونظراً لأن كشك زهرة المانوليا لم يزل بعيد المنال ، فقد أعدت كسايده مكاناً آخر لاعتلاء العرش . فهناك حيث ينتهى الشارع الرئيسى الحلزونى أمام البوابة الكبيرة فى سور القصر ، كان سيوضع العرش على الدرجات العريضة المصنوعة من العاج . وتصاعد الدخان من آلاف المباخر ، والدخان الذى كان لرائحته تأثير مخدر ولكن مثير فى نفس الوقت ، كان ينساب ببطء إلى أسفل على الدرجات والميدان والشارع الرئيسى ، ويقتحم جميع الأزقة الجانبية والأركان والغرف .

وفى كل مكان كان يقف العمالقة السود فى دروعهم الحشرية ، لا أحد غير كسايده نفسها تعرف كيف تمكنت من مضاعفة الخمسة المتبقين ، إلى مئات . وليس هذا فحسب : فقد جلس حوالى خمسون منهم على أحصنة قوية مصنوعة كلها أيضا من معدن أسود وتتحرك تحركا متماثلا تماما .

ورافق هؤلاء الفرسان كرسى عرش فى موكب للنصر بامتداد الشارع الرئيسى . ولم يعرف أحد من أين أتى . وكان ضخما كبوابة كنيسة ومصنوعا بالتمام والكمال من مرايا من كل شكل وحجم . وكانت حشية الجلوس فقط مصنوعة من حرير نحاسى اللون . ومن الغريب أن هذا الشىء الهائل اللامع كان ينساب من تلقاء نفسه ببطء إلى أعلى الشارع الحلزونى دون أن يُدفع أو يجذب ، تماما كما لو كانت له حياة خاصة به .

وعندما توقف أمام بوابة العاج الكبيرة ، خرج باستيان من دائرة القصر واتخذ مجلسه عليه . وبدا منظره ضئيلا فى صغر حجمه كدمية ، عندما جلس حينئذ هناك

وسط كل هذا البهاء البراق البارد . وانطلق جمهور المشاهدين الذين كان يكبحهم صفّان من العمالقة السود المدرعين ، فى هتاف ، لكن رنينه كان خاويا وحادا بطريقة لا يمكن تفسيرها .

وبعد ذلك بدأ أكثر أجراء الاحتفال مللا وتعبا . جميع رسل ومندوبى المملكة الفانتازية كان عليهم أن يصطفوا فى طابور وراء بعضهم . وهذا الطابور لم يصل من عرش المرايا إلى أسفل الشارع الرئيسى الحلزونى كله فقط ، بل إلى بعيد وبعيد إلى داخل حديقة التيه ، وكان يلتحق باستمرار وافدون جدد بخلفية الطابور . وكل فرد يأتى عليه الدور ، يجب أن يسجد أمام العرش ويلمس الأرض بجبهته ثلاث مرات ويقبل قدم باستيان اليمنى ويقول : « باسم شعبى ، وأبناء جنسى ، نرجوك أنت ، يا من نُدان كلنا لك بوجودنا أن تتوج نفسك إمبراطورا طفوليا لفانتازين » .

وكانت قد مرت ساعتان أو ثلاث على هذا النحو ، عندما سرى اضطراب مفاجىء من خلال صفوف المنتظرين . وجاء عفريت شاب ذو أرجل كبش منطلقا من الشارع ، وشوهد أنه كان يعدو بآخر قواه ، لأنه ترنح وسقط ، وكان يستجمع قواه بين وقت وآخر ويستمر فى الجرى إلى أن ارتمى أمام باستيان وهو يجاهد من أجل تنفس الهواء . وانحنى باستيان إليه .

ــ « ماذا هناك ، لكى تجرؤ على تعطيل هذه المراسم ؟ » .

فاندفع العفريت ذو أرجل الكبش يقول : « حرب ، يا سيدى ! لقد جمع أتريو كثيرا من المتمردين وهو فى الطريق إلى هنا بثلاثة جيوش . إنهم يطالبون بأن تسلم آورين ، وإذا لم تفعل ذلك طواعية فهم ينوون أن يجبروك على هذا بالقوة » .

وفجأة ساد صمت القبور . فقد خرست الموسيقى المثيرة وصرخات الهتاف الحادة دفعة واحدة . ونظر باستيان أمامه بجمود . وأصبح لونه شاحبا .

ثم جاء كذلك السادة هيزبالد وهيكريون وهيدورن يجرون . وكانوا يبدون فى غاية المرح .

وصاحوا متداخلين : « أخيرا هناك شىء لنا نفعله ، يا سيدى ! دع لنا هذا ! ولا تزعج نفسك مطلقا فى احتفالك . إننا سننتقى عدة أناس مهرة ونزحف فى

مواجهة المتمردين . ولسوف نلقنهم درسا يفكرون فيه أمدا طويلاً » .

ومن بين الآلاف العديدة من مخلوقات فانتازين الحاضرين كان هناك البعض الذين لا يصلحون على الاطلاق للعمليات الحربية . ولكن الغالبية كانت تستطيع استعمال أى سلاح بوجه عام ، الهراوة ، السيف ، القوس ، الحربة ، المقلاع أو أيضاً بمجرد أسنانهم ومخالبهم ، وكل هؤلاء اجتمعوا حول السادة الثلاثة الذين قادوا الجيش .

وبينما هم يبتعدون ، بقى باستيان مع الزمرة الكبيرة لمن هم أقل قدرة على القتال لاستكمال المراسم . ولكنه ابتداء من ذلك الوقت لم يعد كامل الحضور . فقد سرحت عيناه مرارا إلى الأفق الذى استطاع أن يراه جيدا من مكانه . سحب هائلة من التراب تصاعدت هنا جعلته يشعر بأى قوة من الجيوش كان أتريو يتقدم من هناك .

وقالت كسايده التى تقدمت إلى جانب باستيان : « لا تشغل بالك ، فإن عمالقتى السود المدرعين لم يتدخلوا بعد . ولسوف يدافعون عن برجك العاجى ، ولا أحد يستطيع أن يقاومهم ـ سواك وسوى سيفك » .

وبعد ذلك بساعات قلائل وصلت أوائل أخبار المعركة . إلى جانب أتريو كان يقاتل كل شعب ذوى الجلود الخضراء تقريبا ، وكذلك ما يقرب من مائتى كنتاور ، وثمانية وخمسون من قلفصى الصخور ، وخمسة من تنين الحظ يقودهم فخور يقتحمون مجرى القتال من الجو على الدوام ، وزيادة على ذلك سرب من النسور العملاقة البيضاء التى أتت طائرة من جبال القدر ، وكثير جدا من الكائنات الأخرى . وحتى حيوانات وحيد القرن شوهدت أيضا .

صحيح أنهم من ناحية العدد أقل بكثير عن الجيش الذى يقوده كل من السادة هيكريون وهيزبالد وهيدورن ، ولكنهم كانوا يقاتلون بتصميم لدرجة أنهم قهقروا الجيش المقاتل من أجل باستيان على الدوام إلى ناحية برج العاج .

وأراد باستيان نفسه الخروج لكى يتولى قيادة جيشه ، ولكن كسايده أثنته عن ذلك .

وقالت : « تذكَّر ، سيدى ومعلمى ، أنه لا يليق بمقامك الجديد كإمبراطور لفانتازين أن تتدخل . دع ذلك لثقاتك ولا تبالى » .

واستمرت المعركة بقية النهار كله . ودافع جيش باستيان عن كل قدم من حديقة التيه دفاعا مستميتا ، وقد تحول إلى ميدان معركة دامٍ دهسته الأقدام . وعندما بدأ حلول الظلام ، كان أوائل المتمردين قد وصلوا إلى سفح برج العاج .

وحينئذ أرسلت كسايده عمالقتها المدرعين السود على خيول وبدون خيل ، وراحوا يعيثون بالرعب فى رجال أتريو المقربين .

ومن المستحيل إعطاء تقرير دقيق لهذه المعركة حول برج العاج ولذلك لابد من التغاضى عن ذلك هنا . فما زالت هناك حتى اليوم أغان وأنباء لا تحصى فى فانتازين عن هذا اليوم وهذه الليلة ، لأن كل من اشترك فيها قد عايش شيئا مختلفا . كل هذه قصص ، ربما ستُحكى فى مناسبة أخرى .

وتُقَرر بعض التصريحات أن واحداً أو حتى عديدا من السحرة البيض كانوا إلى جانب أتريو كذلك وقد كانوا ندا لقوى كسايده السحرية . ولا يُعرف شىء عن ذلك بالتأكيد . ربما فى ذلك تفسير لكيفية تمكُّن أتريو وأتباعه من النجاح فى غزو برج العاج رغم العمالقة المدرعين السود . لكن هناك سبب أكثر ترجيحا وهو : أن أتريو لم يكن يقاتل من أجل نفسه ولكن من أجل صديقه الذى أراد هو أن يهزمه لكى ينقذه .

وكان الليل قد حل منذ وقت طويل ، ليل خال من النجوم وملىء باللهيب والدخان . شعل واقعة على الأرض . ومباخر مقلوبة أو مصابيح مهشمة أشعلت الحريق فى البرج فى مواضع كثيرة . وجرى باستيان فى ضوء النيران المتراقصة بين المتقاتلين الذين ألقوا ظلالا كالأشباح . ومن حوله ضجيج السلاح وزئير القتال .

وصرخ بصوت مبحوح قائلا : «أتريو !» أتريو اظهر لى ! تقدم للقتال معى ! أين أنت ؟ » .

ولكن السيف سيكاندا قبع فى مغمده ولم يتحرك .

وانطلق باستيان من خلال جميع غرف دائرة القصر ، ثم جرى خارجا إلى السور

الكبير الذى كان هنا عريضا كالشارع ، وعندما أراد فى التو أن يجرى عبر تلك البوابة الخارجية الضخمة ، التى بأسفلها كان عرش المرايا ـ مهشما الآن إلى ألف من الشظايا ـ ، رأى أتريو يأتى إليه من الناحية الأخرى . وكان بيد أتريو سيف .

ثم وقفا أمام بعضهما البعض ، العين فى العين . ولم يتحرك سيكاندا . ووضع أتريو سن سيفه على صدر باستيان .

وقال : « أعطنى العلامة ، من أجل صالحك أنت » .

ورد باستيان صارخا : « أيها الخائن . أنت مخلوقى . لقد بعثت الوجود فى كل شىء . وفيك أيضا . أتريد أن تتجه ضدى ؟ اركع وارجُنى الصفح ! » .

فأجاب أتريو : «أنت مجنون ، إنك لم تخلق شيئا . إن كل شىء أنت مدان به للإمبراطورة الطفولية . أعطنى آورين !»

فقال باستيان : تعال خذه لنفسك ، إذا استطعت . »

وتردد أتريو .

وقال : «باستيان ، لماذا تجبرنى أن أهزمك لكى أنقذك ؟»

وجذب باستيان مقبض سيفه ، ونجح فعلا بقوته الهائلة أن يسحب سيكاندا من مغمده ، دون أن يقفز من تلقاء نفسه إلى يده . ولكن فى نفس لحظة حدوث ذلك سمع رنين صوت مرعب لدرجة أن المقاتلين حتى بأسفل فى الشارع أمام البوابة ظلوا واقفين كالمتجمدين للحظة ، ونظروا إليهما بأعلى . وعرف باستيان الصوت مرة أخرى . لقد كان الصرير المرعب الذى كان قد سمعه عندما تحول جرأ وجرمان إلى حجر . وانطفأ بريق سيكاندا . واندفع إلى رأسه ما أخبره الأسد إذا ما سحب هذا السلاح مرة بإرادته الخاصة . ولكنه الآن لم يعد يستطيع ولم يرغب فى الرجوع فى ذلك .

وانهال على أتريو الذى حاول أن يغطى نفسه بسيفه . ولكن سيكاندا قطع سلاح أتريو وأصاب صدره . وانشق جرح غائر وتدفق الدم خارجاً . وترنح أتريو إلى الوراء وسقط من البروز المسنن للبوابة الكبيرة إلى أسفل . فسرى لسان لهب

أبيض من سحابات الدخان من خلال الليل وتلقف أتريو أثناء سقوطه وانتزعه معه بعيدا . لقد كان فخور تنين الحظ .

ومسح باستيان بمعطفه العرق عن جبينه . وبينما هو يفعل ذلك لاحظ أن المعطف أصبح أسود اللون ، أسود كالليل ، ونزل من سور القصر إلى أسفل والسيف سيكاندا لايزال بقبضته ، وتقدم خارجا إلى الميدان الخالى .

وبالانتصار على أتريو تحول الحظ بالمعركة من لحظة إلى أخرى ، جيش المتمردين ، الذى كان النصر يبدو له مؤكدا منذ لحظة ، بدأ فى الهرب . وكان باستيان كمن فى حلم مخيف لا يستطيع اليقظة منه . وكان طعم النصر عنده مرا كعصارة المرارة ، ولكنه شعر فى نفس الوقت بنصر عارم .

ومشى ببطء وهو ملتف فى معطفه الأسود وفى قبضته السيف الدامى ، إلى أسفل الشارع الرئيسى لبرج العاج الذى كان يتأجج الآن فى لهيب النيران كشعلة هائلة . واستمر باستيان يمشى من خلال هدير وعويل اللهب الذى كاد ألاّ يشعر به ، إلى أن وصل إلى سفح البرج . وهناك صادف بقايا جيشه الذى كان ينتظره وسط حديقة التيه الخربة ــ التى أصبحت الآن ميدان مذبحة لا نهائى ملىء بأهل فانتازين القتلى ، وكان هناك أيضا هيكريون وهيزبالد وهيدورن ، وكلا الأخيرين مصابان بجروح شديدة . وعلوان الجنى الأزرق سقط فى الحرب . وكانت كسايده تقف عند جثته وتمسك بيدها الحزام جمّال .

وقالت : «هذا ، يا سيدى ومعلمى ، قد خلصه من أجلك »

وأخذ باستيان الحزام وضغط عليه بقبضته ثم أدخله فى جيبه .

ونظر حوله ببطء فى دائرة رفقاء قتاله وطريقه . ولم يتبق منهم غير بضع مئات وكان يبدو عليهم الإنهاك والدمار . والضوء المتراقص لشعاع النار جعلهم يبدون كشرذمة من الأشباح .

وتحول الجميع بوجوههم إلى ناحية برج العاج الذى كان يتهاوى أكثر وأكثر على الدوام كالركام . وتطايرت ألسنة اللهب من قمة كشك زهرة المانوليا ، وتفتحت أوراق زهرته باتساع ، وأمكن مشاهدة أنه كان خاليا . ثم ابتلعته النيران هو أيضا .

وأشار باستيان بسيفه على كومة الوهج والأطلال وقال بصوت متحشرج :

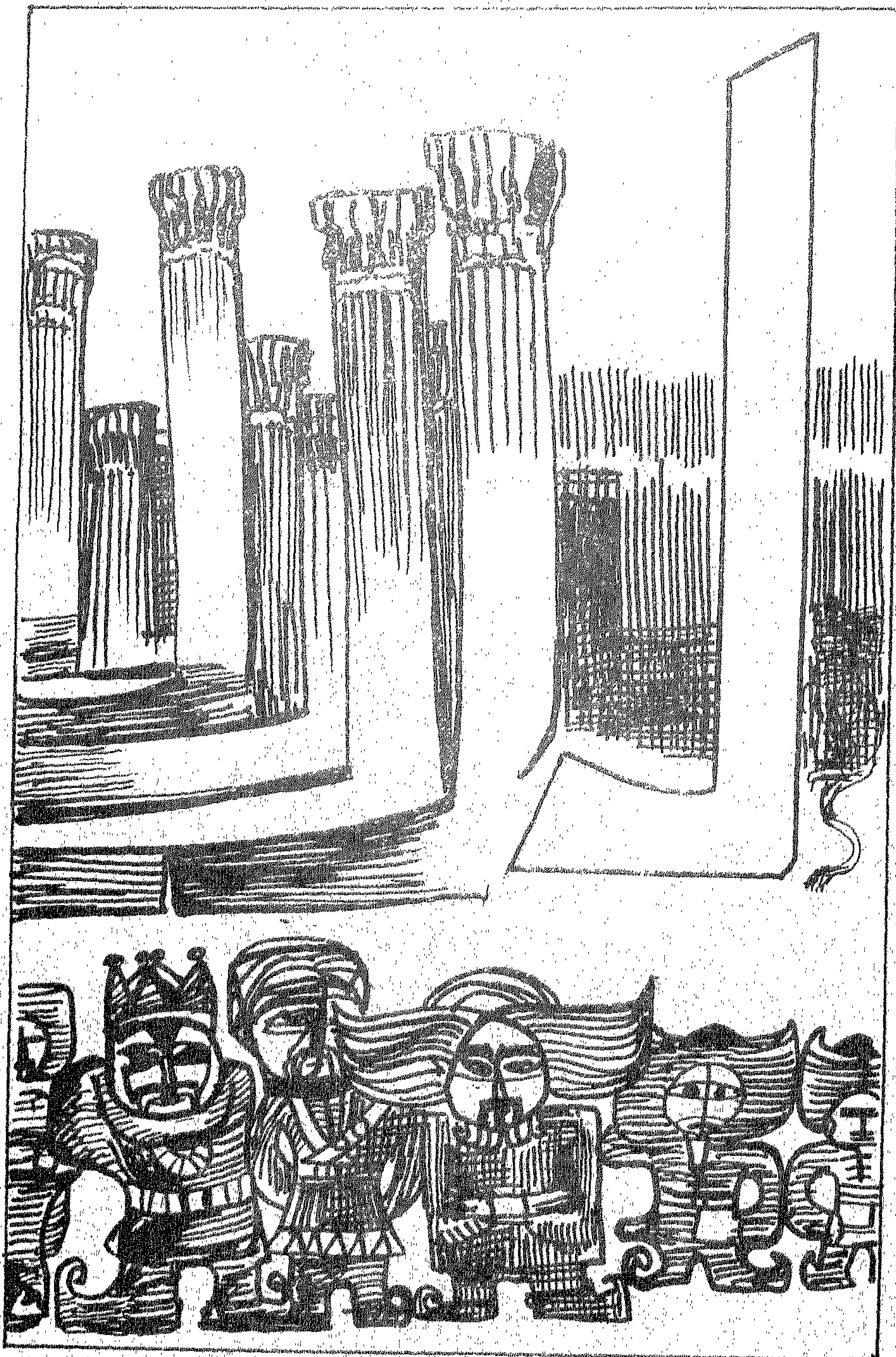
«هذا هو صنيع أتريو . ومن أجل ذلك أريد أن أتعقبه الآن حتى نهاية العالم . »

وامتطى صهوة فرس عملاق من المعدن الأسود وصرخ قائلا : «اتبعونى !»

وحَرَن الفرس ، ولكنه أرغمه بارادته وانطلق فى ركض سريع فى الليل .

٢٣

مدينة القياصرة القديمة



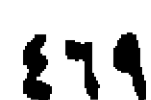
للرحيل تهيأ رفقاء القتال المتبقون فقط بينما كان باستيان ينطلق على بعد أميال خلال الليل الحالك . كثير منهم كان جريحا . وكلهم كانوا مجهدين غاية الإجهاد ، ولم يكن لدى أحد منهم القوة والجلد الذى لا حد له لباستيان ، ولا حتى بما يقاربها فقط . وحتى العمالقة السود المدرعون كانوا لا يتحركون بأفراسهم المعدنية إلا متثاقلين ، وأولئك الآخرون الذين كانوا يمشون على الأقدام لم يتمكنوا من إيجاد خطوتهم المنتظمة المعتادة . وكذلك إرادة كسايده ـ التى كانوا يقادون بواسطتها ـ بدت تبعا لذلك عند حدود قوتها . وراح هودجها المرجانى ضحية النيران أثناء حريق برج العاج . وهكذا صُنع من مختلف أنواع ألواح العربات والأسلحة المحطمة والبقايا المتفحمة من البرج هودج جديد كان يشبه بالأحرى كوخا بائسا . وبقية الجيش كانت تجر نفسها وهى تعرج وتجرجر أقدامها بالأرض . وحتى هيكريون وهيزبالد وهيدورن الذين فقدوا أحصنتهم اضطروا أن يتساندوا على بعضهم . ولم يتكلم أحدهم كلمة ولكنهم جميعا كانوا يعرفون أنه من المستحيل اللحاق بباستيان بالمرة .

وواصل انطلاقه الغاضب عبر الظلام ومعطفه الأسود يهفهف بشدة حول كتفيه والأجزاء المعدنية للحصان العملاق تحدث قعقعة وصعصعة مع كل حركة ، بينما تطرقع الحوافر القوية على الأرض .

وصرخ باستيان : «ها ! هيّا ، هيّا ، هيّا !»

فلم تكن السرعة كافية بالنسبة له .

لقد كان يريد أن يلحق بأتريو وفخور بأى ثمن ، حتى وإن اضطر إلى إهلاك هذا الوحش المعدنى الحصان مطيًّا .



لقد كان يريد الثأر . ففى تلك الساعة كان قد وصل إلى غاية أمانيه منذ وقت طويل ، ولكن أتريو أحبط ذلك . فلم يصبح باستيان إمبراطورا لفانتازين . وكان على أتريو أن يكفر عن ذلك تكفيرا شديدا ! وحثّ باستيان مطيته المعدنية بلا هوادة أكثر وازداد صوت طقطقة وصرير مفاصلها ارتفاعا باستمرار ، ولكنها أطاعت رغبة فارسها وأسرعت من ركضها المندفع .

واستمر هذا التسابق الضارى لساعات كثيرة دون أن ينجلى الليل . ورأى باستيان فى فِكْره دون انقطاع برج العاج المحترق أمامه ، وكان يستعيد دائما من جديد لحظة أن وضع أتريو السيف على صدره ـ إلى أن طرأ له سؤال لأول مرة : لماذا تردد أتريو ؟ ولماذا لم تطاوعه نفسه بعد كل ذلك أن يجرحه لكى يأخذ منه آورينْ بالقوة ؟ والآن تحتم على باستيان فجأة أن يفكر فى الجرح الذى أصاب به أتريو ، وفى منظره الأخير عندما ترنح متراجعا وهوى .

وأدخل باستيان سيكاندا فى مغمده الصدىء مرة ثانية والذى كان لا يزال يلوح به فى قبضته حتى الآن .

ولاح فجر الصباح ، فاستطاع شيئا فشيئا أن يرى أين هو ، لقد كانت أرضا خضراء تلك التى كان ينطلق فيها الحصان المعدنى فى ذلك الآن . وبدت الملامح المظلمة لمجموعات أشجار العرعر كجماعات ساكنة من الرهبان العمالقة يرتدون قلنسوات أو من السحرة ذوى قبعات مدببة الأطراف . ومن بينها كتل من الصخور المتناثرة .

ثم حدث على حين غرة تماما أن تفككت أجزاء الحصان المعدنى وسط ركضه السريع . وظل باستيان راقدا وهو مخدر من هول السقوط . وعندما استجمع قواه أخيرا مرة أخرى ودلّك أجزاء جسمه المصابة بالكدمات ، وجد نفسه فى أحراش أشجار العرعر المنخفضة . وتسلل خارجا منها . وكانت حطام الحصان ذات هيئة القشور موزعة على مساحة واسعة كما لو أنّ نُصب فارس قد انفجر .

ونهض باستيان وألقى معطفه الأسود على كتفيه ومشى بلا هدف ناحية أفق

الصباح المتزايد الضوء . وبقى فى أحراش أشجار العرعر(*) شىء لامع فقده هناك : الحزام جمّال . ولم يلاحظ باستيان شيئا من هذا الفقدان ولم يفكر أبدا فيه فيما بعد . لقد كان إنقاذ علوان للحزام من النيران بلا فائدة تماما .

وبعد ذلك بعدة أيام عثر طائر العقعق(**) على جمّال ، والذى لم يكن يدرى ما هى أهمية ذلك الشىء اللامع . فحمله إلى عشه ، ولكن بذلك بدأت قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

وفى وقت الظهيرة تقريبا أتى باستيان إلى سدّ مرتفع يمتد عبر الطبيعة ذات المروج فتسلقه . ومن خلفه كان قاع وادٍ واسع ، له شكل فوهة بركان منبسطة ـ تميل بعمق متزايد ناحية الداخل . وكل هذا الوادى كان مملوءا بمدينة ـ وعلى كل حال فقد أوحت مجموعة المبانى بهذه التسمية ، برغم أنها كانت أكثر المدن التى رآها باستيان من قبل جنونا . جميع المبانى بدت فى هرج ومرج بلا تخطيط ولا هدف ، كما لو كانت قد سُكبت هناك من جوال عملاق . فلم تكن هناك شوارع ولا ميادين ولا أى نظام واضح .

ولكن المبانى الفردية أيضا كان منظرها جنونيا ، باب المنزل فى سقفه ، والسلالم هناك حيث لا يمكن لأحد الوصول إليها ، أو كذلك تلك التى لا يمكن للمرء دخولها إلا ورأسه إلى أسفل ، والتى تنتهى فى الهواء الخالى : أبراج صغيرة تقف بميل ، وشرفات معلقة رأسيا على الجدارن ، نوافذ بدلا من الأبواب . أرضيات بدلا من الأسوار . وكانت هناك جسور تنتهى تقوساتها المتعرجة فجأة فى أى مكان ، كما لو أن بانيها قد نسى وسط عمله فجأة ما سيكون عليه كل هذا . هناك أبراج تبدو مقوسة كأصابع الموز ، وأهرامات موضوعة على طرفها المدبب ، باختصار ، هذه المدينة كانت تعطى انطباعا بالجنون .

وبعد ذلك رأى باستيان السكان . وكانوا رجالا ونساء وأطفالا . وكانوا يبدون

(*) العرعر Wacholder نبات ذو أوراق إبريّة .

(**) العقعق Elster طائر من فصيلة الغربان اشتهر بالسرقة وكثرة النعيق ، ولذلك أصبح رمزاً لحب السرقة وكثرة الثرثرة .

من ناحية الشكل عاديين ، ولكن ملابسهم كانت تبدو كما لو أصبحوا جميعا مجانين ، ولم يعودوا يستطيعون أن يفرقوا بين الأشياء التى تُلبس والأشياء التى تخدم غرضا آخرا . فكانوا يرتدون على رؤ وسهم برانيط مصابيح أو جرادل رمل صغيرة أو سلاطين شربة ، سلال مهملات ، قراطيس أو عُلب . ومن حول أجسامهم تتدلى مفارش مائدة ، أو سجاجيد ، أوقطع كبيرة من الورق المفضض أو حتى براميل .

كثير منهم كان يجر عربات يد أو مركبات مرصوص عليها كل ما يمكن من الأمتعة المهملة ، مصابيح مكسورة ، مراتب ، أوان ، هلاهيل ومهملات حُلِيّ لامعة . وآخرون يجرون أيضا مهملات مشابهة فى بالات هائلة على ظهورهم .

وكلما توغل باستيان أكثر فى المدينة ازداد التزاحم كثافة . وبالرغم من ذلك بدا أن لا أحد من الناس كان يعرف بحق إلى أين يريد . ولاحظ باستيان مرارا أن أحدهم يشد عربته التى كان يجذبها إلى اتجاه ما ، ومرة أخرى إلى الاتجاه المعاكس ، لكى يسلك بعد ذلك بقليل اتجاها جديدا مرة أخرى . ولكنهم جميعا كانوا فى نشاط دائب .

وقرر باستيان أن يخاطب أحدهم .

- «ما اسم هذه المدينة ؟»

وترك المخاطَب عربته ، واعتدل ، وحكّ جبهته فترة من الزمن كما لو كان يجهد التفكير ثم ابتعد وترك عربته ببساطة . ويبدو أنه نسيها . ولكن بعد ذلك بدقائق قليلة استولت امرأة على المركبة وسحبتها بمجهود إلى ناحية ما . وسألها باستيان إذا كانت المهملات تخصها . فوقفت المرأة برهة غارقة فى تفكير عميق ، ثم انصرفت .

وجرب باستيان ذلك عدة مرات ، ولكنه لم يتلق إجابة عن سؤ ال واحد .

وفجأة سمع صوتا ضاحكا يقول : «لا جدوى من سؤ الهم ، فلم يعد باستطاعتهم أن يقولوا لك شيئا . فمن الممكن تسميتهم بالذين لا يقولون شئيا»

واستدار باستيان ناحية الصوت ، ورأى قردا صغيرا رمادى اللون يجلس على نتوء فى أحد الأسوار ، (والذى كان هو الجانب الأسفل لأحد المبانى البارزة الذى كان يقف معكوسا) . وكان الحيوان يرتدى على رأسه قبعة حامل لقب دكتور ، والتى كان

يتأرجح منها زر ، وبدا أنه مشغول بانهماك بالعد على أصابع قدميه . ثم ابتسم بشماتة إلى باستيان وقال :

- «معذرة ، لقد حسبت بسرعة شيئا لنفسى .»

فسأل باستيان : «من أنت ؟»

فأجاب القرد الصغير وهو يرفع قبعة الدكاترة : « اسمى أرجاكس ، تشرفنا جداً ، ومع من لى السرور بالحديث ؟ »

ـ « اسمى باستيان بلتازار بوكس »

فقال القرد الصغير برضاً : «تمام !»

فاستفسر باستيان قائلا : «وما اسم هذه المدينة ؟»

فشرح أرجاكس قائلا : «ليس لها اسم فى الحقيقة . ولكن يمكن تسميتها ـ فلنقل ـ مدينة القياصرة القديمة»

فكرر باستيان القول مضطربا : «مدينة القياصرة القديمة ؟ لماذا ؟ إننى لا أرى هنا أحد يبدو كقيصر قديم .»

وضحك القرد الصغير وقال : « أصحيح لا ؟ ولكن جميع من تراهم هنا كانوا ـ أو على الأقل أرادوا أن يصبحوا فى زمنهم قياصرة فانتازين » .

وذُعر باستيان .

ـ « من أين تعرف ذلك ، يا أرجاكس ؟»

ورفع القرد قبعة الدكترة مرة أخرى وابتسم بشماتة .

ـ « إننى ـ فلنقل ـ المشرف على هذه المدينة » .

ونظر باستيان حوله ، وعلى مقربة شديدة كان رجل قد حفر حفرة . ووضع فيها الآن شمعة مشتعلة وردم الثقب ثانية .

وضحك القرد الصغير :

ـ «أتحب أن تقوم بجولة صغيرة لمشاهدة المدينة ، يا سيدى ؟ فلنقل ـ أول تعارف تُجريه على مقر سكنك المستقبل ؟»

فقال باستيان : «كلا ، على ما تتحدث ؟»

وقفز القرد الصغير على كتفه .

وهمس قائلا : «تعال ، إن هذا لن يكلف شيئا ، فقد دفعت كل ما يعطيك الحق فى الدخول .»

وبدأ باستيان يمشى بالرغم من أنه كان يفضل الابتعاد فى الواقع . وكان يشعر بعدم الراحة ، وازداد هذا الشعور مع كل خطوة . وتطلع إلى الناس ولفت نظره أنهم أيضا لا يتحدثون مع بعضهم . ولم يكونوا يكترثون ببعضهم على الإطلاق ، بل ويبدو أنهم حتى لم يكونوا يرون بعضهم .

وقال باستيان مستفسرا : «ماذا دهاهم ؟ لماذا يتصرفون على هـذا النحو من الغرابة ؟»

وضحك أرجاكس فى أذنه قائلا : « ليس غريبا ، إنهم مثلك ، ويمكن القول ، أو بمعنى أفضل ، إنهم كانوا هكذا فى زمنهم .»

وظل باستيان متوقفاً وقال : «ماذا تقصد بذلك ؟ أتريد أن تقول إنهم بشر ؟» وتقافز أرجاكس من السرور إلى أعلى وإلى أسفل على ظهر باستيان وقال : «هو ذلك . هو ذلك !»

ورأى باستيان امرأة تجلس وسط الطريق ، تحاول أن تلتقط حبوب البازلاء بابرة رفـاء من طبق .

وسأل باستيان : ««كيف أتوا إلى هنا ؟ وماذا يفعلون هنا ؟»

فقال أرجاكس مفسرا : «أوه ، لقد كان يوجد فى جميع الأزمنة بشرا لم يعثروا على طريق العودة إلى عالمهم . وفى بادىء الأمر لم يعودوا يرغبون ، والآن ــ فلنقل ــ لم يعودوا يستطيعون .»

وتابع باستيان بنظره فتاة صغيرة تدفع بمجهود بالغ عربة عرائس ذات عجلات مربعة الشكل .

وسأل باستيان : «لماذا لم يعودوا يستطيعون ؟»

ـ «كان عليهم أن يتمنوا ذلك . ولكنهم لم يعودوا يتمنوا شيئا . فقد استخدموا آخر أمنياتهم فى أى شىء آخر . »

فسأل باستيان بشفتين شاحبتين : «أمنيتهم الأخيرة ؟ أفلا يستطيع المرء أن يواصل التمنى طالما يريد ؟»

وكركر أرجاكس ضاحكا مرة أخرى . وحاول الآن أن يخلع عن باستيان عمامته لكى يفلّيه .

فصاح باستيان : «دع هذا . » وحاول أن ينفض عنه القرد ولكنه تشبث وصرخ من السرور .

وزمجر قائلا : « دع ذلك ! إنك تستطيع التمنى فقط طالما تتذكر عالمك . هؤلاء الموجودون هنا قد أنفقوا جميع ذكرياتهم . ومن لم يعد له ماض ، ليس له مستقبل أيضا . ولهذا فهم لا يكبرَون سنا كذلك . انظر إليهم . هل سوف تعتقد أن بعضهم هنا منذ ألف سنة وحتى أكثر ؟ ولكنهم سيظلون على ما هم عليه . بالنسبة لهم لم يعد شىء يستطيع أن يتغير لأنهم هم أنفسهم لم يعودوا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم » .

وشاهد باستيان رجلا يغطى مرآة برغاوى صابون ثم راح يحلقها . وما ظهر له فى باديء الأمر مضحكا ، اقشعر له بدنه الآن .

وواصل سيره بسرعة وأدرك الآن فقط أنه يزداد توغلا فى المدينة باستمرار . وأراد أن يعود أدراجه ، ولكن شيئا ما جذبه إلى هناك كالمغناطيس . وبدأ يجرى ويحاول أن يتخلص من القرد الرمادى المزعج ، ولكنه جلس متشبثا كالقُرادة ، وكان يحثه فوق ذلك : « أكثر سرعة ! هوب ! هوب ! هوب ! »

وأدرك باستيان أنه لا فائدة مما يفعله وتوقف .

وسأل وهو مقطوع النفس : « وكل هؤلاء هنا كانوا مرة أو أرادوا أن يصبحوا قياصرة فانتازين ؟»

فقال أرجاكس : « واضح ، كل من لا يعثر على طريق العودة ، يريد إن عاجلا أو آجلا أن يصبح إمبراطورا . ولم يحقق كل فرد ذلك ، ولكنهم جميعا كانوا يريدون . ولذلك فهناك نوعان من المجانين هنا . ولكن النتيجة ـ يمكننا أن نقول ـ واحدة » .

ـ « أى نوعين ؟ اشرح لى ! لابد أن أعرف يا أرجاكس !»

وضحك القرد واحتوى رقبة باستيان أكثر إحكاما : « بهدوء ! بهدوء ! مجموعة أنفقوا ذكرياتهم بالتدريج . وعندما فقدوا الأخيرة لم يستطع آورين أيضا أن يحقق لهم مزيدا من الأمانى . وبعد ذلك ـ فلنقل ـ جاءوا إلى هنا بأنفسهم تماما . والآخرون الذين جعلوا من أنفسهم قياصرة ، فقدوا أثناء ذلك جميع ذكرياتهم دفعة واحدة . ولذلك لم يستطع آورين أيضا أن يحقق لهم المزيد من الأمانى ، لأنه لم تعد لديهم أمانى . كما ترى ، النتيجة واحدة . وهم أيضا هنا ولم يعودوا يستطيعون الانصراف » .

ـ « أهذا يعنى ، أنهم جميعا كان معهم آورين مرة ؟»

فأجاب أرجاكس : « هذا بديهى ! ولكنهم نسوا ذلك منذ وقت طويل . ولن يساعدهم ذلك أيضا ، هؤلاء المجانين المساكين » .

وقال باستيان مترددا : « هل ـ هل نُزع منهم ؟»

فقال أرجاكس : « كلا ، فعندما يجعل أحدهم من نفسه قيصرا ، فهو يختفى بواسطة أمنيته الخاصة . الأمر واضح كالشمس ، فيمكن القول ، لأن المرء لا يستطيع أن يستخدم سلطة الإمبراطورة الطفولية فى أن ينزع منها هذه السلطة بعينها » .

وشعر باستيان بشقاء شديد لدرجة أنه ود أن يجلس فى مكان ما ، ولكن القرد الرمادى الصغير لم يسمح بذلك .

وصرخ قائلا : « لا لا ، مُشاهدة معالم المدينة لم تنته بعد ، فأهم شىء سيأتى ! استمر فى المشى ، استمر فى المشى !»

ورأى باستيان صبيا يضرب بمطرقة ثقيلة مسامير فى جوارب أمامه على الأرض . رجل بدين يحاول ان يلصق طوابع بريد على فقاعات صابون كانت بالطبع تنفجر دائما . ولكنه لم يتوقف عن نفخ الجديد منها .

وسمع باستيان الصوت الضاحك لأرجاكس ، وأحس أن هذا يدير رأسه بيديه القردية الصغيرة إلى ناحية معينة : « أُنظر ! أُنظر إلى هناك ! أليس هذا مضحكا ؟»

وهناك كانت تقف مجموعة كبيرة من الناس ، رجال ونساء . عجائز وشباب والجميع بأعجب الملابس . ولكنهم لا يتحدثون . كل منهم كان منفردا بنفسه تماما . وعلى الأرض كانت كمية هائلة من المكعبات الكبيرة ، وعلى كل من الجوانب الستة لكل مكعب كانت حروف . وكان الناس يخلطون هذه المكعبات بلا نظام مرارا وتكرارا ، وبعد ذلك يحملقون فيها وقتا طويلا .

وهمس باستيان قائلا : « ماذا يفعلون هناك ؟ أية لعبة هذه ؟ ما اسمها ؟»

فأجاب أرجاكس : « لعبة أى شيء . » ولوّح للاّعبين وصاح : « أحسنتم يا أولادى ! استمروا هكذا ! لا تفقدوا الأمل !»

ثم اتجه إلى باستيان مرة أخرى وهمس فى أذنه : « لم يَعد بإمكانهم سرد القصص . لقد فقدوا النطق . ولذلك اخترعت لهم هذه اللعبة . فهى تشغلهم كما ترى . وهى بسيطة جدا . إذا ما تأملت مرة ، فلابد أن تعترف أن جميع قصص العالم تتكون أساسا فقط من ستة وعشرين حرفا[١٦] والحروف هى نفسها دائما ، تركيبها فقط هو المتغير . ومن الحروف تتكون كلمات ، ومن الكلمات جمل ، ومن الجمل فصول ، ومن الفصول تتكون قصص ، انظر ، ماذا هناك ؟»

(١٦) وهى عدد حروف الأبجدية الألمانية ، بينما تحتوى الأبجدية العربية على ثمانية وعشرين حرفا .

وقرأ باستيان[١٧] : هـ ج غ ك ل و ظ م و ى ح خ ق ى خ ش ص ب م ا ز د هـ ذ ك ل ع ط ق ح غ ز ت ز و ا و ص ى ز د ف ج هـ ذ ك ل ع ط م ن ب ح ش ك ذ ل ت ى هـ ج ف د ز ا و ت و ى و س ت ر غ ح ق ا ز ق ح ى ر ت س و ى و ظ و ا ز د ف ى خ ش ث ب ن م ل ك ذ ق ح غ ر ت س و ى ب ا ز د ف ج هـ ذ ك ل ع ط خ ش و ط و ى و س ت ر غ ج ق ط ع ل ك ذ هـ ج ف د ز ا م ن ب ف ج ك هـ د ز ر س ى ط ق ع ت و ى ز ف هـ ك ع ى ش ب م ن ر س ى ط ا ر ش ج و ن ى ك غ ع ق ج غ ر ت س و س و ط ض ا ز د م ن ب ح ش خ ى ا ز د ل ك ذ و ن ج ر غ ف ج هـ ص

وضحك أرجاكس قائلا : « هكذا الأمر فى أغلب الأحوال ، ولكن عندما يلعبها المرء لفترة طويلة جدا ، لسنوات ، فأحيانا ما تنتج الصدفة كلمات . ليست كلمات ذات مغزى خاص ، ولكنها على الأقل كلمات . مثلا « تقلص السبانخ » أو « سجق الفُرَش » أو « دهان الياقة » . ولكن إذا ما استمر المرء فى اللعب مائة عام ، ألف عام ، مائة ألف عام ، فلابد وأن ينتج بكل ترجيح أثناء ذلك قطعة شعر عن طريق الصدفة ذات مرة أيضا . وإذا ما لعبها المرء إلى الأزل ، فلابد أن تنشأ أثناء ذلك كل ما يمكن عموما من القصائد والقصص . وبالإضافة إلى ذلك أيضا جميع قصص القصص ، وحتى هذه القصة التى نتسامر فيها نحن الاثنان فى هذا الحين . هذا منطقى ، أليس كذلك ؟»

فقال باستيان : « هذا فظيع » .

فقال أرجاكس : « أوه ، هذا يتوقف على ما للمرء من رأى . هؤلاء هناك ــ نستطيع أن نقول ــ متحمسون للأمر . وفوق ذلك ماذا نفعل بهم فى فانتازين ؟»

(١٧) وضع المترجم بدلا من الحروف الألمانية غير الموجودة مثيلاتها بالأبجدية العربية حروفا من العربية غير موجودة مثيلاتها أيضا بالألمانية لكى ترد جميع الحروف العربية ، كما وردت جميع حروف الأبجدية الألمانية فى الأصل

ونظر باستيان إلى اللاعبين طويلا وهو صامت ، ثم سأل بصوت منخفض :

ــ « أرجاكس ــ أنت تعرف من أنا ، أليس كذلك ؟ »

ــ « وكيف لا ؟ من لا يعرف اسمك فى فانتازين ؟ »

ــ « قل لى شيئا واحدا . لو أننى أصبحت أمس إمبراطورا . أكنتُ أنا أيضا هنا ؟ »

فأجاب القرد : « اليوم أو غداً ، أو بعد أسبوع ، إنك كنت على كل حال ستجد مكانك هنا قريبا » .

ــ « لقد أنقذنى أتريو إذن » .

ــ وقال القرد معترفا : «لا أعرف ذلك»

ــ « ولو أنه نجح فى أن ينزع منى الجوهرة . فما كان يحدث بعد ذلك ؟ »

وضحك القرد مرة ثانية .

ــ « يمكن القول ــ إنك كنت ستأتى هنا أيضا » .

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لأنك تحتاج إلى آورْين لكى تعثر على طريق العودة . ولكن بأمانة أنا لا أعتقد أنك ستفلح فى هذا » .

وصفق القرد بيديه الصغيرتين ، ورفع قبعة حاملى الدكتوراه وابتسم ساخرا .

ــ « قل يا أرجاكس ، ماذا علىّ أن أفعله ؟ »

ــ « أن تعثر على أمنية تعيدك إلى عالمك »

وصمت باستيان طويلا مرة أخرى ثم سأل :

ــ « أرجاكس ، أتستطيع أن تقول لى ، كم أمنية يمكن أن تكون لا زالت عندى ؟ »

ــ « لم تعد كثيرة . حسب رأيى على أقصى تقدير ثلاث أو أربع . ومن الصعب أن تكون كافية لك . فأنت تبدأ متأخرا قليلا ، وطريق العودة ليس سهلا . فعليك أن تتخطى بحر الضباب . وهذا وحده يكلفك أمنية . وماذا سيأتى بعد ذلك ،

لا أعرفه ، لا أحد فى فانتازين يعرف أين الطريق بالنسبة لأمثالكم المؤدى إلى عالمكم . ربما تعثر على يورزمينرود ، آخر نجدة للبعض مثلك . بالرغم أنى أخشى ، أن يكون هذا بالنسبة لك ــ فلنقل ــ بعيد جدا . إنك ستعثر هذه المرة على طريق الخروج من مدينة القياصرة القديمة .

فقال باستيان : « شكرا ، يا أرجاكس ! »

وابتسم القرد الرمادى الصغير بسخرية .

ــ « إلى اللقاء ، يا باستيان بلتازاربوكس ! »

وبقفزة واحدة كان قد اختفى فى أحد البيوت الجنونية . وقد أخذ معه العمامة . ووقف باستيان برهة من الزمن دون أن يتحرك . إن ما شاهده قد بعث فيه الاضطراب والبلبلة لدرجة أنه لم يستطع أن يتخذ قرارا . لقد انهارت جميع أهدافه ومشاريعه السابقة دفعة واحدة . وأحس كما لو كان كل شىء بداخله قد انقلب رأسا على عقب ــ مثل ذلك الهرم هناك ، وقلب ما هو بأعلى إلى أسفل ، وما هو بالخلف إلى الأمام . وكان ما يأمله هو أن يهلك . وما يكرهه هو إنقاذه .

وفى بادىء الأمر كان هناك شىء واحد فقط واضحا له : لابد من الخروج من مدينة بيت المجانين هذه . ولم يكن يريد أن يعود إلى هنا ثانية أبدا .

واتخذ طريقه عبر فوضى المبانى عديمة المغزى ، وسرعان ما اتضح أن الطريق إلى الداخل أسهل بكثير جدا من طريق الخروج منها . وكان عليه أن يدرك مرارا أنه أخطأ الاتجاه وأنه كان يسرع فى اتجاه وسط المدينة مرة أخرى . وقد استغرق طيلة العصر كله قبل أن ينجح فى الوصول إلى السّد . وبعد ذلك خرج إلى المرج ولم يكف عن الجرى إلى أن أجبره الليل ــ الحالك تماما كسابقة ــ على التوقف . وسقط من الإعياء تحت شجيرة عَرعَر وراح فى سبات عميق . وفى هذا النوم اختفى من ذاكرته أنه كان يستطيع فى الماضى أن يؤلف القصص .

وشاهد خلال الليل كله صورة واحدة فى حلم أمامه لم تكن تريد أن تغادره ولم تكن تتغير كذلك : أتريو بالجرح الدامى بصدره يقف وينظر إليه بلا حركة ولا كلام .

وانتفض باستيان وقد أيقظه دوى الرعد . وكان يحيط به ظلام دامس ، ولكن يبدو أن كتل السحاب كلها التى تجمعت منذ أيام ، قد أتت إلى اضطراب شديد . وتوهج البرق بلا انقطاع ، ودوّى الرعد وهدر لدرجة أنّ الأرض تزلزلت ، وعوت العاصفة فوق المرج وأحنت أشجار العَرعَر إلى الأرض . وانهمرت الأمطار كالسُّتر الرمادية فوق الطبيعة .

ونهض باستيان ووقف وهو ملفوف بمعطفه الأسود ، والماء يسيل على وجهه . وسرى شعاع برق أمامه مباشرة فى أحد الأشجار وفلق الجذع كثير النتوء ، واشتعل اللهب فى الأغصان على الفور ، ودفع الريح أمطارا من الشرر على المرج فى وقت الليل ، والتى أطفأها الماء المنهمر على الفور .

وكانت الفرقعة الفظيعة قد ألقت باستيان على ركبتيه . وبدأ الآن يحفر الأرض بكلتا يديه ، وعندما أصبحت الحفرة عميقة بما فيه الكفاية ، فك السيف سيكاندا من وسطه ووضعه فيها .

وقال بصوت منخفض وسط عواء العاصفة : «سيكاندا . إننى أفارقك إلى الأبد . لا ينبغى أبدا أن يحدث الشر مرة أخرى من شخص يستلّك ضد صديق . ولا ينبغى لأحد أن يعثر عليك هنا قبل أن ينسى ما حدث بسببك وبسببى» .

ثم ردم الحفرة ثانية ووضع أخيرا طحالب وأغصان فوق المكان لكيلا يكتشفه أحد . وهناك لا يزال سيكاندا حتى اليوم . لأنه فى المستقبل البعيد سيأتى شخص مسموح له لمسه دون خطر ــ ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

وابتعد باستيان عبر الظلام .

وخفت حدة الأنواء عند الصباح تقريبا ، وهدأ الريح ، وتقاطر المطر من الأشجار ، وعم السكون . ومع هذه الليلة بدأ لباسيتان تجوال طويل موحش ولم يعد يريد الرجوع إلى رفقاء الطريق والقتال ، ولا إلى كسايده . وكان يريد الآن البحث عن طريق العودة إلى عالم البشر ــ ولكنه لم يكن يعرف كيف وأين ؟ أكان هناك باب فى مكان ما ، معبر ، حد فاصل يمكن أن يقوده إلى هناك ؟

لقد كان عليه أن يتمناه ، وكان يعرف ذلك . ولكن لم تكن لديه سلطة على ذلك . وكان يشعر بأنه كالغواص الذى يبحث فى قاع البحر عن سفينة غارقة ولكنه كان يُدفع دائما إلى أعلى قبل أن يتمكن من العثور على شىء .

وكان يعرف أيضا أنه بقيت له أمنيات قليلة فقط ، ولذلك راعى بعناية ألا يستخدم آوْرينْ ولا يجوز له أن يضحى بالذكريات القليلة المتبقية عنده ، إلا عندما يقترب عن طريقها من عالمه ، وفقط عندما يكون الأمر ضروريا جدا .

ولكن الأمانى لا يمكن للمرء أن يبعثها حسب هواه ولا أن يكتمها . فهى تأتى من أعماقنا الأعمق من جميع المقاصد ، مهما كانت هذه طيبة أم سيئة ، وهى تنشأ دون أن يلحظها أحد .

وتكونت داخل باستيان أمنية جديده دون أن يلاحظها ، واتخذت شكلا واضحا بالتدريج .

لُقد سببت الوحدة التى كان يتجول فيها منذ أيام وليال عديدة ، أنه تمنى الانتماء إلى جماعة ما ، أن يُقبل فى إحدى المجموعات ، ليس كسيِّد أو كمنتصر ، أو كانسان خاص عموما ، بل فقط كفرد بين الآخرين ، ربما كالأصغر أو كالأقل أهمية ، ولكن كواحد منتمٍ إليهم بالطبع ومشارك فى الجماعة .

وحدث فى أحد الأيام أن وصل إلى شاطىء بحر . وعلى كل حال فقد اعتقد ذلك فى بادىء الأمر . لقد كان الذى يقف عليه شاطئا صخريا منحدرا ، وامتد أمام عينيه بحر من الأمواج البيضاء الجامدة . ولم يلاحظ إلاّ فيما بعد أن هذه الأمواج ليست فى الواقع غير متحركة ، ولكنها تتحرك ببطء شديد ، وأن هناك تيارات ودوامات تدور ، بشكل غير ملحوظ كعقارب الساعة .

لقد كان بحر الضباب !

وتجول باستيان على طول الشاطىء المنحدر . وكان الهواء دافئا ورطبا قليلا ولم تتحرك نسمة من الرياح . وكان الوقت مازال مبكرا من الضحى ، والشمس تسطع على المساحة البيضاء كالثلج الممتدة حتى الأفق .

ومشى باستيان بضع ساعات ووصل فى حوالى الظهر إلى مدينة صغيرة تقف على أعمدة عالية هناك فى بحر الضباب على بعد يسير من اليابسة . كوبرى طويل معلق فى الهواء كان يربطها بجزء بارز من الشاطىء الصخرى . واهتز اهتزازا خفيفا عندما تخطاه حينئذ .

وكانت البيوت صغيرة نسبيا ، الأبواب والنوافذ والسلالم ، وكل شىء بدا كما لو كان مصنوعا للأطفال . وفعلا كان كل الناس الذين يسيرون فى الشوارع فى حجم الأطفال بالرغم من أنهم كانوا عبارة عن رجال مكتملى النمو ذوى ذقون ، ونساء دوات تسريحات عالية . ومن اللافت أن المرء لم يكن يستطيع أن يفرق بينهم تقريبا ، فقد كان التشابه بينهم كبيرا إلى هذا الحد . وجوههم كانت بلون بنى داكن كالتربة المبللة ويبدو عليهم الرقة والهدوء . وعندما رأوا باستيان انحنوا له ولكن لم يكلمه أحد . وبوجه عام يبدو أنهم صموتين جدا ، فلم تُسمع كلمة أو نداء فى الشوارع والأزقة إلاّ نادرا برغم الحركة الدائبة التى كانت سائدة هناك . وكذلك لم يشاهد شخص أبدا بمفرده ، فقد كانوا يسيرون دائما فى جماعات صغيرة أو كبيرة متأبطين أو ماسكى أيدى بعضهم .

وعندما دقق باستيان النظر أكثر فى المنازل ، تأكد أنها جميعا مصنوعة من نوع من جدائل الخوص ، بعضها من نوع أكثر خشونة ، والآخر أكثر رقة ، بل حتى أرضية الشوارع كانت من نفس الخاصية ، وأخيرا لاحظ أيضا أن حتى ملابس الناس ، السراويل والجونلات والسترات والقبات مصنوعة من الجدائل نفسها . ولكن فى هذه الحالة من نسيج دقيق جدا وفنى . ومن المرجح أن كل شىء هنا ببساطة كان يصنع من نفس المادة .

واستطاع باستيان أن يلقى نظرة هنا وهناك فى ورش صناع مختلفة . وكان الجميع منهمكين بصناعة أشياء مجدولة ، فكانوا يصنعون أحذية ، جِرار ، مصابيح ، فناجيل ، ومظلات ــ كل شىء من هذه المجدولات . ولم يكن أحد يعمل وحده أبدا ، لأن كل هذه الأشياء لا يمكن صنعها إلا بالتعاون مع العديدين ، وكان باعثا للسرور مشاهدة كيف يعملون سويا بمهارة ، وكيف يكمل الواحد عمل الآخر دائما ، وأثناء ذلك غالبا ما ينشدون لحنا بسيطا بلا كلام .

ولم تكن المدينة كبيرة جدا ، وهكذا وصل باستيان إلى طرفها بسرعة . والمنظر الذى سنح له من هناك أظهر بجلاء أنها مدينة بحارة ، لأن هناك كانت توجد مئات من المراكب لكل شكل وحجم . ولكنها كانت مدينة بحارة غير عادية نوعا ، لأن كل هذه السفن كانت معلقة بسنانير صيد عملاقة وتتدلى فى اهتزاز خفيف واحدة بجوار الأخرى ، فوق العمق الذى تنساب فيه أفواج الضباب البيضاء . وبالمناسبة ، فقد بدت هذه المراكب أيضا كلها مصنوعة من جدائل الخوص ، ولم يكن لها أشرعة ولا سوارى ، ولا مجاديف أو دفات .

وانحنى باستيان من فوق أحد الأسوار ونظر إلى أسفل إلى بحر الضباب . ولم يستطع أن يرى كم ارتفاع الأعمدة التى كانت تقف عليها المدينة من الظلال التى كانت تلقيها فى ضوء الشمس على السطح الأبيض هناك إلى أسفل . وسمع صوتا إلى جواره يقول : «ليلا يصعد الضباب حتى ارتفاع المدينة . حينئذ نستطيع الإبحار . وفى النهار تلتهم الشمس الضباب وينخفض مستوى البحر . هذا ما كنت تريد معرفته أيها الغريب ، أليس كذلك ؟» .

وكان يقف إلى جوار باستيان ثلاثة رجال مستندين على السور ينظرون إليه برقة وبشاشة ودخل معهم فى حديث وعلم أن هذه المدينة تحمل اسم إسقال أو كانت أيضا تسمى مدينة البوص . وسكانها يسمون الإسقالناريون . والكلمة تعنى تقريبا «الجماعيون» . والثلاثة كانت مهنتهم بحارة الضباب . ولم يرغب باستيان فى ذكر اسمه لكيلا يُتعرّف عليه ، وقال انه يدعى «واحد» . وشرح البحاره الثلاثة له أنه ليس لديهم أسماء لكل فرد على حدة وأنهم يعتبرون هذا غير ضرورى بالمرة أيضا . وأنهم جميعا الإسقالناريون وهذا يكفيهم .

ونظرا لأن ذلك الحين كان وقت الظهيرة فقد دعوا باستيان أن يذهب معهم ، وقبل شاكرا . وجلسوا على مائدة الطعام فى حانة قريبة وأثناء تناول الطعام علم باستيان كل شىء عن مدينة إسقال وسكانها .

بحر الضباب ، الذى كان يدعى عندهم سكايدان ، كان محيطا هائلا من البخار الأبيض الذى يفصل جزئين من فانتازين عن بعضهما ، ولم يبحث أحد بعد فى

مدى عمق سكايدان ، ولا من أين تنبع هذه الأفواج الهائلة من الضباب . صحيح كان في الاستطاعة التنفس تحت الضباب تماما . والسير مسافة فوق قاع البحر ابتداء من الشاطئ حيث يكون الضباب ضحلا نسبيا ، ولكن فقط إذا كان المرء مربوطا بإحكام بحبل يمكن إعادة شده . فقد كانت للضباب خاصية سلب الفرد كل قدرة على تحديد الاتجاه في وقت قصير . كثير من المتجاسرين أو المتهورين لقوا حتفهم بمرور الزمن عند محاولة عبور سكايدان وحدهم على الأقدام . وأمكن إنقاذ قلّة فقط . والطريقة الوحيدة للتمكن من الذهاب إلى الجانب الآخر لبحر الضباب ، كانت طريقة الإسقالاريين .

لأن جدائل الخوص التي كانت تتكون منها منازل مدينة إسقال وجميع الأشياء المستخدمة كالملابس وحتى المراكب ، كانت مصنوعة من نوع من الخوص الذي ينمو بالقرب من الشاطئ تحت سطح بحر الضباب ، والذي ــ مثلما يسهل فهمه مما قيل من قبل ــ لا يمكن قطعه إلاّ مع تعريض الحياة للخطر . وهذا الخوص برغم أنه لين للغاية ، بل ومرتخ كذلك في الهواء العادي ، كان يقف منتصبا في الضباب لأنه أخف من هذا ويسبح فوقه . وبالتالي تعوم بالطبع المراكب أيضا المصنوعة منه . الملابس التي كان يرتديها الإسقالاريون ، كانت في نفس الوقت نوعا من طوق النجاة ، في حالة ما إذا توغل أحد في الضباب . ولكن هذا لم يكن هو السر الفعلي للإسقالاريين ، ولم يُفسر بعد سبب الجماعية المميزة التي كانت تحدد جميع أنشطتهم . فكما لاحظ باستيان سريعا ، بدا أنهم لا يعرفون الكلمة الصغيرة «أنا» . وعلى كل حال لم يستخدموها أبدا ، ولكنهم يتكلمون دائما ب «نحن» فقط . وقد اكتشف فيما بعد ، من أين جاء ذلك .

وعندما استنتج من أحاديث بحارة الضباب الثلاثة أنهم سوف يبحرون هذه الليلة فقط ، سألهم ، إذا لم يكن في إمكانهم أن يؤجروه كصبي بحار . وشرحوا له أن رحلة على سكايدان تختلف اختلافا هائلا عن كل رحلة بحرية أخرى لأن المرء لا يمكنه أن يعرف أبداً كم سيطول السفر وإلى أين سيصل المرء في النهاية . وقال باستيان إن هذا يناسبه تماما وهكذا وافق البحارة أن يأخذوه معهم على المركب .

ومع حلول الليل بدأ الضباب يصعد كما هو متوقع ، ووصل فى حوالى منتصف الليل إلى ارتفاع مدينة البوص . وحينئذ كانت فوق السطح الأبيض كل المراكب التى كانت من قبل متدلية فى الهواء . والمركب التى كان عليها باستيان ـ وكان زورقا مسطحا طوله حوالى ثلاثون مترا ـ فُكّت حباله وانساب بهوادة إلى اتساع بحر الضباب المظلم .

وتساءل باستيان عند النظرة الأولى ، بأية قوة دافعة يتحرك هذا النوع من المراكب ، حيث إنه لم يكن هناك لا شراع ولا مجداف ولا رفاص سفينة . وكما علم ، فإن الأشرعة لم تكن ستفيد ، لأن سكون الريح يكاد يكون هو الغالب دائما فوق سكايدان ، وبالمجاديف أو رفاصات السفينة لم يكن من المستطاع بحق السير فوق الضباب . القوة التى كانت تحرك المركب كانت مختلفة تماما .

ففى وسط السطح كانت هناك مساحة مستديرة مرتفعة قليلا ، وكان باستيان قد لاحظها من البداية واعتبرها مركزا للقيادة أو ما شابه ذلك . وبالفعل وقف أثناء الرحلة كلها على الأقل اثنان من بحارة الضباب هناك بأعلى ، وأحيانا أيضا ثلاثة ، أربعة أو أكثر . (وكان عدد الطاقم كله أربعة عشر رجلا ـ بدون باستيان طبعا) . والذين كانوا على المساحة المستديرة كانوا يضعون أذرعهم حول أكتاف بعض وينظرون فى اتجاه السير . وإذا لم ينظر المرء بدقة شديدة ، لأمكن أن يعتقد أنهم يقفون بلا حراك . ولكن مع المراقبة الواعية أمكن ملاحظة أنهم كانوا يتمايلون ببطء شديد وبتوافق تام فيما يشبه الرقص . وأثناء ذلك ينشدون لحنا بسيطا يتكرر على الدوام . وكان جميلا جدا وحالما .

واعتقد باستيان فى بادىء الأمر أن هذا السلوك مراسم خاصة أو عادة قد خفى عنه مغزاها . ولكنه فى اليوم الثالث من الرحلة سأل أحد أصدقائه الثلاثة ، الذى جلس إلى جواره وقد بدا بدوره متعجبا من دهشة باستيان وشرح له أن الرجال يدفعون المركب بقوة تصورهم .

ولم يستطع باستيان فهم هذا التفسير فى أول الأمر وسأل إذا كانوا يحركون أية دواليب خفية .

فأجاب بحار الضباب : «لا ، إذا أردت أن تحرك رجليك ، فيكفيك أيضا أن تتصور ذلك ــ أم أنه يتحتم عليك أن تشغّل رجليك عن طريق دواليب ؟» .

والفارق بين الجسد الخاص والمركب يتمثل فقط فى أن اثنين من الإسقالناريين على الأقل يجب أن يجعلوا قوة تصورهم واحدة تماما . لأنه فقط عن طريق هذا التوحيد تنشأ قوة الحركة . وإذا أرادوا أن يزيدوا من سرعة السير فيتحتم على العديد منهم أن يتكاتفوا . وعادة ما كانوا يعملون فى دوريات بكل منها ثلاثة ، والآخرون يستريحون ، لأن هذا ــ وإن بدا سهلا جدا وجذّابا ، كان عملا شاقا ومرهقا يتطلب تركيزا كبيرا ومتواصلا ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لكيفية التمكن من الإبحار فى سكايدان .

وتتلمذ باستيان لدى بحارة الضباب وتعلم سر جماعيتهم : الرقص والغناء بلا كلمات .

وأثناء رحلة العبور الطويلة أصبح بالتدريج واحدا منهم . لقد كان إحساسا فريدا تماما لا يمكن وصفه من نكران الذات والتوافق ، عندما كان يشعر أثناء الرقص كيف تذوب قوة تصوره الذاتية مع قوة تصور الآخرين وتتحد إلى شىء كامل . وأحس فعلا أنه قُبل فى جماعتهم وبانتمائه إليهم ــ وفى نفس الوقت اختفى من ذاكرته تذكّره أن فى العالم الذى أتى منه ، والذى يبحث الآن طريق عودته إليه ، كان يوجد بشر ، بشر لهم جميعا تصوراتهم وآرائهم الخاصة . والشىء الوحيد الذى كان لا يزال يتذكره تذكرا ضعيفا ، كان منزله ووالديه .

ولكن فى العمق فى قرار قلبه كانت تحيى أمنية أخرى غير ألاّ يكون وحيدا وهذه الأمنية الأخرى بدأت تتحرك الآن بشكل خافت .

وحدث هذا فى يوم أن لاحظ لأول مرة أن الإسقالناريين لم يحققوا جماعيتهم عن طريق توفيق طرق مختلفة النوع تماما للتصور ، ولكن لأنهم كانوا يشبهون بعضهم كلية لدرجة أن الإحساس بالجماعية لم يكن يكلف أىّ مجهود . وعلى العكس فلم تكن هناك أية إمكانية للنزاع أو الاختلاف مع بعض ، فلم يكن أحد يشعر بفرديته . ولم يكن عليهم أن يتغلبوا على المتناقضات ليجدوا التوافق فيما بينهم ، وعدم المجهود

هذا بدا لباستيان غير باعث على الرضا شيئا فشيئا . وبدت له رقتهم مملة ، واللحن المتماثل لأغانيهم رتيباً . وأحس أن شيئا ينقصه فى كل هذا ، أنه يشتاق إلى شىء ، ولكنه لم يستطع أن يقول ما هو .

ولم يتضح ذلك له إلا عندما شوهد بعد ذلك بوقت قليل غراب ضباب عملاق فى السماء . وانتاب الخوف جميع الإسقالناريين واختبأوا تحت سطح المركب بأسرع ما يستطيعون ولكن واحد لم ينجح فى الوقت المناسب ، وهبط الطائر الهائل صارخا وأمسك بالشخص التعس وحمله بمنقاره بعيدا .

وعندما زال الخطر ظهر الإسقالناريـون مرة أخـرى وواصلوا الرحلة بـالغناء والرقص كما لو لم يكن قد حدث شيئا . ولم يعطل توافقهم ، ولم يحزنوا ولم يشكوا ، ولم يعلقوا بكلمة واحدة على الحادث .

وقال واحد عندما سأله باستيان لذلك : «كلا ، لم ننقص أحدا . عـلام نشكو ؟» فالفرد لم يكن له حساب عندهم . ولأنهم لم يكونوا مختلفين ، فلم يكن أحداً لا يعوض ، ولكن باستيان كان يريد أن يكون فردا ، شخصا ما ، ليس مجرد واحد مثل كل الآخرين ، وكان يريد أن يُحَب بالذات من أجل أنه كان على ما هو عليه . وفى جماعية الإسقالناريين هذه كان هناك توافق ، ولكن لم يكن هناك حب .

ولم يعد يريد أن يكون الأعظم أو الأقوى أو الأذكى . كـل ذلك خلّفـه من ورائه . لقد اشتاق إلى أن يُحَب كما هو ، حسن أو ردىء ، جميل أو قبيح ، ذكى أو غبى ، بكل نقائصه ــ أو بالذات من أجلها .

ولكن ما هى كيفيته ؟

إنه لم يعد يعرف ذلك . لقد حصل على أشياء كثيرة جدا فى فانتازين ، والآن فهو لا يستطيع أن يعثر على نفسه مرة أخرى من بين كل المواهب والقوى .

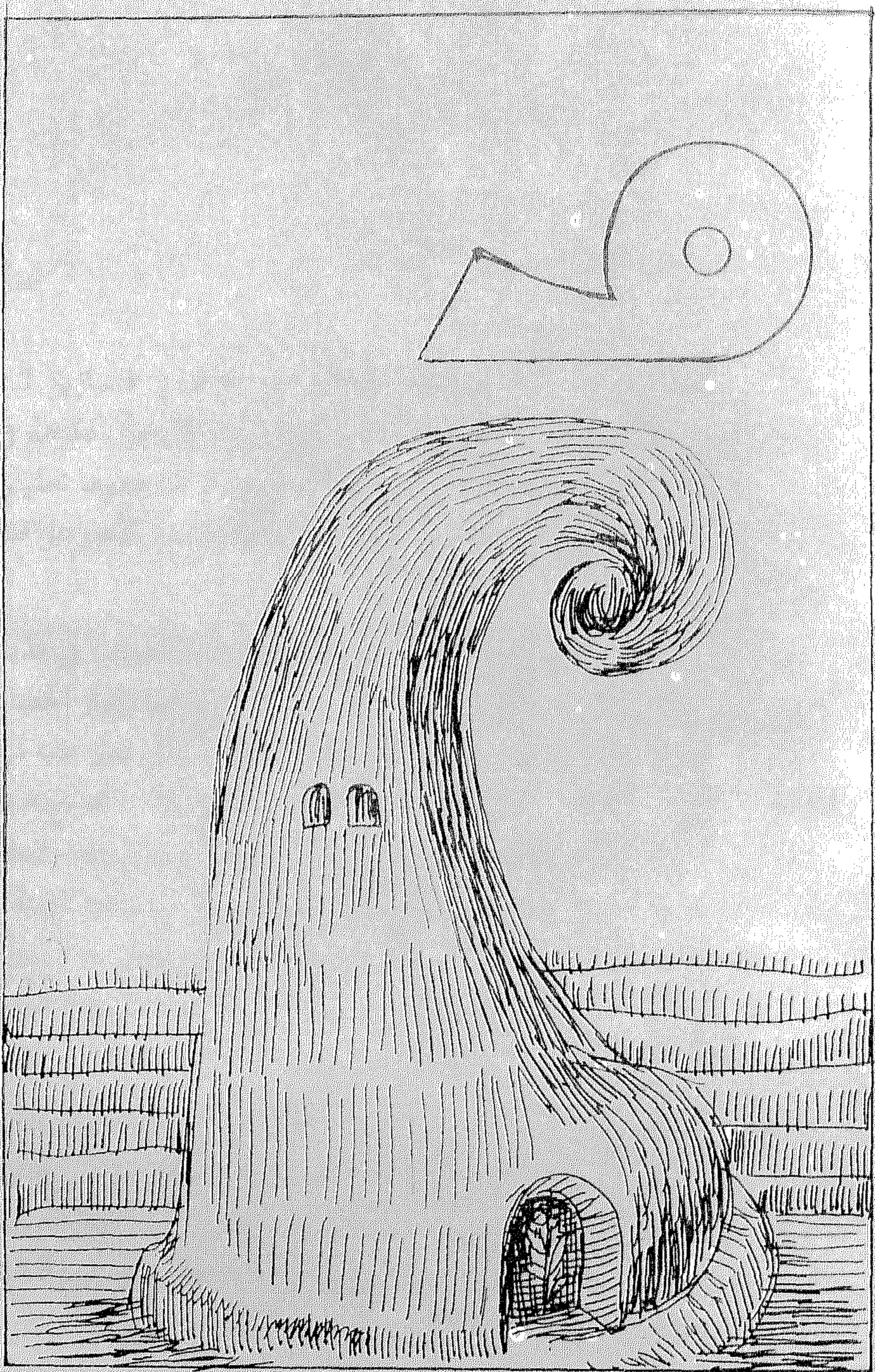
وابتداء من ذلك الوقت لم يعد يشترك فى رقص بحارة الضباب . وجلس إلى الأمام تماما فى مقدمة المركب ينظر عبر سكايدان طوال نهار الأيام كلها وأحياناً طوال الليالى أيضا .

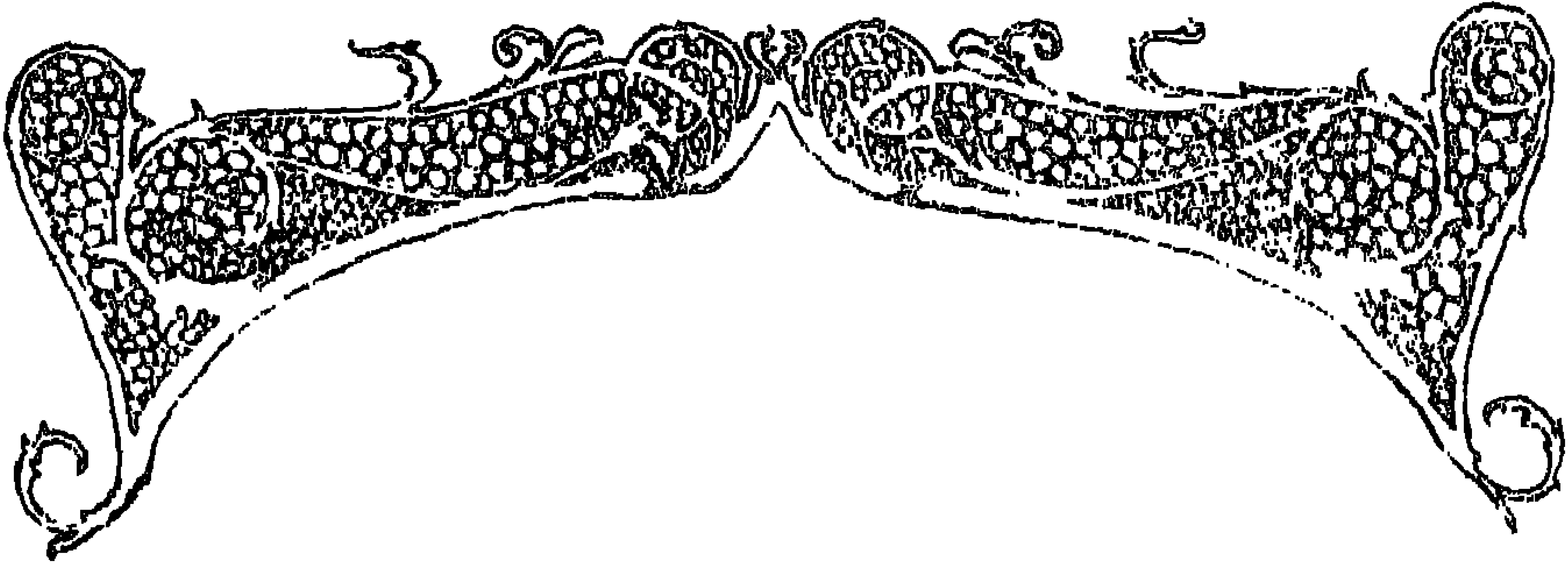
وأخيرا تم الوصـول إلى الشاطىء الآخـر ، ورسا مـركب الضباب ، وقـدّم باستيان شكره للإسقالناريين وسار إلى اليابسه .

وكانت أرضا مليئة بالورود ، وغابات من الورود بجميع الألوان . وفى وسط هذا المنحدر اللا نهائى من الورود امتد ممر متعرج .

وسار باستيان متابعا له .

٢٤
السيدة أيولا





مليئة بالمتناقضات ، وصعبة على الإدراك ككثير من أمثالها فى فانتـازين تمت بسرعة حكاية نهاية كسايدة . وحتى يومنا هذا ينهك العلماء والمؤرخون فكرهم فى كيفية إمكان هذا ، بل ويشكك البعض فى الحقائق ويحاولون أن يعطوها تفسيـرا آخر . وسوف نُخبر هنا عما حدث بالفعل ، ولكل فرد أن يحاول تفسير الأمور على قدر ما يستطيع .

ففى نفس الوقت الذى وصل فيه باستيان فعلا إلى بحارة الضباب فى مدينة إسقال ، وصلت كسايدة بعمالقتها السود إلى الموضع من المرج حيث إنهار الحصان المعدنى من تحت باستيان إلى قطع . وأحست فى هذه اللحظة أنها لن تعثر عليه مرة أخرى . وعندما رأت السد بعد ذلك وآثار باستيان تمتد إلى أعلاه ، أصبح هـذا الإحساس مؤكدا . وإذا كان قد وصل إلى مدينة القياصرة القديمة ، فلقد ضـاع بالنسبة لمشاريعها ، سواء أنه سيبقى هناك إلى الأبد أو ينجح فى الهروب من المدينة . وفى الحالة الأولى يكون قد أصبح بلا نفوذ كالجميع هناك ولم يعد يستطيع التمنى ـ وفى الحالة الأخرى تكون جميع أمنيات السلطة والعظمة قد انمحت فيه . وفى كلتا الحالتين فان اللعبة بالنسبة لها ، لكسايدة ، قد انتهت .

وأمرت عمالقتها المدرعين بالوقوف ولكنهم لم ينصاعوا لإرادتها بلا سبب مفهوم ولكنهم استمروا فى المسير . فغضبت ، وقفزت من هودجها ووقفت فى مواجهتهم وهى فاردة ذراعيها . ولكن العمالقة المدرعون ، المشاة والفرسان ، واصلوا دبيبهم بأقدامهم كما لو لم تكن موجودة ودهسوها تحت الأقدام والحوافر . وعندما لفظت كسايدة أنفاسها توقف الموكب الطويل كله فجأة كزنبرك ساعة قد فرغ .

وعندما جاء بعد ذلك هيزبالد وهيدورن وهيكريون مع بقايا الجيش ، رأوا ما حدث هنا ولم يستطيعوا أن يستوعبوه ، لأن إرادة كسايدة وحدها هى التى كانت تحرك العمالقة المدرعين وهى كذلك التى جعلتهم يدوسونهابأقدامهم . ولكن لم تكن القوة الخاصة للسادة الثلاثة تتمثل فى التفكّر والتدبر ، لذا فقد هزوا أكتافهم فى نهاية الأمر ولم يستمروا فى متابعته . وتشاوروا فيما يمكن عمله الآن وتوصلوا إلى النتيجة بأن الموكب على ما يبدو قد وصل إلى نهايته . وهكذا سرّحوا الجيش المتبقى وأوصوا كل فرد بالذهاب إلى بيته . وهم أنفسهم ، الذين أقسموا قسم الإخلاص لباستيان ولم يكونوا يريدون أن ينقضوه ، قرروا أن يبحثوا عنه فى كل فانتازين . ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على الاتجاه الذى ينبغى إتخاذه ، ولذلك قرروا أن يواصل كل واحد مسيرته على مسئوليته الخاصة . وودعوا بعضهم ، ومشى كل منهم يعرج متخذا اتجاها مختلفا . وعايش الثلاثة كلهم مغامرات كثيرة ، وتوجد فى فانتازين أنباء لا تحصى تدور حول بحثهم عديم المغزى . ولكن هذه قصص أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

ولكن العمالقة المعدنيون السود المفرغون وقفوا منذ ذلك الوقت بلا حركة فى الموضع من المرج بالقرب من مدينة القياصرة القديمة . ونزل عليهم المطر والثلج ، وصدئوا وانغمسوا شيئا فشيئا بميل أو باستقامة فى تربة الأرض . ولكن حتى اليوم مازال يُرى العديد منهم . ويُعتبر المكان ملعونا ، وكل جائل يتجنبه فى دائرة بعيدة من حوله ، ولكن فلنعد الآن إلى باستيان .

وبينما هوفى طريقه خلال منحدر الورود يتابع الانحناءات الناعمة للممر ، شاهد شيئا أدهشه ، لأنه لم يشاهد شيئا مماثلا أبدا على طريقه كله خلال فانتازين ، وهى لوحة إرشادية بيد منحوته فى الخشب تشير إلى اتجاه

مكتوب عليها : « إلى بيت التغيير . »

وتابع باستيان الاتجاه المبّين بلا تعجُّل . واستنشق عبير الورود التى لا تحصى ، وأحس بسرور متزايد ، كما لو كانت فى انتظاره مفاجأة سارة .

وأخيرا أتى إلى طريق مستقيم على جانبيه أشجار مستديرة كالكرة مُحملة بتفاح

أحمر الخدين . وفى نهاية الطريق تماما ظهر بيت . وعند اقترابه منه اتضح لباستيان أنه ربما يكون أكثر بيت رآه من قبل باعثا على الضحك ، سقف مدبب عال يقبع كالطرطور فوق مبنى يشبه بالأحرى ثمرة قرع عملاقة ، لأنه كان مستديرا والجدران لها فى مواضع كثيرة بروزات وانبعاجات ، كالبطون البدينة تقريبا ، وهذا مما أعطى البيت منظراً مرحرحا ومريحا . وكانت هناك أيضا عدة نوافذ وباب للمنزل ، وكل شىء مائل ومقوس ، كما لو كانت هذه الفتحات قد قطعت فى ثمرة القرع بطريقة غير ماهرة قليلا .

وبينما كان باستيان يسير متجها إلى المنزل ، لاحظ أنه فى تغير دائب بطىء . وبما يشبه الهدوء الذى تُخرِج به القوقعة قرون استشعارها ، فقد تكوَّن على جانبه الأيمن بروز صغير ، أصبح بالتدريج برجا جانبيا صغيرا . وفى نفس الوقت انقفلت نافذة على الجانب الأيسر واختفت شيئا فشيئاً . وبرزت مدخنة من السطح ، وتكوَّنت فوق باب البيت شرفة صغيرة لها تعاريج درابزين .

وتوقف باستيان وراقب التغير المستمر بدهشة ومتعة . واتضح له الآن ، لماذا يحمل هذا البيت اسم « بيت التغيير » .

وبينما هو لا يزال واقفا سمع من الداخل صوتا نسائيا دافئا جميلا يغنى ويقول :

« منذ مائة سنة ،
فى انتظارك أيها الضيف العزيز .
ولأنك وجدت الطريق إلى هنا
فأنت بالتأكيد هو .
كل شىء لك فى إعداد وتجهيز
لاسكات الجموع والظما
وكل ما تبحث عنه وكل ما أردته
تجده بعد كل ما عانيته
حتى السلوى والأمان .
وكيفما تكون فأنت هكذا صالح
سواء كنت طيبا أو أنت طالح

لأنك أتيت من بعيد المكان . »

وفكر باستيان : « آخ ، ياله من صوت جميل . كم أود أن تكون هذه الأغنية تقصدنى ! »

وبدأ الصوت يغنى من جديد :

« أيها السيد الكبير ، كن صغيرا ثانية !
كن طفلا وتعال . ادخل عندنا !
بالباب وقوفك لا تطيل
مرحبا وأهلا بك ها هنا !
كل شىء ، لك مُعَدّ عندنا
منذ وقت طويل . . »

وأحدث الصوت على باستيان قوة جاذبية لا تقاوم . وكان متأكدا أن الذى يغنى شخص لطيف جدا . ولذلك طرق الباب ، وصاح الصوت :

« أُدخل ، أُدخل ، يا ولدى الجميل ! »

وفتح الباب ورأى حجرة مريحة ليست كبيرة جدا ، تدخلها أشعة الشمس من نافذتها . وفى وسطها كانت مائدة مستديرة معدة بشتى أنواع الصحاف والسلال المليئة بالثمار المختلفة التى لم يكن باستيان يعرفها . وعند المائدة جلست سيدة كانت هى نفسها تبدو قليلا كالتفاحة حمراء ومستديرة الوجنتين ، سليمة الصحة وشهيّة .

وفى أول وهلة كادت تتغلب على باستيان الرغبة فى أن يجرى إليها فاردا ذراعيه ويصيح قائلا : « ماما ! ماما ! » ولكنه تمالك . فأمه ميتة ، ومن المؤكد تماما أنها لم تكن هنا فى فانتازين . فصحيح أن لهذه السيدة نفس الإبتسامة المحببة ، ونفس الطريقة الباعثة على الثقة فى النظر إلى الشخص ، ولكن الشبه كان على أقصى تقدير شبها بأخت لها . فأمه كانت صغيرة الحجم ، والسيدة هنا كانت ضخمة ومهيبة الطلعة بشكل ما . وكانت ترتدى قبعة عريضة مملوءة فى كل مكان منها بالزهور والثمار ، وكذلك رداؤ ها كان من قماش متعدد الألوان منقوشا بالزهور . ولكنه بعد أن تطلع إليه برهة من الزمن ، لاحظ أنه مصنوع فى الحقيقة أيضا من الأوراق

والزهور والثمار .

وبينما هو واقف هكذا وينظر إليها اعتراه احساس لم يعرفه منذ وقت طويل جدا . ولم يستطع أن يتذكر متى وأين ، ولكنه عرف فقط أنه شعر بهذا الإحساس أحيانا عندما ما كان لا يزال صغيرا .

وقالت السيدة وهى تشير إلى كرسى بحركة داعية من يدها : « اجلس ياولدى الجميل . من المؤكد أنك جوعان ، ولذلك كل أولا ! »

فرد باستيان : « معذرة ، إنّك تنتظرين ضيفا ، ولكننى هنا بالصدفة المحضة . »

فسألت السيدة وهى تبتسم ابتسامة بسيطة : « حقا ؟ ولكن لا بأس . ولهذا السبب يمكنك أن تأكل بالرغم من هذا ، أليس كذلك ؟ وفى هذه الأثناء أحكى لك قصة صغيرة ، مد يدك ولا تجعلنى أطيل عليك الرجاء ! »

وخلع باستيان معطفة الأسود ووضعه فوق الكرسى ، وجلس ومد يده مترددا إلى إحدى الثمار . وقبل أن يقضمها ، استفسر قائلا :

ـ « وأنت ؟ ألا تأكلين شيئا ؟ أم أنك لا تحبين الفاكهة ؟ »

وضحكت السيدة بصوت عال وبحرارة ، ولم يدر باستيان على ماذا .

وقالت بعد أن تمالكت : « حسن ، إذا ما صممت على ذلك ، فإننى أريد أن أونسك وأتناول شيئا أيضا ، ولكن بطريقتى . فلا تفزع . »

ثم مدت يدها إلى رشاشة لسقى النبات كانت بجوارها على الأرض ، ووضعتها فوق رأسها وصبت الماء على نفسها .

وصاحت : « آه ، إن هذا لمنعش ! »

والآن باستيان هو الذى ضحك . ثم قضم الثمرة ، وتأكد على الفور أنه لم يأكل شيئا بهذه الطيبة من قبل أبدا ، وبعد ذلك أكل واحدة أخرى ، وكانت هذه أحسن أيضا وسألت السيدة التى كانت تراقبه بانتباه : « أيعجبك طعمها ؟ »

وكان فم باستيان ممتلئا ولم يستطع الإجابة ، ومضغ وهز رأسه بالإيجاب .

وقالت السيدة : « هذا يسعدنى . لقد بذلت فى ذلك جهدا خاصا أيضا . لا تبال وكل على قدر ما تحب ! »

ومد باستيان يده إلى ثمرة جديدة ، وكانت هذه احتفالا كاملا . وتنهد مأخوذا ، واستطردت السيدة قائلة : « والآن أريد أن أحكى لك . ولكن لا تتعطل عن الطعام . » واضطر باستيان أن يبذل جهدا لسماع كلامها ، لأن كل ثمرة جديدة كانت تسبب له سعادة جديدة .

وبدأت السيدة المزدانة بالزهور : « منذ وقت طويل ، طويل ، كانت إمبراطوريتنا الطفولية مريضة مرض الموت ، لأنها كانت فى حاجة إلى اسم جديد ، لم يكن غير طفل من البشر يستطيع منحها إياه . ولكن البشر لم يعودوا يجيئون إلى فانتازين ، ولا أحد عرف لماذا . وإذا تحتم عليها أن تموت ، لكان هذا أيضا هو نهاية فانتازين . ففى يوم من الأيام ، وبمعنى أفضل ، فى ليلة من الليالى جاء بشر مرة ثانية - وكان صبيا صغيرا ، ومنح الإمبراطورة الطفولية اسم طفلة الأقمار . وأصبحت معافية الصحة مرة أخرى ، وامتنانا له وعدت الصبى بأن جميع أمنياته فى مملكتها ستصبح حقيقة - طالما أنه كان يعثر على إرادته الحقيقية . وابتداء من ذلك الوقت قام الصبى الصغير برحلة طويلة من أمنية إلى أخرى ، وكل منها تحقق . وكل تحقيق أدى إلى أمنية جديدة ولم تكن فقط أمنيات طيبة ، ولكن أيضا سيئة ، ولكن الإمبراطورة الطفولية لم تكن تفرق ، كل شىء كان بالنسبة لها مساويا ، وكل شىء متساو فى أهميته فى مملكتها . وحتى عندما دُمّر أخيرا برج العاج لم تفعل شيئا لكى تمنع ذلك . ولكن مع كل تحقيق لأمنية كان الصبى الصغير ينسى جزءا من تذكره للعالم الذى جاء منه . وهذا لم يكن له أهمية عنده ، لأنه على شتى الحالات لم يكن يريد العودة إلى هناك . وهكذا استمر فى التمنى ، ولكنه الآن كاد أن ينفق جميع ذكرياته ، وبدون ذكريات لا يمكن للمرء أن يتمنى المزيد . حينئذ كاد ألا يكون بشرا ، بل كاد أن يصبح من أهل فانتازين . وكان لا يزال لا يعرف إرادته الحقيقية . وحينئذ نشأت خطورة أن يستهلك أيضا آخر ذكرياته دون أن يدركها . وهذا سيعنى أنه لن يتمكن أبدا من العودة إلى عالمه . فإذا بطريقه يقوده أخيرا إلى بيت التغيير ، لكى يبقى هنا

إلى أن يعثر على إرادته الحقيقية . لأن بيت التغيير لا يسمى هكذا لأنه هو نفسه يتغير فقط ، ولكن لأنه أيضا يغير ذلك الذى يسكن فيه . وكان هذا مهما جدا للصبى الصغير ، لأنه حتى ذلك الوقت كان يريد دائما أن يكون شخصا آخر غير ما كان . ولكنه لم يرد أن يغير نفسه . »

وعند هذا الموضع توقفت لأن زائرها كان قد كف من المضغ . وأمسك بيده ثمرة كان قد بدأ فى قضمها ، وحملق فى السيدة المزدانة بالزهور فاغراً فاه .

فقالت بقلق : « إذا لم يكن طعمها يعجبك ، فضعها بعيدا ولا تبال ، وخذ واحدة أخرى ! »

فتلعثم باستيان قائلا : « نعم ؟ أوه كلاً ، إنها طيبة جدا . »

فقالت السيدة وهى مسرورة : « إذن كل شيء على ما يرام . ولكننى نسيت أن أقول ماهو اسم الصبى الصغير الذى طال انتظاره فى بيت التغيير . كثيرون فى فانتازين كانوا يسمونه فقط « المنقذ » وآخرون « فارس الشمعدان ذى السبعة أذرع » أو « العارف العظيم » أو أيضا « السيد والآمر » ، ولكن اسمه الحقيقى كان باستيان بلتازار بوكس . »

بعد ذلك نظرت السيدة إلى ضيفها طويلا وهى تبتسم . وابتلع عدة مرات ثم قال بصوت منخفض :

« هذا اسمى . »

فقالت السيدة ولم يبد عليها أية بادرة من الدهشة : « ألم أقل لك ! »

وفجأة تفتحت جميع البراعم على قبعتها وردائها فى نفس الوقت وازدهرت .

واعترض باستيان مترددا : «ولكننى لست فى فانتازين منذ مائة عام بأى حال من الأحوال» .

فردت السيدة : «أوه ، فى الحقيقة نحن ننتظرك منذ وقت أطول بكثير ، فإن جدتى وجدة جدتى كن فى انتظارك . أترى ، الآن تُحكى لك قصة ، جديدة وبالرغم من ذلك فهى تتحدث عن ماض قديم جدا» .

وتذكر باستيان كلمات جرأ وجرمان . فى ذلك الوقت عندما كان فى بداية رحلته . والآن تبدو له فعلا كما لو كانت منذ مائة عام .

- «وبالمناسبة . أنا لم أقل لك حتى الآن ما اسمى . أنا السيدة أيّوولا» .

وكرر باستيان الاسم ولاقى قليلا من العناء إلى أن نجح فى نطقه نطقاً صحيحا . ثم مد يده إلى ثمرة جديدة وقضمها ، وشعر كما لو أن تلك التى يأكلها فى الحين هى أفضل الجميع مذاقا . ورأى بقلق قليل أنه أكل فعلا الثمرة قبل الأخيرة .

وسألت السيدة أيوولا التى لاحظت نظرته : «هل تود المزيد ؟» وهز باستيان رأسه بالإيجاب . فمدت يدها إلى قبعتها وردائها وقطفت ثمارا ، إلى أن امتلأ الوعاء .

واستفسر باستيان وهو مشدوه : «أتنمو الثمار على قبعتك ؟»

فنظرت إليه أيّوولا غير فاهمة : «قبعة ماذا ؟» ثم انفجرت فى ضحك عال من القلب .

«آخ ، أتقصد أن هذه قبعتى التى على رأسى ؟ كلا ، يا ولدى الجميل ، إن كل شىء ينمو فى داخلى . مثلما الشعر لديك . ويمكنك أن ترى كم أنا سعيدة بوجودك هنا أخيرا ، ولذلك فإننى أزدهر . وإذا كنت حزينة فإن كل شىء يذبل . ولكن تفضل لا تنس الأكل !» .

فقال باستيان فى حرج : «لست أدرى ، إن المرء لا يستطيع أن يأكل شيئا يخرج من شخص ما» .

فسألت السيدة أيّوولا : «ولم لا ؟ إن الأطفال الصغار يحصلون على اللبن أيضا من أمهاتهم . وهذا شىء رائع» .

فقال باستيان معترضا وقد احمر وجهه قليلا : «صحيح ، ولكن فقط طالما هم لا يزالون صغارا جدا» .

فقالت السيدة أيّوولا متهللة : «إذن فسوف تصبح الآن صغيرا جدا مرة ثانية ، يا ولدى الجميل» .

ومد باستيان يده وقضم ثمرة جديدة ، وفرحت السيدة أيوولا لـذلك وازداد ازدهارها بهاءً . وبعد فترة صمت قالت : «يبدو لى ، انه من المحبب جدا أن ننتقل إلى الغرفة المجاورة . من المرجح أنه أعد لك شيئا» .

فسأل باستيان وهو ينظر من حوله : «من ؟» .

فشرحت السيدة أيّوولا ببديهية قائلة : «بيت التغيير» . وبالفعل فقد حدث شيء غريب . فقد تغيرت الغرفة دون أن يلحظ باستيان شيئا من ذلك . فلقد انزلق سقف الغرفة إلى أعلى بينما اقتربت الجدران من المائدة اقترابا شديدا نسبيا من ثلاثة جوانب . وعلى الجانب الرابع كان لا يزال هناك مكان ، ونشأ هناك باب كان مفتوحا حينئذ .

ونهضت السيدة أيّوولا ــ وشوهد الآن ، كم كان حجمها كبيرا ــ واقترحت قائله :

«فلنذهب ! فهو عنيد . ولا فائده من مقاومته إذا كان قد اعد مفـاجأة . فلندع له إرادته . فقصده غالبا ما يكون حسن فوق ذلك» .

ومشت من خلال الباب إلى المكان المجاور . وتبعها باستيان ، ولكنه أخذ معه لأجل الحرص صحفة الثمار .

الغرفة كانت كبيرة كالقاعة ، ولكنها كانت غرفة للطعام ، وقد بدت مألوفـة لباستيان بشكل ما .

والغـريب كان فقط أن جميـع قطع الأثـاث الموجـودة هناك ، وحتى المـائـدة والكراسى كانت عملاقة ، أكبر بكثير من أن يستطيع باستيان الوصول إليها .

وقالت السيدة أيّوولا مبتهجة : «انظر إلى هذا ! دائما يخطر على بال بيت التغيير شىء جديد . لقد صنع لك الآن غرفة مثلما يجب أن تبدو لطفل صغير» .

فسأل باستيان : «كيف هذا ؟ ألم تكن القاعة هنا من قبل ؟» .

فأجابت : «بالطبع لا . هل تعلم أن بيت التغيير نشيط جدا . إنه يجب أن يشترك بطريقته فى حديثنا . أعتقد أنه يريد بذلك أن يقول لك شيئا» .

ثم جلست على كرسى عند المائدة ، ولكن باستيان حاول بـدون جدوى أن يصل إلى أعلى كرسى آخر . وكان على السيدة أيّوولا أن تساعده وأن ترفعه ، ثم وصل بالكاد بأنفه فوق سطح المائدة . وكان سعيدا جدا أن أخذ صحفة الثمار معه ، واحتفظ بها على حِجره . فإن كانت فوق المائدة لما كان الوصول إليها ممكنا بالنسبة له .

وسأل قائلا : «هل لابد لك أن تتنقلى كثيرا ؟» .

فأجابت السيده أيّوولا : «ليس كثيرا ، ثلاث أو أربع مرات على الأكثر يوميا . وأحيانا ما يمزح بيت التغيير مع المرء فقط ، وتكون جميع الغرف معكوسة فجأة ، الأرضية إلى أعلى والسقف إلى أسفل أو ما شابه ذلك . ولكن هذا مجون محض ، وسرعان ما يعود إلى التعقل عندما أؤنبه . وفى الواقع هو بيت ظريف جدا وأنا أشعر بالراحة التامة فيه . ولدينا الكثير مما نضحك عليه سويا» .

واستفسر باستيان قائلا : «ولكن أليس هذا خطيرا ، أقصد ليلا مثلا والمرء نائم وعندما يتزايد صغر حجم الغرفة ؟» .

فصاحت السيدة أيّوولا وهى تكاد تكون غاضبة : «إلى أين يقودك فكرك ، يا ولدى الجميل ؟ إنه يحبنى ويحبك أيضا ، وهو سعيد بك» .

– «وإذا ما لم يكن يحب شخصا ؟» .

فردت قائلة : «لست أدرى ، ويا لها من أسئلة تطرحها ، حتى الآن لم يكن أحد هنا غيرى وغيرك» .

فقال باستيان : «أهكذا ! إذن أنا أول ضيف ؟» .

– «طبعا» .

ونظر باستيان حوله فى الغرفة الضخمة .

– «إن المرء لم يكن ليعتقد أن هذه الغرفة ستجد متسعاً لها داخل المنزل على الإطلاق . فمنظره من الخارج ليس بهذا الحجم» .

فقالت السيدة أيّوولا مفسرة : «بيت التغيير من الداخل أكبر من الخارج» .

وفى تلك الأثناء كان الغسق قد حل وازداد الظلام فى الغرفة شيئا فشيئا . واتكأ باستيان بظهره على الكرسى الكبير وأسند رأسه . وشعر بالنعاس بطريقة عجيبة .

وسأل قائلا : «لماذا انتظرتينى لهذه الفتره الطويلة يا سيدة أيّوولا ؟» .

فأجابت : «لقد كنت دائما أتمنى لنفسى طفلا ، صغيرا يجوز لى أن أدلله ، ويحتاج إلى حنانى ، ويمكننى القيام على رعايته ـ شخصا مثلك ، يا ولدى الجميل» .

وتثاءب باستيان وأحس بأن صوتها الدافىء قد هدهده للنوم بشكل لا يقاوم .

ورد قائلا : «ولكنك قلت ، أن أمك أيضا وجدّتك قد انتظرننى» .

والآن كان وجه السيدة أيّوولا فى الظلام .

وسمعها تقول : «نعم ، أمى أيضا وجدّتى رغبن فى طفل . ولكننى فقط عندى الآن واحد» . وأطبق النوم جفونه فجأة . وسأل بعناء :

- «كيف هذا ، إن أمك كان لديها أنت عندما كنت صغيرة . وجدتك كان عندها أمك . لقد كان عندهن إذن أطفال ؟» .

فأجاب الصوت خافتا : «لا ، يا ولدى الجميل . الأمر عندنا مختلف . إننا لا نموت ولا نولد . نحن دائما نفس السيدة أيّوولا ، وبالرغم من ذلك لسنا بهذه كذلك . فعندما تقدمت والدتى فى السن جفت وسقطت عنها كل الأوراق مثل حال شجرة فى الشتاء ، وانزوت فى بعضها تماما . وبقيت على هذا الحال وقتا طويلا . ولكنها بعد ذلك بدأت تُنبت يوما ما أوراقا صغيرة شابة من جديد ، وبراعم وأزهارا وأخيرا ثمارا . وهكذا نشأت أنا ، لأن هذه السيدة الجديدة أيّوولا كانت أنا . ونفس الشىء كان مع جدتى عندما أتت بوالدتى إلى الدنيا . نحن سيدات أيّوولا لا يمكن أن يكون لدينا طفلا إلا إذا ما أصابنا الذبول قبلها . ولكن حينئذ نكون نحن طفلنا الخاص ولا نستطيع أن نكون أمهات ولذلك فأنا سعيدة جدا ، أنك الآن هنا ، يا ولدى الجميل . . . » .

ولم يعد باستيان يجيب . فلقد انتقل إلى نعاس لذيذ سمع فيه كلامها كترنيم . وسمعها وهى تقف وتتقدم إليه وتنحنى عليه . وملست بحنان على شعره وقبلته على

جبهته . ثم شعر وهى ترفعه عاليا وتحمله إلى الخارج على ذراعها ، وارتكن برأسه على كتفها كطفل صغير . وغطس بعمق متزايد على الدوام فى ظلام دافىء من النوم . وشعر كما لو كانت ملابسه قد خُلعت عنه ووُضع فى فراش وثير عطر . وسمع كآخر شىء ــ من بُعْدٍ شاسع ــ كيف غنى الصوت العذب خافتا أغنية صغيرة :

«نم يا حبيبى ! تصبح على خير !
فأنت قاسيت الكثير
أيها السيد الكبير كن صغيرا ثانيا !
نم يا حبيبى ، نم هانئا !»

وعندما استيقظ فى الصباح التالى أحس براحة وسرور لم يشعر بمثلهما من قبل أبدا . ونظر حوله ورأى أنه يرقد فى غرفة مريحة جدا وصغيرة ــ ألا وهو سرير أطفال صغير . ولكنه كان سرير أطفال صغير ذا حجم كبير جدا أو بالأحرى ، لقد كان مثلما يجب أن يبدو لطفل صغير . وبدا له الأمر للحظة من الزمن مضحكا ، لأنه من المؤكد تماما لم يعد طفلا صغيرا . فكل ما منحته له فانتازين من قوة ومواهب كان لا يزال فى حوزته . وكذلك علامة الإمبراطورة الطفولية ما زالت تتدلى من حول رقبته مثل ذى قبل . ولكن فى اللحظة التالية كان الأمر بالنسبة له سيان تماما ، إذا ما بدا له رقوده هنا الآن مضحكا أم لا .

فلن يعرف الأمر أحد غيره والسيدة أيوولا أبدا ، وكلاهما كانا يعرفان أن كل شىء حسن وصحيح . ونهض واغتسل وارتدى ملابسه وخرج . وكان عليه أن ينزل سلما خشبيا ، وأتى إلى غرفة طعام كبيرة كانت قد تحولت أثناء الليل إلى مضجع . وكانت السيدة أيّوولا تنتظره بطعام الإفطار . وهى أيضا كانت فى حالة نفسية جيدة للغاية ، وجميع زهورها كانت يانعة ، وكانت تغنى وتضحك وكذلك رقصت معه حول منضدة المطبخ . وبعد تناول الطعام أرسلته إلى الخارج لكى يأتى إلى الهواء المنعش .

وكان يبدو أن صيفا أبديا يسود منحدر الورود الواسع الذى يحيط ببيت التغيير . وتجول باستيان بلا هدف ، وراقب النحل الذى كان يتلذذ بغذائه فى الأزهار بلا كلل . ويستمع إلى الطيور ، التى تغرد فى الأحراش ، ويلعب مع السحالى التى

كانت آمنة جدا لدرجة أنها كانت تزحف على يديه ، ومع الأرانب التى تركته يملّس عليها . وأحيانا ما كان يستلقى تحت مجموعة نباتات ويشم العطر العذب للورود ، وينظر بعينين نصف مفتوحتين إلى الشمس ، ويترك الوقت يمر كخرير جدول دون أن يفكر فى أى شىء معين .

وهكذا مرت أيام ، ومن الأيام أصبحت أسابيع . ولم يهتم بذلك . وكانت السيدة أيّوولا مرحة وترك باستيان نفسه بالتمام والكمال لأمومتها فى الرعاية والحنان . وكان يشعر دون أن يدرى ، كما لو أنه كان يشتاق منذ وقت طويل إلى شىء حصل عليه الآن بوفرة . وكاد ألاّ يستطيع أن يشبع منه .

وفتش فترة من الزمن بيت التغيير من السطح إلى القبو . ولقد كان هذا عملا لا يبعث على الملل بعد فترة قريبة جدا . لأن جميع الغرف كانت فى تغير دائم وكان هناك دائما شيئا جديدا يكتشف . وعلى ما يبدو أن البيت كان يجتهد كل الإجتهاد ليسلى ضيفه . فكان ينتج غرفا للعب ، وقطارات ومسرحاً للعرائس ، والزلاّجات ، وحتى أيضا أراجيح دائرة كبيرة .

وأحيانا ما كان باستيان يقوم بجولات تستغرق اليوم كله فى الأماكن المحيطة . ولكنه لم يكن يبتعد أبدا كثيرا عن بيت التغيير ، لأنه عادة ما كان يحدث أن ينتابه فجأة جوع شديد حقيقى إلى ثمار أيّوولا . ولم يكن يستطيع الانتظار تقريبا من اللحظة إلى الأخرى ليعود إليها وأن يأكل على هواه إلى أن يشبع .

وفى المساء كثيرا ما كانا يُجريان أحاديث طويلة مع بعضهما . وحكى لها عن كل شىء عايشه فى فانتازين ، عن بيريلين وجراأوجرمان ، عن كسايده وأتريو الذى جرحه جرحا بالغا أو حتى قتله .

وقال : «لقد فعلت كل شىء خطأ . لقد أسأت فهم كل شىء . أهدتنى طفلة الأقمار أشياء كثيرة جدا ، وأنا لم أفعل بها غير الشر بالنسبة لى ولفانتازين» .

ونظرت إليه السيدة أيّوولا طويلا .

وردت قائلة : «لا ، لا أعتقد ذلك ، لقد مشيت فى طريق الأمانى ، وهو غير مستقيم أبدا . لقد سرت طريقا لافّا طويلا . ولكنه كان طريقك . أتعرف لماذا ؟

أنت تنتمى إلى هؤلاء الذين لا يستطيعون العودة إلا عندما يعثرون على العين التى تنبع منها ماء الحياة . وهذه هى أكثر أماكن فانتازين غموضا . فلا يوجد طريق سهل إلى هناك» .

وبعد فترة صمت صغيرة أصافف قائلة :

- «كل طريق يؤدى إلى هناك ، كان فى النهاية هو الطريق الصحيح» .

وعندئذ اضطر باستيان فجأة إلى البكاء . وهو نفسه لم يعرف لماذا فقد شعر كما لو أن عقدة فى قلبه قد فُكت وتحلّلت إلى دموع . وبكى منتحبا واستمر فى النحيب ولم يستطع التوقف . فأخذته السيدة أيّوولا على حِجرها وملّست عليه بحنان ودفن وجهه فى الزهور على صدرها وبكى إلى أن شبع تماما وتعب .

وفى هذا المساء لم يُجريا مزيدا من الحديث .

وفى اليوم التالى أتى باستيان باحثا عن الحديث مرة أخرى :

- «أتعرفين أين يمكننى العثور على ماء الحياة ؟» .

فقالت السيدة أيّوولا : «على حدود فانتازين» .

فرد قائلا : «ولكن فانتازين ليس لها حدود» .

- «بلى ، ولكنها لا تقع بالخارج ، بل فى الداخل . هناك من حيث تتلقى الإمبراطورة الطفولية كل سلطتها ، وإلى حيث لا تستطيع هى نفسها المجىء» .

فسأل باستيان وهو مهموم : «وأنا سأعثر على الطريق إلى هناك ؟ ألم يفت الأوان فعلا ؟» .

- «توجد أمنية واحدة فقط تعثر بها على الطريق إلى هناك : بالأمنية الأخيرة» .

وفُزع باستيان .

- «سيدة أيّوولا — فى مقابل جميع أمنياتى التى تحققت عن طريق آورين ، نسيت شيئا . أهكذا الحال هنا أيضا ؟» .

وهزت رأسها بالإيجاب ببطء .

- « ولكننى لا ألا حظ من ذلك شيئاً على الإطلاق ! » .

- « وهل لاحظته فى المرات الأخرى ؟ إن ما نسيته لا يمكنك أن تعرفه بعد ذلك » .

- « وماذا سأنساه الآن ؟ » .
- « سأقوله لك عندما تحين اللحظة المناسبة . وإلاّ سوف تتشبث به » .
- « هل لابد لى أن أفقد كل شىء ؟ » .

فقالت : « لا شىء يُفقد ، كل شىء يتغير » .

فقال باستيان بقلق : « إذن ربما يجب علىّ أن أتعجل . ولا يجوز لى البقاء هنا » .

وملست على شعره .

- « لا تشغل بالك . سيستغرق وقتـا يستغرق . فعنـدما تستيقظ أمنيتـك الأخيرة ، فسوف تعرف ـ وأنا أيضا » .

وفعلاً بدأ منذ ذلك اليوم شىء يتغير بالرغم من أن باستيان نفسه لم يلحظ من ذلك شيئاً . فقوة التحول لبيت التغيير أحدثت تأثيرها . ولكنه مثله كمثـل جميع التغييرات الحقيقية حدث خافتا وئيدا كنمو النبات .

ومرت الأيام فى بيت التغيير ومازال الصيف مستمراً . واستمر باستيان أيضاً يتمتع بتدليل السيدة أيّوولا كالطفل . وكذلك ثمـارها مـا زال يستطعم حـلاوتها كالبداية ، ولكن نهمه أُشبع شيئاً فشيئاً . فكان يأكل منها أقل ، ولاحظت ذلك دون أن تعلق عليه بكلمة . وبنفس قدر قلة حاجته إليها ، استيقظ فيه اشتياق من نوع آخر تماماً ، رغبة لم يشعر بها أبدا حتى ذلك الوقت . وتختلف فى كل ناحية عن جميع أمنياته السابقة : الاشتياق إلى أن يستطيـع هو نفسـه أن يحب . وأدرك بالتعجب والأسى أنه لا يستطيع ذلك . ولكن أمنيته فى ذلك أصبحت أقوى وأقوى .

وفى أحدى الأمسيات عندما جلسا سويا مرة أخـرى ، تحدث عن ذلـك مع السيدة أيوولا . وبعد أن استمعت إليه صمتت طويلاً . وتركز بصرها على باستيان بتعبير لم يفهمه .

وقالت : « لقد عثرت الآن على أمنيتك الأخيرة ، إن إرادتك الحقيقية هى أن تحِب » .

- « ولكن لماذا لا أستطيع ذلك يا سيدة أيوولا ؟ » .

فأجابت : « ستستطيع ذلك فقط عندما تشرب من ماء الحياة . ولن تستطيع العودة إلى عالمك دون أن تأخذ معك شيئاً منها للآخرين » .

وصمت باستيان فى ارتباك . وسأل قائلا : « ولكن أنت ؟ ألم تشربى شيئا منه أيضا ؟ » .

فقالت السيدة أيوولا : « لا ، فالأمر عندى شىء مختلف . إننى أحتاج فقط إلى شخص أمنحه من وفرتى » .

- « ألم يكن هذا حباً ؟ » .

وفكرت السيدة أيّوولا برهة ثم أجابت :

- « لقد كان ما تمنيته أنت لنفسك » .

فسأل بقلق : « ألا تستطيع الكائنات الفانتازية أن تحب أيضا مثلى ؟ » .

فردت بصوت خافت : « ذلك يعنى أن هناك البعض القليل من مخلوقات فانتازين الذين جاز لهم أن يشربوا من ماء الحياة . ولكن لا أحد يعرف من هم . وهناك نبوءة نادراً ما نتحدث عنها فقط ، أنه مرة فى المستقبل البعيد سيأتى وقت يجلب فيه البشر الحب أيضا إلى فانتازين . حينئذ سيصبح كلا العالمين عالماً واحداً فقط ، ولكننى لا أعرف ماذا يعنى ذلك » .

فسأل باستيان بصوت خافت كذلك : « سيدة أيّوولا ، لقد وعدتينى ، عندما تحين اللحظة المناسبة ، ستقولين لى ، ما لابد أن أنساه لكى أعثر على أمنيتى الأخيرة . هل اللحظة المناسبة قد حانت الآن ؟ » .

وهزت رأسها بالإيجاب .

- « لابد أن تنسى أباك وأمك . الآن لم يعد لديك غير اسمك » .

وتفكر باستيان .

وقال ببطء : « أبى وأمى ؟ » ولكن لم يعد للكلمات معنى لديه . إنه لم يستطع التذكر . فسأل قائلا : « ماذا علىّ أ أفعله الآن ؟ » .

فردت : « لابد أن تتركنى ، فقد انقضى زمانك فى بيت التغيير » .

- « وإلى أين أذهب ؟ » .

- « أمنيتك الأخيرة ستقودك . لا تفقدها ! » .
- « هل أذهب الآن فوراً ؟ » .
- « لا ، الوقت متأخر . غدا مبكرا عند طلوع النهار . فمازالت لديك ليلة فى بيت التغيير . والآن نريد الذهاب إلى النوم » .

ونهض باستيان وتقدم إليها . الآن فقط ، عندما كان قريبا منها ، لاحظ فى الظلام أن جميع زهورها قد ذبلت .

وقالت : « لا تشغل بالك بهذا . وكذلك غدا باكرا عليك ألاّ تشغل بالك بى . سر فى طريقك . فكل شىء حسن وصحيح هكذا . تصبح على خير يا ولدى الجميل » . ثم صعد إلى غرفته .

وعندما نزل فى اليوم التالى رأى أن السيدة أيّـوولا لا زالت تجلس على نفس المكان . وقد سقطت عنها جميع الأوراق والزهور والثمار . وقد أغمضت عينيها ، وبدت كشجرة سوداء ميتة . ووقف باستيان طويلاً أمامها ينظر إليها . وفجأة انفتح باب يؤدى إلى الخلاء .

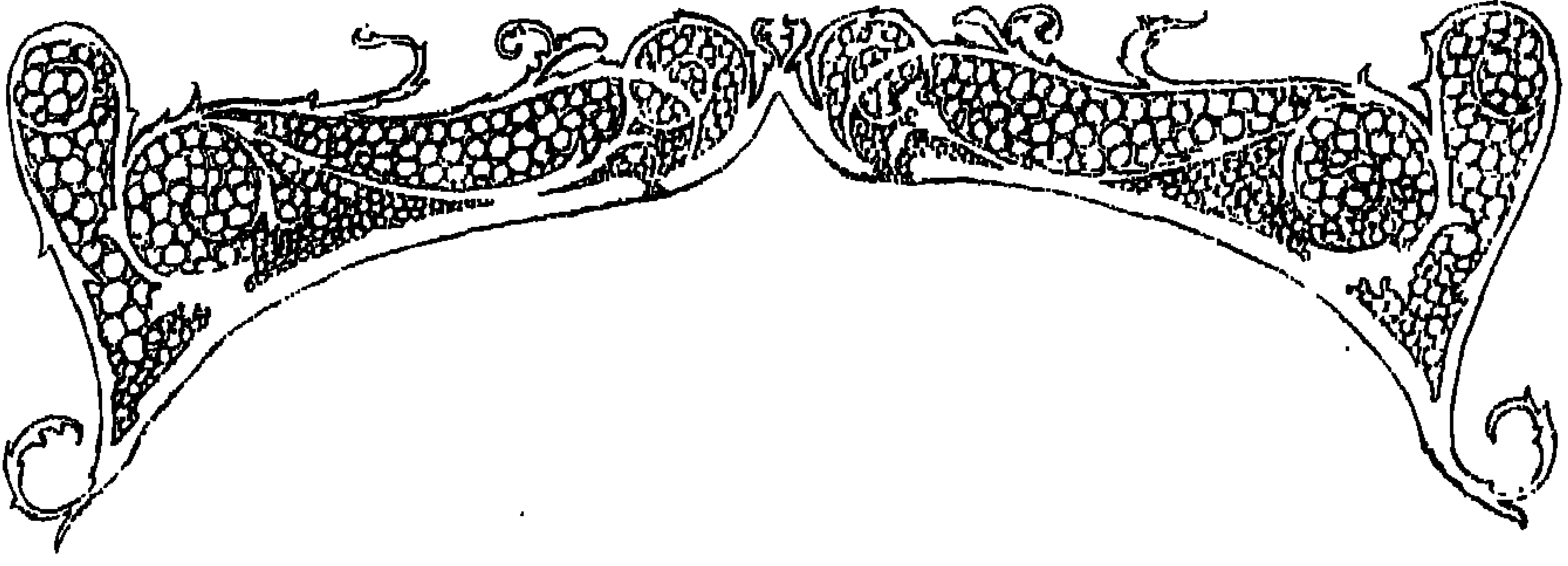
وقبل أن يمشى إلى الخارج ، التفت وراءه مرة أخرى وقال دون أن يدرى إذا كان يقصد السيدة أيّوولا أو البيت أو كليهما : « شكراً ، شكراً ، على كل شىء ! » .

ثم خطا إلى الخارج عبر الباب . وكان الشتاء قد حل أثناء الليل . والثلج يصل إلى الركبة . ولم يتبق من منحدر الورود المزدهر إلاّ شجيرات شوكٍ سوداء . ولم تكن أى ريح تتحرك . وكان الجو قارص البرودة وشديد السكون .

وأراد باسنيان الرجوع إلى البيت لكى يحضر معطفه ، ولكن الأبواب والنوافذ كانت قد اختفت . وقد انسد من جميع الجهات . ومضى إلى سبيله وهو يرتعد من البرد .

٢٥
منجم الطور





نصت يور ، عامل المنجم الضرير الواقف أمام كوخه ، إلى المدى البعيد من المساحة المغطاة بالثلج الممتدة إلى جميع الجهات . وكان السكون تاماً لدرجة أن أذنه الحساسة قد سمعت خطوات تخشخش فى الثلج لجائلٍ لا يزال بعيداً جداً . ولكن الخطوات كانت آتية ناحية المنجم .

يور كان رجلاً ضخماً عجوزاً ، ولكن وجهه غير ملتح وبلا تجاعيد . وكل شيء عليه ، رداؤه وجهه وشعره كان رماديا كالحجر . وقد بدا وهو يقف هناك بلا حراك كما لو كان منحوتا من قطعة كبيرة من صخور الحِمم . عيناه الضريرتان فقط كانتا داكنتين وفى عمقهما بريق كبريق شعلة صغيرة من اللهب .

وعندما اقترب باستيان ــ فقد كان هو الجائل ــ قال :

ــ « طاب يومك . لقد ضللت طريقى . إننى أبحث عن العين التى تنبع منها ماء الحياة . أتستطيع مساعدتى ؟ » .

واستمع عامل المنجم إلى الصوت المتكلم .

وهمس قائلا : « إنك لم تضل الطريق ، ولكن تكلم بصوت منخفض وإلاّ تفككت صورى » .

وأشار إلى باستيان ودخل هذا وراءه إلى الكوخ .

وكان يتكوّن من غرفة واحدة صغيرة سوئثة أثاثا بسيطا وغاية فى الفقر . منضدة خشبية كرسيان ومضجع خشبى للنوم وإطار من الألواح حُفظت فيه شتى أنواع المواد الغذائية والأوانى . وفى موقد مكشوف كانت تشتعل نار صغيرة معلق فوقها قدر تتصاعد منه أبخرة من حساء .

وغرف يور ملء طبقين لنفسه ولباستيان ووضعهما فى المنضدة ودعا الضيف بحركة من يده للطعام . وتناولا وجبتهما صامتين .

ثم ارتكن عامل المنجم ، وتخللت نظرات عينيه باستيان إلى بعد شاسع ، وسأل هامسا :

- « من أنت ؟ »
- « أنا أدعى باستيان بلتازار بوكس » .
- « آه ، إذن لا زلت تعرف اسمك » .
- « نعم ، ومن أنت ؟ » .
- «أنا يور ، الذى يسمى عامل المنجم الضرير . ولكننى لست ضريراً إلا فى النور . وتحت الأرض فى منجمى ، حيث يسود ظلام تام ، أستطيع أن أرى » .
- « أى منجم هذا ؟ » .
- « اسمه منجم مينرود . إنه منجم الصور » .

وكرر ذلك باستيان متعجبا : « منجم الصور ؟ إنى لم أسمع بمثل ذلك أبدا » . وبدا أن يور كان ينصت بلا انقطاع إلى شىء ما .

وهمس قائلاً : « ولكنه موجود بالذات لأشخاص مثلك ، للبشر الذين لا يستطيعون العثور على الطريق إلى ماء الحياة » .

وقال باستيان راغبا فى المعرفة : « أية صور هى ؟ » .

وأغمض يور عينيه وصمت برهة . ولم يعرف باستيان إذا كان عليه أن يكرر سؤاله . ثم سمع عامل المنجم وهو يهمس : « لا شىء يُفقد فى العالم . هل حلمت مرة بشىء ، وعند استيقاظك لم تعد تعرف ما كان ذلك ؟ » .

فأجاب باستيان : « نعم ، كثيرا » .

وهز يور رأسه وهو مفعم الفكر . ثم نهض وأشار لباستيان أن يتبعه . وقبل أن يخرجا من الكوخ أمسكه بقبضة شديدة من كتفه وهمس فى أذنه :

- « لكن ولا كلمة ، ولا صوت ، مفهوم ؟ ما سوف تراه هو عملى لسنين

كثيرة . وكل صوت يمكن أن يحطمه . ولذلك أسكت وتقدم بصوت منخفض ! » .

باستيان هز رأسه بالإيجاب ؛ وغادر الكوخ . وكان مُقاما من ورائه برج للنقل ومن تحته بئر يؤدى رأسيا إلى عمق الأرض . وخرجا مارين به إلى متسع المساحة الثلجية ، وحينئذ رأى باستيان الصور الموجودة هناك كالمحاطة بالحرير ، كما لو كانت جواهر ثمنية .

وكانت عبارة عن ألواح رقيقة جدا من نوع من الرخام الشفاف ، والملون بجميع الأشكال والأحجام ، مستطيلة ومستديرة ؛ كهيئة المكسورة والسليمة ، بعضها ضخم كنوافذ الكنائس وأخرى صغيرة كالرسومات الصغيرة على إحدى العلب . وكانت مرتبة تقريبا حسب الحجم والشكل ، فى صفوف تمتد إلى أفق السهل الأبيض .

وما تُمثله هذه الصور كان غامضا . فقد كانت هناك أشكالا مُلثمة يبدو أنها تطير فى عش كبير لأحد الطيور . أو حمير ترتدى أثواب القُضاة ، كانت هناك ساعات تسيح كالجبن الطرى ، أو دُمى ذات أعضاء متحركة تقف فى ميادين مُبهرة الإضاءة وخالية من الناس . وكانت هناك وجوها ورؤوسا تتركب كلية من الحيوانات ، وأخرى تكوّن منظرا طبيعيا . ولكن كانت هناك أيضا صورا عادية تماما ، رجال يحصدون حقلا للحبوب ، ونساء يجلسن فى إحدى الشرفات . وكانت توجد قرى جبلية ومناظر بحرية ، مشاهد حربية وعروض للسيرك ، شوارع وحجرات ، ووجوه مراراً وتكرار ، عجوزة وشابة ، حكيمة وساذجة ، مهرجون وملوك ، عابسون ومرحون . وكانت هناك صورا مرعبة ، مشاهد إعدام ورقصات الموتى ، وصورا مضحكة لسيدات شابات فوق عجل البحر ، أو لأنف يتمشى ويحييه جميع المارة .

وكلما طال تجولهما بمحاذاة الصور ، قلت استطاعة باستيان من تحليل ما تعنيه . شيء واحد فقط كان واضحا له ؛ فقد كان يمكن رؤية كل شيء عليها ، وإن كان غالباً فى تركيب غريب .

وبعد ما مر إلى جوار يور بصفوف الألواح لساعات كثيرة ، أُسدل الغسق فوق المساحة الشاسعة المغطاة بالثلج . وعادا إلى الكوخ . وعندما أغلقا الباب من

ورائهـا . **سأل يـور بصوت خـافت :** « هل كانت من ضمنها واحدة تعرفت عليها ؟ »

- **فرد باستيان :** « لا » .

وهز عامل الجبل رأسه مفكرا .

فقال باستيان راغبا فى المعرفة : « لماذا ؟ أية صور هذه ؟ » .

فقال يور مفسرا : « إنها الأحلام المنسية من عالم البشر . الحلم لا يمكن أن يصبح لا شيئاً عندما يُحلم مرة . ولكن إذا لم يحفظه الإنسان الذى حلمه ــ فأين يبقى إذن ؟ هنا عندنا فى فانتازين ، هناك إلى أسفل فى العمق تحت الأرض . هناك تُختزن الأحلام المنسية فى طبقات دقيقة جدا ؛ طبقة فوق الأخرى . وكلما حفر المرء إلى أسفل أكثر عمقا ازدادت كثافتها . فانتازين كلها تقف فوق أساسات من الأحلام المنسية » .

فسأل باستيان بدهشة : « وهل أحلامى من ضمنها ؟ » .

وهز يور رأسه فقط .

وواصل باستيان استفساره : « ومن رأيك أنه يجب علىّ العثور عليها ؟ » .

فأجاب يور : « واحد على الأقل ، واحد يكفى » .

فقال باستيان راغبا فى المعرفة : « ولكن لماذا ؟ » .

واتجه عامل المنجم إليه بوجهه الذى لم يكن ينيره الآن غير شعاع النار الصغير بالموقد . ونظرت عيناه الضريرتان مرة أخرى من خلال باستيان كما لو كانت تنظر إلى بعدٍ شاسع .

وقال : « اسمع يا باستيان بلتازارا بوكس . إننى لا أحب أن أتكلم كثيرا . فالسكون أفضل عندى . ولكننى هذه المرة سأقولها لك . أنت تبحث عن ماء الحياة وتود أن تستطيع أن تحب لكى تعثر على طريق العودة إلى عالمك . الحب ــ هكذا تقال الكلمة ! ماء الحياة ستسألك : «تحب من ؟ فلا يستطيع المرء أن يجيب ببساطة بأى شكل وبوجه عام . ولكنك نسيت كل شىء ما عدا اسمك . وإذا لم تستطع

الإجابة ، فلن يُسمح لك بالشرب ولذلك لا يستطيع مساعدتك سوى حلم منسى ، تعثر عليه مرة أخرى ، صورة تقودك إلى العين ولكنك فى مقابل ذلك لابد أن تنسى آخر شىء لا يزال عندك : أنت نفسك . وهذا يعنى عملا قاسيا وصبورا . احفظ كلامى جيدا ، لأننى لن أتفوه به مرة ثانية أبدا . »

وبعد ذلك استلقى فوق مضجعه الخشبى وراح فى النوم . ولم يبق لباستيان شىء آخر سوى أن يقنع بالأرض الباردة مخدعا له . ولكن هذا لم يكن له أهمية عنده .

وعندما استيقظ فى الصباح التالى وأجزاء جسمه متصلبة ، كان يور قد انصرف فعلا . ربما كان قد نزل إلى المنجم مينرود . وأخذ باستيان بنفسه صحنا من الحساء الساخن الذى يبعث فيه الدفء ولكن لم يرقه طعمه بشكل خاص . فقد ذكرته ملوحته قليلا بطعم الدموع والعرق .

ثم مشى إلى الخارج وتجول خلال ثلج السهل الواسع مارا بالصور التى لا تحصى . وتأمل واحدة بعد الأخرى باهتمام ، لأنه الآن كان يعرف ما يرتبط بها بالنسبة له ، ولكنه لم يستطع اكتشاف واحدة تمس مشاعره بأى شكل . فقد كانت كلها عديمة الأهمية تماما عنده .

وفى المساء تقريبا رأى يور وهو يصعد من بئر المنجم فى أحد صناديق النقل . وكان يحمل على ظهره فى قفص خشبى بضعة ألواح مختلفة الأحجام من الرخام الرقيق جدا . ورافقه باستيان صامتا وهو يخرج مرة أخرى إلى بعيد إلى السهل وهو يضع مكتشفاته الجديدة بأعظم الحرص محاطة بالثلج الناعم فى نهاية أحد الصفوف . إحدى الصور كانت تبين رجلا صدره قفص طيور تجلس بداخله حمامتان . وأخرى تبين امرأة حجرية تركب على سلحفاة كبيرة . صورة صغيرة جدا لم تُظهر إلا فراشة تبين أجنحتها بقعا على شكل حروف . وكانت هناك صورا أخرى ولكن ولا واحدة كانت لها أية دلالة عند باستيان .

وعندما جلس مرة أخرى مع عامل المنجم فى الكهف ، سأل قائلا :

ــ « ماذا يحدث للصور إذا ما ذاب الثلج ؟ »

فرد يور : « هنا شتاء دائم . »

وكان هذا هو كل حديثهم فى هذا المساء .

وواصل باستيان بحثه أثناء الأيام التالية عن صورة من بين الصور يتعرف عليها ثانية أو على الأقل يكون لها مدلول خاص لديه ــ ولكن بلا جدوى . وفى المساء جلس مع عامل المنجم ، ولأن هذا كان صامتا تعود باستيان أيضا على أن يصمت . وحتى الطريقة الحريصة فى التحرك لكيلا يحدث صوتا يمكنه أن يجعل الصور تتفكك ، اتخذها عن يور شيئا فشيئا .

وقال باستيان فى إحدى الأمسيات : « ماذا أفعل ؟ وهل أنتظر الجديدة التى ستخرجها ؟» وفكر يور برهة ثم هز رأسه بالنفى .

وهمس قائلا : « لو كنت مكانك لنزلت بنفسى إلى منجم مينرود ونقبت فى نهايته . »

فقال باستيان : « ولكن ليس لى عيناك ، أنا لا أستطيع أن أرى فى الظلام . »

وسأل يور ونظر مرة أخرى من خلال باستيان : « ألم تُمنح أى ضوء فى رحلتك الطويلة ؟ أى حجر مضىء ، أى شىء مطلقا يمكنه الآن أن يساعدك ؟»

فأجاب باستيان حزينا : « بلى ، ولكننى استخدمت التساهير فى شىء آخر . »

فقال يور مكررا بوجه متحجر : « أمر سيىء . »

فقال باستيان راغبا فى المعرفة : « بم تنصحنى ؟»

وصمت عامل المنجم طويلا مرة أخرى قبل أن يجيب :

ــ « إذن عليك أن تعمل فى الظلام . »

وانتابت باستيان رعدة . فصحيح لازالت عنده كل القوة وعدم الخوف التى منحها له آورينْ ، ولكن عند تصوره لوجوده بالعمق السحيق هناك فى باطن الأرض فى ظلام تام ، تحول النخاع فى عظامه إلى جليد . ولم يقل شيئا آخرا ، وخلد كلاهما إلى النوم .

وفى الصباح التالى هزه عامل المنجم من كتفه .

وانتصب باستيان .

فأمره يور باقتضاب : « تناول حساءك وتعال !»

وفعل باستيان ذلك .

وتبع عامل المنجم إلى البئر ، وصعد معه سويا المركبة الناقلة . ثم نزل إلى منجم مينرود . ونزل إلى أعمق وأعمق . وكان آخر شعاع ضوء ضئيل يأتى من فتحة البئر ، قد اختفى ، واستمرت الناقلة فى الهبوط إلى أسفل فى الظلام . وأخيرا بينت رجة أنهما وصلا إلى القاع . ونزلا .

وكانت الحرارة هناك بأسفل أكثر دفئا بكثير عن فوق فى السهل الشتوى ، وبعد فترة قصيرة تصبب العرق من كل جسم باستيان ، بينما هو يجتهد ألاّ يفقد عامل المنجم الذى يسير مسرعا أمامه فى الظلام . وكان طريقا متعرجا عبر ممرات ودروب لا تحصى وأحيانا أيضا قاعات ، كما أمكن استنتاج ذلك من الصدى الخافت لخطواتهما . واصطدم باستيان بألم مرات عديدة ببروزات ودعامات خشبية ، ولكن يور لم يعبأ بذلك .

وفى اليوم الأول هذا وفى البضعة أيام التالية أيضا علمه عامل المنجم فى صمت بأن اقتاد يدى باستيان فقط ، فن فصل طبقات الرخام الدقيقة الرقيقة جدا عن بعضها ورفعها بحذر . وكانت هناك أدوات لذلك كانت تُحس كمحارات خشبية أو عظْمية ، فهو لم يرها أبدا ، لأنها كانت تظل فى موقع العمل عندما ينتهى شغل اليوم .

شيئا فشيئا تعلم أن يدبر أمره فى الظلام التام هناك بأسفل . فقد تعرف على الممرات والسراديب بحاسة جديدة لم يستطع تفسيرها . وفى يوم من الأيام أمره يور بدون كلام عن طريق اللمس بيديه فقط ، أن يعمل ابتداء من الآن وحده فى سرداب منخفض لا يستطيع المرء الدخول فيه إلاّ زحفا . وأطاع باستيان . وفى نهايته كان ضيقا جدا ، ومن فوقه قبع الثقل الجبلى للصخر العتيق .

ورقد متكوّرا كالطفل الذى لم يولد فى بطن أمه ، فى الأعماق المظلمة لأساسات فانتازين ونقب فى صبر عن حلم منسى ، عن صورة يمكنها أن تقوده إلى ماء الحياة .

ونظرا لأنه لم يكن يستطيع أن يرى شيئا فى الليل الأبدى لباطن الأرض ، فلم يستطع أيضا أن يتخذ اختيارا ولا قرارا . وكان عليه أن يأمل فى أن الصدفة وأن قدرا

رحيما سيبلغه فى وقت ما إلى الاكتشاف الصحيح . مساء بعد الآخر كان يجلب إلى الضوء الزائل للنهار بأعلى ، ما استطاع أن يخلصه فى أعماق منجم مينرود . ومساء بعد الآخر كان عمله بلا طائل . ولكن باستيان لم يشتك ولم يتبرم فلقد فقد كل الإشفاق على نفسه . وأصبح صابرا وهادئا . وبالرغم من أن قواه لم تكن تنضب ، فكثيرا ما أحس بالتعب الشديد .

ولم يكن ممكنا القول كم سيستمر هذا الوقت العصيب ، لأن مثل هذا العمل لا يمكن قياسه بالأيام أو الشهور . وعلى كل حال فقد حدث فى إحدى الأمسيات أن جلب معه صورة هيجت مشاعره على الفور جدا لدرجة أنه اضطر أن يتمالك كيلا يطلق صوتا تعبيرا عن المفاجأة ويحطم بذلك كل شىء .

وعلى اللوح الرخامى الرقيق ــ ولم يكن كبيرا جدا ، وكان له حجم إحدى صفحات الكتاب العادية تقريبا ــ كان يُرى بوضوح وبجلاء شديد رجل يرتدى معطفا أبيض . ويحمل فى إحدى يديه طاقم أسنان من الجبس . وكان يقف هناك وقد أثارت وقفته والتعبير المهموم فى وجهه الشّفقة فى قلب باستيان . ولكن أكثر ما أثر فيه أن الرجل كان متجمدا فى كتلة جليد لها نقاوة الرخام . فقد كانت تحيط به كلية ومن جميع الجوانب طبقة جليد لا يمكن اختراقها ولكنها شفافة تماما .

وبينما كان باستيان يتأمل الصورة الموجودة أمامه فى الثلج ، استيقظ فيه اشتياق إلى هذا الرجل الذى لم يعرفه . لقد كان شعورا كالآتى من بُعدٍ كبير ، كالفيضان العارم فى البحر الذى لا يلاحظ فى بداية الأمر تقريبا إلى أن يقترب أكثر وأكثر ، ويصبح فى النهاية موجة هائلة فى ارتفاع المنزل تجرف كل شىء معها وتقذف به بعيدا . وكاد باستيان أن يغرق فيها وجاهد من أجل تنسم الهواء . وآلمه قلبه ، فلم يكن كبيرا بما يكفى مثل هذا الاشتياق الهائل . وفى موجة المد هذه غرق كل ما كان يمتلكه من تذكر لنفسه . ولشىء آخر ما كان لديه : وهو اسمه الخاص .

وعندما أتى فيما بعد إلى يور فى الكوخ ، صمت . وكذلك عامل المنجم لم يقل شيئا ولكنه نظر ناحيته طويلا ، بينما بدت عيناه مرة أخرى كما لو كانت تنظر إلى بُعْدٍ كبير ، ثم ارتسمت لأول مرة فى كل هذا الوقت ابتسامة قصيرة على ملامحه الرمادية بلون الحجر .

وفى تلك الليلة لم يستطع الصبى ، الذى لم يعد له الآن اسم ، أن ينام برغم كل التعب . فقد كان يرى الصورة أمامه بلا انقطاع . وكان يشعر كما لو أن الرجل يريد أن يقول له شيئا ولكنه لم يكن يستطيع لأنه كان مسجونا فى كتلة الجليد . وكان الصبى عديم الاسم يريد أن يساعده ، كان يريد أن يجعل هذا الجليد يذوب . ورأى نفسه فيما يشبه حلم اليقظة وهو يحتضن كتلة الجليد لكى يذيبه بحرارة جسمه . ولكن كل شىء كان عديم الجدوى .

ولكنه سمع فجأة ما كان يريد الرجل أن يقوله له ، ولم يسمعه بأذنيه ولكن عميقا فى قلبه الخاص :

ــ « أرجوك ساعدنى ! لا تخذلنى ! إننى لن أخرج وحدى من هذا الجليد . ساعدنى ! أنت فقط تستطيع أن تخلصنى . أنت فقط ! »

وعندما نهضا فى الصباح التالى عند بزوغ النهار ، قال الصبى عديم الاسم ليور :

« إننى لن أنزل اليوم معك إلى منجم مينرود . »

ــ « أتريد أن تتركنى ؟ »

فهز الصبى رأسه بالإيجاب : « أريد الذهاب والبحث عن ماء الحياة . »

ــ « هل عثرت على الصورة التى سترشدك ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « أتريد أن تريها لى ؟ »

وهز الصبى رأسه بالإيجاب مرة أخرى . وذهب كلاهما إلى الثلج بالخارج ، حيث كانت الصورة ، ونظر الصبى إليها ، ولكن يور وجه عينيه الضريرتين إلى وجه الصبى ، كما لو كان ينظر من خلاله إلى بُعدٍ كبير ، وكان يبدو أنه ينصت طويلا إلى شىء ما . وأخيرا هز رأسه .

وهمس قائلا : « خذها معك ، ولا تفقدها . إذا ما فقدتها أو حطمتها ، فكل شىء ينتهى بالنسبة لك . لأنه لن يتبقى لك شىء حينئذ فى فانتازين . أنت تعرف عنى هذا . »

الصبى الذى لم يعد له اسم ، وقف منكس الرأس وصمت برهة من الزمن .

ثم قال بصوت منخفض كذلك :

ـ «شكرا لك ، يور ، على ما علمتنى له .»

وتصافحا .

وهمس يور : « لقد كنت عامل منجم جيد ، واشتغلت باجتهاد .»

وبذلك انصرف ومشى فى اتجاه بئر منجم مينرود . وبدون أن يلتفت وراءه مرة أخرى ركب المركبة الناقلة وراح إلى العمق .

ورفع الصبى عديم الاسم الصورة من الثلج وخاض فى متسع السهل الأبيض .

ساعات كثيرة تجولها . واختفى كوخ يور من ورائه فى الأفق منذ وقت طويل ، ولم يُحط به سوى المساحة البيضاء الممتدة إلى جميع الجهات . ولكنه شعر كيف تشده الصورة التى يمسك بها بحرص بكلتا يديه ، إلى اتجاه معين .

وكان الصبى عازما على اتباع هذه القوة ، لأنها سوف تأتى به إلى المكان الصحيح وإن كان الطريق الآن طويلا أم قصيرا . ولا ينبغى أن يعوقه الآن شىء . فقد كان يريد العثور على ماء الحياة ، وكان متأكدا أن ذلك فى استطاعته .

وفجأة سمع ضجيجا فى الأجواء بأعلى ، لقد كان كصراخ وشقشقة من حناجر متعددة وعندما نظر إلى أعلى للسماء ، رأى سحابة داكنة بدت كسرب كبير من الطيور . فقط عندما اقترب هذا السرب أكثر ، عرف ما هو فى الحقيقة ، فظل واقفا كالمتسمر من الرعب . لقد كانت الفراشات المهرجة ، الشلاموفن !

وفكر الصبى ، عديم الاسم قائلا : « يا لرحمة السماء . أرجو ألا تكون قد رأتنى . إنها سوف تحطم الصورة بصراخها .» ولكنها كانت قد رأته .

وهوى السرب إلى أسفل بضحك وصراخ هائل على الجائل الوحيد وهبطت من حوله فى الثلج . ونعقت وهى تفتح أفواهها الملونة بشدة : « مرحى ! أخيرا عثرنا عليه ، ولىّ نعمتنا العظيم .»

وتقلبت فى الثلج . وتقاذفت بكرات الثلج وتشقلبت ووقفت على رؤ وسها .

وهمس الصبى عديم الاسم يائسا : « اخفضوا أصواتكم ! من فضلكم

اخفضوا أصواتكم !»

فصرخت المجموعة كلها بسرور :

ــ « ماذا قال ؟»

ــ « لقد قال إن صوتنا منخفض جدا . »

ــ « لم يقل هذا أحد من قبل . »

وسأل الصبي قائلا : « ماذا تريدون مني ؟ لماذا لا تتركوني في سلام ؟»

ودار الجميع من حوله ونقنقوا قائلين :

ــ « يا ولي النعمة العظيم . يا ولي النعمة العظيم . أما زلت تعرف كيف خلصتنا عندما كنا لا نزال الأخاراي ؟ لقد كنا في ذلك الوقت أتعس الكائنات في فانتازين ، ولكننا الآن ضقنا ذرعا بأنفسنا . إن ما جعلته منا ، كان في البداية شيئا مضحكا ، ولكننا الآن نشعر بالملل المميت . إننا نرفرف حائمين وليس لدينا شيء نستطيع أن نتعلق به . إننا لا نستطيع حتى أن نلعب لعبة صحيحة لأننا لا نملك القواعد . لقد جعلت منا مهرجين مضحكين بتخليصك لنا . لقد خدعتنا ، أيها المنعم العظيم . »

فهمس الصبي بفزع : « ولكن قصدي كان حسنا . »

فصرخ الشلاموفن بمجموعتهم : « أجل ، مع نفسك . لقد بدوت لنفسك عظيما جدا . ولكننا دفعنا ثمن كرمك ، أيها المنعم العظيم . »

فسأل الصبي : « ماذا أفعل إذن ؟ ماذا تريدون مني ؟»

فصرخ الشلاموفن بوجوه مهرجين مشوهة : « لقد كنا نريد اللحاق بك قبل أن تستطيع الفرار . والآن لقد لحقنا بك ، ولن نتركك في سلام قبل أن تصبح زعيما لنا . لابد أن تصبح الشلاموفن الأعلى ، رئيس شلاموفنا ، الجنرال شلاموف . وكل ما تريد . »

فهمس الصبي متضرعا : « ولكن لماذا ، لماذا ؟»

وردت مجموعة المهرجين صارخة :

ــ « نريد أن تصدر لنا الأوامر ، وتنهى وتأمر فينا ، أن تجبرنا على أي شيء ، أن تحظر علينا أي شيء . نريد أن يكون وجودنا لأي شيء ما !»

ـ « إننى لا أستطيع ذلك . لماذا لا تختارون واحدا من بينكم ؟»

ـ « لا ، لا ، إننا نريدك أنت ، أيها المنعم العظيم ! فأنت جعلت منا ما نحن عليه الآن . »

فقال الصبى لاهثا : « كلا ! لابد أن أعود !»

فصرخت أفواه المهرجين : « ليس بهذه السرعة ، أيها المنعم العظيم . لن تفلت منا . سيروقك جيداً أن تفلت من فانتازين بهذه البساطة !»

فقال الصبى مؤكدا : « ولكننى انتهيت !»

فردت المجموعة : « ونحن ؟ ماذا نكون ؟»

فصاح الصبى : « اذهبوا بعيدا ! لم تعد فى استطاعتى مراعاتكم ! »

فردت الأصوات الحادة : « إذن عليك أن تعيدنا . إذن نحن نفضل أن نصبح الأخاراىْ مرة أخرى . لقد جفت بحيرة الدموع ، وأمرجانت تقبع على الجفاف . ولم يعد أحد ينسج زخارف الفضة الدقيقة . إننا نريد أن نكون الأخاراىْ مرة أخرى » .

فأجاب الصبى : « لم أعد أستطيع ذلك . لم يعد لى نفوذ فى فانتازين . »

فدوى السرب كله ودار بلا انتظام : « اذن سنأخذك معنا !»

وأمسكت به فئات من الأيادى الصغيرة وحاولت أن تجذبه إلى أعلى . ودافع الصبى بكل قواه . وطارت الفراشات فى كل الاتجاهات . ولكنها كانت ترجع دائما بعناد كالزنابير الهائجة .

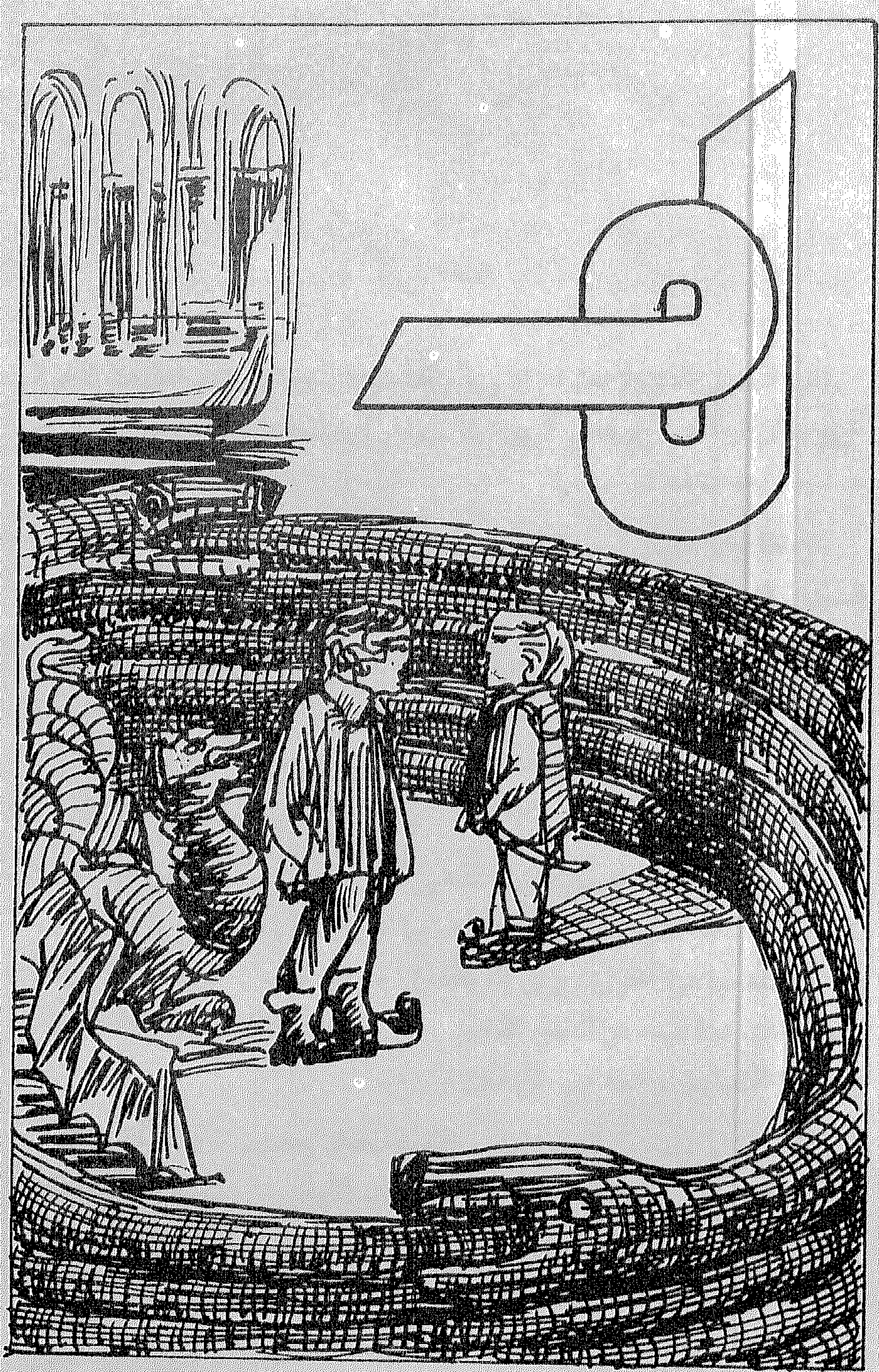
وفى وسط صيحات الاستنجاد والزعيق سُمع فجأة من بعيد رنين خافت ولكنه قوى ، وكان صوته كدوى جرس برونزى كبير .

وفى لمح البصر لاذ الشلاموفن بالفرار ، واختفوا كسرب داكن فى السماء . وركع الصبى الذى لم يعد له اسم ، فى الثلج . وأمامه الصورة ، وقد تفككت إلى تراب . الآن ضاع كل شىء . لم يعد هناك شىء يمكن أن يرشده إلى الطريق إلى ماء الحياة .

وعندما رفع بصره ، رأى من خلال دموعه بغير وضوح على مسافة قليلة شكلين على المجال الثلجى أمامه ، شكلا كبيرا ، وشكلا صغيرا . ومسح عينيه ، ونظر مرة أخرى إلى هناك . لقد كانا فُخور ، تنين الحظ الأبيض ، وأتريو .

٢٦

ماء الحياة





هبَّ الصبى الذى لم يعد له اسم ، واقفا بتردد ، ومشى عده خطوات ناحية أتريو . ثم توقف . ولم يفعل أتريو شيئا ، ونظر إليه فقط باهتمام وهدوء . الجرح بصدره لم يعد ينزف .

ووقفا وقتا طويلا فى مواجهة بعضهما ، ولم يقل واحد منهما كلمة . وساد السكون لدرجة أن كلاً منهما سمع أنفاس الآخر .

ومد الصبى عديم الاسم يده ببطء إلى القلادة الذهبية حول رقبته وخلع آورين وانحنى إلى أسفل ووضع الجوهرة بحرص أمام أتريو فى الثلج . وأثناء ذلك تأمل مرة أخرى الثعبانين الفاتح والداكن اللون اللذين يعض كل منهما الآخر فى ذنبه ويكونان شكلا بيضاويا . ثم تركه .

وفى نفس اللحظة أصبح البريق الذهبى لآورين منيرا وساطعا فوق كل الحدود لدرجة أنه اضطر أن يغمض عينيه وقد أصابهما الإبهار ، كما لو أنه نظر فى الشمس . وعندما فتحهما مرة أخرى ، رأى أنه يقف فى بهو ذى قباب ، كبيرة كقبة السماء ، كانت لبنات هذا البناء من الضوء الذهبى . وفى وسط هذه الغرفة الهائلة الحجم كان يرقد كلا الثعبانين ، عملاقين مثل سور المدينة .

ووقف أتريو وفخور والصبى عديم الاسم بجوار بعضهم ناحية رأس الثعبان الأسود الذى كان يمسك فى حلقه بطرف الثعبان الأبيض . وكانت العين الجامدة بحدقتها العمودية مصلتة على الثلاثة . وكانوا بالمقارنة به ضئيلين ، وحتى تنين الحظ بدا صغيرا كيرقة بيضاء .

وكان جسما الثعبانين العملاقان الساكنان يتلألآن كمعدن غير معروف . أحدهما أسود كالليل والآخر أبيض كالفضة . وما كان يمنع الدمار الذى يمكن أن يحدثاه إلاّ لأنهما يأسران بعضهما الآخر . فإذا ما تركا بعضهما فسوف تنمحى الدنيا . وكان هذا مؤكدا .

ولكن بينما هما يقيدان بعضهما الآخر ، كانا يحرسان فى نفس الوقت ماء الحياة لأنه فى الوسط ، الذى كانا يرقدان من حوله ، كانت تهدر عين نضّاخة هائلة يتراقص شعاعها إلى أعلى وإلى أسفل ، وفى سقوطه يكوّن آلافاً من الأشكال ، ويتحلل مرة أخرى ، أسرع بكثير من أن تستطيع العين أن تتابعه ، والمياه تتناثر إلى ضباب دقيق ينكسر فيه الضوء الذهبى إلى جميع ألوان قوس قزح . لقد كان هديرا وتهليلا ، وغناء وهتافا ، وضحكا وصياحا بألف صورة للفرح .

ونظر الصبى عديم الاسم إلى هذا الماء كالذى سيهلك من العطش ـــ ولكن كيف السبيل للوصول إليه ؟ فرأس الثعبان لم يتحرك .

وفجأة رفع فخور رأسه . وبدأت كريات عينيه الحمراوين بلون الياقوت تلمعان .

وسأل قائلا : «أتستطيعان أن تفهما أيضا ما تقوله المياه ؟»

فأجاب أتريو : «لا ، لست أنا»

وهمهم فخور قائلا : «لست أدرى كيف يحدث هذا ، ولكننى أفهمها بوضوح تام . ربما لأننى تنين حظ . فجميع لغات الفرح أقارب لبضعها»

وسأل أتريو : «ماذا تقول المياه ؟»

واستمع فخور بانتباه وقال ما سمعه ببطء وكلمة كلمة :

«نحن مياه الحيـــاة
عين تنبع من ذاتهـــا
يزداد ثراء جريانهـــا
كلما زاد ما شربتم مننـــا» .

وأنصت برهة مرة أخرى وقال :

إنها تنادى بلا انقطاع : «اشرب ! اشرب ! اشرب ! افعل ما أنت تريد !»

فسأل أتريو : «وكيف يمكننا المجىء إلى هناك ؟»

فشرح فخور : «إنها تسألنا عن أسامينا»

فصاح أتريو : «أنا أتريو»

وقال فخور : «أنا فخور !»

وظل الصبى عديم الاسم صامتا .

ونظر إليه أتريو ، ثم أخذه من يده وصاح :

« هو باستيان بلتازار بوكس » .

وترجم فخور قائلا : «إنها تسأل لماذا لا يتكلم هو بنفسه »

فقال أتريو : «إنه لم يعد يستطيع ، لقد نسى كل شىء»

ومرة أخرى أنصت فخور برهة للهدير والخرير : «إنها تقول ، إنه لا يستطيع الدخول بلا ذاكرة . الثعبانان لا يسمحان له بالمرور»

فصاح أتريو : «لقد احتفظت بكل شىء من أجله ، كل ما حكاه لى عن عالمه . انى أضمنه» وأنصت فخور .

- «إنها تسأل ـــ بأى حق تفعل هذا ؟»

فقال أتريو : «أنا صديقه»

ومرت برهة من الزمن مرة أخرى بينها يستمع فخور بانتباه .

وهمس قائلا لأتريو : «يبدو أنه غير مؤكد إذا كانت ستجيز ذلك ـــ الآن تتكلم عن جرحك . إنها تريد أن تعرف كيف حدث . »

فقال أتريو : «كلانا كان معه حق . وكلانا أخطأ . ولكن الآن خلع باستيان آورين طواعية » .

وأنصت فخور ثم هز رأسه .

وقال : «نعم الآن ستجيز ذلك . هذا المكان هو آورين . وهى تقول إننا على الرحب والسعة»

ونظر أتريو إلى أعلى إلى القبة الذهبية العملاقة .

وهمس قائلا : «كل منا حمله حول رقبته ـ حتى أنت يا فخور لفترة وجيزة»

وأشار له تنين الحظ أن يصمت ، وأنصت مرة أخرى لإنشاد المياه . ثم ترجم قائلا :

- «آورين هو الباب الذى كان يبحث عنه باستيان . لقد كان يحمله معه منذ البداية . وهى تقول ـ لكن الثعبانين لن يسمحا بمرور شىء من فانتازين . ولذلك يجب على باستيان أن يسلّم كل شىء أهدته له الإمبراطورة الطفولية . وإلاّ فلن يستطيع أن يشرب من ماء الحياة»

فصاح أتريو : «ولكننا فى علامتها . أليست هى نفسها هنا ؟»

- «إنها تقول ، هنا ينتهى نفوذ طفلة الأقمار . وهى الوحيدة غير الجائز لها دخول هذا المكان أبدا . إنها لا تستطيع دخول قلب البريق لأنها هى لا تستطيع أن تخلع نفسها .»

وصمت أتريو مرتبكا .

واستطرد فخور قائلا : «إنها تسأل الآن إذا كان باستيان مستعدا ؟»

فقال أتريو بصوت عال : «نعم ، إنه مستعد»

وفى هذه اللحظة بدأ رأس الثعبان العملاق الأسود فى الارتفاع ببطء ، دون أن يترك أثناء ذلك طرف الثعبان الأبيض الذى يمسك به فى حلقه . وتقوس الجسمان الهائلان إلى أعلى إلى أن شكّلا بوابة مرتفعة نصفها أسود والآخر أبيض .

واقتاد أتريو باستيان من يده من خلال هذه البوابة المرعبة فى اتجاه العين النضاحة التى كانت الآن أمامها بكل عظمتها وبهائها . وتبعهما فخور . وبينما هم يتجهون

إليها كانت تسقط مع كل خطوة عن باستيان إحدى الهبات الفانتازية الرائعة بعد الأخرى . ومن البطل الجميل القوى الذى لا يَهاب أصبح مرة أخرى الصبى الصغير السمين الخجول وحتى ملابسه التى تمزقت إلى هلاهيل تقريبا فى مينرود التابع ليور ، اختفت ، وتحللت كلّية إلى لا شىء . وأخيرا وقف عاريا مجردا أمام الدائراة الذهبية الكبيرة التى كانت تتقافز فى وسطها مياه الحياة عاليا كشجرة من البللور .

وفى هذه اللحظة الأخيرة ، حيث لم يعد يمتلك أيا من الهبات الفانتازية ، ولكنه لم يستعد بعد تذكره لعالمه ولنفسه ، عايش حالة من عدم الأمان التام ، لم يعرف فيها إلى أى عالم ينتمى ، وإذا كان هو نفسه موجودا فى الواقع .

ولكنه قفز ببساطة فى الماء البللورى ، وتقلب ونفخ فى الماء ونثره ، وجعل وابل القطرات المتلألئة يأتى إلى فمه . وشرب وشرب إلى أن أطفىء ظمؤه وملأته البهجة من رأسه إلى قدمه ، البهجة بالحياة ، والبهجة بكيانه ذاته ، لأنه الآن عرف مرة أخرى من هو وإلى أين ينتمى . لقد ولد من جديد . وأجمل شىء كان أنه أراد الآن أن يكون بالضبط ذلك الذى كان . وإذا سُمح له أن يختار واحدا من الاحتمالات لما اختار احتمالا آخر . لأنه عرف : يوجد فى العالم ألف وألف شكل من السعادة ، ولكن فى الأساس هى جميعا سعادة واحدة ، السعادة فى أن تستطيع أن تحب . وكلاهما كان هو الشىء نفسه .

وحتى فيما بعد ، عندما رجع باستيان إلى عالمه مرة أخرى بوقت طويل وعندما كبر وأصبح فى النهاية عجوزا ، لم تغادره هذه السعادة أبدا كلية . وحتى فى أصعب أوقات حياته بقيت عنده سعادة فى قلبه جعلته يبتسم ويواسى الناس الآخرين .

وصاح إلى الصديق الذى كان يقف مع فخور عند حافة الدائرة الذهبية الكبيرة :

- « أتريو ! تعال ، أيضا ، تعال ! اشرب ! إنها رائعة ! »

وهز أتريو رأسه ضاحكا .

ورد صائحا : «لا ، هذه المرة نحن هنا لمرافقتك فقط . »

فسأل باستيان : «هذه المرة ؟ ماذا تقصد بذلك ؟»

وتبادل أتريو نظرة مع فخور ، ثم قال :

– «لقد كنا نحن الاثنان مرة هنا . إننا لم نتعرف على المكان على الفور مرة أخرى لأننا أحضرنا فى ذلك الوقت ونحن نائمون وانصرفنا ثانية ونحن نائمون . ولكننا تذكرنا الآن» .

وخرج باستيان من الماء .

وقال ووجهه يشع فرحا : «أجل ، الآن أتعرّف عليك مرة أخرى أيضا . أنت تبدو الآن مثل ذلك الوقت عندما رأيتك فى بوابة المرآة السحرية .»

ورفع باستيان بصره إلى الماء المزبدة المتلألئة .

وصاح فى هديرها : «أود أن أحضرها لأبى ، ولكن كيف ؟»

فأجاب أتريو : «لا أعتقد أن هذا ممكنا . فالمرء لا يستطيع أن يأتى بشىء من فانتازين إلى خارج حدودها .»

وأطلق فخور صوته الذى استعاد الآن رنينه البرونزى كاملا : «ولكن باستيان سوف يستطيع ذلك»

فقال باستيان : «إنك حقا تنين حظ»

وأشار له فخور أن يصمت وأنصت للهدير ذى الألف صوت :

ثم شرح قائلا : «المياه تقول لابد أن ترحل الآن ، ونحن أيضا»

فسأل باستيان : «وأين طريقى ؟»

فترجم فخور : «إلى الباب الآخر ، هناك حيث يقع رأس الثعبان الأبيض»

فقال باستيان : «حسن ، ولكن كيف يمكننى الخروج ؟ فالرأس الأبيض لا يتحرك .»

وفعلا كان رأس الثعبان الأبيض راقدا بلا حركة . وكان يمسك فى حلقه بطرف الثعبان الأسود وعينه الهائلة تحملق فى باستيان .

وأعلن فخور : « المياه تسألك إذا كنت قد أنهيت جميع القصص التى بدأتها فى فانتازين » .

وقال باستيان : «لا ، فى الحقيقة ولا واحدة »

واستمع فخور برهة . واتخذ وجهه تعبيرا للفزع .

- «إنها تقول ، إذن لن يسمح لك الثعبان الأبيض بالمرور . لابد أن تعود إلى فانتازين وأن تنهى كل شىء»

فتلعثم باستيان قائلا : «كل القصص ؟ إذن لن أستطيع العودة أبدا . إذن كل شىء كان بلا جدوى»

وأنصت فخور متوترا .

وقال باستيان راغبا فى المعرفة : «ماذا تقول ؟»

فقال فخور : «صه !»

وبعد برهة تنهد وقال شارحا:

- «إنها تقول ، لا توجد إمكانية فى التغيير ، إلا إذا وُجد شخص يتولى عنك هذه المهمة »

فصاح باستيان : «ولكنها قصص لا تحصى عددا ، ومن كل واحـدة تأتى قصص جديدة دائما ، ومثل هذه المهمة لا يمكن لأحد توليها . »

فقال أتريو : «بلى ، أنا»

ونظر إليه باستيان بذهول . ثم احتضنه وقال متلعثما : «أتريو ؛ أتريو ! لن أنسى لك هذا أبدا !»

وابتسم أتريو .

- «حسن ، يا باستيان ، إذن لا تنس فانتازين أيضا »

وربت على خده بأخوية ، ثم استدار بسرعة واتجه إلى باب رأس الثعبان الأسود ،

الذى كان لا يزال مقوسا إلى أعلى كما فى اللحظة التى دخلوا فيها المكان .

وقال باستيان : «فخور ، كيف ستختمون ما تركته لكم ؟»

وغمز التنين الأبيض بإحدى كريتا عينيه الحمراوين بلون الياقوت وأجاب :

- « بالحظ السعيد ، يا بنى ! بالحظ السعيد !»

وبذلك تبع سيده وصديقه .

وتابعهما باستيان بنظره وهما يخرجان من خلال الباب عائدين إلى فانتازين واستدار مرة أخرى ولوّحا له . ثم انخفض رأس الثعبان الأسود إلى أن رقد مرة أخرى على الأرض . ولم يعد باستيان يرى أتريو وفخور .

وكان الآن وحيدا .

واستدار إلى رأس الثعبان الآخر ، الأبيض ورأى أن هذا قد ارتفع فى نفس الوقت وتقوس جسما الثعبانين بنفس الطريقة مشكلين باباً كما فى الناحية الأخرى من قبل .

وبسرعة غرف بكلتا يديه من ماء الحياة وجرى ناحية الباب . ومن ورائه كان ظلاما .

وارتمى باستيان فيه ــ وسقط فى الخلاء .

فصرخ قائلا : «أبى ! أبى ،ــ أنا ــ باستيان ــ بلتازار ــ بوكس !»

« أبى ! ، أبى ! ــ أنا ــ باستيان ــ بلتازار ــ بوكس ! »

وأثناء ما هو يصرخ وجد نفسه دون مقدمات فى مخزن مبنى المدرسة مرة أخرى ، من حيث أتى إلى فانتازين منذ وقت طويل فى الماضى البعيد . ولم يتعرف على المكان على الفور . وبسبب الأشياء العجيبة التى رآها من حوله ، بسبب الحيوانات المحنطة ، والهيكل العظمى واللوحات ، كان فوق ذلك غير متأكد للحظة قصيرة إذا لم يكن لا يزال فى فانتازين . ولكنه رأى بعد ذلك حقيبته المدرسية والشمعدان الصدىء ذا السبعة أذرع بالشموع المطفأة ، وحينئذ عرف أين كان .

تُرى كم مضى من الزمن منذ أن بدأ من هنا رحلته الكبيرة من خلال قِصّة بلا نِهايَة ؟ أسابيع ؟ شهور ؟ ربما سنين ؟ لقد قرأ مرة قصة رجل أقام ساعة واحدة فقط فى كهف مسحور ، وعندما عاد كانت قد انقضت مائة عام ، ولم يكن يحيا من جميع الناس الذين يعرفهم ، سوى واحد كان فى ذلك الوقت طفلاً صغيراً والآن عجوزاً هرماً .

وسقط من خلال كوّة السقف ضوء معتم للنهار إلى الداخل ، ولكنه لم يكن ممكناً تحديد إذا كان الوقت ضحى أم عصراً . وسادت المخزن برودة قارصة ، بالضبط مثل الليلة التى انصرف فيها باستيان من هناك .

وفك نفسه من لفافة كومة الأغطية العسكرية المتربة التى كان يرقد تحتها وارتدى حذاءه ومعطفه ، وقد فوجىء عندما اتضح أن كليهما كان مبللاً كما فى ذلك اليوم عندما أمطرت مطراً شديداً .

وعلق السيور الجلدية على كتفه وبحث عن الكتاب الذى كان قد سرقه فى ذلك الوقت والذى بدأ كل شىء به . وكان عاقداً العزم أن يعيده إلى السيد كورياندر الفظ . فليعاقبه بسبب السرقة أو يبلغ عنه أو أن يفعل شيئاً أسوأ من ذلك ، بالنسبة لشخص مثل باستيان تخطى مثل هذه المغامرات ، لم يكن من السهل وجود شىء يجلب له الخوف . ولكن الكتاب لم يكن هناك .

باستيان بحث وبحث وقلّب الأغطية رأساً على عقب ونظر فى كل ركن . ولم يُجْدِ ذلك شيئاً . لقد اختفت قِصّة بلا نهايَة .

وأخيراً قال باستيان : « حسن ، إذن لا بد أن أقول له أنه فقد . من المؤكد أنه لن يصدقنى . ولا أستطيع تغيير ذلك . فلينشأ عن ذلك ما يكون . ولكن من يدرى إذا كان لا يزال يتذكر بعد هذا الوقت الطويل ؟ ربما لم يعد لمحل الكتب وجود بوجه عام ؟ » سوف يتضح هذا قريباً ، لأنه كان لا بد أن يمشى من خلال المدرسة أولاً . فإذا كان المعلمون والأطفال الذين سيقابلهم ، غرباء عليه ، فلسوف يعرف ما عليه أن يضعه فى الحسبان .

ولكنه عندما فتح باب المخزن حينئذ ونزل إلى ممرات مبنى المدرسة ، تلقاه سكون تام هناك . ويبدو أنه لم يكن هناك أى إنسان فى المبنى . وبالرغم من ذلك فقد دقت الساعة ببرج المدرسة التاسعة فى حينها . لقد كان الوقت إذن قبل الظهر ، والدراسة لابد وأن تكون قد بدأت منذ وقت طويل .

ونظر باستيان فى بعض الفصول المدرسية ، ولكن فى كل مكان ساد نفس الفراغ . وعندما تقدم إلى إحدى النوافذ ونظر إلى الشارع إلى أسفل ، رأى هناك بعض الناس تمشى وسيارات تسير . فالعالم إذن لم ينقرض على الأقل .

ونزل السلالم عدواً إلى بوابة المدخل الكبيرة وحاول أن يفتحها ، ولكنها كانت مغلقة . واتجه إلى الباب الذى يقع خلفه مسكن مُدبّر شئون المبنى ، ودق الجرس وقرع الباب ، ولكن لم يتحرك أحد .

وفكر باستيان . وكان مستحيلاً أن يستطيع انتظار احتمال أن يجىء أحد فى وقت ما لقد أراد الذهاب الآن إلى والده ، حتى وإن كان قد سكب ماء الحياة . أيفتح نافذة ويظل يصيح إلى أن يسمعه أحد ويعمل على أن يُفتح الباب ؟ لا ، لقد بدا له ذلك مخجلاً بشكل ما . وخطر له أنه يستطيع التسلق من النافذة . فقد كان من الممكن فتحها من الداخل . ولكن جميع نوافذ الدور الأرضى كانت عليها قضبان . ثم ورد إلى ذهنه أنه لاحظ سقالة بناء عندما نظر من الدور الأول إلى الشارع إلى أسفل . ويرجح أن طلاء أحد الأسوار الخارجية للمدرسة كان يُجرى تجديده . وصعد باستيان إلى الدور الأول مرة أخرى وذهب إلى النافذة . وأمكن فتحها ، وصعد خارجاً .

وكانت السقالة تتكون فقط من كمرات عمودية وبينها ألواح أفقية على مسافات معينة . واهتزت الألواح تحت ثقل باستيان إلى أعلى وأسفل . وانتابته للحظة نوبة من الدوار ، واعتراه الخوف ، ولكنه كتمها فى نفسه . لشخص كان سيد بيريلين ،لم تكن هناك مشكلة على الإطلاق ــ حتى وإن لم تعد لديه القوى الجسمانية الرائعة ، وإن كان ثقل جسمه السمين يسبب له قليلاً من الصعوبة . وبحث بحرص وهدوء عما يمسك به بيده ويستند عليه بقدمه ، ونزل متسلقاً الكمرات العمودية . وقد

دخلت فيه شظية مرة ، ولكنه لم يبال بمثل هذه الصغائر . ووصل إلى الشارع بأسفل وهو محرور ولاهث قليلاً ولكن سليم معافى . ولم يلاحظه أحد .

وجرى باستيان إلى المنزل . علبة الأقلام والكتب كانت تقرقع فى حقيبته المدرسية على إيقاع خطواته ، وانتابته وخزات فى جنبه ولكنه واصل الجرى . لقد كان يريد أن يذهب إلى والده . وعندما جاء أخيراً إلى المنزل الذى يسكن فيه وقف لحظة ونظر إلى النافذة بأعلى ، التى من ورائها معمل والده . وفجأة أطبق الخوف على قلبه حينئذ ، لأن خاطرا جاءه لأول مرة فى احتمال ألاّ يكون والده موجودا .

ولكن الأب كان موجودا ، ولابد أنه كان قد رآه ، لأنه عندما اندفع باستيان الآن صاعدا السلم ، أتى ناحيته عَدْوا . وفتح ذراعيه وارتمى باستيان فيهما . ورفعه الأب عاليا وحمله إلى المسكن .

وقال مكررا المرة تلو المرة :

« باستيان ، ولدى ، صغيرى العزيز ، أين كنت ؟ ماذا حدث لك ؟ »

فقط عندما جلسا على مائدة المطبخ ، وشرب لبنا ساخنا وأكل خبز الإفطار ، الذى غطاه الأب بعناية بطبقة سميكة من الزبد والعسل ، لاحظ باستيان كم كان وجه أبيه شاحبا ونحيلا . وكانت عيناه محمرتين وذقنه غير حليق . ولكن خلاف ذلك بدا بالضبط كمثل ذلك الوقت عندما انصرف باستيان .

وسأل الأب متعجبا :

« فى ذلك الوقت ؟ ماذا تقصد بذلك ؟ »

ــ « كم من الوقت كنتُ غائبا ؟ »

ــ « منذ أمس ياباستيان . منذ أن ذهبت إلى المدرسة . ولكن عندما لم تعد اتصلت بالمدرسين تليفونيا وعلمت أنك لم تكن هناك على الاطلاق . لقد بحثت عنك طوال النهار وطوال الليل يابنى . ولقد أرسلت الشرطة لأننى خشيت حدوث أسوأ الأمور . ياإلهى ، باستيان ، ماذا حدث ؟ لقد كدت أجن انشغالا عليك . أين كنت ؟ »

وبدأ باستيان الآن يحكى ماعايشه . وحكى كل شىء بالتفصيل التام ،

واستغرق هذا ساعات كثيرة .

واستمع إليه الأب كما لم يسمع إليه من قبل أبدا . وفهم ماحكى باستيان له . وفى الظهر تقريبا قاطعه مرة . ولكن فقط لكى يتصل بالشرطة تليفونيا ويخبرها بأن ابنه عاد وأن كل شىء على مايرام . ثم أعد لكليهما طعام الغذاء ، واستطرد باستيان فى حكايته . وحل المساء عندما وصل باستيان إلى قصته عن مياه الحياة وحكى كيف أنه أراد أن يحضر معه منها ولكنه سكبها .

وكان الظلام يعم المطبخ . والأب يجلس ساكنا . فوقف باستيان وأدار مفتاح النور . وحينئذ رأى شيئا لم يره من قبل أبدا .

رأى دموعاً فى عينى أبيه .

وأدرك أنه كان فى استطاعته أن يجلب له ماء الحياة . وسحبه الوالد بصمت إلى حِجْره وضغطه إلى صدره ، وربت أحدهما على الآخر . وبعد أن جلسا طويلاً ، تنفس الأب الصعداء بعمق ، ونظر إلى وجه باستيان وبدأ يبتسم . لقد كانت أسعد ابتسامة رآها باستيان عليه من قبل .

وقال الأب بصوت متغير تماماً :

« من الآن فصاعداً ، من الآن فصاعداً سيصبح كل شىء مختلفاً تماماً معنا ، أليس هذا من رأيك ؟ »

وهز باستيان رأسه بالإيجاب . لقد كان قلبه مفعماً أكثر من أن يستطيع الكلام .

وفى الصباح التالى كانت بوادر الثلج قد نزلت . وكان ناعماً وصافياً على أفريز النافذة أمام حجرة باستيان . ووصل رنين الأصوات بالشارع مخففاً إلى أعلى . وقال الأب بسرور أثناء الفطور : « أتعرف يا باستيان ؟ من رأيى أن لدينا حقيقة الداعى الكامل للاحتفال . فمثل هذا اليوم يحدث مرة واحدة فقط فى العمر ــ ولا يحدث لدى البعض أبداً . ولذلك أقترح أن نقوم سوياً بعمل شىء رائع تماماً . سأترك العمل اليوم ، ولا داعى لك أن تذهب إلى المدرسة . سأكتب لك اعتذاراً . ما رأيك فى هذا ؟ »

فسأل باستيان : « إلى المدرسة ؟ أما زالت موجودة ؟ عندما جريت بالأمس من خلال الفصول المدرسية لم يكن هناك ولا إنسان . ولا حتى مدبّر شئون المبنى . »

فرد الأب قائلاً : « أمسِ ؟ ولكن أمس كان عيد البشارة يا باستيان . » وقلب الصبى بتفكير فى مشروب الكاكاو على إفطاره . ثم قال بصوت منخفض : « أعتقد أن الأمر سيستغرق قليلاً من الوقت إلى أن أتعوّد الحياة مرة ثانية تعوداً صحيحاً .

فقال الأب وهو يهز رأسه : « فعلاً . ولذلك فلنهيىء لأنفسنا يوماً حافلاً . أى شىء تفضل أن تقوم به على الأكثر ؟ فى إمكاننا أن نقوم برحلة ما ، أم نريد أن نذهب إلى حديقة الحيوان ؟ وفى الظهر نُعد لأنفسنا أعظم وجبة رآها العالم من قبل . وبعد الظهر يمكننا أن نذهب لشراء كل ما تريده . ومساء ـ أتذهب مساء إلى المسرح ؟ »

ولمعت عينا باستيان . ثم قال بحزم :

ـ « لكن أولاً لابد لى أن أفعل شيئاً . لابد أن أذهب إلى السيد كورياندر ، وأقول له أننى سرقت الكتاب وفقدته . »

ومد الأب يده إلى يد باستيان .

ـ « اسمع يا باستيان إذا أردت ، أنجزتُ ذلك من أجلك . »

وهز باستيان رأسه بالنفى .

وقال حاسماً : « لا ، إن هذا شأنى وأريد أن أفعل ذلك بنفسى . والأفضل أن أفعله على الفور . »

ونهض وارتدى معطفه . ولم يقل الأب شيئاً ، ولكن النظرة التى تطلع بها إلى ابنه كانت بها المفاجأة والاحترام . فلم يتصرف ابنه على هذا النحو من قبل أبداً .

وقال أخيراً : « أعتقد أن الأمر عندى أيضاً سيستغرق قليلاً من الوقت إلى أن أتعود على التغيير . »

وصاح باستيان ، وهو فى الطرقة : « سأرجع سريعاً . من المؤكد أن الأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً . ليس هذه المرة . »

وعندما وقف أمام مكتبة السيد كورياندر هبطت شجاعته مرة أخرى . ونظر من خلال اللوح الزجاجى الذى كانت عليه الحروف المزخرفة ، إلى داخل المحل . وكان عند السيد كورياندر فى ذلك الحين عميل ، وفضّل باستيان أن ينتظر إلى أن ينصرف وراح يمشى أمام مكتبة الكتب القديمة جيئة وذهاباً . وبدأ الثلج ينزل مرة أخرى .

وأخيراً غادر العميل المحل .

وأصدر باستيان الأمر لنفسه : « الآن ! »

وفكر فى كيفية تقدمه مواجها جراُوجرمان فى صحراء الألوان جوآب . وبحزم ضغط على مقبض الباب .

وسمع سعال من وراء حائط الكتب الذى كان يحدد الغرفة المعتمة عند طرفها الآخر . واقترب باستيان منه ، ثم تقدم وهو شاحب قليلاً ولكنه جاد ومتمالك ، أمام السيد كورياندر الذى كان يجلس مرة أخرى على مقعده الجلدى اللامع من الاستهلاك كما فى اللقاء الأول .

وصمت باستيان . وكان يتوقع أن السيد كورياندر سيندفع إليه وعلى وجهه حمرة الغضب ويصرخ فيه قائلاً : « لص ! مجرم ! » أو أى شىء من هذا القبيل . بدلاً من ذلك أشعل الرجل العجوز غليونه المنحنى متباطئاً بينما هو يتفحص الصبى بعينين نصف مغمضتين من خلال نظارته الصغيرة المضحكة . وعندما اشتعل الغليون أخيراً ، نفث الدخان برهة بنشاط ، ثم دمدم قائلاً :

ــ « نعم ؟ ماذا هناك ؟ ماذا تريده هنا مرة أخرى ؟ »

وبدأ باستيان متلعثما : « أنا ــ سرقت من حضرتك كتاباً . وكنت أريد أن أعيده لكم ، ولكن هذا لا يمكن . لقد فقدته أو بالأحرى ــ الخلاصة أنه لم يعد موجوداً . » وكف السيد كورياندر عن نفث الدخان وأخذ الغليون من فمه .

وسأل : « أى كتاب ؟ »

ــ « لقد كان ذلك الذى كنتم تقرأون فيه حين ما كنت فيه هنا المرة الأخيرة . لقد أخذته معى . وحضرتك ذهبت إلى الخلف للتحدث تليفونياً ، وكان موضوعاً هنا على المقعد ، وأنا أخذته معى ببساطة . »

وقال السيد كورياندر وهو يتنحنح : « يا سلام . ولكن لا ينقص كتاب عندى . أى كتاب كان هذا الذى تزعمه ؟ »

فقال باستيان شارحاً : « إنه يسمى قِصّة بلا نهايَة . من الخارج مصنوع من الحرير بلون النحاس وهو يلمع عندما يحركه الإنسان إلى هنا وهناك . وعليه ثعبانان ، واحد فاتح وواحد داكن اللون ، وهما يعضان ذنب بعضهما . ومن الداخل مطبوع بلونين ــ ومزود بحروف بدء كبيرة جداً وجميلة . »

وقال السيد كورياندر : « شيء غريب جداً . إننى لم أر كتاباً مثل هذا . وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون قد سرقته منى أيضاً . ربما سرقته من مكان آخر . »

فقال باستيان مؤكداً : « بالتأكيد لا ! لابد أن تتذكرون . إنه ــ » وتردد ولكنه نطقها بعد ذلك : « إنه كتاب سحرى . لقد أتيت إلى داخل قِصّة بلا نهاية أثناء القراءة ، ولكننى عندما خرجت منها بعد ذلك مرة أخرى ، كان الكتاب قد اختفى . » وراقب السيد كورياندر باستيان من فوق نظارته .

ــ « ألا تسخر منى يا تُرى ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب باستيان فيما يقرب الذهول : « لا ، بالتأكيد التام لا . إن ما أقوله حقيقى . لابد أنكم تعرفون ذلك ! »

وفكر السيد كورياندر برهة . ثم هز رأسه وقال :

ــ « يجب أن تحكى لى كل شيء بدقة أكثر . اجلس يا بنى ، تفضل اجلس ! » وأشار بمقبض غليونه على مقعد ثان كان فى مواجهة مقعده . وجلس باستيان .

وقال السيد كورياندر : « حسن ، والآن احك لى ماذا يعنى كل ذلك . ولكن على مهل وبالترتيب ، إذا جازلى أن أرجو هذا . »

وبدأ باستيان يحكى .

ولم يفعل ذلك بالتفصيل كما فعل مع الوالد ، ولكن لأن السيد كورياندر أظهر اهتماما متزايدا على الدوام ، وكان يريد دائما المعرفة بأكثر دقة ، فقد استغرق الأمر

أكثر من ساعتين ، إلى أن انتهى باستيان منها .

ومما يدعو للغرابة أنه لم يقاطعها عميل واحد أثناء الوقت كله ، من يدرى لماذا .

وعندما أنهى باستيان حكايته ، نفث السيد كورياندر الدخان أمامه لوقت طويل . وبدا أنه كان غارقا بعمق فى التفكير . وأخيرا تنحنح مرة أخرى ، وعدل من وضع نظارته الصغيرة ، ونظر برهة إلى باستيان متفحصا ، ثم قال :

ـ « هناك شىء مؤكد : أنك لم تسرق هذا الكتاب ، لأنه لا يخصنى ولا يخصك ولا أى شخص آخر . وإذا لم أكن مخطئا فهو نفسه ينبع من فانتازين . من يدرى ، ربما يحمله فى هذه اللحظة بالضبط شخص آخر فى يده ويقرأ فيه » .

فسأل باستيان : « إذن حضرتك تصدقنى ؟ » .

فأجاب السيد كورياندر : « طبعا ، كل إنسان عاقل كان سيفعل هذا » .

فقال باستيان : « بأمانة ، أنا لم أتوقع هذا » .

فقال السيد كورياندر : « هناك بشر لا يستطيعون أبدا المجىء إلى فانتازين . وهناك بشر يستطيعون ، ولكنهم يبقون هناك إلى الأبد . ثم هناك البعض الذين يذهبون إلى فانتازين ويرجعون ثانية . مثلك . وهؤلاء يُصلحون كلا العالمين » .

فقال باستيان وقد احمر وجهه قليلا : « آخ ، فى الحقيقة ليس لى ذنب فى ذلك . إننى كدت ألا أعود . وإذا لم يكن أتريو ، لكنت الآن بالتأكيد قابعا إلى الأبد فى مدينة القياصرة القديمة » .

وهز السيد كورياندر رأسه ونفث الدخان أمامه فى تفكير .

ودمدم قائلا : « أجل عندك حظ أن لك صديق فى فانتازين . ويعلم الله ، أن ليس كل فرد لديه هذا » .

فسأل باستيان : « سيد كورياندر ، من أين لكم معرفة كل هذا ؟ ـ أقصد ـ هل كنتم أيضا مرة فى فانتازين ؟ » .

فقال السيد كورياندر : « بالطبع » .

فقال باستيان : « لكن إذن ، إذن لابد وأنكم تعرفون طفلة الأقمار ! » .

فقال السيد كورياندر : « نعم ، أعرف الإمبراطورة الطفولية . ولكن ليس بهذا الاسم . لقد سميتها شيئا آخر . ولكن ليس لهذا أهمية » .

فصاح باستيان : « إذن لابد وأنكم تعرفون الكتاب أيضا . إذن لقد قرأتم قِصّة بلا نهايَة ؟ » السيد كورياندر هز رأسه بالنفى .

ــ « إن كل قصة واقعية ، قِصّة بلا نهايَة » .

وجال ببصره إلى الكتب الكثيرة الموجودة على الجدران إلى أعلى حتى تحت السقف ، ثم أشار عليها بمقبض غليونه واستطرد يقول :

« توجد كمية كبيرة من الأبواب المؤدية إلى فانتازين يا بنى . وأكثر من هذه توجد مثل هذه الكتب السحرية . وكثير من الناس لا يلاحظون من ذلك شيئا . فالأمر يتوقف على من يتلقى مثل هذا الكتاب بين يديه » .

ــ « إذن قِصّة بلا نهايَة تختلف بالنسبة لكل شخص ؟ »

ورد السيد كورياندر قائلاً : « هذا ما أريد أن أقوله . وخلاف ذلك لا توجد كتب فقط ، بل هناك إمكانيات أخرى للعودة مرة أخرى إلى فانتازين . وسوف تلاحظ ذلك . »

فسأل باستيان وملؤه الأمل : « أتعتقد ذلك ؟ ولكن لابد إذن أن ألتقى بطفلة الأقمار مرة أخرى ، وكل شخص لا يقابلها إلاّ مرة واحدة فقط . »

وانحنى السيد كورياندر إلى الأمام وأخفض من صوته .

ــ « دع عجوزا خبيراً رحالة إلى فانتازين يقول لك شيئاً ، يا بنى . إنه سر لا يستطيع أحد فى فانتازين معرفته . وإذا ما تفكرت فسوف تفهم أيضاً لِمَ هو هكذا . أنت لا تستطيع أن تأتى إلى طفلة الأقمار مرة ثانية ، هذا صحيح ــ طالما هى طفلة الأقمار . ولكن إذا ما استطعت منحها اسماً جديداً ، فسوف تراها مرة ثانية

ومهما كثر تـوفيقك فى ذلـك ، فسوف تكـون كل مـرة هى المرة الأولى والـوحيدة باستمرار . »

وكان على وجه السيد كورياندر الذى يشبه وجه كلب البولدوج للحظة من الزمن بريق ناعم جعله يبدو شاباً ، ويكاد يكون جميلاً .

وقال باستيان : « شكراً ، يا سيد كورياندر ! »

فرد السيد كورياندر : يجب علىّ أنا أن أقدم شكرى يا بنى . ولسوف أعتبر هذا أمراً لطيفاً ، إذا زرتنى هنا بين الحين والآخر ، لكى نتبادل خبراتنا . فلا يوجد أناس كثيرون جداً يمكن التحدث معهم عن مثل هذه الأمور . »

ومد يده إلى باستيان وقال : « اتفقنا ؟ »

فقال باستيان ومد يده بالمصافحة : « بسرور . يجب أن أذهب الآن . أبى ينتظرنى . ولكننى سأعود قريباً . »

ورافقه السيد كورياندر إلى الباب . وعندما اتجها ناحيته رأى باستيان من خلال الكتابة المعكوسة على اللوح الزجاجى أن الأب يقف على الجانب الآخر من الشارع وينتظره . وكان وجهه اشعاعاً واحداً بالسعادة .

وفتح باستيان الباب بشدة لدرجة أن عنقود الأجراس النحاسية الصغيرة أخذ يرن ، وجرى إلى هذا الإشعاع بالسعادة .

وأغلق السيد كورياندر الباب برفق وتابع الاثنين بنظره .

وهمهم قائلاً : « باستيان بلتازار بوكس ، إذا لم أكن مخطئاً ، فإنك سوف تبّين الطريق إلى فانتازين لأحدهم لكى يحضر لنا ماء الحياة . »

ولم يكن السيد كورياندر مخطئاً .

ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

*****

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٧٠٩

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٩٠٧ - ٥

تُرجمت هذه الرواية إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية منها : الدانمركية والانجليزية والفلندية والفرنسية والهولندية والإيطالية واليابانية والبولندية والروسية والسويدية والاسبانية والتشيكية والنرويجية والاوكرانية والسلوفينية والتركية والمجرية والرومانية . وقد حصل ميشائيل انده إلى جانب الجوائز الأخرى على أعماله ، حصل على عدة جوائز أدبية عن هذه الرواية « قصة بلا نهاية » . وهى تعد أكثر الكتب مبيعا ، حيث بيع منها حتى الآن ما يزيد عن المليون ونصف نسخة . وقد أنتجت هذه الرواية إلى فيلم سينمائى ضخم تكلف ستين مليون مارك ألمانى وبذلك يكون أضخم إنتاج سينمائى ألمانى على الاطلاق ، ومن أكبر الأفلام التى أنتجتها السينما العالمية ، وكتبت عنه الصحف والمجلات العالمية ، بل والصادرة فى البلاد العربية أيضا .



٨٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب